عبد الرحمن بن محمد الجيلالي



تاريخ الجزائر العام

يشتمل على بيان واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع اطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والادبية والفنية والاقتصادية والعمرانية والصناعية مع تراجم العبقريين وارباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ أقدم العصور الى الآن .

الجزء الاول

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندي من أخبارهم طرف

المعري

مكتبة الشركة الجزائرية ـ الجزائر
مرازقة وبوداود وشركاهما
منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت

طبعة ثانية جديدة
منقحة ومزيدة

١٣٨٤ هـ . ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك
اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد
كما جعلتها على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد

تاريخ الجزائر العام

تقديم

رب أعني ...

أما بعد فباسم الحرية المقدس أتقدم ملبياً اخواني حفظهم الله تعالى الذين هم كثيراً ما اسمعوني الحاحهم المؤكد في وضع كتاب موضح لتاريخ الوطن الجزائري الكريم جامع للحقائق التاريخية مجردة آتٍ بذكر تفاصيل الوقائع معللة باسبابها ونتائجها منذ اقدم العصور الى الآن ... مع اشتراطهم عليّ بأن يكون ذلك في اسلوب سهل وتعبير حر ونظام عصري وطريقة واضحة ! ... ولعمري ان البعض من هذا في موضوع واسع كهذا لينوء بالعصبة اولى القوة فكيف بهذا العاجز الضعيف ! ... فاعتذرت للرفقة الكرام بشتى المعاذير فلم يقبلوا ، وشرحت لهم ضعفي وقصوري امام كل هذه القيود والظروف الضيقة فلم ينصفوا ، بل انهم ثبتوا مصممين على رأيهم راسخين فيه رسوخاً لا يغيره تنقل الزمان وتلونه ، ولا علل الدهر وحوادثه ... بل ما زادهم ذلك الا صلابة في التمسك برأيهم وحدة فيه ، ولسانهم الناطق يقول : لا ملجأ ولا منجى لك منه ولا سبيل الا اليه . فلله الامر من قبل ومن بعد ! ... واخيراً رضخت لطلبهم واسعفتهم في اقتراحهم « مكره اخاك لا بطل » بوضع هذا السفر المتواضع ، مقتصراً فيه على ذكر الاهم فالاهم من حوادث التاريخ الجزائري الماجد ، محكماً فيه الروح العلمية والامانة التاريخية المحضة ،

متجرداً ما استطعت من كل تحمس او انفعال كيفما كان نوعه او تعدد مثاره . جامعاً فيه ما لا يسع الانسان جهله . ولا يحسن – بالجزائري على الاخص – اغفاله ، مكتفياً في بعض المواضع بالاشارة الخاطفة الى ابرز الوقائع واهمها وذلك لضيق المجال عن التفصيل او لقلة فائدته ؛ مع الالماع الى سير العمران والحضارة الجزائرية وسيرة مشاهير الوطنيين من عباقرة الجزائر في مختلف العصور والاحقاب .

اذ دراسة التاريخ تعتبر اعظم درس ممتع لتتبع احوال الماضي في خدمة المستقبل ، فهي تعطينا امثلة واقعية تطبيقية عن سير جميع شخصيات الماضي ، وحتى الاخطاء التي ارتكبها الاشرار من الاسلاف تعطينا هي كذلك دروساً نفيسة عميقة البحث تبعث فينا داعي العبرة فنتجنب الوقوع في مثل تلك الاخطاء حاضراً ومستقبلاً ، والتاريخ يعيد نفسه كما قيل .

وقد مضى ولله الحمد الزمن الذي كان فيه الملوك والافراد يملكون زمام الشعوب ويفرضون سيطرتهم عليها كيفما شاءوا وشاءت لهم اهواؤهم واصبحنا بفضل الله علينا في زمن اضحت فيه السلطة بيد الشعوب فهي وحدها التي تحكم نفسها بنفسها وتقرر مصيرها ، كما ان التاريخ وحده هو الذي يعطينا فكرة واضحة جلية عن سير المدنية والثقافة التي مر بها هذا الوطن خلال العصور ، فهو نعم الاستاذ في تنمية الافكار وتوسيعها ، وحبذا الملقن والواعظ لبث الاخلاق الفاضلة ونشرها بين الناس وتثبيتها :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ونزهته جهد المستطاع عن كل تعقيد وابهام ، سالكاً فيه مسلكاً سهلاً بسيطاً لا يحتاج فيه المتعلم الناشىء ولا القارىء العادي الى كدح ذهن ولا جهد فكر ولا اعنات روية . ولا ادعي الفضل في ذلك ، حيث انني لم اجىء فيه بشيء جديد او مبتكر حديث وانما هو جمع وتدوين لما كنت سطرته لنفسي وجمعته من تاريخ وطني العزيز المشتت هنا وهناك ! ... مع تنسيق نصوصه الوثيقة ووضعها حسب نظامها الطبيعي من فجر التاريخ الى الآن . وتعمدت الايجاز في القسم الاول الخاص

بما قبل الاسلام لعدم تعلق الغرض الشديد به اليوم ، واسهبت مشبعاً البحث في العصور الاسلامية اسهاباً يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلاده وتمجيد تاريخه اللامع العظيم والثقة بمستقبله الزاهر النير ، مع نفخ روح القومية فيه ، واعداده لوصل حاضره بماضيه ، حتى تتكامل فيه اركان الحياة الاربعة : المحافظة على شخصيته وميزته ، وتقديس اسلافه الامجاد ، والتمسك بدينه ، والعمل على الاشادة بوطنه ...

واعتقد انني بذلك خلصت تاريخنا الماجد من ان يبقى مكتوباً عرضاً ضمن تاريخ الامم والشعوب والاقطار المستعمرة ، او ان يكون كفصل ملحق بكتاب مبعثر مشوه العرض ، ارجو ذلك ان شاءالله .

وليس لأحد بعد الله عز وجل علي في ذلك فضل او منة الا ما انا مدين به للكتب ومؤلفيها الاعلام وهم الذين ذكرتهم منوهاً باسمائهم في صدر هذا الكتاب وهوامشه ، او ما انا مقر به لربة البيت والعفاف الجليلة الكريمة قرينتي وشريكة حياتي ورفيقتي في السير بهذا العمل المتواضع المنعمة المبرورة : ام غالب « ميمي خداوج » – سقى الله ضريحها – من المؤازرة العظيمة فيما كانت تمدني به من تحقيقات تاريخية وبحوث نفيسة تستخلصها من مطالعاتها المستمرة وقراءاتها المتتابعة لكتب الافرنج الباحثين في موضوع تاريخ الجزائر ، فكانت رحمها الله تلخصها وتترجمها الى العربية طيلة ايام اعدادنا لهذا التأليف وجمع شتاته من اوله الى آخره .

فكانت وهي بمشاركتها هذه مبتهجة مسرورة من غير ان تبالي بما تتجشمه من اتعاب ومشاق بالاضافة الى نشاطها الدائم المستمر في القيام بما يتطلبه البيت من الواجبات الضرورية والمصالح الكمالية ايضاً ، فكان من الواجب المحتم عليّ نحوها – وقد اصطفاها الله اليوم لجواره واختار لها ما عنده – ان انوه باسمها شاكراً لمساعيها الجليلة ، وممجداً لمآثرها الحميدة .

وما اغفلت ذلك – يعلم الله – في الطبعة الاولى لهذا الكتاب تهاوناً بشأنها او غمطاً لحقها الطبيعي او هاضماً لعملها الجبار وفضلها المتزايد في تكوين هذا الكتاب كلا والله ! ... وانما وقع ذلك منها عن تواضع

وخجل وتنازل عن حقها – اكرم الله مثواها – فتراني انا مرغماً على مواطأتها على ذلك ! ...

واليوم !! ... اليوم وقد ودعتنا الى دار البقاء منصرفة الى جوار ربها [1] وجب علي اظهار ما كان لهذه السيدة المغفور لها من المشاركة الفعالة في اقامة صرح القومية الجزائرية بتغذية (هذا التاريخ) بما زودتنا به من العلم وبما كانت تبذل في اخراجه من جهد وتضحية بالغة – طيب الله ثراها – ؛ وكل ذلك كان منها ابتغاء مرضاة الله وخدمة للعلم والعروبة والاسلام .

وها انا اثبت اسمها الكريم هنا – تغمدها الله برحمته – أداء لأمانة التاريخ ، وقياماً بحرمة الصنعة ، وتخليداً وتسجيلاً لذكراها الطيبة العبقة واعترافاً بالجميل عن غير محاباة ولا تزكية .

برد الله ضريحك يا ام غالب واسكنك فسيح جنته ، فانك والله وان كنت غائبة عن عيني – وفي عالم الخلود فلا تزالي ماثلة في صدري ، مصورة في فكري ، وممثلة لناظري ، فلا اسلو عنك ولا انساك بصالح الدعاء ابداً ، واني استغفر لك ما دمت حياً الى ان التحق بك !! ... ثم يستغفر لنا ويدعو لنا من بقي بعدنا ، ان الله واسع المغفرة .

وها نحن اليوم بفضل الله وحسن عونه نقدم لهواة التاريخ ورواد العلم والمعرفة هذه الطبعة الموسعة الجديدة من كتابنا هذا – تاريخ الجزائر العام – مختالة في بردها القشيب كاملة غير منقوصة ، بل مزيدة غير معقوصة ، متمشياً فيها على نسق ما عهده القراء مني في النشرة الاولى لهذا الكتاب من وضوح في التعبير ، وسهولة في الاسلوب ، واطراد في الفصول ، وانتظام في العرض ، واستيعاب في الجمع ، واحكام في

---

(١) اختلجتها المنون فجأة اثر استحمام بيتها عشية يوم الاثنين ١١ شوال ١٣٨٣ هـ = ٢٤ فيفري ١٩٦٤ ، ورمسها رحمها الله بتربة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الصوفي الازهري – بضاحية الحامة – الجزائر .

الوضع ، وصراحة في الحكم ، متحاشياً كل انحيـــاز او امتياز مستمداً العون والتوفيق من الباري عز وجل انه هو العليم الخبير ذو القوة المتين . محتسباً فيما تكبدته في تحريره من المشاق ، وما اضعت في جمع حقائقه وتأليفه من واجبات للنفس والاهل والاعلاق ! ...

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

شاكراً للسادة المقترحين حسن ظنهم وثقتهم بي راجياً من الباري عز وجل ان يحقق آمالهم وظنهم في هذا الكتاب ويفيض عليه من رضاه ، انه على ما يشاء قدير نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

تحريراً في الجزائر ١٥ شعبان ١٣٨٣ هـ
ربض العين الزرقاء فاتح جانفي يناير ١٩٦٤ م

رفع الكتاب

باسمك اللهم اتشرف برفع كتابي هذا واهدائه الى مقام رفعة حامل قبس الهداية الاسلامية الى هذه الديار، ومنقذها من وصمة الكفر والعار، والمعلي فيها كلمة الله، والمجاهد في سبيل الله، الى فاتح افريقية، وقاهر القوات الرومانية، وكاسر عادية البيزنطية، الى مزلزل اقدام القياصرة، وهازم جحافل جيوش الاباطرة وملوك البرابرة، الى روح ذلك البطل الخالد والامير الفاتح العظيم، مفخرة الجزائر، ودرة تاج تاريخ مجدها في الحاضر والغابر، سيد الشهداء :

« عقبة بن نافع الفهرى »

رضى الله تعالى عنه

الى هذه الشخصية التاريخية العظيمة، والى تلك الارواح الجريئة الجبارة : ارواح اولئك الشهداء الفاتحين ابطال التاريخ الجزائري الماجد، اقدم هذا السفر المتواضع من « **تاريخ الجزائر العام** » قاصداً بذلك لفت نظر شباب الجزائر الناهض وتوجيهه الى دراسة تاريخه الحافل الجزل لينشأ على تقدير أعمال اسلافه، والتأسي بعظمائه الكرام. وان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد.

المؤلف

أهم مصادر الكتاب ومراجعه

اتحاف ملوك الزمان (معرب)	خليفة محمود	طبع بولاق	١٢٦٢
اخبار ملوك بني عبيد	محمد بن حماد	طبع الجزائر	١٣٤٦
الازهار الرياضية	سليمان الباروني	طبع مصر بدون تاريخ	
الاستقصـــاء	احمد الناصري	طبع مصر	١٣١٢
الاسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي	طبع مصر ١٩٣٤ — ١٩٣٦	
اعلام الاعلام	لسان الدين بن الخطيب	مخطوط	
افريقيا الشمالية ...	م. م. المشرقي	طبع رباط	١٩٥٠
الانيس المطرب	ابن ابي زرع	طبع اوبسالا النرويج	١٨٦٦
بغيـــة الرواد	يحي بن خلدون	طبع الجزائر	١٣٢٢
البيـــان المغرب	ابن عذارى	طبع ليدن	١٨٨١
البستـــان	ابن ابو مريم	طبع الجزائر	١٩٠٨
تاريخ الاستعمارين	امين سعيد	طبع مصر	١٩٣٦
تاريخ افريقية والمغرب قبل الاسلام	? ...	طبع باريس	١٢٨٠
تاريخ بلد قسنطينة	احمد ابن العطار	مخطوط	
تاريخ الجزائر	محمد مبارك الميلي	طبع قسنطينة	١٣٥٠
تاريخ الدولتين	محمد الزركشي	طبع تونس	١٢٨٩
تاريخ الدولة العثمانية	محمد فريد	طبع مصر	١٨٩٦
تاريخ اللغات السامية	اسرائيل ولفنسون	طبع مصر	١٩٢٩
تحفة الزائر	محمد ابن الامير عبد القادر	طبع الاسكندرية	١٩٠٣
تعريف الخلف برجال السلف	ابو القاسم الحفناوي	طبع الجزائر	١٩٠٦
تعاليق الامير شكيب ارسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامي		طبع مصر	١٣٥٢

حمـــايد	ابن رجب جاويش التركي	مخطوط	
التكملة لكتاب الصلة	ابن الابار	طبع مجريط	١٨٨٦
التهذيب في اصول التعريب	الدكتور احمد بك عيسى	طبع مصر	١٣٤٢
حياة لاموريسير (معرب)	سليم خطار الدحداح	طبع جونية	١٨٩٦
خلاصة تاريخ الحرب	محمد وهبي	طبع تيطوان	١٩٤٤
خلاصة تاريخ العرب (معرب)	سيديو	طبع مصر	١٣٠٩
خلاصة تاريخ تونس	ح . ح . عبد الوهاب	طبع تونس	١٣٤٤
الديباج المذهب	ابن فرحون	طبع القاهرة	١٣٣٩
الذخيرة السنية	نشر م . ابن ابي شنب	طبع الجزائر	١٩٢٠
ذكرى العاقل	الامير عبد القادر	طبع ؟	؟
الرحلة القمرية	ابن زرقة	مخطوط	
رقم الحلل	لسان الدين ابن الخطيب	طبع تونس	١٣١٦
الزهرة النائرة	محمد التلمساني	مخطوط	
شرح عبد الرحمن الجامعي على ارجوزة الحلفاوي في تاريخ فتح وهران		مخطوط	
الشرق الاسلامي	حسين مؤنس	طبع مصر	١٩٣٨
صفوة الاعتبار	محمد بيرم الخامس	طبع مصر	١٣٠٢
الضوء اللامع	شمس الدين السخاوي	طبع مصر	١٣٥٣
العبر ...	عبد الرحمن بن خلدون	طبع بولاق	١٢٨٤
عجائب الاسفار	محمد بوراس	مخطوط	
علم التاريخ (معرب)	عبد الحميد العبادي	طبع مصر	١٩٣٧
عنوان الدراية	احمد الغبريني	طبع الجزائر	١٩١٠
غزوات عروج	نشر عبد القادر نور الدين	طبع مصر	١٩٣٤
فتح العرب للمغرب	حسين مؤنس	طبع القاهرة	١٩٤٧
فتوح افريقية	ابن عبد الحكم	طبع الجزائر	١٩٤٢
قرطاجنة في اربعة عصور	احمد توفيق المدني	طبع تونس	١٩٢٥
القصص المعرب	محمد بوراس	مخطوط	
الكامل	عز الدين ابن الاثير	طبع مصر	١٣٠٣
كتاب الجزائر	احمد توفيق المدني	طبع الجزائر	١٣٥٠
كشف البضائع	محمد العنابي	مخطوط	
المؤنس	ابن ابي دينار	طبع تونس	١٣٥٠
محمد عثمان باشا	احمد توفيق المدني	طبع الجزائر	١٩٥٦

المسالك والممالك	عبد الله البكري	طبع الجزائر	١٩١١
المعجـــب	عبد الواحد المراكشي	طبع ليدن	١٨٨١
معجم الادباء	ياقوت الحموي	طبع مصر	١٣٥٧
معجم البلدان	ياقوت الحموي	طبع ليبسيك	١٨٦٦
المغرب الجاهلي	التهامي الوزاني	طبع تيطون	١٣٦٦
موجز التاريخ العام للجزائر	عثمان الكعاك	طبع تونس	١٣٤٤
نزهة المشتاق	الشريف الادريسي	طبع ليدن	١٨٦٤
نيل الابتهاج ...	احمد بابا التنبكتي	طبع القاهرة	١٣٢٩
وفيـــات الاعيان	ابن خلكان	طبع بولاق	١٢٩٩

Les origines Berbères — Louis Rinn — Alger, 1889.

Histoires d'Algérie — S. Gsell, Marçais, G. Yver — Paris, 1929.

Histoire de l'Algérie — E. Cat — Paris, 1929.

La question Algérienne — N. d'Orient, M. Lœw — Paris, 1936.

Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger — Joachim de Gonzalez — Alger, 1886.

Domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger — M. Walsin Esterhasy — paris, 1840.

Les civilisations de l'Afrique du Nord — V. Piquet — Paris, 1917.

Histoire de l'Algérie — G. Esquer — Paris, 1950.

Histoire d'Alger — De Grammont — Paris, 1887.

Histoire de Constantine sous les Beys — E. Vayssettes — Constantine, 1869.

Histoire de l'Afrique du Nord — ch. André Julien — Paris, 1931.

طائفة من آراء مشاهير علماء الشرق والغرب في التاريخ

أهمية التاريخ في نظر العلماء والفلاسفة

علماء العرب :

التاريخ للزمان مرآة ، وتراجم العلماء للمشاركة والمشاهدة مرقاة ، وأخبار الماضين لمن عانته الهموم ملهاة ، وقد أفاد التاريخ حزماً وعزماً ، وموعظة وعلماً ، وهمة تذهب هماً ، وبياناً يزيل وهناً ووهماً ، وصبراً يبعث التأسي بمن مضى ، واحتشاماً يوجب الرضى بما خفي وجلا من القضاء . « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب » .

الصلاح الصفدي

لم استعن على دفع كذب الكذابين بشيء مثل التاريخ .

حسان بن يزيد

اذكر من مضى واعتبر بمن خلا ، تزل غرتك . وتزد بصيرتك .

ابو منصور الثعالبي

الجاهل بالتاريخ راكب عمياء ، وخابط خبط عشواء ، ينسب الى من تقدم اخبار من تأخر ، ويعكس ذلك ولا يتدبر .

احمد بابا التنبكتي

لا حياة لامة إلا بإحياء ماضيها .

الدكتور حسين هيكل

لا مراء في ان التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية حتى ليصح القول بأن الوطن هو تاريخ الوطن .

عبد الرحمن صدقي

جاء في الحكمة اليونانية ان في تعليم التاريخ تعليم للفلسفة بالامثلة .

.....

انه لا يتصور على وجه الكرة وجود امة تشعر بذاتها ، وتعرف نفسها قائمة بنفسها إلا اذا كانت حافظة لتاريخها ، واعية لماضيها ، متذكرة لاولياتها ومبادئها ، مقيدة لوقائعها ، مسلسلة لانسابها ، خازنة لآدابها بما لا يقوم به إلا علم التاريخ الذي هو الوصل بين الماضي والمستقبل ، والرابط بين الآنف والمستأنف .

الامير شكيب ارسلان

ان قلم تواريخ العالم ووقائعه هو قلم المعاد الروحاني فانه يحضر ما مضى من العالم وحوادثه ويعيده لك في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك .

ابن القيم الجوزية

واخدع الاحياء ما شئت فلن   تجد التـــاريخ في المنخدعين

أحمد شوقي

التاريخ من أعظم العلوم أدباً ، وأعذبها منبعاً ، وأهناها مشرباً ، وأنورها مطلعاً ، وأحلاها في القلوب موقعاً ، لم تزل محاسنه تروق ، وفوائده تفوق ، وفرائده تشوق ، به تعرف أخبار من سلف من العرب والعجم ، وأحاديث ذوي المراتب والهمم ، وتستفاد منه محاسن الاعيان ، وتفهم مواقف الشجعان ، ومقاتل الفرسان ، وأوقات مواليدهم ، ومدد أعمالهم ، ومواضع منازلهم ، ومعاهد ديارهم ، وسيرة الكرماء في كل وقت ، ومن اختص بفيض هباته بالهيبة وغيره بالمقت ، وكل عالم وعمن أخذ فنون علمه ، وكل أديب ومحاسن نثره وبديع نظمه ، والنظر في السنة الشريفة وأسماء رجالها ، ومراتب رواتها ، وطبقات فرسان مجالها ، حتى كأن الواقف عليه قد أدرك كلًا منهم في عصره ومصره ، ونظره في ساحة ميدانه ومشيد قصره ؛ ورأى الآية وأصبح للعلوم من أفواههم متلقياً ، وعلم

من كان بجده وهزله الى ورود العلياء مرتقياً ، أو كأنه قد شاهد كسرى في ايوانه ، وهو يقص الرؤيا على موبذانه ، وعاصر سيف بن ذي يزن في اوانه ، وجالس ابن أبي الصلت ينشده على قصر غمدانه ، وفي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الامم السابقة ، وأنباء القرون الخالية ، ما فيه عبرة لذوي البصائر ، واستعداد ليوم تبلى فيه السرائر ، وقد اختار الله لنا ان نكون آخر الامم ، واطلعنا على أخبار من تقدم ، لنتعظ بما جرى على القرون الخالية ، وتعيها اذن واعية .

ابن شاكر الكتبي

لا تستطيع الامم ان تنهض نهضة صحيحة إلا اذا فهمت ماضيها أحسن فهم واتخذت منه في حاضرها قنطرة الى المستقبل .

من تقرير اللجنة الثقافية للجامعة العربية

ان الامة التي يستهين أبناؤها بماضيها ، ويزهدون في أخبارها ، لا يؤمن حاضرها من استخفافهم ، ولا تصان كرامتها من استهتارهم ، كما لا تسلم نفوسهم من الهوان ، اذ لا مناعة لعصبيتهم القومية ، ولا عصمة لعزتهم الوطنية ، ان حياة الامة هي سلسلة متصلة ووحدة لا تتجزأ ، فمن لا يعتز بماضيها ، لا يصلح ان يرعى زمام حاضرها .

من كلمة الامير **جعفر الحسني**
مندوب سورية في مؤتمر الآثار في البلاد العربية

ان من لا ماضي له لا حاضر له ، ومن لا حاضر له لا مستقبل له .

من خطاب **احمد فخري**
مندوب اليمن في مؤتمر الآثار في البلاد العربية

ان للتاريخ أثراً كبيراً في الثقافة العامة ، فهو سجل الايام من سياسة وعمران وفن وأدب .

مجلة الهلال (دسمبر ١٩٣٠)

عليكم بمطالعة التواريخ فانها تلقح عقلاً جديداً .

من وصية **ابي حيان لاولاده**

علم الملوك النسب والخبر ، ودرس كتب الحروب والسير .

حكمة عربية

التاريخ أعمار لا يدركها الفناء ! ...

.....

التاريخ معاد معنوي يعيد الاعصار وقد سلفت ، وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت ، وبه يستفيد عقول التجارب من كان غراً ، ويلقي من قبله من الامم وهلم جراً ، فهم لديه أحياء وقد تضمنتهم بطون القبور ، وعنه غيب وقد جعلتهم الاخبار في عداد الحضور . ولولا التاريخ لجهلت الانساب ، ونسيت الاحساب ، ولم يعلم الانسان ان أصله من تراب ، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها ، وعمي على الاواخر حال قدمائها ، ولم يحط علماً بما تداولته الارض من حوادث سمائها ولمكان العناية به لم يخل من كتاب من كتب الله المنزلة ، فمنها ما أتى بأخباره المجملة ، ومنها ما أتى بأخباره المفصلة ، وقد ورد في التوراة مفرداً في سفر من أسفارها وتضمن تفصيل أحوال الامم السالفة ومدد أعمارها . وقد كانت العرب على جهلها بالقلم وخطه ، والكتاب وضبطه ، تصرف الى التاريخ جل دواعيها ، وتجعل لها أول حظ من مساعيها ، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها ، وتعتاض برقم صدورها ، عن رقم سطورها ، كل ذلك عناية منها بأخبار أوائلها ، وايام فضائلها . وهل الانسان إلا ما أسسه ذكره وبناه ؟ ! ... وهل البقاء لصورة لحمه ودمه لولا بقاء معناه ؟ ! ...

عز الدين ابن الاثير

علماء الغرب :

اذا تأملنا قصر حياة الانسان ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع في زمننا ، فلا شك اننا نشعر بأننا كنا نبقى اطفالاً في ادراكنا لو لم يقيض لنا هذا الاختراع الذي يرجع بخبرتنا الى جميع العصور الماضية ، والى اقدم الامم الخالية ، ويجعلها تمدنا باسباب التقدم في الحكمة كما لو كانت تحت نظرنا واسماعنا . ان الرجل المطلع على التاريخ ليمكن ان يقال عنه

من بعض الوجوه انه يعيش منذ بداية العالم وانه دائم الاستمداد من كل مملكة يمر بها مدداً يضيفه الى المدخر المخزون من معارفه .

دافيد هيوم
فيلسوف ومؤرخ واقتصادي ابريطاني

... وان امة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائحها لتورثها لخلفها لآيلة حتماً الى احط انواع الهمجية مهما كانت درجتها في الحضارة والعمران .

الدكتور ولفنسن
أستاذ اللغات السامية بجامعة مصر

... وما التاريخ قديمه وحديثه الا بمثابة نظارات ينظر بواسطتها الى النفس البشرية والى العقل البشري تتبعاً لخطواتها في مضمار الحياة ... وان المؤرخ هو الذي يلمس بيدي عقله قروح الانسانية ويعرف مواطن علاتها ، لانه يقرأ في كتاب الحياة فصولاً متنوعة تشمل جميع اطوارها وادوارها : وهو نفسه صحافي الازمنة الغابرة ، ومعلم الازمنة الحاضرة .

وليم كاتسفليس

التاريخ مشكاة الحقيقة ، وشاهد الماضي ، ورائد المستقبل .

سيسرون
خطيب سياسي روماني

ان دارسة التاريخ تنشط الفكر وتفتقه وتساعد بطرق شتى .

الاستاذ اللي

لقد بان لي ان دراسة التاريخ دون سواها اصلح الدراسات لتعويد الانسان الفضائل الخاصة والعامة .

الفيوكونت بولنجبرك
سياسي وفيلسوف انكليزي

ان التاريخ حري بان يكسبنا تصوراً صحيحاً لما هو عارض موقوت ، بالقياس الى ما هو ابدي باق في حياة الانسان .

الرئيس كيرك
استاذ الفلسفة الاخلاقية بجامعة جلاسكو

من المحقق ان العلم بالتاريخ من حيث هو جمع الحوادث وملاكها

لا يستغني عنه من يريد تكوين تصور كامل متزن للعالم بوجه عام ، ان التاريخ هو وحده القادر على ان يضع ظواهر الحاضر في وضعها الصحيح ، والتاريخ هو وحده القادر على ان يجلو لعين الباحث ميدان الحياة كاملاً غير منقوص ، والتاريخ هو وحده القادر على ان يمكن الظاعن الذي يقضي يوم راحته تحت خيمة هذا الوجود الخفية من ان يطلع على غرائب ما يحيط به من مظاهر الابدية .

هرتشو

استاذ التاريخ بجامعة لندن

ان التاريخ مدرسة السياسة ، وبدون مقدار يسير منه على اقل تقدير لا يمكن الانسان ان يعنى عناية معقولة بالشؤون السياسية ، وبدون حظ موفور منه لا يمكنه ان يصدر حكماً معقولاً في اي شأن من شؤونها ، ان التاريخ دراسة هامة لكل مدني ، بل هو الدراسة الهامة الوحيدة الخليقة برجال الحكم والتشريع .

جوهي سيلي

مؤرخ انكليزي

ان حوادث التاريخ هي مصدر الاستنباط والاستنتاج الذي يعتمد عليه العالم الاجتماعي .

اوغيوست كوميط

فيلسوف فرنسي

ان الشعب الذي يريد الرقي يجب عليه ان لا يقطع الصلة التي تربطه بماضيه ، اي يجب ان يحترم تقاليده ويراعيها .

الدكتور غوستاف لوبون

من رسالة له خاصة كاتب بها الاديب المصري توفيق يزدي

اذا اردنا ان ندرك معنى الامة الحقيقي ينبغي ان نمتد بها في الماضي وفي المستقبل معاً ، واشد الفريقين قوة هم الاموات لانهم هم الاكثرون عدداً وهم المؤثرون في عالم الحركات اللاتنبهية الذي يخضع لسلطانه العقل والاخلاق في جميع المظاهر . فالامة مسيرة بتأثير امواتها اكثر مما هي مسيرة بتأثير احيائها ، والاولون هم وحدهم الذين كونوها وهم الذين اوجدوا ما في الاحياء من الافكار والمشاعر قرناً بعد قرن ، واليهم ترجع اسباب

حركة اهل العصر ، لان هؤلاء لا يخضعون لمزاج اسلافهم المادي وحده بل هم متأثرون ايضاً بما كان لآبائهم من المشاعر والافكار . والحاصل ان الاحياء هم الاموات بلا جدال يشقون برذائلهم كما ينعمون بما كان لهم من الفضائل والمكرمات .

الدكتور غوستاف لوبون

من كتابه : سر تطور الامم

... فالامم نتيجة ماض طويل ومحصول ما خضعت له من البيئات المختلفة التأثير ، وبماضي الامم يفسر حاضرها .

الدكتور غوستاف لوبون

من كتابه : حضارة العرب

مَاهوالتّاريخ ؟..

التاريخ في اللغة بالهمز وبدونه والتوريخ كذلك بالواو معناه : الوقت ، وهو لفظ عربي صميم . اما ماهيته وتعريفه بالحد الاصطلاحي : فهو علم تعرف به احوال الماضين من الامم الخالية من حيث معيشتهم ، وسيرتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، ونظمهم ، وسياستهم ، واعتقادهم ، وآدابهم ، حتى يتم بذلك معرفة اسباب الرقي والانحطاط في كل امة وجيل . فهو يتطلب الاحاطة بتطور الانسان في المجتمع خلال جميع العصور وفي سائر البلاد . ومادته اي العناصر الوجودية الضرورية التي يتكون منها كثيرة متنوعة اهمها الآثار القديمة من الابنية والهياكل والاحجار المنقوشة والمسكوكات المضروبة والملابس والازياء والادوات المنزلية وغيرها من كل ما هو من نوعها مثل التقاليد والعادات والاخبار والحوادث المروية والدواوين المجموعة والوثائق الخطية وكل ما تناقله الخلف عن السلف مشافهة او مشاهدة مع حسن نظر وتثبت كما قال ابن خلدون : يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن الزلات والمغالط ، لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا لم يعرضوها

على اصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروا بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط .

وليس التاريخ ايضاً مجرد سرد حوادث الحروب ووقائع الامم ، او التعرض لذكر اخبار الملوك والوزراء والكبراء وتعداد الغرائب والعجائب مما يندهش له السوقة وأشباههم من الناس ، ولا هو كذلك بمحض سوق حكايات عن تقلبات الدهر وتطوراته التي تعتري كل احد في حياته العادية او ما يتبع ذلك عادة من التألم لفجائع الزمن وجرائم الحدثان ؛ كلا !.. فان هذا كله من شأن الاخبار والاخباريين وشتان ما بين الاخباري والمؤرخ ؛ فان المؤرخ يفيدنا بأحوال المجتمع الانساني الذي هو عمران العالم وبما يعرض لطبيعته من التقلبات مثل التوحش والتأنس والعصبيات واصناف تغلبات البشر بعضهم على بعض . وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ويصل لنا الحاضر بالماضي ، وكلما كانت صلة الحاضر بالماضي قوية ووثيقة كلما كان اساس مستقبل الوطن راسخاً وثابتاً . وما عدا الحقيقة علامتنا ابن خلدون حيث قال كلمته المختصرة الجامعة في الموضوع : هو تعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ؛ واما الاخباري فقاص .

العرب والتاريخ

انه مما كاد ان يتفق عليه العلماء قديماً وحديثاً امتياز الامة العربية واختصاصها بهذا العلم وانها مفطورة عليه مشغوفة به وانها جبلت على ذلك بحسب موقع بلادها الجغرافي ومواطنها التي نشأت فيها ، فلا يتوصل الى خبر من أخبار العجم أو العرب إلا بالعرب ومنهم ، وذلك على ما حكاه

أبو محمد بن الحائك الهمداني صاحب كتاب الاكليل : من ان كل من سكن بمكة من العماليق وجرهم وآل السميدع بن هونة وخزاعة ، أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الاعاجم من عهد أسعد الى كرب وبختنصر حووا علم الاعاجم وأخبارهم وايام حمير ومسيرها في البلاد ، وعنهم سار أكثر ما رواه عبيد بن شرية ومحمد بن السائب الكلبي والهيثم بن عدي . وكذلك من وقع بالشام من مشائخ غسان خبير بأخبار الروم وبني اسرائيل واليونان . ومن وقع بالبحرين من تنوخ واياد فعنه أتت أخبار طسم وجديس . ومن وقع من ولد نصر من الازد بعمان فعنه أتى كثير من أخبار السند والهند وشيء من أخبار فارس . ومن وقع بجبل طيء فعنه أتت أخبار اذينة والجرامقة . ومن سكن باليمن فانه علم أخبار الامم جميعاً لانه كان في دار مملكة حمير وفي ظل الملوك السيارة الى الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ولم يكن ملك منهم يعز إلا وعرف البلاد وأهلها . والعرب أصحاب حفظة ورواية لخفة الكلام ورقة ألسنتهم .

ماذا يشترط في المؤرخ ؟ ...

يحتاج صاحب فن التاريخ الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال . والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منه والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ومبادي ظهورها ، وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لاسباب كل حادث واقفاً على أصل كل خبر ، وحينئذ يعرض خبره المنقول على ما عنده من القواعد والاصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه .

المقدمة

فيما يتعلق بالتاريخ

قرار المؤتمر الثقافي العربي الاول
لجامعة الدول العربية

المنعقد ببيت مري – لبنان – ٩/٩/١٩٤٧ م

وافق عليه المؤتمر في جلسة الثلاثاء ٩ سبتمبر ١٩٤٧
ووافق عليه مجلس الجامعة العربية في جلسته المنعقدة
يوم ٢٢ فبراير ١٩٤٨

يرى المؤتمر :

أولاً : ان يكون محور دراسة التاريخ في المرحلة الابتدائية تاريخ القطر الخاص الذي يعيش فيه التلميذ ، مع العناية بدراسة الصلات بين هذا القطر وبين البلاد العربية قبل الاسلام وبعده .

ويتم هذا الغرض بدراسة القصص المشوقة وتراجم أبطال التاريخ القومي وتراجم أبطال العرب ممن تجاوز اثرهم حدود بلادهم .

وينبغي الاشارة في ثنايا قصص الابطال الى الحياة الاجتماعية في مختلف العصور ، مع الموازنة بين الحياة الماضية والحياة الحاضرة التي تقع تحت حس التلميذ ، والعناية بالحياة المعيشية لطبقات الشعب .

على انه في السنة الاخيرة من المرحلة الابتدائية يجوز ان يدرس التاريخ على صورة منظمة مع مراعاة تيسيره ليلائم عقلية الاطفال ومدى خبراتهم .

ثانياً : ان يكون محور دراسة التاريخ العربي في التعليم الثانوي النواحي الاجتماعية والوصفية ، مع بيان اثر الشخصيات الفذة والاحداث والوقائع اللازمة لتصوير الحقائق وتبيينها في الاذهان ، وتقصي مظاهر التطور والنضج التام .

ثالثاً : ان يشمل القدر المشترك من التاريخ العربي الذي يدرس في المدارس الثانوية في جميع البلاد العربية ما يأتي :

(ا) تاريخ العرب قبل الاسلام .

(ب) تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام الى الفتح العثماني .

(ج) النهضة العربية الحديثة .

اما الجزء الواقع بين الفتح العثماني والنهضة العربية الحديثة فيدخل ضمن المنهج الخاص الذي تضعه الهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة . ويترك توزيع هذا المنهج على الفرق للهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة منها .

رابعاً : ان يعنى في المرحلة الثانوية من التاريخ العالمي بالقدر اللازم لمساعدة الناشىء على فهم مكانة بلاده والدول العربية بين دول العالم ومشاكل المدنية الحديثة .

خامساً : انه ينبغي ان يدرس التاريخ دراسة علمية ، ويناقش مناقشة قائمة على منطق انساني عادل .

سادساً : انه يستحسن ان تكون طريقة تدريس التاريخ اساساً للتدرج من القديم الى الحديث ، ولا مانع من التحلل من ذلك عند الاقتضاء .

سابعاً : ان يدرس تاريخ العرب على حسب الدول والعصور المتتابعة وفقاً للطريقة التقليدية .

ثامناً : ان يدرس تاريخ الشعوب العربية بعد سقوط بغداد على

اساس تاريخ الدولة الخاص مع الاشارة الى تاريخ الدول العربية الاخرى وبيان ما بينها من العلاقات .

تاسعاً : ان يدرس تاريخ الحضارة العربية متصلًا بالتاريخ العربي العام ، بمعنى انه بعد الانتهاء من العرض العام لكل عصر يدرس الطالب حضارة هذا العصر .

(كصنيعنا في كتابنا هذا)

عاشراً : انه ينبغي للاستفادة من دراسة التاريخ العربي في تقوية الروح العربية الحقة الاهتمام بالنواحي الآتية :

١ - بيان اثر امم الشرق الادنى وفضلها في بناء صرح المدنية القديمة ، ومقدار تأثر اليونان والرومان بحضارات الشرق القديم في الشام وفلسطين ومصر وغيرها .

٢ - تتبع الصلات السلالية والتجارية والثقافية بين امم الشرق الادنى ، تلك الصلات التي وجدت قبل الاسلام ثم جاء الاسلام فدعمها وزاد في اواصرها .

٣ - ابراز الاحداث العظيمة والمواقف الحاسمة لنواحي البطولة في العصور العربية الزاهرة ودراسة الاسباب والنتائج في تفصيل يتضح منه اثر الحياة الشعبية والروح العربية في ارتقاء الدولة او الدول العربية وهبوطها .

كما ان المؤتمر يرى ابراز الاشتراك التاريخي والاتصال الجغرافي التام بين البلاد العربية في قارتي آسيا وافريقيا ، اذ كانت هذه البلاد في العصور القديمة مرتبطة باوثق الصلات ، ثم كانت خلال حقبة طويلة من الزمن وحدة سياسيه تضمها امبراطورية عربية عظيمة كما ظلت في العصور المتأخرة مرتبطة بعضها مع بعض بروابط متينة . وان الحضارة العربية احتفظت بكيانها وطابعها ووحدتها على مر العصور .

حادي عشر : ان من الوسائل التي تساعد على تنمية الروح العربية وتحقيق الاغراض المقصودة من تدريس التاريخ بالبلاد العربية ما يأتي :

١ – تأسيس الجمعيات التاريخية لتبادل الآراء والكشوف والبحوث .

٢ – تنظيم رحلات الاساتذة والطلبة بين البلدان العربية .

٣ – عقد مؤتمرات دورية للدراسات التاريخية من وقت لآخر في عواصم البلاد العربية .

٤ – الاهتمام بالحفائر الاثرية وانشاء المتاحف التاريخية والاستعانة بالفنون الجميلة لتوضيح التاريخ العربي ، مثل الروايات التاريخية والقصص التاريخية واللوحات الفنية والافلام .

٥ – العناية بالتقاليد المحلية والازياء الخاصة والاغاني الشعبية مع تهذيبها وما يتفق مع المدنية الحديثة والروح العربية .

٦ – العمل على تخليد ذكرى عظماء الشرق العربي واحداثه التاريخية بطرق مختلفة ، كاقامة التماثيل ، واطلاق اسمائهم على الشوارع والميادين ، وتسمية كراسي الاستاذية في الجامعات بأسماء النابغين منهم في مجال البحث العلمي ، الى غير ذلك من الوسائل التي تبرز المثل العليا التي ينبغي ان يتجه نحوها شباب العرب ، فيعتزوا بميراثهم الاجتماعي ، ويشعروا نحو هؤلاء العظماء بالجميل ، فيعملوا على المحافظة على هذا الميراث ، بل وعلى الاستزادة منه .

أشهر سني ابتداء التاريخ

كان الناس في القديم يؤرخون بأشهر الوقائع واعظم الحوادث التي يندر وقوعها متكررة وتجددها في كل مرة الى ان وجد التاريخ في القرن الاربعين قبل الميلاد ، فقد أرخ قوم بعصر ظهور آدم عليه السلام كما هو في زعم اليهود الى الآن وتاريخهم هذا يتقدم الميلاد باحدى وستين وسبعمائة وثلاثة آلاف سنة ، وهو تاريخ ابتداء العالم في نظرهم ؟ ... وفي ذلك من الخلاف بين علماء هذا الشأن ما فيه ؛ ومنهم من اخذ يؤرخ من حادثة طوفان نوح عليه السلام ، وقد كان بينه وبين الهجرة نحو اربع وسبعين وتسعمائة وثلاثة آلاف سنة على ما في ذلك من الخلاف ايضاً بين المؤرخين وعلماء الهيئة والفلك . وهناك من ارخ منذ تبلبل الالسنة – كما يقولون – وذلك حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد ، ومنهم من ارخ بعهد الخليل عليه السلام اي منذ ثلاث وتسعين وثمانمائة والفي سنة قبل الهجرة ، كما ارخوا كذلك بتأسيس الكعبة ورفع قواعدها في ذلك العهد ، وأرخت جماعة بوفاة موسى نبي بني اسرائيل ، اي قبل الهجرة بأربعين وثلاثمائة والفي سنة ، ومنهم من ارخ بعمارة بيت المقدس – قبل الهجرة بثمانمائة والف سنة – كما ارخوا بخرابه ايضاً سنة خمسين وثلاثمائة والف قبل الهجرة ، وارخ قوم بتملك بختنصر سنة ١٣٦٩ قبل الهجرة ، وبغلبة الاسكندر على دارا ملك الفرس سنة ٩٣٤ قبل الهجرة ، وبغلبة اغسطس على قلوبطرة الملكة المصرية سنة ٦٥٢ قبل الهجرة ، وبميلاد

المسيح كما هو معلوم[1] ، وبخراب بيت المقدس الثاني سنة ٧٠ للميلاد .

واشهر التواريخ خمسة : تاريخ العرب ، وتاريخ القبط ، وتاريخ الروم ، وتاريخ الفرس ، وتاريخ اليهود ؛ فالتاريخ العربي هو تاريخ الهجرة ، الذي وضعه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في السنة السابعة عشرة من الهجرة النبوية ، الموافقة ليوم ١٦ جوليط سنة ٦٢٢ م ، واما القبطي فانه يبتدأ من السنة التي تغلب فيها « دقطليانوس » الانطاكي احد ملوك القبط على مصر ، وهو يزيد على تاريخ الهجرة بنحو ٣٠٠ سنة شمسية . والتاريخ الرومي هو المستعمل اليوم بيننـــا في معرفة فصول السنة والانقلابات وغيرها من التغيرات الجوية واحوال الطقس التي تنبني عليها اعمال الفلاحة والزراعة الخ ... وهذا هو التاريخ المعروف عندنا باسم : العجمي ، ومبدؤه كان من السنة التي مات فيها الاسكندر الكبير – ذو القرنين المقدوني – وهي السنة السابعة من تملكه ، وهو يزيد على تاريخ القبط ٥٩٠ سنة . واما التاريخ الفارسي فانه يبتدأ عندهم بأيام القائم من ملوكهم ، وكان آخر ملك اسس تاريخهم عليه وهو يزدجرد بن شهريار ابن برويز كسرى انوشروان المتولي سنة ١١ للهجرة ، وللفرس تاريخ آخر جديد يسمى بتاريخ الجلالي نسبة الى جلال الدين شاه ومبداه عاشر رمضان سنة ٤٧١ هجرية على المعتقد .

والذي اعتمدته انا في ضبط الوقائع والحوادث بهذا الكتاب هو تاريـخ الهجرة مع مقابلته بما يوافقه من التاريـخ الميلادى ، وهما اللذان جرى العمل بهما في توقيت الحوادث بجميـع انحاء العالم المتمدن اليوم .

---

(١) وقد كان وضع العمل به ابتداء من سنة ٥٣٦ م بمعرفة « يوليبيوس » احد القسس ببعض أديرة رومة ؛ وقد خطأوا هذا القس في حسابه حيث كان مبدأ التاريخ المسيحي عنده متأخراً بنحو خمس سنوات على ما حققه مهرة المؤرخين ، فان تاريخ الميلاد كان يوم ٥ ديسمبر سنة ست قبل التاريخ الميلادي المعمول به اليوم .

جغرافية القطر الجزائري

الجزائر اسم عربي صميم لعاصمة الوطن وام القطر[1] ولم يكن ليطلق هذا الاسم على الاقليم كله إلا منذ العصر التركي فقط ، (القرن العاشر الهجري) – السادس عشر الميلادي – أما قبل ذلك فقد كان يعرف عند العرب بالمغرب الاوسط ، ذلك لتوسطه بين المغربين ، الاقصى والادنى : مراكش وتونس :

أما موقع هذا الوطن الطبيعي فهو عبارة عن قطعة من الارض هي واسطة عقد الشمال الافريقي ، وان شئت فقل هو قلب الدنيا .

---

(١) كانت هذه المدينة في الزمن الغابر قرية حقيرة لا شأن لها وتسمى في لسان البربر « آرغل » اي المكان المستور العميق ، وورد في اساطير اليونان ان هرقل البي استقر فيها مع اصحابه العشرين فعرفت بهم : – ايكوسي – Eixoci بمعنى مدينة العشرين ؟ ... ولقد اصبح اليوم هذا القول تجاه التحقيق التاريخي ضعيفاً . ولما جاء عهد القرطاجنيين وتأسس بها مرساها التجاري حرف اسمها هكذا : ايكوسيم Ikosim ومعناه الجزائر او جزيرة الشوك ، او جزيرة الطيور غير الطاهرة ، ثم خربها الفاندال على عهدهم ... وبقيت كذلك الى ان جدد الروم بناءها وحرفوا اسمها الى اللاطينية هكذا : ايكوسيوم Icosiom . وفي القرن الثاني للهجرة سكنت بها القبيلة البربرية « مزغنان » بفتح الميم او « مزغناي » او « مزغني » ... وهي بطن من بطون صنهاجة ، ومعنى « مز » بنو ، كلفظة « مس » بكسر الميم المستعملة الى الآن او هي نفسها ؟ ... ويومئذ اشتهرت المدينة باسم قلعة بني مزغني ، او « جزائر بني مزغني » ، ولم تزل هذه القبيلة موجودة الى يومنا هذا تسكن على نحو ٨٠ كيلومتراً شرقي العاصمة في ناحية « Palestro » على مقربة من طريق السكة الحديدية ، ولقد كان وضع مدينة الجزائر هذه يومئذ على

وليست . هنالك حدود طبيعية تفصله عن القطرين الشقيقين : تونس ومراكش سوى خطوط اعتبارية وضعتها يد السياسة مراعاة لاختلاف مصالح ادارة الحكومات التي توالت على هذه الاقطار الثلاثة ، الا حده الشمالي فقط فانه هذا البحر الابيض المتوسط ، وهو يمتد تبعاً للسياسة ايضاً من القالة شرقاً الى جامع الغزوات غرباً ؛ ويبلغ طول هذا الشاطيء ١٢٠٠ كيلو متر . ومن ناحية الجنوب هذه الصحراء الكبرى التي تعتبر الحد الفاصل بينه وبين افريقيا الغربية ، حيث يمتد الخط من اقصى جنوب طرابلس شرقاً الى جهة وادي (ربودي اورو) غرباً اما الخط الغربي — ولا اقول الحد — فهو يمتد من وادي ملوية شمالاً منحدراً الى منطقتي الفيقيق وبوذنيب مع دائرة كولومب بشار والقنادسة جنوباً ، والخط الشرقي ينحدر من القالة شمالاً الى بئر الماوية وشط الغرسة جنوباً ، ثم يمتد — نظرياً — الى قرب مدينة غدامس عند بئر الرمان ؛ فطول القطر الجزائري كله اذا يقع ما بين درجة ٦ شرقي

شكل مداشر حسب عادة البربر من احصاص ونحوها ، وبها سوق يأتي اليه اهل متيجة وغيرهم كفبرينة وكريطة ومليكش والثعالبة الخ ... وفي اواسط القرن الرابع الهجري ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م — مصرها الامير بلكين (بضم الباء واللام وتشديد الحرف الثالث الذي ينطبق به مكسوراً بين الجيم والكاف) بأمر والده عاهل صنهاجة : زيري بن مناد الصنهاجي .

وان السبب في تسميتها بالجزائر كما حرره شيخنا الدكتور محمد بن ابي شنب رحمه الله يعود الى وضعيتها الطبيعية ، حيث انه كان هناك تجاه هذه المدينة امام المرسى القديم صخور اربعة متجاورة تشبه الجزر ، منها الصخرة او الجزيرة الكبرى المعروفة باسم (سطفلة) ، وذكرها ابن حوقل فقال : هي في البحر على رمية سهم منها — اي من الجزائر — تحاذيها ، فاذا نزل بهم عدو لجأوا اليها فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه . وهي التي بنى عليها الاسبان حصنهم (البنيونش) Penon سنة ٩١٥ هـ — ١٥١٠ م — ولقد هدم هذا الحصن الاسباني على يد الاتراك سنة ٩٣٦ هـ — ١٥٣٠ — كما سيأتي تفصيله ومنها صخرة الجفنة المشهورة . ثم كان ردم ما بين تلك الجزر الاربعة وضمها الى بعضها باشارة المهندس موسى الاندلسي واشرافه على ذلك بنفسه .

ويومئذ اتصلت هذه الجزر بالمدينة بواسطة رصيف طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ٢٥ متراً وعلوه اربعة امتار ، وفي منتهى هذا الرصيف يوجد مركز اقامة امير البحر كما هو عليه الحال الى الآن . وبذلك دعيت هذه البلدة في القديم بمدينة الجزائر .

الى درجة ٤ غربي من خط الزوال ، وعرضه من الشمال الى الجنوب ما بين درجتي ٣٧ شمالاً و ٣١ جنوباً من خط الاستواء . وذلك عبارة عن مساحة ٢،١٩٥،٠٩٨ كيلو متراً مربعاً .

ولقد قسمت السياسة هذا الوطن في القديم الى ثلاثة اجزاء — اعتبارية — : نوميديا وهو الجزء الشرقي الجزائري ، وموريطانيا جزؤه الغربي ، وجيتوليا اي ناحية الجنوب . او ما كان كذلك من تقسيمه الى قسمين : التل والصحراء ، وذلك باعتبار جبال الاطلس الصحراوي الفاصلة بينهما .

ولست في حاجة الى بسط القول بالتعرض الى ذكر تفاصيل جغرافية هذا القطر الاقتصادية والسياسية وتدقيق البحث فيها من الناحية الطبيعية الخ ... فان ذلك ليس من مباحث هذا الكتاب ، وكيفما كان الحال فاني لا احب ان امر عن هذا المبحث دون ذكر شيء من خصائص القطر الجزائري وميزاته التي خصه الله بها ومنحته الطبيعة اياها : فالارض الجزائرية تشتمل على جبال وانجاد وسهول وتل وصحراء ؛ فمن جبالها تكونت هاتان السلسلتان المتوازيتان الشمالية والجنوبية ، الآخذتان من الغرب الى الشرق فالاولى تعرف باسم الاطلس التلي ، كما عرفت الثانية باسم الاطلس الصحراوي . وان اقصى نقطة تبلغها الشمالية في العلو هي بوسط جبل جرجرة حيث تبلغ قمة « لالاخديجة » ٢٣٠٨ أمتار ؛ اما الثانية فهي اضخم واروع من الاولى واعلى نقطة فيها هي بناحية « الشلية » بجبال اوراس حيث تبلغ قمتها ٢٣٢٧ متراً . ومن هذه الجبال ما هو مكسو بجمال الطبيعة كالغابات الكثيفة والاودية المتدفقة والجداول والانهار والعيون الجارية المتفجرة وفيها من المناظر البديعة ما يستوقف النظر ويروع البصر وفيها من الاشجار المثمرة المختلفة الانواع وغير المثمرة كثير ومن النباتات النجمية المتنوعة ايضاً ما يملأ وصفه المجلدات ؛ ومنها ما كسبته الطبيعة بجلالها : جبال جرداء ملساء لا يروعك منها الا ضخامتها وعظمتها الصخرية ، وفي كلها توجد حيوانات وحشية وداجنة وطيور مختلفة الاشكال والالوان لا يأتي عليها الحصر .

وان احسن بقاع الجزائر وأخصبها واغناها هي ناحية التل والساحل ففيها من الغلل وانواع الحبوب ما جعلها تدعى في القديم (خزينة رومة) ، وان اهم هذه النواحي للفلاحة والحرث هي ناحية سهول متيجة وبونة (عنابة) وشلف بوهران ، فبها كانت الجزائر ولم تزل غنية بمنتوجاتها الزراعية من ثمار وخضر وبقول وحبوب وفواكه مما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين ! ... والطقس فيها معتدل جيدة الماء والهواء .

اما منطقة الصحراء فمناخها كجملة الصحاري تكاد تكون منعدمة الثمار الا ما قبل منها وندر في بعض الواحات او ما خصتها الطبيعة به من انواع النخيل والتمر اللذيذ وفيها كذلك من الماشية ما تعد به من اكبر مواد الجزائر واثراها وخاصة الغنم .

اما المعادن او قل كنوز الجزائر وركازها — فان القطر غني بما اودعه الله فيه من غالب انواع المواد المعدنية الثمينة حيث تبلغ ١٤٨ منجماً منتشرة بكامل انحاء الوطن الجزائري ، منها ٢٦ منجماً في ولاية الجزائر ، و ٩٦ بولاية قسنطينة و ١٥ بولاية وهران منها ١١ شرع في استثمارها حديثاً .

والجزائر مليئة بكل امكانات التصنيع ، اذ حبتها الطبيعة بارض غنية بمختلف انواع المصادر وبطاقة كهربائية هائلة شاملة يسهل توليدها من المساقط المائية العديدة الى جانب ما تزخر به الصحراء من البترول وان اهم ما فيها من المعادن : الحديد والنحاس والرصاص والزنك والقصدير والفضة والكروم والمرمر والزرنيخ والكلس والجير والكبريت والملح والجص والمانكانيس والسماد — الفوسفاط — والزئبق والفحم الحجري وحجر الكحل والنفط — البيطرول — ؛ وبخار الغاز الطبيعي ويذكر انه اكتشف بها حديثاً « اليورانيوم » والذهب والالماس ولم يزل المرجان يلتقط من السواحل الشرقية حيث يصدر الى اوربا وغيرها ؛ وان في الجزائر من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ! ... ورغم كل هذه الثروة الطائلة والمواهب الطبيعية التي امتازت بها الجزائر عن غيرها من

الاقطار فان سياسة الاستعمار الخبيثة قد حالت بين ذلك كله وبين ابناء البلاد فتركتهم فقراء مساكين غيرى ذي متربة ! ... وما ذلك الا عن اغراض سياسية تافهة ومزاحمة اقتصادية اساسها الجشع والطمع .

واني لاذكر يوماً من ايام اشتداد الحرب العالمية (١٩٣٩ — ٤٥ م) جرت لي فيه محادثة بيني وبين شخصية سياسية فرنسية مسؤولة جمع بيني وبينها مجلس من المجالس التي كان الفرنسيون يبذلون فيها جهودهم بوسائل متنوعة لخلق الفرص واصطناع المناسبات كي يجتمعوا بشخصيات اسلامية اهلية يتظاهرون لهم فيها بحب التقرب منهم وربط الصلة بهم ويدجلون عليهم بما شاؤوا من معسول الوعود الكاذبة وزخرف القول غروراً — كسباً للوقت — وكان مما طرقناه في ذلك المجلس التعرض للحالة الراهنة يومئذ وما تقاسيه الجزائر من الحصار المضروب عليها اقتصادياً كما هو سياسي ايضاً ، وما يتكبده الاهالي بالخصوص من الفقر الى الحاجيات والضروريات ! ... مع ان القطر الجزائري بحمد الله غني بما اودع الله في تربته الطيبة من المناجم والمعادن والكنوز ، فسألته بهذه المناسبة قائلاً : هل يوجد في ابناء الجزائر اليوم بجميع سكانها من اهالي وغيرهم بقطع النظر عن الجنس ، من توجد فيه قابلية او استعداد للعمل على انشاء شركات صناعية ومعامل فنية تستخرج بها ثروة البلاد ؟ ... فقال نعم ، فقلت له حينئذ : لماذا لم تعمل الحكومة على استثمار هذه الكنوز بتوجيه الرعية الى استعمال مواهبها في استخراج هذا الثراء للناس ؟ ... وفي ذلك ما لا يخفى من الخير ... فأطرق برأسه لحظة ثم قال لي : اين انت من التنافس الدولي والتزاحم الاستعماري ! ... فقلت ماذا ؟ ... قال يزدحم علينا الاجانب ؛ فقلت او لمجرد هذا التوجس نسعى في اضاعة ثروة البلاد واماتة العباد ونرضى بالحرمان والفقر لانفسنا ونحن على اديم هذه الارض الزكية .

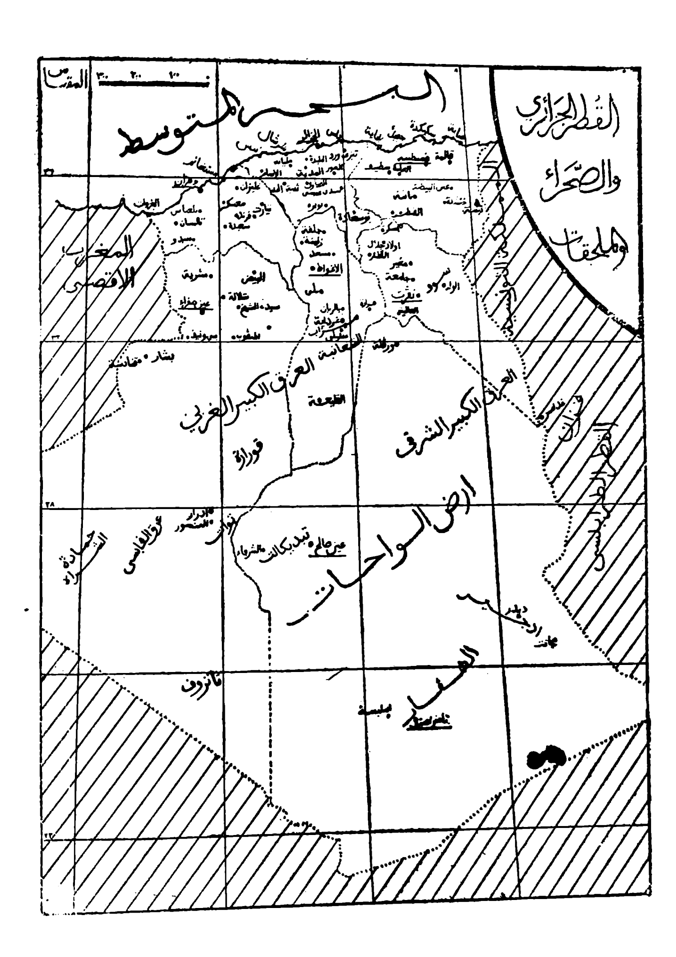
كالعير في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول ! ...

فسكت وسكت ... والآن وقد استدارت الايام وانتهت الحرب وانقشع ما كان حائلاً سياسياً بين الامم من الاوهام والحواجز فانكشفت الحقائق

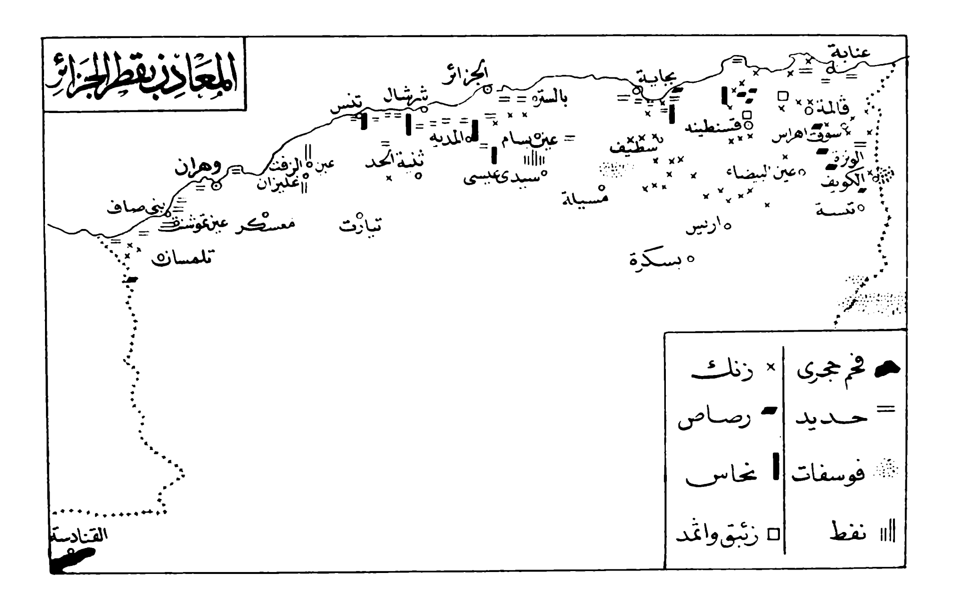
لدى جميع الناس واخذ كل صنف في دراسة احوال العالم الحاضرة على ضوء العلم والمنطق والعقل فانعقدت في شتى المواطن عدة اجتماعات علمية وسياسية واقتصادية لابحث عن اصلاح الحالة الراهنة التي اصبح عليها العالم اليوم للانتفاع بما فيه ، وكان من حظ الجزائر ان تعدد بها عقد مؤتمرات دولية تاريخية وجيولوجية اكتشفت بها عدة نواح مجهولة من تاريخ هذا الوطن وما اودع الله فيه من الخصائص والميزات التي كانت مغفلة مهملة ، وذلك ما كان يخشاه امثال هذه الشخصية الفرنسية المتحدث عنها .

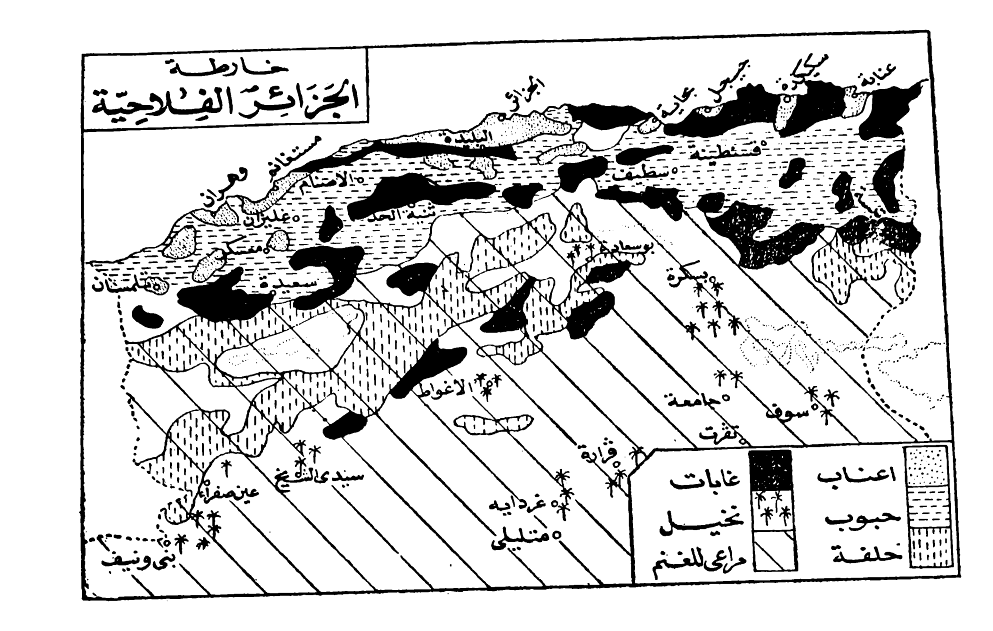
كما يوجد بالجزائر ايضاً حمامات معدنية منتشرة في نواحي كثيرة من هذا القطر ماؤها ساخن يعالج بها امراض الاعصاب وغيرها مما يستعصي على نطاسي الاطباء ... فلم يبق لك الآن ايها الجزائري الغيور الا الاقدام بشجاعتك المعهودة في التاريخ لاستثمار كنوز بلادك حسبما اوجبه عليك دينك وضميرك وقوميتك .

اما عدد السكان فيه فانه حسب الاحصاء الاخير (١٩٤٨ م) بلغ الى ٩٠١١٣٢٨ نسمة منهم ٨٠٤٥٣٣٦ اهالي مسلمون والباقي نصارى بما فيهم من يهود واسبان وطاليان الذين شملتهم الجنسية الفرنسية . والواقع انه يفوق ذلك بكثير .



القطر الجزائري والصحراء والملحقات
البحر المتوسط
المغرب الأقصى
العرق الكبير الغربي
العرق الكبير الشرقي
ارض الواحات
قورارة
تيدكالت


المعادن بقطر الجزائر
عنابة
قالمة
سوق اهراس
الونزة
الكويف
تبسة
قسنطينة
بجاية
سطيف
عين البيضاء
مسيلة
ارنيس
بسكرة
بالسترو
الجزائر
عين بسام
المدية
سيدي عيسى
شرشال
تنس
ثنية الحد
تيارت
عين الزرقة
غليزان
وهران
معسكر
عين تموشنت
بني صاف
تلمسان
القنادسة
فحم حجري
حديد
فوسفات
نفط
زنك
رصاص
نحاس
زئبق واثمد



خارطة
الجزائر الفلاحية
عنابة
سكيكدة
جيجل
بجاية
الجزائر
البليدة
مستغانم
وهران
الاصنام
غليزان
ثنية الحد
معسكر
سعيدة
تلمسان
قسنطينة
سطيف
بوسعادة
بسكرة
الاغواط
جامعة
سوف
تقرت
قرارة
غرداية
متليلي
سيدي الشيخ
عين صفراء
بني ونيف
غابات
نخيل
مراعي للغنم
اعناب
حبوب
حلفة

الجزائر العتيقة

ماقبل التاريخ

تعاقب على هذا الوطن الجزائري بعد العصر الحجري وقبل الفتح الاسلامي خمس امم عظيمة : البربر وهم السكان القدماء الاصليون ، والفنيقيون ، ثم الرومان ، فالفندال فالروم – البزنطيون – ؛ وهذا ما نسميه بالجزائر العتيقة ، وتاريخ هذا العصر يشمل تاريخ الشمال الافريقي كله وما الجزائر الا جزء من الجزيرة المغربية وهي كلها متشابهة جغرافياً وتاريخياً فهي وحدة لا تتجزأ رغم جميع الاعتبارات السياسية ، فان تاريخ هذا الشمال الافريقي متماسك الحلقات لم ينفصل عن بعضه الا في ظروف استثنائية وملابسات خاصة .

اما قبل ذلك ، فهو ما يعبر عنه لدى علماء التاريخ بعصر البليستوسين pleistocene ويسمى بعصر الجليد ايضاً ، ثم يأتي بعده العصر الحجري ذلك لان النوع البشري عموماً كان اذ ذاك يستعمل الحجارة في كل ما يحتاج اليه من الادوات كالمقاطع والمدى والفؤوس والجفان وغيرها ؛ وينقسم هذا العصر الى ثلاثة اقسام :

الدور الاول – عصر الحجارة القديم الذي كان فيه الانسان اشبه شيء بالوحوش ، حديث عهد بالطبيعة ، جاهلاً بطرق الانتفاع بها ، سادلاً عليه جلود الحيوانات متدفئاً باهابها ، يسكن الجبال والكهوف والمغارات ويأكل مما تنبته الارض عفواً وما عليها من خشاش وحيوانات وحشرات . وهو في كل ذلك يستعمل الحجارة .

الدور الثاني – عصر الحجارة الاوسط ، وفيه تقدم النوع البشري الى غير الحجارة ايضاً ، فأخذ يستعمل عظام الحيوانات من نوع الوعول والطيور والفيلة والكركدن وبيض النعام ، فاتخذ منها الاوعية والابر والسكاكين والمساحي وهذبت فيه الادوات الحجرية نوعاً ما ، وانتقلت السكنى من المغارات الى الاكواخ المستديرة والمربعة ؛ وعني الانسان في هذا الدور بالمدافن فكانت القبور فيه على شكل الهرم مبنية بالحجارة. ولقد كشف العلماء عن آثار من الاحجار المنحوتة ترجع الى هذا الدور في نواحي تلمسان ووهران وبير العتير جنوب تبسة وسطيف والقليعة بالجنوب الجزائري.

الدور الثالث – اتقن فيه الانسان صناعة الحجارة فاتخذ منها الارحاء للطحن وادوات النقش وصنع السهام ، ورسم عليها بالحجارة المحددة الرسوم العجيبة الشكل ؛ وفي هذا العصر اخترعت الكتابة « الهيروغليفية » – اي التصويرية – ، وفيه عرف الانسان الحياكة والنسج وايقاد النار وصنع الاواني الطينية للطبخ واتخذ الاوعية من الخشب والحلى والاصداف والمحاور وانياب الخنزير والحصى المثقوب وغطى رأسه بالريش. وكل ذلك بلغنا بواسطة ما عثر عليه علماء الآثار من هذه الاثاث بنواحي القطر كله. وخصوصاً ما كان منها بمدينة « باليكاو » ونواحي سطيف ومعسكر وعين مليلة والعين البيضاء ووهران والجزائر « العاصمة » وسعيدة وتبسة الخ... وان اهم ما اكتشف من هذه الآثار هو صور منقوشة على الصخور وبعض الادوات الحديدية ، وقد اجتمعت منها كمية لا بأس بها يوجد بعضها بدار الآثار بالعاصمة وفي غيرها كذلك من متاحف القطر الجزائري وغيره مما كان موضع اعجاب ارباب الفنون والصناعات اليوم.

ولقد ذهب العلماء في تقدير الزمن الذي يرجع اليه تاريخ هذه الآثار مذاهب شتى فبلغ به بعضهم الى ستة او عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ؟... وهو تاريخ الحضارة البشرية.

ثم يأتي بعد ذلك العصر المعدني الذي اول ما عرف فيه الانسان

النحاس والقصدير والبرونز ثم الحديد ... ومنه انتقل الى ما يعبر عنه بعصور التاريخ حيث استعمل فيها الوثائق المكتوبة وهم يقدرون ما قبل التاريخ بنحو ماية وخمسين الف سنة .

قدماء الجزائر ، لغتهم ، ديانتهم

لا يخفى وان هذه المجموعة البشرية ترجع في نسبها حسب التقاليد المتواترة والنظرية الدينية الى آدم ونوح عليهما السلام ، وان الناس جميعاً هم من ابناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث فمنهم وعنهم تفرع هذا الجنس البشري القائم يومئذ – وجعلنا ذريته هم الباقين – وذكروا ان ليافث ولداً – هو قطوبال – اليه يرجع نسب القدماء من سكان الشمال الافريقي ، وقيل هم من السلالة الحامية ؟ ... ونرى ابن خلدون نفسه يشك كثيراً في صحة هذا التقسيم الثلاثي المترتب على ابناء نوح الثلاثة [1] على ان علماء العصر قد خالفوا هذه النظرية تماماً وانكروا هذه العقيدة الشائعة وعدلوا عن هذا التقسيم الثلاثي القديم الى جعل الناس ثلاث طبقات : طبقة العصر الحجري ، وطبقة العصر الحديدي ، وطبقة عصر سكب الرمل ، وان تاريخ العصر الحجري وحده يرجع الى ما قبل اليوم بنحو ١٢٠٠٠ سنة ، وانه مضى على وجود العائلة الانسانية على وجه الارض نحو ١٠٠٠٠٠ سنة ، وبلغ بعضهم الى ٢٤٠٠٠٠ سنة ؟ ... ولا يخفى ان التاريخ الديني الذي يقول به النصارى واليهود لا يزيد على ان عمر البشرية خمسة او سبعة آلاف سنة ؟ ... كما ان هؤلاء العلماء رجعوا في تقسيم اصول البشر اليوم الى مقاييس الجسم وشكل الرأس فقسموا الناس على حسب اختلاف مظاهرهم الطبيعية وتباين سحناتهم الى اربعة اشكال : الشكل القوقامي وهم سكان اوروبا وآسيا الغربية وشطوط البحر المتوسط ؛ والشكل المغولي وهم سكان آسيا وامريكا من السلالة الصفراء ؛ والشكل الزنجي ؛ والشكل الامريكي القديم ؛ وجاؤوا في تعليلهم لهـذا

---

(١) التعريف بابن خلدون ص ٣٥٤ ط القاهرة ١٣٧٠ هـ – ١٩٥١ م .

التباين بين الاشكال بالعوامل الطبيعية والتغيرات الجوية واختلاف البيئة الجغرافية وتغير الطقس والهواء والماء والغذاء[1] . اما نظرية تقسيم البشرية الى فصيلة السامية والحامية والآرية فهي عائدة الى المغزى اللغوي لا غير ، اذ انهم يعنون به الآن الامم التي تتكلم لغات متقاربة تجمعها رابطة السامية او الحامية او الآرية فهو تفصيل لغوي نشأ عن علماء تاريخ اللغات في القرن التاسع عشر لبيان الاختلاف الموجود بين اللغات لا بين الشعوب ثم جعل العلماء هذه الانساب اللغوية انساباً للامم التي تتكلم بها .

واما عن تاريخ اقدم سكان الجزائر او قل - شمال افريقية - (من غير البربر) فقد تضاربت اقوال المورخين في ذلك ؛ يقال انهم مجموع طوائف ومزيج سلائل تجمعت من الطارئين على هذا الشمال الافريقي من مختلف الاوطان في غابر الازمان فتكونت منهم وحدة قومية وعنصر ممتاز هو العنصر الافريقي وعرف هؤلاء من بين الامم بالافارقة ، ومنهم كانت تلك الجاليات المؤلفة من الميد والارمن والفرس الذين نص عليهم المؤرخ اليوناني « سلسطس » في كتابه (حروب يوغورطة) قال ان هؤلاء جاؤوا مع « هيركوليس » هرقل احـــد ملوك إيجا - بجزر اليونان - كجند مستأجر لغزو « ايبريا » - اسبانيا - ولما هلك هرقل طرد هؤلاء الجند من اسبانيا فتفرقوا على البلاد المجاورة ؛ فعبر الميد والارمن يومئذ بحر الزقاق الى شمال المغرب واختلطوا بسكانه من اللوبيين واندمجوا فيهم . واما الفرس فانهم ابحروا كذلك في طلب زملائهم فحولت الرياح شراع سفنهم الى المحيط الاطلسي فأرسوا على شواطيء الجنوب المغربي فوجدوا هنالك قوماً من (الجتبولة) على بساطتهم الطبيعية فاندمجوا فيهم واختلطوا معهم بالمصاهرة كما اندمج الميد والارمن باللوبيين فتكون من هذا الاندماج ما تولد عنهم من هذا الجيل[2] يؤيد ذلك ما جاء في الجغرافية الافريقية

---

(١) انظر تعليقات الامير شكيب ارسلان على تاريخ ابن خلدون ص ٤٥ والتي تليها ط مصر ١٩٣٦ م .

(٢) موجز الكماك ص ٢٨ ودائرة المعارف للبستاني ج ٤ مادة افريقية .

القديمة من ان الفاروسيين – الفرس – استعمروا هذه الارض منذ عصر متوغل في القدم واختلطوا بسكانها واشتهروا فيها يومئذ باسم « نوميدا » او « نوماد » ومعناه بلغتهم الرمل وهو ما يطلق على سكان شرقي الجزائر ؛ كما اننا نجد اسم « سوس » او « سوسة » بمراكش وتونس هو كذلك عند الفرس (سوسانة) او (شوشانة) يطلق على ناحية بالساحل الشرقي من الخليج الفارسي و (باجة) من بلاد اصبهان كما هي بافريقيا والاندلس ايضاً الخ ... فما معنى هذا الاتفاق ؟ فهل هو من قبيل القضايا الاتفاقية والمصادفة فقط ؟ ام ماذا ؟ ...

على ان المتفق عليه لدى المحققين من علماء التاريخ والآثار والجغرافية جميعاً ان سكان الشمال الافريقي القدماء هم من سلالة الجنس الابيض واضع اساس المدنيات القديمة ، ويرى هؤلاء العلماء ان اول ما وجد الانسان وجد بشمال افريقية فهو المهد الاول للجنس الابيض ، ومنه هاجر الى اوروبا وايدوا نظريتهم هذه بما دلت عليه الاكتشافات الحفرية الحديثة التي اجراها العلماء ومنهم العالم الاثري « ارامبورغ » فانهم اكتشفوا بناحية مدينة « معسكر » من القطر الجزائري هيكلا عظمياً يرجع تاريخه الى نحو ٤٥٠ الف سنة ، كما ان هذا العالم نفسه ظفر في بحوثه وحفرياته الاثرية بنفس هذه الناحية بهيكل عظمي آخر متحجر يرجع تاريخه حسب ما دل عليه الفحص العلمي الدقيق الى نحو نصف مليون سنة قبل اليوم .

ولم يسمع او يعرف في تاريخ البحوث الاثرية انهم ظفروا بهيكل متوغل في غضون تاريخ الزمن الغابر وخفايا العصور الماضية والقرون الخالية مثل هذا .

وقد اصبح الهيكل الثاني هذا يعرف في مصطلح علماء الآثار وتاريخ البشرية اليوم باسم « اطلانثوروبوس موريطانيكوس » ومعناه الانسان الاول الاطلنطي الموريطاني ، وكلا الهيكلين قريب من صاحبه زماناً ومكاناً . كما انهم وجدوا حول الهيكل « الاطلانثوروبوس » هذا عدة ادوات وآلات منزلية هي من حجارة منحوتة مختلفة الشكل : فؤوس

وسكاكين وغيرها هي من اقدم ما اكتشف من هذا النوع في هذا العـــالم ، وذلك ما يدلنا على تقدم ذكاء الانسان الاول في اختراع ضرورياته الحاجية المتعلقة بحياته اليومية – ولاسيما فيما يخص عبقرية الانسان الجزائري الاول – وهذا ما دعا العالم البحاثة (ارامبورغ) الى نشر نظريته المدعمة بالدلائل والبراهين الصحيحة القائلة بان ارض افريقيا الشمالية او قل بلاد الجزائر هي مهد العنصر البشري المتحضر .

اما عن لغتهم ولهجاتهم فلم يحدثنا التاريـخ عنها بشيء ؛ ولا يبعد ان تكون اخت لغة قدماء المصريين والليبيين ، وخصوصاً اذا ما اعتمدنا مقالة من يقول ان قدماء المصريين هم من سلالة سكان الجزائر ومراكش ؟

واما ديانتهم فهي مؤسسة على عبادة مظاهر الطبيعة من الاجرام العلوية العظيمة كالشمس والقمر ، وبعض الحيوانات كالقرد والتيس والافعى ، وقد وجد الباحثون في جبل بني راشد – قسنطينة – تمثال تيس على رأسه هالة تمثل دائرة الشمس يدعونه « اتون » .

واذا حاولنا معرفة ما يسمى بالحضارة او المدنية الراهنة يومئذ فاننا نجد القوم متأثرين بالحضارة « الايجية » حسبما يدل عليه تقارب اللغة القديمة والخط ووحدة الشكل في البناء وصناعة الخزافة . ويقال ان سكان المغرب اخذوا عن الايجيين زراعة التين والزيتون والكرم ، وبفضل هؤلاء ايضاً راجت بالمغرب صناعة التعدين والتصوير على الخزف . ويظن ان ذلك كان حوالي الالف الثالثة قبل الميلاد . ولا يخفى ان هؤلاء الايجيين ينتسبون الى شعب ابيض ممتاز بصفاء الذهن والذكاء المفرط . كما يؤكد العلماء ان اصل هذا الشعب ايضاً من شمال افريقية ومنه ما نراه من بقية العنصر الاشقر في بعض النواحي من هذا الوطن الكبير (المغرب العربي) .

البربر

ان اول ما عرف التاريخ المسجل من سكان هذا الوطن انما عرف « البربر » وهم مجموع سكان الشمال الافريقي من حدود واحة « سيوة » المتاخمة للبلاد المصرية شرقاً الى ساحل البحر المحيط الاطلسي غرباً والى ضفة وادي النيجر جنوباً في حين انه لم يكن ليعرف في تاريخ السلائل او السلالات البشرية عامة ان هناك جيلًا من الناس يعرف هكذا باسم البربر ، وانما هو لفظ وضعي يراد به عند اليونان « صوت الالثغ » او هو كل انسان اجنبي عنهم لا يتكلم بلغتهم ، ومن ثمة اطلقه اليونان انفسهم على سكان هذا الوطن وعلى غيرهم ممن هو ليس يونانياً كأمة الطاليان فانها كانت تسمى عندهم « برباريا » . وقد نهج الطليان انفسهم كذلك منهج اليونان في هذه التسمية فانهم اطلقوا اسم البربري على كل من ليس يونانياً ولا ايطالياً او لم يكن خاضعاً لسلطانهم ، وجعلوا اسم « روماني » خاصاً بمن شمله نفوذهم الايطالي ومن ذلك الوقت عرفت جميع البلاد التي خرجت عن طاعة الرومان باسم « بارباريكوم » اي بلاد البربر ، ومنها مدينة « بربرة » بالصومال الانكليزي ، وقبيلة « بربارسي » او « بربارجيا » بجزيرة سردانيا كما عرفت سواحل المانيا وما على ضفاف نهر الدانوب باسم « بربارياس » واطلقوا ايضاً اسم « البحر البربري » على البحر المحيط الهندي لانفصاله عن بلادهم الرومانية وهكذا عمت البربرية عندهم كل ما ليس رومانياً او يونانياً ؛ ثم جاء دور العرب في شمال افريقية

فحافظوا على هذه التسمية ولم يشاؤوا تغييرها لذيوعها واشتهارها يومئذ . على ان « هيرودوتس » المؤرخ اليوناني الكبير الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد كان يسمي هذه الارض باسم لوبيا او ليبيا ، ويدعو اهلها باللوبيين او الليبيين .

والاسم الوحيد الذي اراه ينبغي ان يطلق على سكان هذا الوطن هو الجنس المغربي نظراً الى موقع بلاده وموطنه الوالد .

على ان هؤلاء البربر وان اختلف الناس في اصل نشأتهم فهم ساميون من ابناء مازيغ بن كنعان ، فهم « الامازيغ » كما جاء في تصريحهم امام الخليفة عمر بن الخطاب حينما ذهب اليه الوفد بعد فتح مصر ، فانتسبوا امامه الى مازيغ ، وانهم اصحاب البلاد الواقعة بين خليج العرب « البحر الاحمر » والبحر المحيط ولم يقولوا له انهم « بربر » .

وفي رسالة للعالم الفيلسوف المترهب القديس (اوغسطين) بعث بها الى اهل رومة قال فيها : اذا سألتم سكان البوادي عندنا - نوميدية الشرقية بولاية بونة من القطر الجزائري - قالوا نحن كنعانيين وقد كانوا ينطقون بهذه الكلمة محرفة اذ انهم كانوا يتلفظون بها بدون حرف الحلق الذي هو العين [١] ؛ ولا تزال الى اليوم لغتهم تعرف « بتمازغت » وان موطنهم الاصلي هو جزيرة العرب ولقد حاول بعض المؤرخين ان يلحقوا نسبهم ببر بن قيس بن عيلان ، فان صح ذلك فهو من باب الاتفاق [٢] ويقول بروكلمن المستشرق الالماني الكبير : ان اليهود هم الذين عملوا على اقصاء الكنعانيين عن جدول بني سام والحاقهم بجدول آل حام الذي كان بزعمهم عاقاً لوالده وما ذاك الا عن حقد وعداوة كانت بينهما نشأت عنهما حروب وإحن . ويزعم العالم دوبرا Duprat ان البربر هم من جنس آري هاجر من نواحي الكنج بالهند ! ...

---

(١) راجع كتاب افريقية الشمالية لمؤلفه « غوتي » Goutier ص ١٣٩ ط Payet باريس ١٩٤٢ م .

(٢) راجع ابن خلدون ج ١ ص ١٨ و ٦ ص ٨٩ وما يليها ...

وعلى كل فان من يطلع على تاريخ البربر يرى ، انهم امة عظيمة لها حضارتها ومدنيتها المثلى ، نشأت على عز الجانب واباية الضيم والدفاع عن الشرف مع ما كان لها من الملك والدولة وكثرة عددها ؛ انتقلت الى افريقية [1] من آسيا – جنوب فلسطين – عن طريق مصر حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م. ثم تتابعت الجاليات الكنعانية الى هذا الوطن في فترات مختلفة ودفعات متفرقة . كان منها هؤلاء الكنعانيون الذين اخرجوا من ديارهم بفلسطين حين تغلب عليهم العبريون فاجلوهم الى المغرب حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م. كما ذكرنا ؛ ويقول يوسف بن عبد البر القرطبي ان هذه الجالية الكنعانية نزلت اولاً بأرض مصر فمنعت من المكث بها وتصلب في وجهها يومئذ الفراعنة فواصلت السير الى ارض المغرب ؛ وهي تتألف من عدة عناصر منهم اليقشافيون [2] والعماليق [3] وغيرهم . وفي سنة ١٠٩٥ ق. م. تولى عرش العبرانيين الملك طالوت (شاوول) الذي باركه النبي صموئيل ، حيث كان اول ملك لبني اسرائيل بعد عصر القضاة ، فحارب

---

(١) لا زال اصل هذه الكلمة غامضاً ، وان كل ما قيل في شرح معناها او انشقاق اصل مادتها فانما هو على سبيل الظن والتخمين فقط ؛ انظر ابن خلدون ج ١ ص ٧٨ وفتوح افريقية ص ٤٤ والمؤنس ص ١٤ والمسالك ص ٢١ وفتح العرب للمغرب ص ١ . وقال ابو الريحان البيروني : ان اهل مصر يسمون ما عن يمينهم اذا استقبلوا الجنوب : بلاد المغرب ، وانما سميت افريقية لما انها فرقت بين مصر والمغرب (معجم البلدان لياقوت الحموي ج ١ ص ١٣٢٥ ط ليزيبج ١٨٦٦ م) . وعندي ان اقرب ما قيل فيها الى الصواب هو قول من قال ان « افرى » كلمة اطلقها الفينيقيون قديماً على اهل البلاد الاصليين الذين كانوا يسكنون المغرب من حدود مصر الى المحيط ومن ثمة سميت هذه المنطقة « أفريكان » اي بلاد الافرى ... ويقال انها كانت قبل ذلك تعرف باسم « ليبيا » .

(٢) يقول ابن خلدون ج ١ ص ٥٨ ط مصر ١٩٣٦ م ان ابرهيم الخليل عليه السلام تزوج بعد سارة بقنطورة بنت يقطان الكنعانية فولدت له ستة اولاد منهم يقشان فكان من نسله جيل البربر كما حقق ذلك الطبري الى المتقدمين وابراهيم سامي من المتأخرين وهو ما اتفق عليه علماء الانساب .

(٣) هم اولاد عمليق بن لاوذ بن سام موطنهم الصحراء التي بين العراق والعقبة كانت لهم بها دولة عتيدة وحضارة سامية .

اهل فلسطين وتغلب عليهم وأجلى فريقاً منهم ، فلما تولى بعده الملك النبي داود عليه السلام اخرج من بقي من الكنعانيين من ارض شنعار فكانت هجرتهم ايضاً الى هذه الديار سنة ١٠٥٥ ق. م. وما عدا الصواب الحسن الوزان حيث قسم سكان افريقية الى اربعة اقسام : عنصر افريقي اصلي ، وعنصر فينيقي ، وعنصر عبري ، وعنصر لاتيني .

أوصاف بربر الجزائر وأخلاقهم

يمتاز البربري الاهلي الجزائري عن عموم البربر بانه مستطيل الدماغ معتدل القامة والوجه ، بارز الخدين ، غير ناتيء العينين ، اسودهما متوسط العرض ، واسع الفم ، عريض الصدر والاكتاف ، ضيق الخصر ، اسود الشعر ، اسمر البشرة قوي البنية . وهناك صنف اشقر ازرق العينين مع رقة في الانف والشفتين مسطح الجبهة ، وهذا الصنف هو اقدم العنصر البربري بهذه البلاد وتوجد منه قلة بجبال جرجرة والاوراس وريف المغرب الاقصى .

والبربري خلق حراً فخوراً معتزاً بعشيرته متعصباً لقبيلته وقومه ، ولعل ذلك الافراط في التعصب والغرام بحب الاستقلال الشخصي والحرية الفردية ، الامر الذي دفع به الى الانانية والمنافسة الى حد المعاداة وهي التي بلغت به الى تشتت الشمل اليوم وافتراق الكلمة واختلاف النزاعات ؛ وهو مع ذلك نشأ حربياً شجاعاً الى حد الجرأة شرساً يبلغ احياناً الى حد الوحشية ، حاذقاً ، ذكي المشاعر منتقماً من عدوه شفوقاً بالضعفاء والمساكين محباً للعمل دؤوباً عليه ، عدواً للبطالة مكتفياً بالقليل المتواضع من بسيط المعيشة ، تاجراً كنازاً ، محافظاً على جميع مميزاته وخصائصه كما هو عليه حاله الى الآن .

ويحدثنا الدكتور غوستاف لوبون عن المرأة البربرية فيقول : والمرأة البربرية على جانب عظيم من الحمية ، فهي تحارب احياناً بجانب زوجها ، فخلّد « هوميروس » ذكرها حين قص علينا خبر تلك الملكة والنسوة

المترجلات اللائي فتحن بلاد لوبية وبعض آسيا الصغرى ، ومن النساء البربريات من جلسن على عرش الملك[1].

وتكاد تكون هذه الصفات عامة في جميع البربر ، واعظم دليل على ما ذكرنا هو ما حاولته الدول المستعمرة التي توالت على هذا الوطن منذ قرون من العهد الفينيقي والروماني الى يوم الناس هذا من عجزها عن تغيير مجرى حياة الاهلي في جميع الميادين ، في لغته او عاداته الخ ...

قال لوبون : استولت شعوب كثيرة على شمال افريقية فكانت لها آثار فيها ، فملكها القرطاجنيون والرومان والواندال والقوط والبيزنطيون قبل العرب ، ولم يتبدل اهالي شمال افريقية مع كثرة فتوح الاجانب لها ، واولئك الاهالي هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الاقل[2]. اقول بل وفي داخلها ايضاً .

وكل ذلك لا يمنعنا من ملاحظة ومراعاة تلك الحقيقة الناصعة التي نطق بها التاريخ على لسان موسى بن نصير حينما سئل من طرف الخلافة الاموية عن البربر ، فقال يخاطب سليمان بن عبد الملك : يا امير المؤمنين هم اشبه الناس بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية وسماحة وبادية ، غير انهم اغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد[3] ! ويشهد الله انه لصادق فيما قال ، وما كان تصديقي اياه الا عن تجربة واختبار طويل ودراسة عميقة لنفسية هذا الشعب في جميع مواقفه قديماً وحديثاً وما حملني على اثبات هذه الشهادة وتسليمها الا الاعتراف بالحقيقة رجاء تلافي هذه المنة الشنيعة وعملًا بالحكمة السائرة : من كتم داءه قتله .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٠٧ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

(٢) حضارة العرب ص ٣٠١ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

(٣) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٥٨ ط مصر ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٤ م . وتحفة الانفس لابن هذيل الاندلسي ص ٧١ ط باريس ١٩٣٦ م . وكتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٠٨ ط القاهرة ١٩٤٨ م. وتاريخ ابن ابي الضياف ج ١ ص ٨٦ ط تونس ١٩٦٣ م .

وقد يكون ما سماه ابن نصير غدراً هو ليس بغدر ولا خديعة وانما هو مظهر من مظاهر الغريزة التي جبل عليها هذا الجيل وما تركز في جبلته وطبيعته من شدة العصبية وقوة الشكيمة مع ما فيه من التحذر من الكيد والتوجس من الغير مهما كان شأنه ، فكان ذلك في نظر موسى غدراً وما هو بغدر ، وربما كفانا مؤونة شرح هذا المعنى ما علق به ابن ابي الضياف على كلمة المعز الفاطمي التي اوصى بها خليفته على افريقية « بلكين ابن زيري » الصنهاجي حين مغادرته المغرب الى مصر ، اذ كان فيما اوصاه به قوله : « لا ترفع الجباية عن اهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ... » قال ابن ابي الضياف : وهذه الوصاية منه معقولة المعنى ، لان اهل البوادي لولا الجباية ما عمروا ارضاً ولا سعوا في تكسب لما في طباعتهم من الدعة ... واما البربر فان سيوفهم لم تزل بادية للبغي والقتل لكثرة قبائلهم وعصائبهم ، والشر يدفع بمثله اذا اعياك غيره فالقتل انفى القتل.

وهكذا نجد ابن ابي الضياف يتمادى في تعليل احداث التاريخ ونشوء حوادثه بما اوتيه من علم وتجربة وخبرة باحوال الشعوب فنراه يربط الاسباب بالمسببات فيذكر لنا الوقائع مرتبطة بموجبات حدوثها وما يحيط بها من عوامل وظروف ، فهو بعد ذلك لا يزال يعطينا ويفيدنا بمزيد الشرح والبيان عن هذه الغريزة الموجودة في البربر ، ويذكر من شأنهم أنهم لا يسكتون الا لمن كان من جلدتهم ، فانه بعد ما ذكر مواطاة الافارقة ومساندتهم لابراهيم بن الاغلب على توليه الحكم بافريقية وعزل محمد ابن مقاتل العكي جاء بتعليل لهذا الحادث السيامي الخطير فقال ....: (وهذا امر طبيعي في البشر — خصوصاً اهل افريقية — فان نفوسهم تسكن لواحد منهم نشأ في ارضهم ولو من الموالي اذ مولى القوم منهم ما لا تسكن لمثل عمر ابن عبد العزيز اتاهم من غير ارضهم)[1] .

وقد كان ابراهيم هذا معروفاً عند البربر من قبل بولايته السابقة على مدينة طبنة عاصمة الزاب الجزائري .

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٠٣ — ١٣٢ ط تونس ١٩٦٣ م .

ويا ترى ما هو مصدر هذا الطبع الخلقي في البربر ؟ ... وكيف نشأت فيهم هذه السجية الراسخة ؟ ... هل كان ذلك عن وراثة دموية فطرية حدثت تلقائياً هكذا في هذا العنصر من البشر ؟ ... ام ان ذلك هو من خصائصه النفسية وغرائزه الثابتة في عرقه ؟ ... ام هي البيئة الطبيعية والجنس ؟ ... ام هي الظروف السياسية والعوامل الاقتصادية التي احاطت به في حياته التي مرت به ومر بها ؟ ... ام هناك ملابسات وتأثرات واسباب اخرى وتعليلات اضطرارية وعوامل اكتنفته من الخارج فكانت موجباً جبرياً لاكتسابه بهذه الظاهرة ؟ ... لا ادري والله ؟ ...

وهذا ما اترك البحث فيه لغيري من ذوي الاختصاص والتضلع في علم النفس وتحليل اخلاق الشعوب والى جهابذة علم « البيولجيا » الباحثين في نظريتي الجنس والعرق المتعمقين في دراسة نمو الدنيا وتكون الانواع .

المواطن البربرية في الجزائر

ان الامة البربرية – كما علمت – قد عمرت هذا الشمال الافريقي من حدود آخر الايالة المصرية الى المحيط الاطلنطيكي من ناحية الصحراء بارض السودان ؛ وانه لمن العسير جداً تتبع جميع هذه القبائل وما تفرع منها من بطون وافخاذ مما لا ياتي عليه حصر ولا عد ... وانما نذكر منها بعض مشاهير هذه العشائر التي سكنت ارض الجزائر واتخذتها موطناً لها من قديم الزمن مع الالماع الى اماكنها ومراكز وجودها بهذا الوطن .

هناك جذمان عظيمان يجتمع عندهما كل ما تفرق من الفروغ البربرية المنتشرة في هذا الشمال الافريقي كله من اقصاه الى اقصاه وهذان الجذمان هما مادغيس الملقب بالابتر ، والمنتسبون اليه هم البتر ، وقسم ينتسب الى برنس بن بر ، فسموا بالبرانس ؛ وكل من مادغيس وبرنس اخوان لاب واحد هو برمن ولد مازيغ ابن كنعان . والبربر في انفسهم ينقسمون الى طائفتين اثنتين ، وهما طائفة البربر الحضر الذين يسكنون

النواحي الشمالية والسفوح المزروعة ، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرون الصحراء والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً والكل يرجع الى هذين الجذمين برنس ومدغيس ؛ ولقد تفرع عن الاول عشر قبائل عظيمة ، منها ثلاث سكنت بهذا القطر الجزائري الذي نؤرخه : كتامة وعجيسة ، وازداجة ولكل من هذه فروع لا يهمنا الآن شأنها .

اما كتامة فهي من اكثر قبائل البربر عدداً واشدهم بأساً وقوة ، وكانت تقطن الساحل البحري من بونة (عنابة) الى بجاية ، وهي متوغلة في داخل الوطن الجزائري طولاً وعرضاً الى جبل اوراس ، ومن مدنها الشهيرة : جيجل ، والقل ، وسكيكدة ، وسطيف ، وقسنطينة .

واما عجيسة فهي شرقي صنهاجة وجنوب زواوة بجبال المسيلة ، ولم تزل الى اليوم قرية بدوية هنالك في ارض تليلان – جبال بين قسنطينة والقل – تدعى عجيسة ، فلعل اهلها من بعض افخاذ هذه القبيلة الذين سكنوا ارض بني تليلان . واما ازداجة فهي كذلك قبيلة عظيمة تسكن في نواحي وهران .

اما الجذم الثاني – مادغيس الابتر – فتجتمع فروعه في اربع قبائل كبرى ... والتي سكنت الجزائر منها اثنتان فقط : لواته وضريسه ، اما لواته فهي قبيلة عظيمة تفرع عنها كثير من الشعوب ، وهي تنتسب الى « ليوا [١] الاصغر » ولها بطون سبعة كان منها بجبل اوراس وضواحي تيهرت وبجاية امة عظيمة ، ومن بطونها المشهورة اثنان : زناتة [٢] وزواوة ؛

---

(١) لا يزال الى اليوم يوجد هذا الاسم في الزاب الغربي من بسكرة تسمى به قرية ليوا .

(٢) أصل الكلمة هكذا . ايزيناتين ، ومعناها أبناء زناته ، وهو اسم امرأة مشتق من اوقانة بالقاف المعقودة وهو تحريف او تصحيف لكلمة « كنماتا » ويرى ابن خلدون ان كلمة (زناتة) ترجع في اصلها اللغوي الى لفظة (جانا) او (شانا) التي هي اسم ابي الجيل كله ، وهو جانا بن يحي المذكور في نسبهم ، وهم اذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا (جانات) واذا ارادوا التعميم زادوا مع التاء نوناً فصار (جاناتن) ، ونطقهم بهذا الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب بل ينطقون به

فزناتة هي اكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً وهي منتشرة في نواحي تلمسان وريغة والاغواط والزاب ، وكانت مواطنها الاولى وسط المغرب الاقصى والصحراء المحيطة به من الجنوب وزواوة هي موطن بلاد القبائل الآن .

ويذكر ابن خلدون سكان المغرب الاوسط وهم اهل الجزائر فيقول : (... واما المغرب الاوسط فهو في الاغلب ديار زناتة ... حتى انه ينتسب اليهم ويعرف بهم ، فيقال وطن زناتة ، كان لمغراوة وبني يغرف وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة . ثم صار من بعدهم لبني ومانو وبني يلوهي . ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين ، وقاعدته لهذا العهد – القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي – : تلمسان ، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمدية وما يليها الى بجاية ، وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة ... واما بلاد بجاية وقسنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة وهي اليوم ديار العرب الا ممتنع الجبال وفيها بقاياهم[1] .

أهم مراكز البربر بالجزائر

ان من اشهر المدن والعواصم التي سكنها البربر بهذا القطر هي عاصمة القطر وام الوطن (الجزائر) كان فيها بنو مزغني الصنهاجيون ، وجرجرة ببلاد زواوة . ووارقلة – بنو ورجلان – في جنوب صحراء الجزائر ، والمنيعة او – القليعة – من واحات الجنوب الجزائري ، وندرومة ،

بين الجيم والشين واميل الى السين ويقرب لسمع منها بعض الصفير فابدلوها زايا محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس ثم الحقوا به هاء النسبة وحذفوا الالف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الالسنة (ابن خلدون ج ٧ ص ٧ ط بولاق ١٢٧٤ هـ) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

ونهيرت وما حولها ، وتلمسان ، وما بين شرشال وتنس ، وجبال وانشريس ، ونواحي جبال عمور بعمالة وهران وبين ثنية الاحد وتيارت ، وسوق هراس بعمالة قسنطينة وجيلة وفج مزالة غرب قسنطينة ونواحي بلاد الشبكة مصاب او (مزاب) .

وان الغالب من هذه القبائل البربرية بالقطر الجزائري هو متفرع عن ثلاثة شعوب عظيمة : صناهجة ، وكتامة ، وزناتة ؛ فمن صنهاجة بعمالة الجزائر : زواوة ، وفليسة ، وبنو منكلات ، وعمور ، ومنها بعمالة قسنطينة : مزيتة ، وعجيسة وبنو يفرن - الشاوية - ؛ ومن كتامة بنفس العمالة : بنوسيلين ، وقبائل بني خطاب ، وعياد ، وجملة ؛ ومن زناتة بعمالة الجزائر : ، مغراوة ومطماطة ، وسوماتة ، وبنو توجين ، وبنو مناصر ؛ ومنها بعمالة وهران : مديونة وولهاصة ، والطرارة ، وتيغرين ، وشقالة ويزناص .

المجتمع البربري

ان نظام العشيرة - او قل هو نظام الحكم عندهم فانه كان ديموقراطياً ، ليس هنالك ملك ولا سلطان ولا عرش ، تنتخب القبيلة رئيسها بنفسها وتقلده الحكم وهي تختلف وترجع اليه في المهات والملمات وكانوا يشترطون في الرئيس مزايا وفضائل يمتاز بها عن غيره ؛ ويرجع نظام الاسرة الداخلي الى المرأة فهي ربة المنزل وصاحبة النفوذ به : محترمة الجانب مسموعة الكلمة ، وكثيراً ما تنتسب القبيلة الى امرأة ، وهذه زناتة تشهد بذلك ...

وهناك كثير من الامر البربرية المالكة اشتهرت وعرفت فيا بعد الاسلام ايضاً باسم الام كابناء (تاسرغيت) في توجين وابناء (تنابعت) في مرين وغيرهم ...

ودور الامومة كما هو معلوم هو دور طبيعي في تطور الجنس البشري ، وهو سابق على دور الابوة ، ويراد بدور الامومة ذلك الدور الذي كانت الام فيه رأس الاسرة وصاحبة الامر والنفوذ فيها ويكون

ذلك عادة في الاجيال الاولى قبل ان تستقر قواعد الزواج لان الاب لم يكن دائم المقام في الاسرة وانما هو يخرج الى الصيد والحرب وقد يخرج ولا يعود فتقوم الام بشؤون الاولاد[1] ...

واما المسكن فانه كان ولا يزال عند بعض فقراء البادية من كوخ أو « طابية » أو بالكهوف ومنه ما هو من خيام الوبر والشعر ولم يعرف هذا فيهم إلا بعد الفتح العربي . اما ملابسهم فانها لم تزل في الجملة كما كانت من قبل من صوف : برنس وقشابة ، ومنهم من كان يستعمل اهاب الحيوان المدبوغ ويضعون على رؤوسهم « القنور » وهو لفظ قريب جداً من كلمة القنور العربية - بفتح النون وتشديد الواو - والمعنى واحد ! ... ويرجع تاريخ القنور هذا الى الالف الثالثة قبل المسيح ، وكانوا قليلًا ما يحلقون رؤوسهم ؛ وسراويلهم قصيرة ؛ وحليهم القرط والخواتم والخلاخل والاساور المتخذة من مختلف المعادن ؛ وهي مستعملة عند الرجال كما هي مستعملة عند النساء ؛ وطعامهم لحوم الحيوانات الداجنة والطيور والصيد ، ومن النبات البر والفول والكرم والزيتون ؛ واظهر الوان اطعمتهم التاريخية هو « الكسكسو » ولا يعرف عند غيرهم الى الآن ، وهم يستعملونه غالباً في العشاء .

وكانت مكاسبهم البقر والغنم ، وخيولهم تمتاز بالقصر مع سرعة العدو ؛ وهي تركب عارية لا يملك الفارس بيده سوى قضيب خفيف ؛ اما الابل فانها تعرف بهذا الوطن إلا منذ سنة ٦٦ ق . م . وكانت توجد عندهم بعض الحيوانات الضخمة مثل الفيل ووحيد القرن ثم اضمحلت وتلاشت .

قال ابن خلدون : « هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، ويتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويضعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا

---

(١) حسين مؤنس (تاريخ التمدن الاسلامي) ج ٤ ص ٢٣ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخيل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح والدواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاضعان في نتاج الابل وضلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالاكسية المعلمة ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق ، ولغتهم من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم » .

« يقال ان افريقش ابن قيس ابن صيفي من ملوك التابعية لما غزا المغرب وافريقية وقتل جرجيس وبنى المدن والامصار وباسمه زعموا سميت افريقية ، لما رأى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم ! ... فسموا بالبربر ، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الاصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الاسد اذا زأر بأصوات غير مفهومة »[1] .

وعلى هذا الاساس أطلق اليونان اسم البربر على سكان هذا الوطن كما قدمنا . ويفهم من سياق كلام ابن خلدون ان في البربر صنفين كما هو الشأن في العرب أيضاً صنفاً متحضراً وصنفاً متبدياً فحالهم كحال العرب يختلف باختلاف البيئة والموطن .

المعتقد البربري

كان للمعتقد البربري اتصال عظيم بمظاهر الطبيعة وما فيها من عظمة كالاجرام العلوية ؛ فالكواكب عندهم مقدسة كما ان الثور والكبش والتيس والافعى والبوم والحمام والسلحفاة والضفدع والقرد والهر هي عندهم رموز مؤلهة كذلك كما ان للكهوف والمغارات عندهم مقاماً رفيعاً

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٨٩ ط بولاق ١٢٧٤ هـ وحضارة العرب ص ٣١٠ ط القاهرة ١٩٤٨ م .

بسبب ما يعتقدون من حلول الارواح بها ؛ فهم يتبركون بما فيها من مياه ساخنة أو باردة ويقربون لها القرابين البشرية متوسلين اليها في قضاء حوائجهم ؛ وان من واضح الادلة على تقديس البربري للحيوان ذلك الرسم الذي عثر عليه في قرية « الزناقة » بحدود الجزائر الجنوبية ، بين بني ونيف وواحة الفيقيق من مقاطعة وهران وهو يمثل الرب آمون « عمون رع » أحد آلهة المصريين ، وهو على صورة كبش تحيط به الهالة ؛ وهذا أحد الادلة التي دلت على ثبوت احتكاك الشعب البربري بالشعب المصري منذ عصور وأجيال ، كما تشهد لنا بذلك أيضاً كلمة « نيل » نفسها فهي تسمية بربرية أسوبية لا محالة سمي بها مجرى نهر مصر المشهور ؛ وأرى كذلك ان تقديس أو احترام بعض العوام اليوم لقرون كبش الضحية والنذور والاحتفاظ بها هو من ذلك وهم يدعون ان هذه تدفع عنهم وتقيهم النظرة أو العين ، وفي الحقيقة ان ذلك يرجع الى هذه العقيدة البربرية العتيقة .

الثقافة والحضارة والعمران

قرر بعض مؤرخي الحضارة من علماء امريكا انه لا يمكن التوصل الى معرفة تاريخ الانسانية - أي بحيث نجعل منه موضوعاً مفهوماً - إلا بعد ان نولي انتباهنا للعناصر التقدمية فيه أي لتطور العلوم ، فهو يقول : ان تاريخ العلم أو تاريخ المعرفة يجب ان يكون نواة لكل تاريخ للحوادث الانسانية ... ولذلك كان أهم أقسام التاريخ ثلاثة أشياء : تاريخ الدين ، وتاريخ الفن ، وتاريخ العلم ، على ان التقدم لا يكون ابداً ملموساً اكيداً الا في القسم الاخير من هذه الاقسام الثلاثة ، من اجل ذلك وجب ان يحتل تاريخ العلم المركز الاوسط في صورة مدنية [١].

انه مما لا شك فيه ان للبربري فضلاً عظيماً على الافريقي وعلى المدنية الافريقية في القديم بما اخترعه من أشكال الحروف وابتكار الخط

---

(١) محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ٣٧

الذي يعبّر به عما يختلج في صدره من المعاني والكلمات ، في حين ان الخط كان منعدماً والكتابة مجهولة وخاصة بهذه الاوطان . ومن تأمل الخط البربري وأشكال الكتابة وجدها تشبه كثيراً الاوضاع الكونية والكائنات الطبيعية ، فهناك من الحروف ما يشبه الشمس ومنها ما يشبه القمر والنجم والبرق الخ ... ولم تكن الحروف الاصلية لتزيد لديهم على أربعة عشر حرفاً . يسمونها « تيفيناغ » ومعناها الحروف المنزلة ولها حركات وضوابط تسمى « تيدباكين » بمعنى الدليل على العمل والتوسع ، وهم يكتبونها بحرية تامة كيفما شاء الكاتب فليكتب : من اليمين الى الشمال وبالعكس ومن أعلى الى أسفل أو بالعكس ، حسب اصطلاح القبيلة ، ولم يبقَ لهذا الخط اثر بهذا الشمال الافريقي سوى بالصحراء عند الملثمين من قبائل لمتونة المشتهرين باسم (التوارك)[1] ، فانهم لا يزالون يستعملون في مكاتبهم خط « تيفيناغ » على قلة .

ولقد نشأت لغة البربري تشبه خطه في البساطة والاوضاع الطبيعية كما هو شأن الانسان في الاول ، وهي كغيرها من سائر لغات البشر ذات لهجات وصيغ مختلفة كما هو مشاهد من أهلها الى الآن بين سكان القطر الجزائري والمراكشي فهناك لهجة خاصة بزواوة - بلاد القبائل - تختلف في بعض مظاهرها عن لغة الشاوية وبني مصاب (مزاب) وبني صالح بجبل البليدة والشلوح والتوارك الخ ... ولا يزال اسم « تماشغت » أو « تمازغت » يطلق على جميعها[2] بمعنى اللغة المازيغية وكلها ترجع الى جذر واحد يمت بصلة الى اللغات السامية ، وهذا جدول يبين لك شكل امهات حروف لغة « تيفيناغ » مع توضيح صيغة النطق بها على سبيل التقريب ؛ وباضافة الخط الفينيقي .

وعثر الباحثون من علماء الآثار على نقوش مكتوبة بالخط الحميري

---

(١) قيل انهم سموا بذلك لتركهم المسيحية الى الاسلام ؟ ...

(٢) Dictionnaire Français — , Louis Rin : les origines Berbères. Alger 1889. Tamâcheque par S. Cid Kadoui. Alger 1894.

على صخور من دياعد وغمود ومشهد ووادي نقب هي قريبة الشبه جداً من نقوش الخط البربري الموجود بناحية المغار من القطر الجزائري[1] .

أبجد	تيفيناغ: شكل	تيفيناغ: نطق	فينيقي	أبجد	تيفيناغ: شكل	تيفيناغ: نطق	فينيقي
ا	•	ءَ	𐤀	م	⊏	يَم	𐤌
ب	ⴱ	يَب	𐤁	ن	I	يَن	𐤍
ج = ز	ⵣ	يَـز	𐤂	س	⊡	يَس	𐤎
د	Λ = Π	يَد	𐤃	ع			𐤏
هـ	⁞	يَـه	𐤄	ف	][	يَف	𐤐
و	:	يَـو	𐤅	ص	ⵚ	صود	𐤑
ز	#	يَـز	𐤆	ق ك	∴	يَق	𐤒
ح			⊟ • 8	ر	□	يَر	𐤓
ت ث ط	+	يَت	⊕	ش	ⵛ	يَش	𐤔
ى	ⵉ	يى	𐤉	ت	+	يَت	† = X
ك ج	ⵅ	يَك	𐤊	غ	⁝	يَغ	
ل	॥	يَل	𐤋				

جدول الخط البربري تيفيناغ والفينيقي

كما ان البربري فضلاً آخر عظيماً في سبقهم الى الاطلاع على معدن النحاس واستعماله والانتفاع به . فقد اكتشف الاثريون بضواحي العاصمة بناحية « قامة الفول » _ سانت اوجين _ عدد قطع وصفائح نحاسية وغيرها

(١) راجع صورتها في كتاب تاريخ الادب العربي لحنا الفاخوري ط بيروت ١٩٦٠ م .

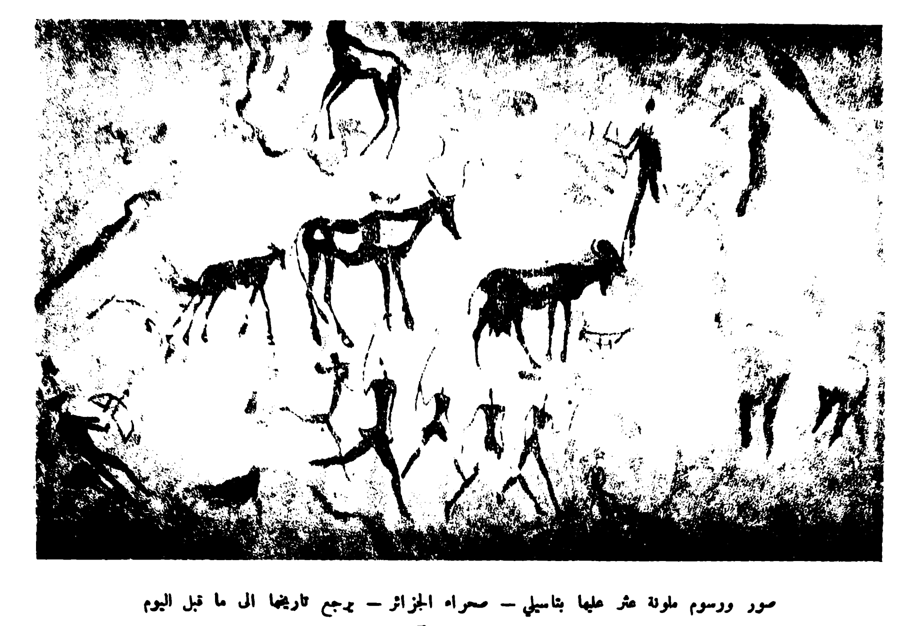
كما وجد مثل ذلك قرب مدينة « صلداي » – بجاية – مما يدل على تيقظ البربر وميلهم الى العمل والصناعات .

ولقد عثر الباحثون من علماء الآثار الاركيولوجية في سنة ١٩٣٣ على نقوش ورسوم مختلفة متنوعة « تاسيلي » بالجنوب الشرقي من صحراء الجزائر وبالشمال الشرقي من بلاد « المقار » فيها عدة صور للنوعين الانسان والحيوان مزوقة بألوان متناسقة عجيبة متقنة الوضع والتخطيط ، قالوا ويرجع تاريخها الى ما قبل سبعة آلاف او ثمانية آلاف سنة ، وان دل هذا على شيء فانه يدل على تغلغل روح الفن والتقدم الصناعي في الشعب البربري الجزائري منذ القدم ، ولا يزال علماء الآثار يتابعون خطاهم السديدة في البحث والتنقيب عن مدنية هذا الشعب في خبايا ارضه الغنية وتربته الزكية والمستقبل كشاف . (انظر الصورة ص ٦٤)

اما عن سير الادب والعلم عندهم فانني لم اقف على ادب بربري بالمعنى الصحيح ، ولعل ذلك يرجع الى اختلاف لهجاتهم وعدم ضبط قواعدها اللغوية ضبطاً محكماً او لضيق لغتهم عن التعابير الفنية ؟ ... وان كل ما ظهر الى الآن من المقطوعات الشعرية والنثرية لا يكفي عندي في الاستشهاد به على ادب امة وثقافة جيل عظيم كأمة البربر هذه .

وغاية ما بلغنا عنهم في الفن والزخرفة لم يتجاوز اشكالاً وخطوطاً هندسية مثل ما نشاهده من الوشم المزخرف على ظاهر اليد وفي الوجه والساق والذراع ، وهو يدل على تركز الروح الفنية فيهم وتغلغلها في المرأة بالخصوص مما جعلها تتحمل المه وتصبر على وخز الابر غير متبرمة ؛ وكان مما يراد بالوشم عندهم التمييز بين العشائر والقبائل حتى لا تختلط نساء الحي بغيرهن في الحروب وفي مواطن الثورات والنزاع ايضاً [1] ، ومن مظاهر الفن البربري كذلك تلك الزخارف المرسومة على منسوجاتهم واوانيهم فيما هي عليه من تناسب في الالوان واتساق في النظام . وقد

(١) قال ابن العربي : ورجال صقلية وافريقية يفعلونه ليدل كل واحد منهم على رجلته في حداثته ، (احكام القرآن ج ١ ص ٥٠١ ط القاهرة ١٣٧٦ ﻫ = ١٩٥٧ م) .



صور ورسوم ملونة عثر عليها بتاسيلي – صحراء الجزائر – يرجع تاريخها الى ما قبل اليوم
بنحو سبعة او ثمانية آلاف سنة

ذكر احد الباحثين في جريدة « الكوتيديان الباريسية » تحت عنوان : تاريخ الامم المغلوبة على امرها لم يكتب . قال فيه : ومن قرأ تاريخ افريقية الشمالية القديمة يعرف انه قامت حضارة زاهرة في جبال الاطلس قبل الوف من السنين للميلاد ، وكان في تلك الاصقاع مدنية بربرية قوية ذات علم وفن تعب المصريون والفينيقيون في القضاء عليها ! ...

ورغم انتشار جنس البربر بكامل سواحل هذا البحر الابيض المتوسط فانه لم يسجل لنا التاريخ مبلغ نشاطهم في البحرية عندهم ومقدرتهم الخاصة في شؤون الملاحة ؟

ومن حيث العمران نرى ابن خلدون يذكر قبائل بني « يالدس » وهم من بطون « بني ومانوا » من مشاهير قبيلة زناتة بالمغرب الاوسط فيقول : انهم هم الذين اختطوا بمواطنهم المتصلة بقبلة المغرب الاقصى والاوسط تلك القصور والاطم اتخذوا بها الجنات من النخيل والاعناب وسائر الفواكه ، فمنهـــا على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات — بصحراء الجزائر — وفيه قصور متعددة تناهز المائتين آخذة من المشرق الى المغرب وآخرها من جانب المشرق يسمى « تمنطيت » وهو بلد مستبحر في العمران [1].

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٦ ط بولاق ١٢٤٨ هـ.

الدولة الفينيقية

ـ القرطاجنية ـ

٨٨٠ ـ ١٤٦ ق.م.

الفينيقيون امة شرقية متشعبة عن الفرع الكنعاني[١] السامي وهم ينتسبون الى وطنهم « فينيقية »[٢] بآسيا الصغرى غرب بلاد الشام الى جبال « كارليل » بين جبل لبنان والبحر وهو مكان ضيق مستطيل يبلغ طوله ٢٠٠ كيلومتراً وعرضه ٣٠ ك.م. واهم مراسيهم بيروت وطرابلس الشام وصيدا وصور سيدة البحار ـ لندن القديمة ـ.

اما لغتهم فهي من اهم اللهجات الكنعانية بعد العبرانية وهي تطابقها بأصولها السواكن مطابقة تامة؛ والفروق بينها وبين اللهجة العبرية في الحروف المتحركة اهم منها في الحروف السواكن، وكذلك النحو،

---

(١) تنقسم جوع الكنعانيين الى كتلتين عظيمتين كونت الاولى منها الممالك الكنعانية في سورية وكونت الثانية دولة الكنعانيين ومستعمراتها بجزر البحر الابيض المتوسط وفي شمال افريقية وجنوب اوروبا.

(٢) الكلمة يونانية (فنيكس) ولها معنيان : النخيل واللون الاحمر وذلك لاستعمال الفينيقيين هذا اللون في ملابسهم ورسم النخيل على نقودهم.

وللفينيقيين بناء للفعل غير معروف في اللهجة العبرية ولكنه وجد بعد ذلك في اللغة العربية وهو صحة الدلالة على الازمان باستعمال فعل مساعد — هو كان — امام التام من الفعل لجعله غير تام ، واللغة الفينيقية في لهجتها تشبه لغة اهل جزيرة (مالطة) اليوم ، فان هذه ، فيما رجحه علماء اللغات ، فينيقية ايضاً ، وبذلك كان للغة اهل مالطة اهمية عظيمة من الوجهة التاريخية ، ومهما يكن من امر فاللغة الفينيقية لغة سامية هي اخت العربية وقد اقبل عليها البربر لما وجدوا فيها من القرب من لغتهم ومن الاتصال الجنسي الكنعاني بأهلها ، وقد زادت الفينيقية هذا الوطن تأكيداً للعنصرية السامية وتمهيداً للعروبة والعربية .

اتصال الفينيقيين بشمال افريقية

نشأ الفينيقيون بطبيعة بلادهم وما تقتضيه وضعيتها ومساحتها الضيقة قوماً تجاراً مولعين بالاسفار وركوب البحار فبرعوا في الملاحة حتى اصبحت لهم السيادة فيها كما هي الحال عند انكلترا وامريكا اليوم ، ولذلك دعيت عاصمتهم « صيدا » بلندن القديمة ؛ وذلك بفضل اسطولهم الضخم العتيد ، وكانت لهم مغامرات بالاقطار النائية الشاسعة لجلب ما هم في حاجة اليه مما يصلح بصناعتهم ، وللتجارة واكتساب الرزق ايضاً ، فكانوا يحملون الفضة من اسبانيا والقصدير من انكلترا وغير ذلك من المعادن والاشياء الضرورية التي لا بد لهم منها فانتقلوا بذلك في بلاد الله الى ان دخلوا مصر متعاهدين مع اهلها فأسسوا هنالك شركات تجارية وخاضوا غمار البحر (البحر الابيض المتوسط) في سبيل مقاصدهم التجارية ؛ وهكذا الى ان حلت سنة ١٥٠٠ ق . م . فظهرت هنالك سفن لبعض الامم التي كان ان اقتبست حضارتها من هؤلاء الفينيقيين فاصبحت تزاحمهم يومئذ — سنة الكون — ومن بينها امة الاغريق التي اخذت في مضايقة فينيقية وحملتها على الانتقال او بالاحرى على الالتجاء بسفنها الى بلاد المغرب .

وفي سنة ١٢١٥ ق . م . انتصر الاسرائيليون على الكنعانيين الذين

كانوا بفلسطين وارغموهم على الجلاء فانتقل بعضهم الى ارض فينيقية ومنها الى افريقية فنزلوا على اخوانهم الكنعانيين الاقدمين . وكان سلوكهم الى هذه البلاد ومجيئهم اليها على طريقين : براً وبحراً ، اما طريقهم البري فكانت بواسطة برزخ السويس . وصادف ان كان المجتمع المصري يومئذ يتخبط في فوضى عامة واضطراب سياسي عظيم ؛ فاهتبل المصريون هذه الفرصة وخرج الكثير منهم صحبة الفينيقيين وجاؤوا معهم الى هذه البلاد فنشأ منهم جيل خاص مختلط يعرف بالفينيقي اللوبي ؛ له لغته الخاصة وخطه الخاص وهو المعروف بالمسند اللوبي . كما انهم مروا في طريقهم البحرية بايطاليا وصقلية فصحبهم يومئذ « الاترسك والاوسز » وجاء معهم آخرون من « الصيقال » سكان صقلية ، كما اصطحبهم آخرون ايضاً من اوروبا مثل « الليغوبيين » الخ ... وذلك ما نشاهد اثره الى الآن بين ابناء هذه البلاد من اختلاف الناس في سحناتهم وعواطفهم واجسامهم وتفكيرهم ومستوى عقولهم ايضاً ! ... وذلك الاختلاط نفسه هو الذي مكن من اقدام الفينيقيين — بعد ذلك — في هذا القطر الافريقي .

وتقدم القوم اولاً الى ليبية وانتشروا بكامل الساحل الافريقي فأسسوا به نحو الثلاثمائة مركز ما بين مستودع تجاري ونحو المائتي مدينة ، كان منها بالقطر الجزائري مدينة ايكوسيم — الجزائر — وصلداي — بجاية — وروسكادي — سكيكدة — وهبو بتشديد الباب معناه الاب — بونة[1] — ورسجونتا — ماتيفو — وشولو — القل — ويول — شرشال — وانجيجللي — جيجل — وروسقور ، وتاقسبت — وتادلس — دلس وتنس ، وتيقزيرت ؛ الخ ... وكان من مراكزهم التجـــارية بداخل القطر : مدروس — مداورش — وتقاست — سوق اهراس — وتيفيست — تبسة — ؛ ومنها بالساحل التونسي ايضاً سوسة وبنزرت وبالمغرب تنجيس — طنجة — وروسادير — مليلة — وجدير — اكادير — وهلم جراً ... وبهذه المواطن

---

(١) يلاحظ ان المدينة الحالية بنيت نحو سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م — وهي على نحو ٢ كيلومتر من موضع بونه (عنابة) القديمة .

نشروا بضاعتهم وظهرت براعتهم في صنـــاعة الخزف والطين والزجاج والمنسوجات الحمراء والاسلحة الخ ... وكان الرواج والبيع في جميع هذه البضائع والسلع وكل الصناعات بطريق المعارضة والمبادلة بمنتوجات هذه البلاد المغربية من صوف ووبر وجلد وريش النعام والانعام والعاج الخ ...

وبهذه الطريقة التجارية - والديبلوماسية ايضاً - تم لهؤلاء الوافدين الاستحواذ على اقتصاديات البلاد واتسع لهم نطاق المعاملة فاضطروا بعد ذلك الى ضرب النقود [1] فكان لهم الاستيلاء السياسي بذلك . فالفينيقيون هم الذين ابتدعوا فكرة الاستيلاء على البلاد واستعمار الاوطان بطريقة تأسيس الشركات التجارية ، وهي الطريقة نفسها التي سلكتها هولاندة وانكلترة في الهند وبلاد الشرق .

تأسيس قرطاجنة

كان لشدة توغل تاريخ قرطاجنة في القدم - حتى كاد ان يتصل بفجر التاريخ - ان احاطت به اقوال وآراء كثيرة وروايات متناقضة مضطربة ضربنا عنها صفحاً واقتصرنا على ما اتضح لدينا رجحانه حسبما رواه لنا الشاعر اللاتيني فيرجيل .

ففي سنة ٨١٤ وقيل ٨٨٠ قبل الميلاد خرجت الاميرة (جونو) - بإمالة النون الى الضم والفتح - ارملة (اسرباس) رئيس كهنة مدينة صور الفينيقية فارة من ظلم اخيها (بيغماليون) المستبد بالملك دونها والمستأثر بكنوز زوجها وتراثه ، فكرهت الاميرة المقام على الضيم هنالك وجاءت الى هذا الشمال الافريقي حيث تقدمها اليه قومهـــا الفينيقيون ، فنزلت بساحل تونس فابتاعت من ملك البلاد البربري (ايارباس) قطعة من ارض جبل (برسة) وشرعت فيمن معها من الاتباع في تأسيس المدينة المسماة

---

(١) يرجح ان اختراع العملة كان في القرن السابع ق. م. وينسب اختراعها الى ملوك (ليذا) ويقال انها اخترعت ببلاد الصين سنة ٣٣٥٠ ق. م.

باسمها : (كرت جونو) التي اصبحت معروفة فيما بعد بقرطاجنة[1] عاصمة شمال افريقيا الى الفتح الاسلامي : ويقال ان هذا المكان كان يعرف باسم (قمبي) وانه كان قبل ذلك مستعمرة انشأها اهالي صيدا الفينيقيون ايام مجدهم ؟ ... وبذلك لفتت الاميرة انظار الناس الى هذه العاصمة الجديدة فأمها الناس من كل فج عميق ، والتحق بها الكثير من سكان سواحل البحر الابيض المتوسط من اهل الشام والشمال الافريقي وغيرهم في مناسبات مختلفة ...

فعمرت المدينة واتسع بهـــا العمران والمدنية فبلغ عدد سكانها الى ٣٠٠،٠٠٠ نسمة وهنالك من بلغ بهم الى المليون ! ... ثم كانت بعد ذلك مركزاً لبث العمارة بكامل هذا الساحل الافريقي على سيف البحر فانشئت المدن والمرامي وكثر عددها حتى فاق المآت ... (ثم اضمحلت بعد ذلك إلا القليل) ويومئذ أصبحت قرطاجنة عاصمة الحوض الغربي وحامية حمى الفينيقيين من طرابلس الشام الى بوغاز جبل طارق . ونشأت بذلك في افريقيا دولة شرقية الاصل مغربية الموقع .

ومن الناس من يرجع بتاريخ انشاء مدينة « أوتيكة » – قرت عوتيقت – المدينة العتيقة – بالقرب من تونس الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ويجعلها من موسسات الفينيقيين .

نظامها الحكومي

كان من الضروري بل الواجب السياسي على هذه الدولة الناشئة بهذه

---

(١) ويقول بعض الناس ان اسم قرطاجنة محرف عن اللفظ الفينيقي « كرت هدشت » بمعنى القرية الحديثة وهذا عندي بعيد بالنسبة الى قواعد التعريب ، فأين لفظة – جنة – من هدشت = او حدشت ؟ ... بل الصواب هو ما ذكرنا : كرت جونو – اي قرية جونو – وهذا اقرب الى اللفظ الحادث قرطاجنة من كرت هدشت . ويقولون ان اسم الاميرة هذه هو إيليسا او « عليشه ديدو » ؟ ... وهو اسم مركب من جزئين كما ترى ، ولعت مرقاباً في الجزء الثاني من هذه التسمية لكونه وصفاً بمعنى اللاجئة قد يصدق هذا على الاميرة ، غير اني متوقف كثيراً في الجزء الاول : ايليسا ، او عليشه فمن اين لهم ذلك ؟ ...

البلاد ان تسعى في تأسيس حكومتها المركزية للمحافظة على النظام والدفاع عن شرفها وحقوقها والذود عن مراكزها ومستودعاتها الاقتصادية ومؤسساتها المنتشرة بهذا الوطن ، وقد كان ذلك بالفعل فانشأت لها نظاماً جمهورياً تحت رئاسة شيخين ينتخبهما الشعب مباشرة من أسرتين مختلفتين لمدة سنة كاملة ، احدهما للادارة العسكرية والآخر للادارة المدنية ، ويطلق على كل واحد منهما لقب « شفط » بمعنى سبط بالعبرانية ، وهو الحاكم ولم يكن لاحدهما – قانوناً – الاستقلال بالامر دون صاحبه ، فلا بد من اطلاع زميله واتفاقهما على اي موقف كان ولهما الحق في تحرير نصوص القوانين الدولية بمساعدة لجنة خاصة تعين من طرف مجلس الشيوخ ، وان جميع الولاة وممثلي الحكومة في سائر المناطق المحتلة يعينون من طبقة التجار وارباب الصناعة وقد كان هؤلاء غالباً ينظرون الى مصالحهم الشخصية ويعملون لحسابهم اكثر مما ينظرون الى مصالح الدولة العمومية وبذلك ساءت العلائق بين الحكومة والرعية فيما بعد – نظراً لسوء سلوك هؤلاء .

وكان هنالك ثلاثة مجالس : مجلس النواب وهو يحتوي على ٣٠٠ عضو ومجلس الشيوخ فيه ٢٨ عضواً ينتخبون لمدة حياتهم ؛ ومجلس القضاء المسمى عندهم بمجلس المائة والاربعة ، واعضاؤه كلهم من الطبقة الاريستوقراطية (الاشراف) وهو يستمد سلطته من ذينك المجلسين الاولين ومنهم الكثير ممن توصل الى العضوية بهذه المجالس والى مناصب الحكم بالمال والعطاء .

وبهذا النظـــام الاستشاري اشتهرت دولة قرطاجنة بكونها اول من سن في العالم نظام الحياة النيابية والحكم الجمهوري . وذلك ما حمل الفيلسوف العظيم ارسطو على ارسال شهادته بتزكية النظام الاداري القرطاجني في التاريخ حيث قال : « ان لقرطاجنة دستوراً انفردت بكماله عن سائر الدول ، ولها شرائع غاية في الحسن ، ومن الدليل على ما وعته من الحكمة انها مع ما للامة عندها من السلطان لم نجدها قط بدلت شكل الحكم ولا نشبت فيها فتنة » ... ثم قال : « ان القضاء عند القرطاجنيين افضل منه عند اليونان ذلك لانهم لا يرضون له أغفال الناس ، بل يولونه احسنهم طريقة واحمدهم سيرة » .

وقد تطور هذا النظام إبان القرنين الاخيرين من حياة قرطاجنة فكان هنالك مجلس الثلاثين ومن خصائصه فرض الضرائب ، ومجلس العشرة ومن خصائصه الاشتغال بالشؤون الدينية وبنايات المعابد وتنظيمها .

واما الجيش عندهم فانه في الغالب كان من المأجورين ومرتّقة البربر وغيرهم ويبلغ عدده الى خمسين الفاً ، وقد بلغ القرطاجنيون في البحرية وحركة الاساطيل الاوج فانطلقوا يجوبون البحار ويكتشفون مجاهل المعمورة الى ان بلغوا البحر المحيط الاطلسي واوغلوا فيه حتى اطلعوا على قارة امريكا وعرفوها قبل ان يعرفها كريستوف كولومب بستة عشر قرناً ولهم فيها آثار عثر عليها الباحثون فيما بعد ، على ان سطوتهم في الحكم كانت لا تتجاوز الشواطىء والسواحل الافريقية اذ لم تكن خطتهم المرسومة لترمي الى اكثر من اخضاع ما حازوه من مرامي وموانى هذا الوطن ، فلم يكن التوغل في داخل الوطن من شأنهم بل كانت ادارة شؤونه بيد اهله الافارقة ، وبالجملة فقد كان نظام الحكم القرطاجني على العموم متسامحاً سهلاً مع الاهالي ، فهو لا يعمل على ازالة الزعامات واماتة الرجولة وابادتها كما فعل الرومان ومن سار على شاكلتهم بعد ذلك من المستعمرين !... نعم كانت هناك وقائع وحروب بينهم وبين الاهالي ولكنها كانت على خلاف النزعات الاستعمارية الدينية الاخرى ؛ ورغم ذلك فالحكومة كانت تعامل رعيتها بالحسنى الا نادراً فانها تعاقب عقوبة عنيفة شاذة واما الخزينة فانها متكونة من الضرائب والمغارم وريع المحصولات .

المعتقد القرطاجني

اشتهر الفينيقيون بميلهم الى النظر في الطبيعة وما اشتملت عليه من اسرار وغموض وما كان فيها من الغاز المبة وباقبالهم على التفكر والاجتهاد في ادراك غوامض الدين الروحية فاداهم اجتهادهم هذا وحرصهم على العبادة الى الخضوع للشمس تحت اسم « بعل » وتانيث - القمر - وقد وجدت قرية قريبة من قرطاجنة تسمى باسم هذا المعبود ، وعمون هو كذلك من

آلهتهم ايضا ، وكان يشبه غالباً بكبش او تيس أقرن ، وكانت القرابين تقدم من قرطاجنة الى الهة صيدا « عشترت » المعروفة عند الاشوريين والبابليين باسم « عشتر » او « اشتر » وهو كوكب الزهرة المسمى Vénus ولها اسماء اخرى تقارب هذه عند الاراميين ، وهو صنم يمثل زوجة بعل المعروف عند اليمنيين باسم « عثتار » (مذكر لا مؤنث) ولهم هياكل ضخمة للعبادة وهي مستودع تماثيل آلهتهم واليها تقرب القرابين وتقدم الضحايا البشرية ايضاً ! ... وقد سرى نوع من هذه التقاليد بين الاهالي فقلدوهم فيها .

وكان الفينيقيون يعدون اعمال العهارة والفجور اعمال تيمن يتقربون بها الى اربابهم ، وقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف التي كانت تجري بها مثل هذه المخازي في بلاد فينيقية[1] .

الوسط القرطاجني

بلغ من امتزاج الشعب المغربي بالقرطاجني ان تكونت بينهما وحدة كاملة . فاندمج الكل في الكل ، وأوثقوا روابط الاتصال هذا بالزواج بين الخاصة والعامة فكان اشراف الاهالي وامراؤهم يتزوجون من نبيلات فينيقية والعكس ، وباعتناق الاهالي لعقائد قرطاجنة والاقبال على مصنوعاتها ايضاً تأكدت العلاقة وأصبح الكل امة واحدة ، ويكفينا في ذلك حجة انتقال عرش المملكة الفينيقية من آسيا الى هذه القارة . ويمتاز الوسط القرطاجني بانهماكه في العمل والتفاني في حب الصناعة والفلاحة والاكثار من الاسفار وعقد الرحلات في سبيل التجارة ؛ وبظهور حركة التأليف ونشاطها بينهم . ونرى القرطاجني في جميع مراحله محباً للسلم عفيفاً .

الجـــالية اليهودية

كان ابتداء مقدم اليهود الى شمال افريقيا منذ سنة ٥٨٨ ق. م. اي

---

(١) جعفر الحسني : محاضرات المجمع العلمي العربي ج ٣ ص ٥٧٦ ط دمشق ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م.

في الوقت الذي فتح فيه الملك البابلي « بختنصر »[1] Nebuchadnezzar مدينة اورشليم[1] – بيت المقدس – وشرد اليهود منها فخرجوا مضطهدين لاجئين الى ابناء عمومتهم الكنعانيين بهذا الوطن – البربر والفينيقيين – واشتهر هذا التشريد اليهودي بين المؤرخين باسم : جلاء بابل ؛ ثم كان الجلاء الثاني عندما حاول اليهود الخروج عن طاعة الرومان ، فقضى عليهم الامبراطور طيطوش بن فسباسيان سنة ٧٠ م. وشتت شملهم في العالم وخرب بيت المقدس الخراب الثاني ، فالتجأ يومئذ هؤلاء اليهود الى افريقيا ايضاً ، ثم توالت بعد ذلك الهجرة اليهودية من المشرق الى هذا الوطن في مناسبات مختلفة واوقات متفرقه وقد كانت قبيلة جراوة المخيمة بجبل اوراس ونفوسة ومديونة كلها تدين بدين اليهودية الى عهد الدولة الادريسة فاعتنقت الاسلام ، ولا ندري أكان ذلك التهود في هذه القبائل عن عقيدة وايمان ام عن تقليد ام عن وراثة جنسية سياسية ؟ ...

غوائل الغرب

كانت الناحية الشرقية من الجزائر – نوميديا – مصيليا (عمالة قسنطينة) هادئة مطمئنة تسير تحت طاعة ملكها البربري (غولا) الموالي يومئذ لقرطاجنة ، وكانت الناحية الغربية من الجزائر – موريطانيا الغربية – ومعها مراكش مصيصليا تحت نفوذ الملك البربري (صيفاقس) ؛ وقد كانت انظار رومة وقتئذ متجهة نحو هذا القطر الافريقي ، فحاولت هذه الدولة يومئذ التدخل في شؤونه بطريق التغرير والوعود الكاذبة وجاءته بداء المنافسة كما هو شأن الغرب مع الشرق الى الآن ! ... فأوهمت صيفاقس بالمساعدة على ضم نوميديا اليه ان هو عمل على انتزاعها من غولا حليف قرطاجنة ، وبذلك يتم له الاستيلاء على كامل القطر الجزائري من الشرق الى الغرب ؛ فاغتر صيفاقس بتدجيل رومة وخرج

(١) كان استيلاؤه على بيت المقدس وتخريبه ونهبه له في ثلاث دفعات : الاولى سنة ٦٠٦ ثم في سنة ٥٩٦ ثم في سنة ٥٨٨ قبل الميلاد.

من عاصمته صيغة - ارشقول - لمهاجمة مملكة غولا فكانت الحرب بين الفريقين سنة ٢١٢ ق . م . وكان على جيش غولا ولده ماسنيسا الذي لم يتجاوز يومئذ السابعة عشرة من عمره ، وأخيراً انهزم صيفاقس متقهقراً الى موريطانيا ، ثم أعاد الكرة ثانياً على نوميديا في السنة التالية فخاب أيضاً ، ويومئذ اتسع نطاق المملكة الجزائرية وتوحدت ادارتها تحت نفوذ الملك غولا . ثم بعد وفاته نشأت فتن ومنازعات بين ولده ماسنيسا ومزاحميه على ملك أبيه ، ومنهم عمه ؛ ولم تشأ قرطاجنة يومئذ ان تتدخل في شأن هذا الخلاف ، ولكن ماسنيسا غضب لذلك ، وكان يعتقد مناصرة قرطاجنة ! ... وبعد حروب سنة ٢٠٦ ق . م . اقتسم هو وعمه مملكة مصيليا وأعلن مخالفة قرطاجنة ومحالفة رومة واذ ذاك عملت قرطاجنة على استمالة خصمه صيفاقس وأخذت تغريه بشتى المغريات ومنها مصاهرته بيت الملك فأصبح صيفاقس بجانب قرطاجنة مناوئاً لماسنيسا ، وفعلاً انتصر على خصمه وشرده في الجبال وانتصب صيفاقس على عرش نوميديا واحتل سيرتا - قسنطينة - سنة ٢٠٤ ق . م . ونشر نفوذه على القطر الجزائري من أقصاه الى أقصاه . ويومئذ اختفى ماسنيسا يرقب الفرص المؤاتية حتى اذا تهيأت له وأحدق الخطر الروماني بقرطاجنة نهض يلتهب غيضاً على عدوه ومنافسه صيفاقس ، فانضم له يومئذ بعض اشتات من البربر ومن ورائهم رومة ، وكانت هنالك المعارك الشديدة والهزائم المريرة كاد ان يخفق فيها ماسنيسا أيضاً لولا القدر . وأخيراً دخل هذا عاصمته سيرتا منتصراً فقبض على عدوه وبعث به مكبلاً الى رومة ، يرسف في قيوده وبقي الملك صيفاقس في أسره حتى مات هنالك غيضاً وأسفاً سنة ٢٠١ ق . م . وهكذا مآل سياسة من يحتمي بالاجنبي على مواطنيه وأبناء جنسه فان هلاكه يكون على يده لا محالة وكم في التاريخ من عبر وآيات على ذلك . ولما اندحرت قرطاجنة في حروبها ضد الرومان في وقعة (جاما) سنة ٢٠٢ ق . م . اضطرت الى اداء غرامة حربية لماسنيسا والاعتراف بـه ملكاً شرعيـــاً على عرش أسلافه وذلك جزاء الصابرين .

الحروب الصقلية والبونيقية

ان كل من تتبع تاريخ هذه الدولة يعلم انها ما دخلت في حرب قط ولا أعلنتها إلا مرغمة مدفوعة اليها دفعاً ، ومن ذلك ما اشتهر في التاريخ باسم الحروب الصقلية ، والحروب البونيقية[1] ، اما الاولى وقد دامت أكثر من قرنين (٥٣٦ - ٣٠٦ ق . م .) فانها كانت ضد اليونان بسبب مزاحمة هؤلاء الحكومة الفينيقية في منتوجات البلاد الخاضعة لنفوذها بصقلية ، وكان النصر فيها لقرطاجنة ؛ واما الثانية فانها كانت ضد الرومان الذين اعتدوا على سيادتها وحاولوا التدخل في شؤون الوطن والتصرف في اقتصادياته ؛ فنهضت قرطاجنة مدافعة عن شرفها فخاضت عباب هذا البحر وقطعت جبال الالب وحصرت رومة حتى كادت ان تذهب بدولة الرومان ، ويومئذ اشتد تكالب هؤلاء الاعداء وثارت ثائرة حقدهم فهاجموا قرطاجنة في ثلاث دفعات ، كانت الحملة الاولى ما بين سنة ٢٦٤ و ٢٤١ ق . م . وانتهت باستيلاء الرومان على صقلية وأهم جزر البحر الابيض المتوسط التي كانت سبب هذا النزاع ، ثم كانت الحملة الثانية فيما بين سنة ٢١٩ و ٢٠٢ ق . م . خسرت فيها قرطاجنة جميع مستعمراتها في اسبانيا وبجزر هذا البحر ، وكان سبب ذلك رغبة قرطاجنة في استرجاع ما سلبته منها رومة والانتقام للشرف . اما الثالثة فانها كانت من الرومان خشية انتشار نفوذ الملك البربري الجزائري - ماسنيسا - وحب الاستئثار بهذا القطر والقضاء على دولة الفينيقيين ، وقد دامت هذه الحرب الثالثة من سنة ١٤٩ الى سنة ١٤٦ ق . م . وفيها تم للرومان القضاء على دولة قرطاجنة والاستيلاء على مملكتها الافريقية ، ولقد رد المؤرخون جميع أسباب الانهزام التي لحقت قرطاجنة الى انقسام الحكومة يومئذ الى حزبين اثنين : حزب الرسماليين الذين يعملون للسلم ابتغاء الثروة وجمع المال ، وحزب المحاربين ؛ فذهبت الدولة ضحية الخلاف ! والكل راجع الى المنافسة والتزاحم وحب الاستئثار ؛ اما امنية الرومان فهي حب السيطرة والاستعمار .

---

(١) نسبة الى البونيقيين Pœni الفينيقيون في لسان الرومان .

وليس هنالك من الوقائع والحروب غير هذا سوى ما كانت تثيره قرطاجنة أحياناً من الملاحم أو المكافحة لقمع الثائرين من أبناء البلاد فان ذلك لا يعد حرباً ، أو ما ذكره احمد زكي في تاريخ الشرق ومحمد بك دياب في خلاصة تاريخ مصر من ان هناك غزواً وقع من كمبيز أو - قمباسوس - (بوسب) - الفارسي (٥٢٩ - ٥٢٢ ق . م .) على بلاد المغرب بعد ما فتح مصر سنة ٥٢٥ ق . م . ولكنه لم يستطع اتمام المشروع فرجع خائباً .

انشاء الممالك الوطنية بالجزائر

كان القطر الجزائري على عهد قرطاجنة مجزءاً الى جزئين شرقي وغربي ، فالشرقي منه يسمى بمملكة « المسيليان » وحدودها من وادي الرمل بعمالة قسنطينة الى الحد الغربي من القطر التونسي ، وقاعدته مدينة (بونة) - عنابة - والقسم الغربي وهو من مملكة « المسيليان » ما بين وادي الرمل والملوية وقاعدته سيرطة - أو (قرتة) بمعنى القرية وهي قسنطينة ؛ وجميع سكان هاتين المملكتين يعرفون في التاريخ باسم (النوميد) ومعناه الرعي والتنقل في سبيله ، وذلك ما يدلنا على ان سكان هذه المناطق هم رعاة قبل كل شيء وهو ما دعا بعد ذلك الى تسميتهم بالشاوية أيضاً ؛ ويومئذ لم يكن لهؤلاء الناس ملك أو نظام مملكة حتى اذا اذن ملك قرطاجنة بالذهاب وتوالت الخيبة عليها في الحروب البونيقية الثانية سنة ٢٠٢ ق . م . شرع الجزائريون بالخصوص في تأسيس ممالكهم اغتناماً لهذه الفرصة السانحة فتكونت ممالك وطنية نظامية تحميها قوة الرومان الجائمة .

فكان أول ملوك الجزائر في هذه الآونة (فارمينا) وكان على بلاد نوميديا شرقي مقاطعة قسنطينة الملك (ماسنيسا) و (نرفاس) ٢٣٨ ق . م . و (صيفاقس) ٢٣٠ - ٢٠٢ ق . م . وعاصمته صيغة - ارشقول - باحواز تلمسان على ضفة البحر عند مصب نهر التافنا ، وانتصر كذلك على الملك

(غايا) ووالده (ماسنيسا) سنة ٢١٣ – ٢٠٥ ق . م . فجلس على عرش قسنطينة وصار يتنقل تارة بقرطة التي سميت فيما بعد بقسنطينة ، وتارة يحل بمدينة (صيغة) أو صاغة – ارشقول – ، والى ماسنيسا هذا يرجع الفضل في تطور اقتصاد المغرب الاوسط ونمو الفلاحة وازدهارها ونشاط الفلاحين بهذا الوطن ، ومنهم كذلك (مصيبسا) وعاصمته سرطة – قسنطينة ١٤٩ – ١١٩ ق . م . و (ماصينته) كان على ناحية سطيف ، و (عرابيون) كان على ولاية نوميديا السطيفية ، و (يوبا الاول) وعاصمته هبون – بونة – و (يوبا الثاني) ٢٥ ق . م – ٢٣ م – وقاعدته قيصرية – يول – شرشال وقد كان لبعض هؤلاء الملوك حق سك العملة باسمه وضرب النقود بعاصمته .

الثقافة والحضارة والعمران

لا نكران ! ... فان للامة الفينيقية الفضل الاوفر على العالم المتمدن أجمع ، اذ هي أول من ابتكر طريقة رسم الحروف الابجدية المنتشرة في العالم اليوم وجعلها حسب النطق بعد ما كانت مسمارية – وهيروغليفية – (تصويرية) كما انها أول من وضع نظام الاشكال الحسابية ، فجميع خطوط الامم اليوم مدينة الى الخط الفينيقي القديم ، وتلك مفخرة ممتازة يفتخر بها الجنس السامي على سواه .

واشتهر الفينيقيون ايضاً بالمحافظة التامة على مميزاتهم وخصائصهم الجنسية وكل ما يربطهم بحياتهم العامة ومعيشتهم الشرقية فلم يتأثروا بالحياة الافريقية يومئذ ولا بغيرها من تقاليد الامم الاخرى ولم يلتفتوا كذلك للحركة الفلسفية التي اشتهر بها اليونان ... فقد غلبت عليهم المادة في كل شيء ، ولا يظهر عليهم اثر التقليد الا في فن المعمار فاننا نرى فيه اثر المحاكاة نوعاً ما في بعض مظاهره بالفن اليوناني ، ويرى ذلك جلياً في المقابر والمعابد وفي اواني الطين والمجوهرات .

ولقد برع الفينيقيون في شتى فنون الصناعة كنحت العاج والدباغة والحياكة والنجارة واستخراج العطور والمواد الدهنية وصنع الفخار والخزف

والزجاج والبلور الملون والنقش على الصخور والخشب وتعدين المعادن وصنع الفؤوس والمطارق والسكاكين والمقصات والنسج بكيفية ممتازة لا تزال الى اليوم تستعمل في بعض جزر الارخبيل من سواحل اليونان التي كانوا يجلبون منها العندم . كما اشتهروا كذلك في البحرية بسفنهم العجيبة واتقان بناية الموانى والمرافق بها ، فقد كانت مرسى قرطاجنة تسع نحو ٢٢٠ مركباً حربياً . كما كانت لهم القدم الراسخة في التجارة والفلاحة ، فعنوا كثيراً بغراسة انواع النخيل والزيتون والرمان والتين والارز والجوز ، وقلدهم في ذلك الافارقة والرومان ايضاً فترجموا كتاب (ماقون Magon) القرطاجني في الفلاحة وانتفعوا به كثيراً ، وكثرت يومئذ المؤسسات والمباني العظيمة والاجنة والقصور والملاعب ونفقت على عهدهم سوق العلم والادب ؛ كما انهم انشأوا طرقاً واسعة تربط ما بين اطراف افريقية الشمالية والوسطى فكانت القوافل مثل السفن ايضاً غادية رائحة ببضائعها ، فنفقت التجارة بين الاقطار ، وكان لامراء البلاد قوافل وشركات خاصة ، فانتشر بذلك العمران والمدنية القرطاجنية في كامل الساحل الافريقي بل تخطياه الى الضفة الاخرى من جزر هذا البحر وسواحله فازدهرت الحياة العامة على ضفاف هذا الحوض وكانت لهم السيادة المطلقة فيه على غيرهم سواء من جاورهم من الامم الاخرى او من بعد عنهم .

وجاءت امة الرومان بعدهم فقضت بدافع الحقد والضغينة على جميع هذه المدنية الزاهرة واتعبت نفسها في ذلك فأضاعت جميع الآثار التي كانت تدل ببهجتها على ما للقرطاجنيين من الرقي والتقدم في الحضارة ! ... وكل ما عثر عليه الباحثون اليوم من آثار هذه الامة هو لا يتجاوز بعض نقوش ورسوم لا تزيد فائدتها عن دراسة الازياء او لغة القوم ولهجة التخاطب بينهم ، او بعض قطع خزفية ضئيلة ، والى هؤلاء الفينيقيين يرجع الفضل في تطور هذه البلاد واخذها بأسباب المدنية من جديد في الحرب والسلم .

انهيار الجزائر الفينيقية

لا نطيل على القارىء بتحليل المواقف الحربية وذكر تفاصيل الوقائع

والملاحم التي قضت بسقوط قرطاجنة وانتصار رومة عليها فان ذلك يعود الى دراسة تاريخ الجندية والحروب ، وهو موضوع مستقل افردناه بالتأليف ، وانما يهمنا منه مواضع العبرة واسباب ذلك ؛ وهو مـــا يجده القارىء مسطراً امامه في هذا الباب .

ان اهم الاسباب الاساسية التي يرجع اليها سقوط هذه الدولة وتغلب الرومان عليها ، تنحصر في اربع نقط : اولاً – تنافس الاحزاب السياسية وانقسامها على نفسها الى ثلاثة اقسام ؛ ثانياً – اندفاع الدولة وراء التقدم المادي واهمال الجانب الروحي بالمرة ، ولا يخفى ما للروح من الاثر والتأثير في كل شيء ... ؛ وثالثاً – عدم شعور الجند بالمسؤولية العظمى في هذه الحيبة حيث انه اجنبي عن الوطن لا غيرة له وطنية ولا حمية وانما هو يسعى وراء الدرهم والمغنم ، فهو اخلاط من المتطوعين والمرتزقين فلا اخلاص له ولا وفاء ؛ والرابعة – وهي الحالقة سوء سلوك الحكومة بالرعية فكلما زادتها الايام اقبالاً إلا وامعنت في الظلم والجور ، وذلك مؤذن بالزوال لا محالة ...

ويومئذ ظهر شبح رومة بمظهر المنقذ الاعظم وتظاهرت امام البربر بالعطف والرحمة والعدل فانخدع لها الناس وانجذبوا اليها ، فاستعملت رومة حينئذ قاعدة الاستعمار العامة : فرق تسد ! ... وسعت في توسيع شقة الخلاف بين الراعي والرعية واوقعت بينهما العداوة والبغضاء ثم تقدمت الى ملوك البربر انفسهم ففرقتهم عن بعضهم – وهي في كل ذلك متظاهرة بالعمل على نصر المظلوم والانتصار من الظالم – فاشتد بذلك تصلب قرطاجنة وزادت في قساوتها وكان ذلك سبباً في انفجار الحروب البونيقية تلك الحروب الطاحنة الهوجاء ... وما كانت رومة لتقوى على مقاومة قرطاجنة لولا انضمام البربر اليها ونقمتهم على عدوتها وطموحهم الى الاستقلال والحرية فاغتنم الرومان كل هذه الفرص المواتية وضربوا طبولهم على هذه النغمة فالتهب الشعب البربري حماساً ونهض يومئذ ملك سيرته – قسنطينة – (ماسنيسا) وفي عمره وقتئذ ٨٨ سنة فانضم بقومه الى الجيوش الرومانية الجـــاثمة حول العاصمة (قرطاجنة)

وحاصروها مدة سنة كاملة فقطعوا عنها الميرة وكانت هنالك الغارة الشعواء وتكرر الهجوم من الرومان والبربر على المدن والعواصم فخربت البلاد وهدمت الاسوار وسبي النساء والذراري وتشتت شمل احزاب قرطاجنة وتمزق القوم شر ممزق فتبددوا في البلاد وقتلوا تقتيلا ، ويومئذ اظهر النساء القرطاجنيات من البسالة والبطولة النادرة والشجاعة في ميدان المقاومة ما يذكرن به فيشكرن وضفرن شعورهن حبالاً مفتولة تبرعن بها على سفن المقاومة لاستعمالها في مكان الحبال المنعدمة يومئذ ! ... فقاومت قرطاجنة برجالها ونسائها الى الرمق الاخير وليس هنالك ما يقيها شر سقطتها او من يأخذ بيدها ، وتلك هي نتيجة ما زرعته يدها في قلوب الاهالي من دواعي السخط والحقد عليها ، فأحل بها الدهر بأسه وصب عليها الشعب نقمه ، وسقطت بيد الرومان سنة – ١٤٦ ق . م . – وفي ذلك كان فناء أمة كاملة وتلاشى اسمها من الوجود واصبحت احدوثة سائرة ، وعظة زاجرة ، وتم هذا النضال بين قرطاجنة الفينيقية وبين الرومان الذي هو في الحقيقة والواقع نضال بين العنصرين : السامي والآري . وقضت صروف الدهر وطوارقه بانهزام العنصر السامي الى مدة قرون في هذه القارة الافريقية الى عهد الفتح العربي فتجدد له حينئذ نشاطه تحت لواء الاسلام ، وليعتبر القارىء البصير بأن انهزام قرطاجنة لم يكن – في الحقيقة – عن قصور او تقصير منها في الدفاع عن نفسها وانما هو اثر لذلك الاستعلاء والتجبر والمعاملة السيئة التي سلكتها مع الرعية فأحدث فيها نفوراً وانزعاجاً ، سنة الله في كونه ولن تجد لسنة الله تبديلا . وبسقوط هذه الدولة تحولت زعامة العالم من يد شمال افريقية الى جنوب اوروبا وتعطل بذلك سير التمدن بضعة قرون .

مشاهير ملوك الوطن الجزائري

	المملكة	تاريخ التولية
نرهفاس	نوميديا الوسطى	٢٣٨ ق . م .
صيفاقس	نوميديا الشرقية	٢٣٠ – ٢٠٢ ق . م .
غولا بن نرهفاس	نوميديا الوسطى	٢٠١ ق . م .
مصينسا	نوميديا الوسطى	٢٢٧ – ١٤٩ ق . م .
مصيبصا وغولوصا ومناص بعل	نوميديا الشرقية	٢٤٩ ق . م .
ماسنيسا	نوميديا الشرقية والغربية	٢٠٦ ق . م .
فارمينا	نوميديا الشرقية	٢٠١
اصالس بن نرهفاس		? ...
لكروميس		? ...
غايا	نوميديا الشرقية	
دلقاص	نوميديا الشرقية	
قابوصا	نوميديا الشرقية	
لاقوماز	نوميديا الشرقية	

من مشاهير الجزائر

مصينسا

٢٢٧ _ ١٤٩ ق . م

مصينسا او ماسنيسا ، هو من اشهر ملوك البربر الجزائريين البارزين ، ومن اعظم زعمائهم على الاطلاق ؛ ابوه (غولا) ملك نوميديا وعاصمته سيرته قسنطينة .

نشأ مصينسا هذا محباً لوطنه غيوراً عليه مدافعاً عنه ، وقد شارك في محاربة خصم والده ومنافسه الملك (صيفاقس) اكبر رئيس عرفه التاريخ بنوميديا الغربية وسنه حينذاك لم يتجاوز ١٧ سنة . ومن ذلك الحين تألق نجمه في السماء بين ابطال التاريخ الجزائري فخلف اباه بعد وفاته على العرش وكان في اول امره موالياً للفنيقيين ، ولما رأى من قرطاجنة تهاونها بشأنه وعدم مبالاتها بحقوقه الشرقية في الولاية على عرش ابيه حتى كاد الاجانب ان يستولوا عليه ايام خروجه غازياً مدافعاً عن حياض قرطاجنة ، غضب لذلك وعاد من فوره مطالباً بملك ابيه الضائع واحتمل في ذلك مشاقاً عظيمة واهوالاً شديدة وكان ذلك سبباً في خروجه عن طاعة قرطاجنة واعلانه باستقلال الجزائر وتحرر الوطن من اغلال قرطاجنة . وكان يحضر المعارك الحربية ويقودها بنفسه رغم تقدمه في السن ، واستمر على الكفاح ضد الاستبداد الفنيقي حتى ظفر بالنصر واستقل بعرش الجزائر سنة ١٥٨ ق . م . ودانت له البلاد الى الحدود التونسية .

وكان مصينسا هذا حريصاً على ربط صلته بالرومان واليونان ابتغاء وصوله الى غايته التي يرمي اليها من القضاء على نير قرطاجنة فكان ما اراد . والى هذا الملك البربري يعود الفضل في اختراع لغة (ليبية) على نمط الحروف الهجائية الفينيقية حيث عمل على تركيب الجهاز الابجدي البونيقي على الرموز الصوتية القديمة التي كانت مستعملة عند الليبيين . وهو الذي عمل على استقرار البدو في نواحيهم بالبادية واتخاذ الزراعة حرفة لهم بدل الرعي ، وجعلها عمدة الحضارة القديمة ، كما انه عني كثيراً بالاقتصاد والتجارة . وكان من تيقظه الحربي وشدة حذره انشاؤه لاسطول ضخم وجيش منظم ، وضرب السكة باسمه وكثيراً ما عمل على توحيد الشمال الافريقي وجمعه على دولة واحدة وابعاد الاجنبي عنه ، وبالجملة فلقد اجمع اهل التاريخ على مدحه والثناء على اخلاقه وسجاياه . توفي سنة ١٤٩ ق . م . عن سن عالية تنيف على المائة عام ودفن في قبره المعروف به الى الآن بالخروب على ١٦ كيلوميتراً بالجنوب الشرقي من قسنطينة .

جدول تاريخي

تاريخ الحوادث	اهم الاحداث في العهد الفينيقي
٨٨٠ ق . م .	مقدم الاميرة « جونو »[١] وتأسيس قرطاجنة
٥٨٨ ق . م .	الهجرة اليهودية الى افريقية
٥٣٦ - ٣٠٦ ق . م .	حروب صقلية
٢٦٤ - ١٤٦ ق . م .	الحروب البونيقية وسقوط قرطاجنة
١٥٨ ق . م .	استقلال الملك البربري الجزائري مصينسا
١٤٩ ق . م .	وفاة مصينسا

(١) من المحتمل جداً ان يكون اسم الاميرة هذا عائداً الى اسم الالهة « جونون » ربة الفينيقيين ومعبودتهم ؟ ... وقد يكون كذلك اسم المدينة (قرطاجنة) مضافاً الى نفس هذه الربة « جونون » ؟ ... انظر صفحة ٦٠ من الكتاب .

الدولة الرومانية

١٤٦ ق.م — ٤٣١ م

الرومان امة آرية متكونة من شعوب وامم مختلفة ، منها امة الغال والاتروسك والاغريق واللاطين ... ومسكنها ارض ايطاليا بجبالها وسهولها ؛ وهي منسوبة ، حسبما يؤثر ، الى باني رومة ومؤسسها « رومولوس » حفيد « بورو كاش » ملك اللاطين ، وكان تاريخ بناء هذه العاصمة التاريخية سنة ٧٥٤ ق . م . وظلت كذلك عاصمة لهذه الدولة طيلة عشرة قرون ونصف ففتحت العالم المعمور يومئذ كله .

نظامها الحكومي

استمرت رومة على حكمها الامبراطوري بمرافقة مجلس الشيوخ الذي كان يحتوي اولاً على مائة عضو ثم زيد فيه بعد ذلك ؛ الى ان انقلب الحكم جمهورياً سنة ٥٠٩ ق . م فكان عدد اعضاء مجلسها حينئذ يفوق الثلاثمائة عضو ينتخبون لمدة حياتهم ، ومن بين هؤلاء ينتخب عضوان بارزان هما اللذان يباشران اعمال الحكومة العليا ورئاسة الدين لمدة سنة ويلقب كل منهما بلقب قنصل ولا يكون الا من طبقة الاشراف ؛ وقد كان لرومة على هذا العهد ولايتان بافريقية وخمس بآسيا وعشر باوروبا ، وبقي الامر على ذلك الى سنة ٣١ ق . م حيث تغلب الامبراطور

اغسطس اوكتافيوس على منافسه انطونيوس وتبوا عرش رومة واصبح يومئذ صاحب الامر والنهي ، فسعى في تغيير نظام الحكم الجمهوري واعاد البلاد الى نظامها الامبراطوري السابق وفوض الاعمال لولاة اتخذهم في البلاد . ويومئذ سقطت الجمهورية الرومانية وعادت السلطة الاستبدادية تحت نفوذ الاباطرة من ملوك الرومان ؛ وقد كانت حالة ابن البلاد الاهلي المستعمر على عهد هذه الجمهورية اتعس منها على عهد الامبراطورية .

وكانت العاصمة الاولى الرومانية بافريقية (عوتيقة) ثم انتقل منها حاكم الامبراطور الى (جنونيا) التي هي قرطاجنة ، وال « بروقنصل » — الحاكم — النظر المطلق في كلتا السلطتين : العسكرية والمدنية ، ولكل من هاتين الناحيتين منظمة ادارية يديرها موظفون تحت اشراف رئيس . وتستمر ولاية « البروقنصل » الى تمام السنة من ولايته ، ثم انه اذا احسن السير والتدبير في سياسته يعين للمرة الثانية والثالثة وهكذا . ويتقاضى هؤلاء الموظفون مرتباتهم مما يستخلص من الشعب من ضرائب فادحة على اختلاف انواعها ومقاديرها ، من ذكور الامة واناثها . وتستخلص هذه المغارم والجبايات بواسطة الاعيان فهم الذين يدفعون اولاً من عندهم للخزينة ما تلزمهم به الحكومة ثم هم يتولون الاستخلاص من الرعية من غير مرحمة ولا شفقة ... وقد كان مرتب « البروقنصل » لا يقل عن مليون « سيسترس » سنوياً ، والسيسترس هو عبارة عن قطعة من فضة رومانية ، ولنائب الامبراطور بموريطانيا القيصرية مرتب يقدر بنحو اربعين الف فرنك . وهو يحمل لقب « البروقبراطور » وعاصمته (سيزاريا) - شرشال — .

اما عدد الجند فانه كان لا يزيد في جميعه او مجموعه عن خمسة عشر الفاً ، وهو عدد ضئيل كما رأيت بالنسبة الى سعة المساحة التي يسيطر عليها الروماني ، وهذا يدلنا بلا شك على كمال نجاح الحكومة وتوفقها في السياسة ودهائها الديبلوماسي الذي تمكنت به من التحكم في البلاد . ثم ان هذا الجند في نفسه مختلط ، ففيه البربري والروماني والاسباني وغيرهم

من الجند المستأجر ، ولقد تزايد فيه عدد البربر حتى كان له التفوق على الجيش بتمامه . وكانت مراكزه بالجزائر مدينة تبسة ولمبيس ؛ فلحامية تبسة مراقبة البر وقنصلية - تونس - ونوميديا - اعمال قسنطينة ، وهي نفسها التي نقلت بعد ذلك الى لمبيس ، وهنا حامية اخرى لمراقبة موريطانيا الشرقية - مقاطعة الجزائر ووهران - يبلغ عددها ١٥٠٠٠ عسكري ولنوميديا ٥٠٠٠ وحامية بقرطاجنة يبلغ عددها الالف .

وللاسطول الروماني امتياز بسطوته الجبارة على هذا البحر ، وكان مقره بالجزائر مدينة شرشال ، وبتونس : قرطاجنة . أما الخزينة فهي دائماً مستمدة من اموال الشعب من مغارم وضرائب متنوعة ؛ والرعية تحت رحمة القوانين الاستثنائية اذ ليس لها حق الروماني مطلقاً ! ... فالناس في نظر القانون الروماني طبقتان : احرار وعبيد ؛ وقد حدث مرة ان الامبراطور البربري سبتموس سويرس اصدر امره سنة ٢١٦ م بمساواة الرعية في نظر القانون وان اختلفت اجناسها وحالاتها السياسية وبقطع النظر عن كل اعتبار ، ومنح البربر حريتهم الشخصية فما كاد الامر هذا يتصل بهذه الديار حتى سعى المستعمرون في عرقلته ، وبالفعل رفض ولم ينفذ ... فالاستعمار ايها القارىء الكريم كما انت تراه اليوم بعينك وتلمسه بيدك هو هو ! ... فكم اشاع الاستعمار وتغنى بصدور قوانين عادلة تشتمل رعاياه بالجزائر ، ولكنها عند التطبيق يأخذ الولاة ومن بيدهم تسيير دفة المستعمرة في تأويلها وشرحها محرفة حسبما تقتضيه قواعد الاستعمار العامة من بقاء ابن البلاد دائماً تحت الضغط الشديد وبالجملة فلقد بقي الاهلي طيلة الاحتلال الروماني في شقاء وعناء . وجاء في دائرة معارف « لاروس » الفرنسية ما يلي مترجماً :

« ... » وماذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال ؟ ... كانت عين الوحشية والقوة مرتبة في صور قوانين ، اما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعية فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص .

اما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية فكان لا يرى فيها الا شرها مفرطاً للمال وحقداً على الاجنبي وضياعاً لاحساس الشفقة الانسانية . اما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن اعمال السوط والسيف في العالم والحكم على اسرى الحرب بالتعذيب او بالامر وعلى الاطفال والشيوخ بجر عربات النصر .

وضعية شمال افريقية على عهد الرومان

لقد كانت هذه الجزيرة المغربية او قل افريقية الصغرى كما يعبر عنها بعض اهل الجغرافية من المعاصرين جزءاً واحداً في جميع اعتباراتها السياسية وفي جميع نظمها الداخلية والخارجية كما هي عليه حالتها الطبيعية وشكلها الجغرافي ، الى ان جاء دور الرومان هذا فقسموها الى ثلاث مقاطعات : افريكا ، ونوميديا ، وموريطانيا ، وهي تقريباً هذه الاوطان الثلاثة التي يشملها اسم المغرب العربي اليوم : تونس والجزائر ومراكش ، وكان يطلق عليها جميعها ايضاً اسم موريطانيا ما عدا طرابلس . وسنة ٢٧ ق . م اندمجت نوميديا في افريكا القديمة وصار الحد من الوادي الكبير قرب جيجل الى برقة ، وفي سنة ٢٠٠ م سمى الجميع باسم نوميديا القسنطينية تميزاً لها عن نوميديا الجديدة .

وفي عهد الامبراطور كلوديو جزئت موريطانيا هذه ايضاً الى ناحيتين اثنتين : موريطانيا النطجية ــ مراكش ــ نسبة الى عاصمتها يومئذ طنجة ، وموريطانيا القيصرية وهي تشمل ارض الجزائر وتونس ؛ ثم كان في سنة ٤٠ م تقسيم موريطانيا القيصرية الى قسمين : موريطانيا السطيفانية نسبة الى مدينة سطيف او سطيفى ، ــ وهي ارض الجزائر ــ وبقيت الاخرى باسمها القديم ، وهي من وادي مولوية الى البحر المحيط الاطلسي .

ثم في سنة ٢٩٧ م ارتأت الحكومة تغيير هذه الوضعية لشمال افريقية واصبحت الجزائر مقسمة الى ثلاث ولايات :

١ ــ نوميديا العسكرية ، وهي بلاد نوميديا الجنوبية وعاصمتها لمبيز .

٢ – نوميديا السطيفية من (امساقة) الى (صلدوي) – بجاية – .

٣ – موريطانيا القيصريه من صلدوي الى نهر ملوية .

وايا ما كان فان النفوذ الروماني لم يشمل جميع بلاد هذا الشمال الافريقي ، بل كان مقتصراً على الساحل بما فيه من مدن وعواصم وقرى مركزية ذات شأن اقتصادي . ولقد ضبط الرومان ذلك بخط « الليميس » وهو عبارة عن طريق معبدة هائلة او خندق عميق او سلسلة ثكنات لسكنى الجند المحارب محافظة منهم على الامن ؛ وكان هذا الخط يذهب من طرابلس الى جنوب مدينة الرباط ، ولا تزال منه بقية بمراكش ؛ وجعل البـاقي من تراب هذا الشمال تحت الحماية السياسية العامة ، وبذلك استمر سكان شواهق الجبال والتخوم محافظين على استقلالهم ؛ وكان هؤلاء دائماً هم مبعث الثورات ضد النفوذ الروماني ونواة للحرية والاستقلال .

الرومان بالجزائر

كان ابتداء علاقة الرومان بالقطر الجزائري منذ سنة ٢١٣ ق . م . وامتدت اليه يدهم فتصرفوا فيه منذ سنة ١٠٤ ق . م ووضعوا قدمهم بنوميديا سنة ٤٦ ق . م – ٤٢ م ، ولم يكن للرومان ان يستولوا على بلاد القبائل الا بعد سنة ٢٩٧ وجعلوا عاصمتها بلدة جمعة صهريج . وكثيراً ما تغير نظام الجزائر الاداري فقسمت وجزئت الى اوضاع واشكال مختلفة ؛ فقد كانت مجزاة الى اربع ولايات او مقاطعات : ولاية ندرومة ، وقسنطينة ، وسطيف ، وشرشال ، وفي سنة ٣٧ م جعلت ناحية نوميديا وحدة ادارية تحت اشراف ضابط عسكري في رتبة عضو بمجلس الشيوخ وهو تحت طاعة الامبراطور نفسه .

ولقد كان من النظم المتبعة في العواصم والمدن انتخاب المجالس البلدية لكل ولاية وان لهذا المجلس النظر في مصالح منطقته كما هو الشأن المتعارف اليوم في البلديات ، وان اوسع بلدية كانت بالقطر

الجزائري في هذا العصر هي بلدية بونة – عنابة – فان نفوذها الاداري يمتد غرباً نحو ثلاثين كيلو متراً وشرقاً نحو ٥٠ ك.م كما انه لا ينبغي ان ننسى نظام المدن الخمس : قسنطينة ، وميلة ، وسكيكدة ، والقل ، وجميلة وما الحق بها من المدن والقرى وما كانت عليه من الحرية والاستقلال الداخلي وما بلغته الرعية في ظلها من الرفاهية والبذخ ؛ وبالجملة فان خط حدود الجزائر الرومانية يمر بجنوب اوراس والشاطئ الايمن لوادي جدى[1] ثم يصعد على حدود الشمال الغربي فيمر وسط جبال الزاب ويقطع وادي الشعير فيضم الحضنة من جهتها الغربية ثم يتجه نحو سور الغزلان ويمر ببوغار وتيهرت وفرندة ، ويمتد الخط غرباً الى تلمسان ولالامغنية وبالجملة فانه لم يكن للرومان بالجزائر سوى التلول ، اما الصحراء فانهم لم يطرقوها الا من ناحية اوراس .

المعتقد الروماني

كان الرومان صائبة يعبدون الاوثان والتماثيل التي تصنع للجواهر العلوية والاجرام السماوية ، ويعبدون النار والموتى من اسلافهم ويجعلون ذلك كله في زعمهم وساطة بين العلة الاولى والخليقة . وقد كان لهم آلهة متعددة فللحروب اله ، وللسلم اله ، وللمطر اله[2] وهلم جراً ... واشتهر من بين هذه الآلهة الوثن المعروف باسم (جوبيتير) فهو اله

---

(١) وادي جدي او وادي (شدي) هو كما ذكره ابن خلدون بقبلة الزاب ينبعث أصله من جبل راشد قبلة المغرب الاوسط ويمر الى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب الى ان يصب في سبخة نفز او ناس بلاد الجريد (العبر ج ٦ ص ٣٩٠ ط بولاق عن ٥١٣٨) .

(٢) ان فكرة تعدد الآلهة هي عقيدة اشورية قديمة اخذها حكماء اليونان عن هؤلاء واذاعوها بين قومهم احتيالاً منهم على الطغاة من ملوكهم المستبدين وبها توصلوا الى منازعتهم الملك ومشاركتهم في سلطتهم المطلقة فصح لهم بذلك مطالبة جبابرتهم بالنزول عن مقام الانفراد والوحدانية ، وهكذا فعل عقلاء الرومان بعدهم ، ولا يزال هذا الاصل القديم في العقائد هو القاعدة السياسية العامة في توزيع الادارة بالحكومات وتنوع السلط الملكية والجمهورية ايضاً .

الآلهة ، له حق النظارة على جميع اربابهم ، وله الحق كذلك في الترجيح عند اختلافهم ؛ وكم يجعلون له صوراً واشكالاً متنوعة تميزه عن غيره من آلهتهم . وهم الى ذلك يقدسون الامبراطور تقديساً كبيراً ومنهم من كان يتمثل معبوده في الديدان فيطعمونها الفول الاسود ، وغايتهم من العبادة كلها الفوز بالانتصار في المعارك والحروب ودرء المصائب عنهم . وقد اندمجت هذه العقائد بغيرها من عقائد البربر واسبغت عليها البربرية طابعها الخاص .

الحيـاة الرومانية

كانت معيشة الروماني او حياته البدائية بسيطة لا رفاهية فيها ولا نعيم ، فهو يستعمل الخشن في ملابسه ، وليس له من الثياب سوى قميص سابغ بأكمام وتارة بغير اكمام ، وسراويل ، وينتعل خفاً غليظاً . وكان للخاصة قمصان ذوات حواش حمر ، ولطبقة الاحرار منهم حلل من الملف الابيض ، ويمتاز القضاة بالخفاف الحمر ، وكان للنساء ولوع ومبالغة في ضروب الزينة والتجمل بأنواع الحلى ؛ اما المسكن فانه كان قبل استعمالهم للحجارة من خشب لا نافذة فيه لجهلهم بصناعة الزجاج يومئذ ؛ وكانت الانهج والسكك وممرات الطرق ضيقة عديمة النظافة لا ضوء فيها ليلاً ، وكل ذلك لم يمنع تقدمهم في الحضارة بعد ذلك ورقيهم المادي والادبي فكانت هنالك المسارح والمعابد والهياكل الضخمة الخ ... وهم اخذوا ذلك عن الاغريق وقرطاجنة وغيرهما ممن جعلتهم الاقدار تحت سلطتهم وشملهم نفوذهم الامبراطوري . واشتهروا بعد ذلك بنظامهم القضائي الذي لا تزال الامم الراقية اليوم تستمد منه روح التشريع . اما لغتهم فهي لغة اللطين وادبهم هو وليد الادب الاغريقي .

الجزائر والرومان

كان لسوء سلوك الرومان مع الاهالي وفساد سيرتهم وضغطهم على حرية الافكار تأثير عظيم على احرار الجزائر واباة الضيم منهم ، فعصفت

برؤوسهم نخوة الشهامة الوطنية وثارت بهم حمية الانفة فنهضوا نهضة رجل واحد بزعامة القائد البطل يوغورطة واندلع لسان الثورة ضد الطغيان الروماني سنة ١١٠ ق . م . ويومئذ اخذ القائد المذكور في توحيد الطوائف البربرية وجمع كلمتهم ضد الاستعمار الروماني . فكانت ثورة عنيفة وحرباً عواناً تصارع فيها الحق والباطل وكانت الغلبة في جانب الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه ، وانتصر يوغورطة على الرومان في المعركة المشهورة باسم وقعة « سوتول » بالقرب من مدينة فالمة .

وتكرر على رومة الانهزام في عدة وقائع ، وتبوأ يوغورطة عرش سيرتا – قسنطينة سنة ١١٢ ق . م . واعلن استقلال الجزائر التام ؛ وحينئذ لجأت رومة الى المخادعة والمراوغة وتفننت في انواع المكر والدهاء واستعانت في ذلك ببعض الخونة الانذال من رؤوس البربر مثل يوبا الثاني وبوكوس – ملك موريطانيا – فتمهدت لها السبيل يومئذ باضطراب حبل الاهالي واختلافهم على بعضهم وفعلاً تغلب بوكوس على يوغورطة – وهو صهره – والد زوجته ، فقبض عليه واسلمه الى الرومان سنة ١٠٦ ق . م . فذهب به هؤلاء الى سجن رومة فمات به في اليوم السابع من شهر جانفي سنة ١٠٤ ق . م . وحينئذ اضاف الرومان منطقة نوميديا الغربية – عمالة الجزائر ووهران – الى الملك بوكوس مكافأة له على نصره لهم ضد صهره وزيد في مملكته جميع التراب الذي بين ملوية وبجاية . وبهذه السياسة او قل الدسيسة انتصر الرومان بالجزائر وانكسر جند المقاومة الاهلي بين قوتين عظيمتين : قوة جيش العدو المهاجم الذي كان يبلغ ٣٤٠٠٠ محارباً ، وقوة الخصوم الداخلية والمنازعات التي كان من رؤسائها بوكوس . ويومئذ تمكن الرومان من الجزائر بعد محاولة دامت اكثر من ٨٨ سنة .

وكان يومئذ من بقايا ملوك الجزائر الاحرار الملك قودا : اخ يوغورطة ، وبعد وفاته اقتسم ولداه هيامسال ويارباس مملكته فحاز الاول جميع التراب الذي بين وادي الرمل وتونس وامتلك الثاني الناحية الغربية الى حدود بجاية ثم كان بينهما من الخلاف والشقاق ما ادى الى قتل يارباس واستقلال اخيه بمملكته .

وان من أشهر الوقائع والفتن بهذا العصر هي حوادث ثورة القائد البربري طاكفاريناس سنة ١٧ م فلقد عمت هذه الثورة السهل والجبل واتت بذلك على الاخضر واليابس فانتصر فيها اولاً هذا القائد عدة انتصارات وقضى على القوات الرومانية في عدة مواقف وحاربهم في مختلف الجهات، ثم بعد مقاومة طويلة دامت نحو سبع سنين انهزم هذا القائد البطل ومات قتيلاً بمكان يقال له (اوزية) - صور الغزلان - ولم تقف حوادث المقاومة الشعبية عند هذا الحد بل استمرت وتكررت من الجزائريين الى نهاية الاستعمار الروماني، ولذلك لم يتمكن الرومان من بسط نفوذهم على جميع القطر الجزائري فخرجت عنهم جبال وانشريس واوراس وصحراء عمالة الجزائر ووهران وسلمت من نيرهم كذلك جبال جرجرة وزواوة فاحتفظت جميع هذه الاوطان باستقلالها الى سنة ٢٩٧ م حيث انتصر على بعض الجهات منها يوقلطناس الروماني؛ وبهذه المناسبة احدثت الادارة الرومانية تغييراً في تخطيط الحدود الجزائرية وجعلت الناحية التي بين دلس ووادي الرمل شبه وطن مستقل تحت اسم (موريطاني سيطيفيان) وقاعدتها مدينة سطيف.

وان هذه الاماكن التي خرجت عن طاعة الرومان هي التي كانت النواة في تحرير الوطن وانقاذه من سيادة الاجنبي عليه، وهؤلاء هم الذين اوقعوا بالرومان في حوادث سنة ٢٦٥ م بنواحي ميلة وجبال اوراس وفي مجموعة الجبال التي بين قسنطينة وسطيف ثم اوقدوا نار الفتنة على الرومان بعامة الوطن في مدة لا تزيد عن تسع سنين (٢٨٨ - ٢٩٧ م) وكانت حوادث جرجرة هي ابشع الحوادث ضد الاستعمار الروماني.

تأسيس مدينة قسنطينة

لقد كان المكان الذي هي عليه مدينة قسنطينة يدعى من قبل قرطة، او سيرطة، وقد اتفق ان الامبراطور « ديوكليطيان » خلع نفسه ونزل عن عرش رومة سنة ٣٠٥ م فنهضت جماعة مطالبة بالعرش، وكان من بينها الزارع اليكساندر، فبايعه الجند المقيم بنوميديا - القطر الجزائري -



خريطة الجزائر على عهد الرومان

فزحف اليه خصمه ماكصانص احد المطالبين بالملك ايضاً فانهزم امامه اليكساندر ملتجئاً الى سيرطة فحاصرها خصمه المذكور وضايق اهلها وشدد عليهم الخناق حتى استولى عليها ماكصانص وقتل اليكساندر وهدمت المدينة سنة ٣١١ م وكثير غيرها من البلاد الجزائرية التي بويع فيها اليكساندر ؛ ويومئذ نشأ الخلاف والنزاع على الملك بين ماكصانص وقسطنطين فانتصر الثاني واستقل بالملك ومات خصمه في الحرب فجاء يومئذ قسطنطين الى افريقية سنة ٣٢٥ م وعمل على تطمين خاطر الشعب وتهدئة روعه ، واصلح ما دمرته الحرب وخربته يد الخلاف ويومئذ شرع في ترميم مدينة سيرطة وبنائها من جديد وسماها باسمه قسطنطينة – قسنطينة – ويقال ان هناك نواحي من المدينة بنيت على حنايا مستحكمة ؟ ...

المسيحية بالجزائر

كان مولد المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته في السنة الثالثة والاربعين من ولاية الامبراطور اغسطس ببيت لحم في فلسطـــين ... وخلاصة تعاليمه ، عليه الصلاة والسلام ، ترمي الى بث الرحمة في القلوب وربط صلة المودة والمحبة بين الناس وفشو السلام والاخاء . قد لاقى اتباع هذا الدين الكريم من رؤساء الوثنية ومن يعتقدون العصمة في شخص الامبراطور وينزهونه عن عوارض البشرية من الاضطهاد ما لاقوا ! ... وذلك محافظة من هؤلاء السادة على نفوذهم السيامي ودفاعاً عن مقاصدهم الشخصية الانتفاعية فلقد اصاب المؤمنين يومئذ من الوثنيين في سبيل تبليغ الدعوة الوان من التنكيل والتعذيب ! ... وسارت قافلة المسيحية تبشر بهذا الدين في جميع الجهات التي وطئتها اقدامها ، ومنها هذا الوطن الجزائري [1]

---

(١) ان الذي بشر من الحواريين بافريقية هو فيلبش ، وان الذي جاء الى ارض البربر وبرقة هو شمعون القانوي ، وان الذي ارسل الى الحبشة وارض السودان هو متى العشار ، ويكاد العلماء الذين توفروا على دراسة تاريخ الديانة المسيحية ان يجمعوا على ان الذي تولى التبشير بها بالديار المصرية هو المرسل « مرقس » وهو عربي صميم من يهود القيروان اعتنق الديانة المسيحية عند ظهور المسيح وبشر بها هناك ثم عاد الى تونس

فطالما بحث اهله عما يخلصهم من الاضطهاد الروماني فبادروا حينئذ الى اعتناق هذا الدين الجديد تخلصاً من نير استعباد الوثنية والوثنيين ...

وبقي امر هذا الدين بين اتباعه وخصومهم في مد وجزر ؛ حتى استتب الامر الى الامبراطور قسطنطين واستولى على عرش روما سنة ٣١٢ م فاعتنق المسيحية واعلى من شأنها في البلاد وجعلها دين الحكومة الرسمي وامر ببناء المعابد والكنائس في انحاء الامبراطورية الرومانية واعلن برفض دين الصائبة ، واصدر مرسوماً اطلق عليه الناس يومئذ اسم (مرسوم ميلان) يمنح به الحرية المطلقة في الاعتقاد ؛ ولقد عاشت هذه الحرية مدة حكم قسطنطين الى حد ما . وذلك عندما كان هذا الامبراطور في نفس الوقت حامياً للمسيحيين وقساً وثنياً في آن واحد ... ولكن الرومان بعد ذلك عندما اصبحوا كلهم يدينون بالمسيحية في القرن الرابع لم يلبثوا ان الغوا تلك الحرية الممنوحة على عهد قسطنطين واحدثوا قوانين صارمة للضرب بها على ايدي الوثنيين والمارقين (وهم في نظرهم القوم الذين لا يرون ما تراه السلطة القائمة يومئذ من رأى) .

واذا كان اليهود الاسعدون حظاً من الوثنيين قد احتفظوا بحقوقهم الدينية في مزاولة عبادتهم ، فانه قد حظر عليهم ان يتزوجوا المسيحيات او يفتحوا معابد جديدة لهم ومن خالف هذا حكم عليه بالاعدام ، كما قد حظر عليهم ايضاً تهويد المسيحي والا عوقبوا بنفس العقوبة ؛ ورغم هذه المحاولات والتشديدات كلها فانه قد دخل على الدين المسيحي من عوائد الوثنية وغيرها ما امتزج به في اغلب مظاهره ، وحدث القول بالتثليث

وصاحب المرسل « بولس » ثم « بطرس » ثم بعد مقتل بولس ، وقد جاء مصر من طريق الصحراء الغربية وبدأ يبث دعوته في الصعيد ثم انتقل الى الاسكندرية حيث انشأ مدرسة دينية ، ولم ينقطع عن التردد بين الاسكندرية ومسقط رأسه بالقيروان الى ان توفي عام ٦٨ م ودفن بالاسكندرية التي اصبحت لذلك مقر كرسي بابا الكرازة المرقسية نسبة اليه وكانت كنيسة الاسكندرية تعارض الكنيسة الرومانية (محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ١٣٥ — ١٣٦ ط القاهرة) . وتمتاز الاسر والعائلات البربرية القديمة التي اعتنق آباؤها هذا الدين برسم شكل صليب بين اعينهم كما هو عليه حالهم الى الآن .

فقبله من قبله ورفضه جماعة كان على رأسهم القس الراهب اريوس الاسكندراني المولود سنة ٢٧٠ م وكما اشتهر بينهم يومئذ مذهب الراهب دونا الذي دعا اليه سنة ٣٠٥ م بمدينة كازنوار — الديار السود — بالقطر الجزائري — شمال اوراس — وكان يزعم ان مذهبه هو المذهب الوحيد الذي يمثل العقيدة الصحيحة فاختلفت يومئذ كلمة اتباع المسيحية واضطربت عقيدتهم فيما بينهم. فدعا الامبراطور قسطنطين الى عقد مؤتمر ديني لتقرير العقيدة الرسمية وتوحيد الكلمة بين النصارى جميعاً، فكان يومئذ مؤتمر نيقية [١] من بلاد الروم سنة ٣٢٥ م، وهو اول اجتماع عقده رؤساء المسيحية في العالم، اجتمع فيه ما ينيف على ألفين وثلاثمائة رئيس ديني، وذلك بحضر القيصر قسطنطين نفسه، وكتبوا في ذلك وثيقة سموها بعقيدة الامانة [٢] وحملوا الناس عليها اعتقاداً وعملاً.

ثم اختلفت انظار هؤلاء الرؤساء انفسهم القائمين بتسيير دفة الدين بسبب اختلاف النظريات الفلسفية الداخلية يومئذ على الدين، وكان اول من عمل على مزج هذه الدراسات الفلسفية بالتعاليم الدينية الفيلسوف امونيوس الاسكندري Ammonius (٢٤١ م)، فتشعبت يومئذ المذاهب وانتصبت محاكم التفتيش للحكم على اصحاب المذاهب المناقضة الاخرى وطردهم من الكنيسة وحرمانهم؛ وافترقت النصرانية يومئذ الى فرق وشيع وطوائف كثيرة انقسمت بها الكنيسة على نفسها، اشتهر منها اصحاب هذه المذاهب الاربعة: الملكانية Melchites نسبة الى ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها، وهو مذهب البابا بروما وجمهور الملوك ورؤساء النصارى وعامتهم، واليعقوبية Monophysites اصحاب يعقوب البرذعاني راهب القسطنطينية، وهو مذهب غالب الارمن والاقباط وجميع الحبشة والنوبة، والنسطورية اصحاب نسطوريوس بطريرك

---

(١) هي مدينة (ازنيق) من بلاد الاناضول وموقعها على بحر مرمرة، كانت هي العاصمة الثانية لمملكة الروم وتسمى Nicæa.

(٢) انظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٦٣ ط مصر سنة ١٣٢٠ ه وابن خلدون ج ١ ص ٢٢١ ط مصر سنة ١٣٥٥ ه.

القسطنطينية (٤٢٨ م) المتوفي سنة ٤٥٠ م ، وهو المذهب الغالب على نصارى الموصل والعراق وفارس وخراسان ؛ والمارونية نسبة الى الراهب مارون (٤٣٣ م) ومذهبه قريب من المذاهب الثلاثة المتقدمة بل هو قريب الشبه من المذهب الكاثوليكي . ولقد نشأ عن ظهور هذه المذاهب تنافس بين اهلها ومشاحنات ومجادلات دينية واضطهادات نشأت عنها مذاهب اخرى الى هلم جراً ... وعن هذا السبب نفسه نشأت الفرق والطوائف الاسلامية بعد ذلك وكثر النقاش والجدل الديني الفلسفي واختلفت المذاهب الاعتقادية في علم الكلام ، والتاريخ يعيد نفسه ...

وكان حظ الجزائر من هذه المذاهب المسيحية هو مذهب دونتوس اسقف الديار السود (كازا نوار) – شمال اوراس – ٣٠٥ م فقد اخذ هذا المذهب ينتشر بسرعة في كامل القطر الجزائري رغم مقاومة السلطة له . وذلك لما احتوى عليه من مبادىء التحرير . وقد كثر اتباعه حتى كادوا في سنة ٣٣٠ م ان يستحوذوا على اكثر كنائس افريقية ، فقد بلغ عدد المراكز المسيحية بها سنة ٤١١ م سبعة وثمانين ومائة كنيسة ، منها ٨٧ دوناتية والبقية موزعة وموقوفة على مختلف المذاهب الاخرى ؛ ثم ان اهل هذا المذهب نفسه انشقوا الى طائفتين اثنتين كانت احداهما مقيمة بمدينة تيمقادي . ويعتبر هذا المذهب بحسب مبادئه الاعتقادية ثائراً على نظام الحكم السائد يومئذ على هذه الديار ، وطالما اصدرت الحكومة أوامرها الصارمة على اتباعه فلم يحفلوا لها ؛ وما تمذهب الجزائريون بهذا المذهب الدنتوسي إلا لما احتوت عليه تعاليمه من الثورة على قواعد الحكم ؛ وذلك لما انهم كانوا يرون فيه خلاصهم من امر الاستعباد والاستعمار ؛ وهذا هو الغرض والسر فيما نراه اليوم وقبل اليوم من تدخل الحكومات الاستعمارية في شؤون الاديان والمعتقدات ووضع يدها على العناصر الحيوية منها مثل ما شاهدناه نحن في بلادنا الجزائرية من فرنسا ؛ وذلك لما تتوجسه هذه الدول المستبدة من النهضة الدينية التحريرية .

ما فتئت الديانة المسيحية تنتشر لتأخذ مكانها - على مذهب دونا - بهذه البلاد حتى اخذ اتباع هذا المذهب الديني الوطني في مطاردة اهل المذاهب الاخرى ، فنشأت عن ذلك فتن واهوال ، ادت الى خلع طاعة الرومان ونبذ سلطانهم ؛ وتعددت الوقائع يومئذ ، فانتهز المناوئون للدولة فرصة هذا النزاع واخذوا في عقد اجتماعاتهم بمدينة تيمقادي وغيرها للنظر والتدبير في احداث انقلاب سياسي عام ، وهم في كل ذلك يتظاهرون بالبحث والنقاش الديني ، وقد كان على رأس هذه الحركة الثورية الرئيس الوطني فيرموس بن الملك البربري نوبيل ، احد زعماء زواوة وجرجرة ؛ فانحاز اليه اتباع مذهب الدوناتيست واندلع يومئذ لهيب الثورة الوطنية التحريرية في البلاد ٣٧١ م وكان يبلغ عدد جنود فيرموس نحو العشرين الفاً جاءت كلها محاصرة للعاصمة يول القيصرية - شرشال - وشددت عليها الخناق حتى فتحتها واحرقتها واستولت على مدينة الجزائر Icosium ونادت باسم فيرموس ملكاً على البلاد ؛ وكانت قبل ذلك وقائع وثورات بنوميدية وموريطانية الشرقية دامت نحو عشر سنوات (٢٥٣ - ٢٦٢ م) منها ما وقع من اهالي قبائل « البابار » القاطنة بمرتفعات (بابور) بين سكيكدة وقسنطينة الثائرين تحت قيادة اربعة زعماء نوميديين اتحدوا في كفاحهم مع قبائل الحلف الخماسي : وهي خمس قبائل متحالفة تقيم بين بجاية شرقاً ومدينة دلس غرباً وجبال جرجرة جنوباً والبحر الابيض المتوسط شمالاً ، وانضم اليهم القائد (فاراكس) مع جنوده الابطال القادمين من مرتفعات ناحية (بلعباس) وزحف هؤلاء المتحالفون بكليتهم على نوميدية وغزو أراضيها وأخذوا معهم عدداً كبيراً من الاسرى ، حتى ان القديس (سيبريانوس) كان مضطراً الى جمع مبلغ كبير من المال لافتداء النصارى وعلى الاخص العذارى اللاتي كان يخاف عليهن من الاغتصاب .

واستمرت المعارك والثورات بنواحي سور الغزلان (٢٥٥) ميلادية

وناحية (لاموريسيلير) سنة ٢٥٧ م وفي حدود موريطانية الشرقية حيث قتل (فاراكس) سنة ٢٥٩ م ولم تخمد نار الفتنة إلا في سنة ٢٦٢ م .

وفيا بين سنتي ٢٨٩ - ٢٩٨ م نشأت ثورات اخرى بالقبائل دامت هي بدورها ايضاً عشر سنوات وكانت الاضطرابات في هذه المرة اشد وأقوى من التي مرت قبلها . فلقد امتدت الحرب هذه المرة الى الجنوب وشملت جبال الحضنة وهدم الثوار صور « جواب » وكادوا يحتلون مدينة بجاية (صلدوي) . ولما عجز الامبراطور (ديوكليسيانوس) عن اخماد هذه الفتن استعان بالقيصر (ماكسيميانوس) الملقب بهرقل ، فقدم هذا الى افريقية ليقود حملة اضطهادية قبل الحاف الحامي[1] . ويومئذ جاءت الحامية الرومانية بقيادة ثاودوسيوس الروماني فنزلت بمرسى جيجل - ٣٧٣ - فانضم اليها - طوعاً او كرهاً - جيلدون اخو فيرموس فكانت الدائرة على فيرموس بنواحي سطيف ، وقضى القوم على هذه النهضة التحريرية وانعقد الصلح بين الرومان وفيرموس على هذه الشروط :

أ - تنازل فيرموس عن ملكه .

ب - منح مدينة الجزائر للقائد الروماني ثاودوسيوس .

ج - اداء اموال طائلة لهذا القائد ايضاً .

د - وضع رجال من الوطنيين رهناً تحت رقابة الرومان .

وحينئذ أضاف الرومان امارة افريقية بمغاربها الثلاث الى جيلدون مكافأة له على انتصاره لرومة وخيانته لاخيه ! ... وصاهره الامبراطور ايضاً في بنته ، وفي هذه الآونة اختفى فيرموس بنواحي الشرق الجزائري ريثما سنحت له فرصة النهوض الى المقاومة مرة اخرى ففعل فأخفق ؛ ولكنه لم ييأس فأعاد الكرة على العدو للمرة الثالثة وجاء يومئذ بعدد اوفر من الجند قضى بهم على قوة ثاودوسيوس الرومانية ، فانهزم القائد

---

(١) راجع احمد صفر : مدينة المغرب العربي في التاريخ ص ٣٧٣ ط تونس ١٩٥٩ م .

الروماني هذا الى ناحية عيون بسام وسعى هنالك في ارتشاء ملك فليسة - ايغماسن - للقبض على فيرموس ، ولما شعر فيرموس بضعفه امام جميع هذه القوات المحيطة به وادرك انه يروم امراً معضلاً لا تصل اليه مقدرته انتحر خنقاً سنة ٣٧٥ م ، ولم يظفر ايغماسن إلا بجثته فوجهها على بعير الى قائد القوات الرومانية .

وفي سنة ٣٩٥ م ثارت في نفس جيلدون عوامل الغيرة الوطنية وعصفت في رأسه حفيظة الانتقام لاخيه فيرموس المنتحر من اجل الرومان ، فنهض مطالباً باستقلال ارض الجزائر عن الرومان ، فرماه هؤلاء بأخيه مسيزل الذي كان ملتجئاً عندهم في رومة منذ انتحار اخيه فيرموس ، وجاء مسيزل لمقاتلة اخيه جيلدون . وكانت المعارك بينهم بين مدينة اميدرة - حيدرة وتيفيست - تبسة - فانهزم جيلدون وفر هارباً نحو البحر فركب متوجهاً الى القسطنطينية ، وكان البحر يومئذ مضطرباً فرمى بمركبه على شاطىء طبرقة فحطمه ووقع جيلدون في قبضة والي المدينة فسجنه وهنالك انتحر جيلدون سنة ٣٩٨ م بعد ما ملك ١٢ عاماً وكانت عاقبته مثل عاقبة اخيه فيرموس . واخيراً كان جزاء اخيه مسيزل جزاء سنمار فألقاه الرومان انفسهم في لجة نهر مخافة تأسيه واقتدائه بأخويه : فيرموس وجيلدون في بث روح الثورة الوطنية في البلاد ، وهكذا شأن الاستعمار في سياسته مع المستعمرين : مغالطات وتحذير وتغرير ثم الإجهاز !...

المجتمع الجزائري

لقد ذهب المؤرخون في تقرير عدد سكان شمـــال افريقية على عهد الرومان الى نحو سبعة ملايين ، واذا نظرنا الى عدد الرومان بالنسبة الى هذا القدر وجدنا ما يقرب من نحو الثلث منه طاليان وهم بالجزائر والمغرب الاقصى اقل منهم في تونس وطرابلس ؛ وان اغلب الرومان الذين وجدوا بالجزائر كان مجيئهم على عهد الاباطرة : نربا ٩٦ - ٩٨ ق م. اسبسيان ٦٩ - ٧٩ م. وقلوديوس ٤١ - ٥٤ م. واوكتافيوس اغسطس

٢٧ ق م – ١٤ م. وكانت المدن التي نزلتها هذه الامة من الجزائر : قرطنة : تنس – واجلجي : جيجل – وصلداي : بجاية – وروسقونيا : مطيفو – وزكبار : مليانة – وتبوسكوت : تكلات – ثم توالت الجاليات والافواج بعد ذلك ، فمنهم من نزل في ابدوم نفوم : وادي الدفلة – ومنهم بمداوروش ، وسيطيفس : سطيف – الخ ... وان اغلب من وجد بأرض الجزائر من هؤلاء الرومان انما هم من ابناء الجند .

ولقد كان الباعث الاول لمجيء هذه الجاليات الى هذا الوطن هو كثرة العاطلين يومئذ برومة واشتداد الازمة عليهم هنالك بداعي الفاقة والحاجة ؛ ولقد ارتفع عنهم كل ذلك بما وجدوه امامهم في هذا القطر من خصب التربة وما انفتح امامهم من الاعمال التجارية وغيرها .

وكان الناس في المعاملة امام القانون ثلاث طبقات : فالطبقة الاولى هي طبقة رجال الحكم وولاة الادارة الرومانية ، ثم تليهم طبقة بقية الامة اللاتينية جمعاء ، ثم تأتي بعدهم طبقة الشعب من جميع الاهالي الوطنيين ، وهم يعبرون عنهم بالاجانب Pérégrims ! ? ... وليس لهذه الطبقة الثالثة ادنى اعتبار ، ولقد عم هذا التقسيم البلاد نفسها فقسمتها السلطة الى مدن رومانية ، لاهلها التمتع بجميع حقوق الرومان ، فهي معفوة تماماً من جميع الضرائب ومن الانتخابات العامة ؛ ومدن بربرية ليس لها من الامتيازات الرومانية شيء ، واهلها خاضعون لسلطة رئيس بربري تحت اشراف ومراقبة رومـــة ؛ وذلك شأن الاستعمار في كل زمان ومكان .

فهو دائماً يعمل على اذلال المستعمر واهانته واحتقاره ، والا فما معنى هذه الضجة العالمية – قديماً وحديثاً – ضد الاستعمار ? ...

ورغم ما شهره التاريخ من نشر الرومان للسلام مدة قرنين كاملين في جميع انحاء الامبراطورية فقد ظلت الثورات الوطنية التحريرية متوالية بهذه البلاد ؛ وأياً ما كان فان سير الحياة الاجتماعية العامة كان منحطاً عن مستواه الذي تركته عليه قرطاجنة الفينيقية .

الحيـــاة الاقتصادية

ان اقل نظرة يلقيها الانسان على سير الحياة الاقتصادية العامة بهذه البلاد يراها قائمة على كواهل ابناء الوطن بتسخير رومة لهم في اقامة جميع هذه العمارات الضخمة والمؤسسات الفخمة العظيمة ومشاركتهم الفعالة في تضخيم الخزينة ، بأداء المغـــارم الباهضة وتموين رومة بجميع الضروريات الاقتصادية من حبوب وفواكه وخضر وبقول وخمور وصوف واخشاب ورخام ومعادن وزيوت وحيوانات النقل وغيرها من المحصولات ، مع شدة العناية بجلب المياه حسبا تدل عليه آثارهم في عدة اماكن ، كل ذلك يجعلنا على ثقة من حسن حالة البلاد الاقتصادية ويسرها يومئذ ؛ ولقد عبر الرومان انفسهم على خصوبة البلاد هذه بذلك الرمز الذي رسموه على قطع النقود المضروبة بهذا الوطن ، فانها كلها كانت تحمل صورة امرأة حاملة سنبلة ، ويزيدنا تأكيداً لهذه الحقيقة التاريخية قولهم في وصف افريقية Romæ graniarum اي هي خزينة رومة ؛ وكانوا اذا ارادوا ان يصفوا شخصاً بسعة الثروة قالوا : في مخازنه قمح افريقية ؛ ويقدر العلماء مبلغ مـــا كانت تستورده رومة من افريقية من مختلف انواع صادراتها سنوياً بما يبلغ احياناً ٣٤٨،٠٠٠ طن ؛ وقد كان لليد الالهية العاملة في ذلك فضل عظيم ، ولا شك ان البربر قد استفادوا شيئاً ما من هذه الحركة الاقتصادية التي كانت تجري في بلادهم على مرأى ومسمع منهم مما جعل سير البلاد الاقتصادي مطرداً في سبيل الرفاهية ورخاء العيش ولكنه لفائدة الغير .

ولا ينبغي ان ننسى ازدهار التجارة على عهد تراجان وهادريان واسرة انطونينوس (٩٨ – ١٩٢ م) حيث ظل الازدهار رائد التجارة بين دنيا البحر المتوسط والبلاد المطلة على المحيط الهندي . فقد اصلح تراجان المواصلات بين البحرين الاحمر والمتوسط على عهد الامبراطورية الرومانية فصارت التجارة حرة عبر مياهه ، ولو لم يرد الفرس سريعاً على اعقابهم بعد اقتحامهم الحدود

في القرن السابع لقضوا على هذه الوحدة ، ولكن انهاها العرب وتحطمت وحدة البحر المتوسط [1] .

الثقافة والحضارة والعمران

ان من يتتبع سير الاستعمار الروماني بهذا الوطن يراه قد استعمل جميع وسائله ومجهوداته لبسط نفوذه على العنصر الاهلي مادياً وادبياً ، فقد كان التعليم اجبارياً بلغته ، ورغم ذلك فان الاهلي لم ينس لغة بلاده فلقد برع فيهما معاً ؛ قال المؤرخ م تيري : لقد كانت العلوم تدرس بمدينة مادور ؛ وحدرموت : سوسة – ولبتيس ؛ وسيرتا : قسنطينة – وحتى في داخل نوميديا ، وكانت الدراسة فيها باللاتينية انما هي لاتينية مركبة على البونيقية التي مكثت حية الى هذه الآونة ، ومن هذه المدارس التي كانت تعلم اليونانية واللاتينية والبونيقية تألف ذوق جديد مركب من كل ذلك ؛ وانما كانت تغلب عليه الصبغة البونيقية . وكانت هنالك مدارس اخرى بشرشال ومدووروش الخ ... وكلها استعملها الرومان في نشر لغتهم كما فعلوا كذلك بالمحاكم والمسارح والمنتديات الخاصة والعامة ؛ وبذلك تيسر لابناء البلاد اتقان لغة الدولة الحاكمة مع المحافظة التامة على لغتهم .

فلا جرم حينئذ اذا شاهدنا في طبقة الشعب من بلغ ارقى درجات الخطابة والكتابة وبرز في علوم الحكمة والفلسفة ؛ فهذا يوبا الثاني ملك القيصرية : شرشال – وقد دام في الحكم نحو خمسين سنة ؛ كان شغوفاً بالعلم لا يفتر عن الكتابة ، فله مؤلفات نفيسة في التاريخ والجغرافية والفلسفة والتمثيل والموسيقى وهو مشهور بتوقد الذهن والذكاء المفرط وله ولوع خاص بدرس الهندسة ووضع التصميات العمرانية وقد جلب الى عاصمته من مصر واليونان طائفة من الفنانين والكتاب والشعراء والفلاسفة ؛ وأشاد بها القصور الجميلة والهياكل الفخمة ، كما اشتهر يومئذ العالم الكبير (ابوليوس) مؤلف كتاب الحمار الذهبي وغيره .

---

(١) جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة ص ٨٦ و١٧٢ ط القاهرة ١٩٥٨ م

وانتشرت يومئذ بين الاهالي صناعة الاقمشة الغليظة واواني الطين على اختلافها ، وكانت صناعة المصابيح الزيتية بشرشال متشهرة وتجارها رابحة ، والفنون الجميلة يومئذ مزدهرة كما يشهد بذلك ما تركه الرومان بعدهم من مظاهر العظمة الماثلة المزينة بالفسيفساء وصنع التماثيل الفخمة ونقوش المرمر والرخام وزخرفة الهياكل واقامة الحنايا لجلب المياه من بعيد وحفر الآبار والسدود والصهاريج العديدة ؛ وكان منها بالجزائر سدود الحضنة وهي سدود ثلاثة بوادٍ واحد ، الكبير منها يحمل نحو ١٢٠٠٠٠٠ ليتراً ، واعظم قناة اثرية بالجزائر هي حنايا مدينة شرشال – يول القيصرية – يبلغ طولها ٢٨ كيلومتراً بواسطة جسر كبير يبلغ ارتفاعه على منفرج الوادي ٣٥ متراً ويتألف من ١٧ حنية ذات ثلاث طبقات .

وكانت مدينة قرطة : قسنطينة – تشتمل على مدينتين : داخلية يحيط بها سور ، وخارجية وهي أوسع نطاقاً من الاولى ومساحتها تمتد غرباً الى جنان الزيتون ومقبرة السلام وبالجنوب الغربي الى قشلة باردو ، وشمالاً الى ضفة وادي الرمل الشمالية قال بارس : وذكر ابطات قديس ميلة : انه كان ملاصقاً لقرطة حارة عظيمه تدعى « موغاي » والظاهر انه المكان المعروف اليوم بسيدي مبروك . وتمتد هذه الحارة الى ناحية المنصورة ؛ الى ان قال : وبضواحيها نزلات منقطعة وقد عثر على آثار ذات بال بعضها بناحية الحامة .

وسعى القوم يومئذ في توسيع عمارة مدينة ميلة وسكيكدة والقل وجيلة فأصبحت هذه كلها عواصم جميلة فسيحة بعدما كانت قرى صغيرة ومثلها في ذلك باغاية ؛ ومسكولة : خنشلة – ولمبيس وتيمغادي ؛ وبادي – بادس – ولقد بلغت هذه المنشآت الرومانية بافريقية الى نحو الستين مستعمرة ما بين مدن وقرى وحصون ؛ وكانت كلها على غاية الرقي في الحضارة والعمران ؛ وكان يبلغ عدد سكان البلدة الواحدة منها ما بين العشرة آلاف نفس الى نيف وثلاثين الفاً ويبلغ عدد سكان مدينة (تيفيستا) – تبسة – الى مائة الف نسمة ، وبحسب ذلك كانت تعتبر هذه المدينة

من اعظم بلاد افريقية الرومانية ازدحاماً بالسكان بعد قرطاجنة . وكان لكل بلدة منها ساحة عمومية كبرى لعقد الاجتماعات واقامة الحفلات فيها تدعى « فوروم » منها الساحة العمومية بمدينة بونة - عنابة - ويبلغ طولها ٧٦ متراً وعرضها ٣٤ متراً وهي من أروع الساحات الرومانية جمالاً . وكانوا يعتنون على الاخص بإنشاء المسارح والملاعب مثل مسرح « تيبازا » وملعب شرشال ومسرح تيمقاد وقالمة وسكيكدة بالجزائر . وهياكل العبادة والحمامات مثل حمامات لمبيز وتيمقاد وجميلة الخ ... ولا يزال البحث عليها مستمراً بين اكوام الرمال والحجارة وفي غضون التراب الى اليوم ، وان ما ظهر من ذلك حتى الآن لهو أعظم دليل على نشاط الحركة الفكرية ومظهر جلي من مظاهر الثقافة العامة التي كان عليها الرومان يومئذ بهذه البلاد .

كما عبدت الطرق الواسعة بين العواصم والبلاد الشهيرة كالتي بين قرطاجنة وتبسة ؛ وبين شرشال وقرطاجنة ؛ والتي بين بونة وطرابلس والطريق الذاهبة من تبسة الى تمقاد وطريق سطيف الى سور الغزلان التي بين ميلة وخنشلة الخ ... واقامة الجسور مثل الجسر القائم الى الآن في الطريق ما بين مدينتي القنطرة وبسكره فهو ذو حنية طول انفراجها ١٠ امتار وعرضها ٥ امتار وبه عقود وخيوط ثلاثة ناتئة مستديرة ورسوم في شكل الورود ورأس فرس منقوش بواسطة العقد . ويكفينا شاهداً على تقدم هذا العصر ونبوغ امثال ابوليوس : اصله من مداوروش - الذي يقول فيه بيروني : هو من اكمل الرجال واعظمهم فائدة في عصره . واحسن وصف له واصدقه هو ان نقول فيه : رجل مخترع مؤسس لمباد كثيرة ، ومثله الفنان المهندس القسنطيني فرنطوس استاذ الامبراطور مرقس اوراليوس ٣٦٠ م ، هذا واننا اذا نظرنا جيداً في حقيقة هذه الحضارة والثقافة الرومانية وجدناها مقتبسة عن عن الاغريق والفنيقيين ؛ فهي عن تقليد محض ، ومع تقليد رومة لغيرها في المدنية فانها رفعت لواء الجندية فاحتلت به مركز قيادة العالم يومئذ واحكمت النظم السياسية والقضائية كذلك ، فهي لا تزال محتذاً للامم الراقية الى اليوم .

ويقول بعض المؤرخين ان حضارة الرومان بالجزائر كانت شبيهة بحضارة رومة ؛ وهم يستدلون على ذلك بأنه كان في زمن الامبراطور طريانس ٩٨ ق . م – ١٧ م كل من يحكم عليه بالنفي من رومة يمنع من الحلول بافريقية وذلك لما بين المواطنين من المشابهة في الحياة والرفاهية والاعتبار .

وان الذي يؤسف له هو عدم انتفاع الاهلي واستثماره كما يجب لكامل هذه الحضارة الرومانية الجبارة ! ... بل كثيراً ما رأيناه يسعى في اتلافها عن جهل ! ... وهذه خسارة كبرى خسرها الجيل البربري كما خسرها الفن المعماري التاريخي بالجزائر . وما ذاك فيما ارى إلا لاقصاء الرومان له واحتقارهم لشأنه وترفعهم عنه مثل ما هو مشاهد عند امم الاستعمار الى اليوم .

انهيار الجزائر الرومانية

كان لتلك النظم الادارية القاهرة التي فرضها الرومان على ابناء البلاد القاضية بسلب جميع حقوق الوطني الاهلي واهانته ، وتسخير مواهبه في منفعة غيره واحتقاره وفرض المغارم الباهظة عليه ، كل ذلك كان له اثره السيء في نفوس المحكومين ، فكانوا لذلك دائماً وابداً يتوقون الى الثورة ضد هذه السلطة الخانقة ، وفعلاً لقد نهض اباة الضيم من ابطال هذا الشعب الجريء واعلنوها حرباً عواناً في وجه هؤلاء الطغاة المتسلطين ، ونادوا باستقلال بلادهم عن الرومان ... فتعددت الثورات وكثرت الاضطرابات الداخلية مما دعا عتاة الرومان الى المبالغة في الاستبداد والاستعباد وظهرت الانانية والتنافس بين الحكام وتدهورت اخلاق الولاة فبطروا منهمكين في ملذاتهم ، واخلد الرؤساء الى الراحة والتنعم مقبلين على الملاعب والمسارح مدبرين عما يتطلبه الموقف من الحزم والعدل وشدة الشكيمة . فتفكك نظام المجتمع وعدم انسجامه بين طبقات الشعب وفقد تماسكه فتدخل يومئذ الجند واغلبه اجنبي مستأجر فاستحوذ على تسيير دفة المملكة الافريقية فعمل فيها برأيه ! ...

واشتد يومئذ النزاع المذهبي الديني الذي شرحنا أسبابه ونتائجه فيما سبق ، فزاد بذلك اختلال نظام المجتمع الروماني بافريقية وبغيرها أيضاً ، وأخذت الدسائس السياسية تلعب دورها بين رومة وقرطاجنة فساءت العلائق بين القائد الروماني (الكونت بونيفاس) وبين حكومته فسعى به اعداؤه لدى الامبراطورة (بيلاسيدية) فعزلته سنة ٤٢٧ م . ولكن القائد لم يبالِ بأمر الملكة واستمر في مكانه الى ان هاجمته رومة زاحفة على هذه المملكة سنة ٤٢٩ م . فصمد الكونت لرد حملات رومة عن هذا الوطن وانتصر عليها في ثلاث دفعات ؛ ولما شعر بضعفه امام الزحف الروماني استجاش بأصهاره الفاندال على ان يقاسمهم ملك هذا الوطن ويتنازل لهم تماماً عن جميع غرب المملكة الرومانية بهذه الديار ، فاجتاز حينئذ الفاندال بوغاز جبل طارق يقودهم رئيسهم (جنسريق)[١] وهم في نحو ٨٠٠٠٠ نفس فنزلوا بموريطانيا في شهر ماي ٤٢٩ م . واكتسحوها الى الساحل الجزائري فاحتلوا منه مدينة الغزوات Ad Fratres ، ويومئذ انقسم جند الاحتلال الى فئتين فئة منه اختصت بادارة الشؤون الحربية وهي خمسون الفاً ، واشتغل الباقي بالشؤون المدنية ؛ واذا ذكرنا المدنية هنا فانما هي مدنية فاندالية ! ...

ولما رأى الكونت بونيفاس سوء سلوكهم المتوحش ندم على ما صدر منه من الغدر بحكومته في سبيل اشباع نهمته وتنجيز غرضه الشخصي فسعى بكل جهوده في طلب العفو من الامبراطورة بواسطة القديس اوغسطين ، فعفت عنه وانقلب هو يومئذ على الفندال وحاربهم في نواحي فالمة من الوطن الجزائري فانهزم واندحر امام قوات الفاندال التي وجد فيها البربر منيتهم المنشودة في القضاء على الاستعمار الروماني والتشفي منه . ففر بونيفاس منهزماً الى هبونة - عنابة - حيث يقيم هنالك الوطني الحر والفيلسوف العالم القديس اوغسطين فانضم اليه الكونت مدافعاً عن الوطن .

ويومئذ رأى امبراطور بزنطة شبح الخطر يتهدد الامبراطورية الرومانية

---

(١) ينطق به الجرمان هكذا : جوزريتش ، ومعناه امير الروح .

في الشرق وفي الغرب فبعث من حينه بالحامية لانقاذ موقف رومة الحرج امام حملة الفاندال ، فنشبت الحرب من جديد وانهزم فيها الروم البيزنطيون ايضاً ، واحتل الفاندال مدينة بونة آخر معقل للرومان بالجزائر (ديسمبر ٤٣١ م) وعاث الفاندال في هذه البلدة المنكوبة بما شاؤوا من انواع الهدم والنهب والتخريب ولم يبقَ فيها شيء إلا اتوا عليه سوى دار القديس ومكتبته !... وسقطت الجزائر يومئذ بيد الفاندال وتم استيلاؤهم على القطر الجزائري بقسميه : نوميديا وموريطانيا ، وذلك على عهد الامبراطور « ولنتينيانس الثالث » وبذلك ارتفع نير الاستعمار الروماني عن الجزائر بعدما اناخ بكلكله واثقاله عليها مدة ٣٨٠ سنة . وهكذا الدنيا دواليك ، ولكل بداية نهاية .

ولما تحقق الرومان خطورة موقف منطقة افريكا – المملكة التونسية – امام احتلال الفاندال بادروا بعقد معاهدة مع هؤلاء مدة ثلاثين سنة اعترف لهم الرومان فيها بالاستيلاء على القطر الجزائري والمغرب ما عدا ولاية تونس ؛ وان لا يعتدي على حدود هذه الولاية ، وأمضى جنسريق هذه المعاهدة ، وقدّم ولده هنريق رهناً للرومان وتحمل مع ذلك ضريبة سنوية يؤديها لرومة ، وتم عقد الصلح بينهم على ذلك سنة ٤٣٥ م . وجلس جنسريق على ولاية المغربين الاوسط والاقصى متخذاً لكرسيه مدينة هبونة : عنابة ثم انتقل منها بعد ذلك الى مدينة صلداي : بجاية – واستمر في خطته السياسية على وفق ما قررته بنود المعاهدة الى ان اطمأن له الامبراطور واذن لهنريق بالعودة الى والده ...

وبعدها بقليل طمح الفاندال الى ضم بقية مملكة افريقية لسلطانهم فانقضوا على عاصمة قرطاجنة فهدموا اسوارها وكسروا حصونها وفتحوها عنوة يوم ١٩ اكتوبر ٤٣٩ م وطردوا منها الرومان فكان ذلك آخر عهدهم بافريقية بعدما استعمروها مدة ٥٧٦ سنة ؛ غير ان الجشع الفاندالي والجنون الاستعماري لم يكن ليعرف في تاريخه حداً ولا نهاية !... فانهم بعدما قضوا على مملكة الرومان بافريقية توجهوا تواً الى رومة نفسها

فأحاطوا بها وفتحوها عنوة ايضاً سنة ٤٥٥ م وانزلوها عن حصانتها ومناعتها منذ ١٢٢٩ سنة ثم عادوا بعد ذلك الى المغرب يجرون وراءهم ذخائر رومة ونفائس مقتنياتها الثمينة فملأوا بها خزائنهم بافريقية ، ويومئذ انقطعت آمال الرومان ومطامعهم تجاه هذا الوطن ، ولم تتمكن لهم العودة اليه بعد ذلك إلا في القرن العشرين م . حيث استولى أحفادهم الطليان على جزء منه : طرابلس ، وذلك ما ينيف على ثلاثين سنة ، فدحره الحلفاء ...

واستقر الفاندال بافريقية متخذين قرطاجنة عاصمة لهم ؛ ومحوا كل اثر كان للرومان بها غير اطلال دوارس بقيت هنا وهناك متفرقة في انحاء هذا الشمال .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان ممن اشتهر من ولاة الجزائر في هذا العصر الرئيس « كومودبوس » زعيم اتحـــاد المدن الثلاث : ميلوم : ميلة – وروسقاد : سكيكدة – وشولو : القل – وهو آخر من تولى رئاسة هذه الجمهورية الصغيرة وكان مقره ببلده ميلة ؛ والرئيس الروماني « ستيوس » كان على هذه الولاية قبل انفصال المدن الثلاث عن قرطة : قسنطينة – وكويكلوم : جميلة – اي حينما كانت جمهورية هذه المدن الخمس في اوجها . وقد كانت ولاية ستيوس هذا سنة ٤٦ ق م واطلق الرومان على هذه الولاية اسم « مستعمرة ستيوس » ، ومات هذا القائد الروماني قتيلاً على يد البطل الجزائري « عرابيون » وقد كان جانب من نوميديا تحت ولاية « سالوست » ، كما تولاها ايضاً « سكستوس » نائب اكتافيوس ، ثم عزل نفسه وجعل مكانه « فانغو » وتولى هو على البروقنصلية ، وكما اشتهر ايام الرومان بالجزائر الزعيم « اغماسن » رئيس قبيلة جزائرية كانت تسكن بجنوب جرجرة ، ولهذا الرئيس الجزائري مواقف شريفة سلكها مع البطل فيرموس في ثورته على الرومان بجبال جرجرة سنة ٣٧٢ م حسبما مرت الاشارة اليه ،

وكان من الزعماء ايضاً « طاكفريناس » الذي اعلن الثورة على الرومان سنة ١٧ م . وقد انضم اليه يومئذ بربر جبال اوراس وأمده زعماء الصحراء بالفرسان ... ومن ولاة نوميديا الرومانيين : القنصل « كلبرنيوس باسطيـــا » سنة ١١٠ ق م و « ستيميوس البينيوس » سنة ١١٠ ق م و « كيسيليوس ميتيليوس » سنة ١٠٩ ق م و « كايوس ماريوس » سنة ١٠٧ ق م والكل يعرف بلقب « الآغا » (Legatus — Legat) ومحل اقامتهم كانت تارة بتبسة ولعباز من المدن الجزائرية ، او بمدينة حيدرة (Ammædara) من المدن التونسية .

وكان ممن اشتهر في ميدان العلم والعرفان يومئذ القديس الفيلسوف « اوغسطين » زعيم النهضة الدينية والسياسية ايضاً ببونة ، ومثله « دونتوس » اسقف مدينة باغاية وهو مؤسس مذهب الدوناتيست ، والعلامة المتفنن الذائع الصيت « فرنطوس » القسنطيني الاصل واستاذ الامبراطور مرقس اوراليوس — ٢٦٠ م — وكان مبرزاً في الفنون الهندسية ، وكذلك العالم « ابوليوس » من اهل مدينة مداوروش ، قال عنه بيروني : انه من اكمل الرجال واعظمهم فائدة في عصره ، واحسن ما يطلق عليه من الاوصاف ان يقال فيه انه رجل مبتكر مؤسس لمبادىء كثيرة . وكذلك الاسقف المصلح « ابطات » راهب مدينة ميلة فان له من التآليف الهامة كثير ، ومن اهمها تاريخ مذهب « دنتوس » . واسقف قالمة القس « بوسديوس » مؤرخ حياة اوغسطين الخ ...

ولا ينبغي ان ننسى او نغفل التنويه بملك العلماء او عالم الملوك « يوبا الثاني » وقد تقدمت الاشارة اليه من قبل فانه كان ملكاً جليل القدر عظيماً ، ولد سنة ٥٠ ق م وتوفي سنة ٣٣ م وهو صاحب الهيكل العظيم والضريح المشهور شرقي مدينة شرشال المعروف اليوم بقبر الرومية وهي زوجته « كليوباطرة سيليني » ابنة كليوباطرة ملكة مصر المشهورة ، توفيت قبل زوجها يوبا المذكور بثمانية عشر سنة ، ويقال انه دفن الى جانبها هنالك . واشتهر يوبا بالعلم والادب والفن ، وذكره قدماء المؤرخين فقالوا

انه كان مشهوراً بتآليفه وتصانيفه وأعماله الفكرية المفيدة اكثر من اشتهاره بالملك ، ومن تآليفه كتابه في الليبيقيات (Les libyca) اخرجه في ثلاثة اجزاء وهو يشتمل على مواد كثيرة وعلوم شتى تتعلق بافريقية من جغرافيا وتاريخ وأساطير ميثولوجية وطبيعيات الخ ... وكتاب حول جزيرة العرب وآخر في تاريخ الرومان ، وله كتب كثيرة في فنون الرسم والتشخيص والموسيقى واللغات واللهجات ، وكانت له مكتبة ضخمة حوت كثيراً من نفائس الكتب ، وقد جمع حوله نخبة من المؤلفين والنساخ يؤلفون وينسخون له الكتب ، كما انه عني كثيراً بتنظيم البعثات العلمية فبعث بطائفة منها الى البحث والتعرف الى اهل منبع النيل ، ومنها من توجهت الى البحث عن الجزائر الخالدات ، ومن المؤسف والمؤلم ايضاً انه لم يبلغنا من الآثار العلمية التي لهذا الملك الجزائري العالم شيء سوى ما حدثنا عنه المؤرخون او حكوه عنه . وقد كان للجزائر مثل هؤلاء ممن ذكرنا كثير فحق لها ان تفتخر بهم في جميع اطوار تاريخها وحياتها العامة .

مشاهير ملوك الوطن الجزائري

	المملكة	تاريخ الولاية من — الى
بوغورطة	نوميديا الشرقية	١١٨ — ١٠٤ ق . م
آذربعل	نوميديا الغربية	١١٨ — ١١٣ ق . م
بوكوس الاول	نوميديا الغربية	١٠٤ — ٨٠ ق . م
حمصال الثاني	نوميديا الغربية	١٠٢ — ٥٠ ق . م
بارباس	نوميديا الوسطى والشرقية	١٠٢ — ٨١ ق . م
ماصينطا	نوميديا الغربية	٨٨ — ٨١ ق . م
حيرباص	كامـل نوميديا	٨١ — ٥٠ ق . م
يوبا الاول	نوميديا الشرقية والوسطى	٥٠ — ٤٦ ق . م
مازاناسيس	نوميديا الغربية	٥٠ — ٤٦ ق . م
بوكوس الثاني	موريطانيا الشرقية	٨٠ — ٤٠ ق . م
عرابيون	نوميديا الغربية	٤٤ — ?... ق . م
بوكوس الثالث [1]	جميع موريطانيا	٤٤ — ٣٣ ق . م
يوبا الثاني	موريطانيا الشرقية	٢٥ ق . م — ٢٣ م
بطليموس	موريطانيا الشرقية	٢٣ — ٤٠ م
فيرموس	موريطانيا القيصرية	٣٧١ — ?... م
نوبال	القبائل الخمس [2]	?... — ٣٧٠ م

---

(١) هو آخر من تملك من الجزائريين على موريطانيا الشرقية ، وبعد وفاته ألحقها الرومان بمستعمراتهم .

(٢) هي ميلوم : ميله — ورسقاد : سكيكدة — وشولو : القل و كويكلوم : جيلة — وقرطة — قسنطينة .

أباطرة الدولة الرومانية

دور الامبراطورية الاعلى

		تاريخ الولاية من – الى
أولاً – العائلة اليوليوسية :	اكتافيوس	٢٧ ق . م – ١٤ م
	طبيريوس	١٤ – ٣٧ م
	غانيس	٣٧ – ٤١ م
	قلوديس	٤١ – ٥٤ م
	نيرون	٥٤ – ٦٨ م
	غلبان	٦٨ – ٦٩ م
	اتون	٦٩ – ٦٩ م
	ويتليوس	٦٩ – ٦٩ م
ثانياً – العائلة الفلافيـــة :	وسبيسيان	٦٩ – ٧٩ م
	طيطش	٧٩ – ٨١ م
	دومتيان	٨١ – ٩٦ م
	نربا	٩٦ – ٩٨ م
ثالثاً – العائلة الانطونيـة :	طريانس	٩٨ – ١١٧ م
	اندريانوس	١١٧ – ١٣٨ م
	انطونيوس	١٣٨ – ١٦١ م
	اورالیانس	١٦١ – ١٧٨ م

	تاريخ الولاية من ــ الى	
كمودة	١٧٨ ــ ١٩٢	م
برطانوس	١٩٢ ــ ؟ ...	م
بوليانوس	...؟ ــ ١٩٣	م

أباطرة القرن الثالث

سيبتيم سيفير	١٩٣ ــ ٢١١	م
اقطونيس	٢١١ ــ ٢١٧	م
مقرين	٢١٧ ــ ٢١٨	م
انطونين	٢١٨ ــ ٢٢٢	م
اسكندروس	٢٢٢ ــ ٢٣٥	م

عصر الفوضى العسكرية

مكسمنس	٢٣٥ ــ ٢٣٨	م
عرديانوس	٢٣٨ ــ ٢٤٤	م
فليبس [١]	٢٤٤ ــ ٢٤٩	م
دقيانوس	٢٤٩ ــ ٢٥١	م
اورليوس	؟... ــ ٢٦٠	م
غلينوس	٢٦٠ ــ ٢٦٨	م

(١) لقد بلغ من نفوذ العرب وتأثيرهم العظيم في الحروب التي كانت قائمة بين الرومان والفرس ان تبوأ عرش رومة هذا الامبراطور « فيليبس » او « فيليبوس » وهو المسمى عند ابن خلدون باسم فلفش بن اورليان وهو من عرب غسان ، تولى الملك كقيصر على مملكة رومة خمس سنوات (٢٤٤ ــ ٢٤٩ م) وهو الذي اقام احتفال ذكرى مرور الف سنة على بناء مدينة رومة (النهج القديم ص ٥٢٤ ومعجم لاروس ص ١٦٠٦) .

	تاريخ الولاية من – الى	
قلوديس الثاني	٢٦٨ – ٢٧٠	م
اورليانس	٢٧٠ – ٢٧٤	م
تاكينس	٢٧٤ – ٢٧٦	م
بروبش	٢٧٦ – ٢٨٢	م

دور الامبراطورية الاسفل

ديوقلطيانوس	٢٨٤ – ٣٠٥	م
غلاريس	٣٠٥ – ٣١١	م
قسطنطين	٣١٢ – ٣٣٧	م
قسطوس	٣٣٧ – ٣٥٠	م
قسطنطيوس	٣٥٠ – ٣٦٠	م
بوليانوش	٣٦٠ – ٣٦٣	م
يوبنيانوس	٣٦٣ – ٣٦٤	م
واليطينوس	٣٦٤ – ٣٧٥	م
واليس	٣٧٥ – ٣٧٨	م
غراطيانس	٣٧٨ – ٣٨٣	م
ثاداسيوس	٣٩٢ – ٣٩٥	م
هنوريوس	٣٩٥ – ٤٢٣	م
ولنتنيانس الثالث [١]	٤٢٤ – ٤٥٤	م

(١) انتصب تحت كفالة والدته الامبراطورة « بيلاسيدية » اخت هنوريوس السابق المتوفاة سنة ٤٥٠ م .

من مشاهير الجزائر

ابوليوس الماضوري

القرن الثاني للميلاد

هو كاتب افريقي نوميدي عاش في القرن الثاني للميلاد . ولد بمدينة ماضور المعروفة اليوم باسم « مداورش » بشرق عمالة قسنطينة – جنوبي سوق اهراس – سنة ١٢٥ م ، وقد كانت ماضور هذه في ذلك العهد الروماني مركزاً بلدياً به مدارس لنشر التعليم والثقافة الاولية ، ولم يكد يبلغ آبولي (Apulée) او ابوليوس الثلاثين من عمره حتى ذاع صيته . وقد رحل الى قرطاجنة التي كانت عاصمة العلم في افريقية ، ثم الى آثينا ، فروما وعاد الى ماضور برتبة محام ، وتولى مع والده بعض المسؤوليات البلدية . لكن جو القرية كان يخنقه ، فشد عصا الترحال من جديد وسافر الى الاسكندرية ماراً بقرطاجنة وطرابلس ، ولم يعد من هذه الرحلة الا بعد سنتين ، وبعد مغامرات زادت في اتساع علمه وعبقرية فكره .

وكان على الرغم من اقبـــاله على متع الحياة يجد الوقت للكتابة والتأليف ، ومن كتبه المعروفة والمقروءة حتى اليوم كتابه الشهير الحمار الذهبي (L'Ane d'or) او المسوخ (Les Métamorphoses) ويصح ان تقول فيه التطورات ، وهو من اعجب الكتب في الادب اللاتيني اخرجه مؤلفه في احد عشر جزءاً صور فيه الحياة المغربية تصويراً دقيقاً كله الوان جذابة وحقائق لاذعة ، وكتاب (Les florides) وكتاب (L'Hermagoras)

و (L'Apologie) وله عدة رسائل في موضوعات شتى ، من فلسفة ، وتاريخ ، وشعر ، ونقد ، وحساب ، وطب ، ونجوم ، وما وراء الطبيعة ، وحتى السحر الذي اشتهر به . وقد شبهه بعض النقاد لسعة علمه بالكاتب الملك النوميدي (يوبا الثاني) . وقد درس كل علم وفن ولم تكن مادة ما فوق طاقة فكره . وقد كان هو يفخر بانه كرع من كل معين ، وكان لا يدين بدين ، بل كان كاهناً لكل دين . ولم تكن المسيحية في القرن الثاني قد انتشرت في افريقية حتى يعتنقها كما اعتنقها بعد ذلك غيره من الافريقيين ، رغم مزاحمة الملل والنحل الوثنية للعقيدة السماوية .

وقد بلغ آبولي اوج المجد فنصبت له التماثيل في قرطاجنة وطرابلس ومسقط رأسه ماضور « مداورش » الا ان الخلود الحقيقي ناله بكتبه وما تركه من اثر عميق في ميدان الفكر والآداب ، وهو الكاتب الخطير الذي حاول جميـــع الكتاب الافارقة بعده ان يبلغوا درجته وشأوه ومنهم تورتوليان (Tertullien) والقديس اوغسطين الذي وجد فيه اول استاذ له ، الا ان القديس اعتنق المسيحية بعد حرب عنيفة بينه وبين نفسه ، وبعد ان محص جميع العقائد المعروفة في عهده ، وقد كتب القديس اوغسطين مائتين وثلاثين سنة بعد آبولي ، كان يملك نفوذاً غير طبيعي لاتساع معلوماته وكان الوثنيون يتخذونه نبياً [١] .

القديس اوغسطين

٣٥٤ _ ٤٣٠ م

لقد ولد هذا القديس الجزائري العظيم يوم ١٣ نوفمبر سنة ٣٥٤ م ببلدة « تاجيستة » سوق هراس على نحو مائة كيلومتراً جنوب مدينة بونة – عنابة – من ام مسيحية وأب وثني لم يعتنق المسيحية الا في اواخر

(١) هنا الجزائر ٤٢ ـ ١٩٥٦ م .

عمره . نشأ « اوغسطين » وتعلم بمدينة مداورش شرقي عمالة قسنطينة ، وقد شب غير متقيد بالدين ولا بقيود العفة واخذ يتنقل في البلاد فدخل قرطاجنة وجال في مدن ايطاليا وهنالك تعمق في الدرس فأحاطت به ظروف كان فيهـــا مانويا ينتقد العقائد ، ثم وقع تحت تأثير مذهب الشكاك ، وفي رومة تمكن من دراسة آراء شيشرون ، وتفهم المذهب الافلاطوني الجديد الذي قربه مراحل الى العقيدة المسيحية ولم يتأثر بها ، وتحول في مدينة ميلاي على كرسي تدريس البلاغة ، ثم انه كان يرى غيره يتأثر بالدين المسيحي فيخجل من نفسه لانه يتعلم ويدرس الفلسفة ويزعم انه يحتقر الماديات . وفي ذات يوم دعاه ضميره وناداه وجدانه الى الايمان والتدين الصحيح فعاد من ايطاليا الى الجزائر سنة ٣٨٨ م واتخذ ببلده تاجيستة ديراً للتعبد والدرس ، ومنذ ذلك الحين عمت السكينة قلب اوغسطين فانزوى بديره يدرس ويتعبد على مذهب الارثوذكس – السلفين – وقد تخرج على يده عدد وافر من علماء اللاهوت واصبح ديره كعبة علم وفلسفة ودين ، واضحى القديس بتآليفه ودروسه وشهرته ومكانته من اعلام الفكر البشري ومن اكبر رجال الكنيسة . فعين على رأس اسقفية بونة سنة ٣٩١ م ويومئذ تصدى لقمع المخالفين والمناوئين لمذهبه الارثوذكسي فكتب عدة تآليف نفيسة تناهز المائتين مصنف كتبها كلها باللاتينية ، منها « اعترافاتي » (Mes confessions) حيث قص حياته بامانة ونزاهة فلم يخف حتى عيوبه وما وقع فيه من اخطاء الشباب ، وقد كتب هذا الاثر الثمين ما بين سنة ٣٩٧ و ٣٩٨ م بينما بدا كتابه الآخر « مدينة الاله » (La cité de Dieu) ذكر فيه مزية وفضل الحياة الاخرى عن الحياة الدنيا ، وضعه سنة ٤١٣ م وفرغ منه سنة ٤٣٦ م . وكان يعد في زمانه اخطب خطباء عصره واكثرهم تأثيراً في مستمعيه قوياً في الحجاج والجدل والمناظرة ، فحارب بكل ما اوتيه من قوة بقلمه ولسانه جميع المذاهب التي من شأنها ان تقف حجر عثرة في تقدم الديانة المسيحية ، فكان يمثل القمة التي انتهت اليها الحياة الفكرية في افريقية المسيحية في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس الميلادي ، وبلغ من تأثيره في الاوساط

العلمية ان تسمى العصر الذي كان يعيش فيه القديس بالعصر الاوغسطيني كما اشتهرت تعاليمه بالمدرسة الاوغسطينية ، وضلت آثاره الخالدة المرجع الوحيد للتدريس في جامعات القرون الوسطى الى ما بعد النهضة ، وما من رجل فكر الا وكرع من منهله الفياض واستمد من معينه الصافي .

وليس القديس اوغسطين هو العبقري الوحيد الذي عرفته الجزائر او بالاحرى افريقية المسيحية في التاريخ القديم . بل عرفت قبله مفكرين وكتّاباً عديدين مسيحيين وغير مسيحيين مثل آبولي (Apulée) وافرنطون (Afranton) وترتوليان (Tertullien) وسبريان (Cyprien) ودونا (Donat) وغيرهم ، نعم وبفضله اصبحت مدينة بونة كعبة طلاب العلم اللاهوتي فكانت من اهم المراكز العلمية والدينية بالجزائر فالتفتت اليها الانظار ، وفيها انعقدت مجامع المطارنة الشهيرة التي كانت سنة ٣٩٣ و٣٩٥ و٤٢٦ م .

ولاوغسطين هذا موقف سيامي شريف يدل على تضحيته ووفائه لقومه ووطنه ، تلك هي مواقفه الشهيرة تجاه المعتدين من الفاندال على الوطن الجزائري فانه بمجرد ما بلغه سعي اعداء القائد الروماني العام « الكونت بونيفاس » به الى رومة سنة ٤٤٧ م وعزله من منصبه ، نهض القديس مدافعاً عنه امام الامبراطورة « بلاسيدية » وعمل جهده على تحسين العلائق بين الطرفين فتأثرت الامبراطورة لكلام القديس وعدلت عن رأيها في عزل الكونت . وكان اوغسطين ايام حوادث الهجوم الفاندالي على الوطن يقاوم ويحارب بنفسه ، فقد دافع الفاندال عن وطنه دفاع الابطال ، فانه لما انكسر الكونت بونيفاس منهزماً الى بونة نهض القديس بأعباء المقاومة واخلص في دفاعه حتى النهاية وقد امكنته الفرص مراراً من الفرار بنفسه امام همجية الفاندال الوحشية ولكنه ابى ... ووقف في صف المحاربين الاحرار مدة اربعة عشر شهراً صابراً لحوادث التدمير والتخريب الى ان ادركه حمامه فمات مكافحاً شهيد الوطنية والعقيدة يوم ٢٩ اوط سنة ٤٣٠ م وبموته سقطت الجزائر بيد الفاندال ، فكان اوغسطين بحق احد زعماء الفكر بالجزائر ومن عباقرة الوطنيين الاحرار .

جدول تاريخي

١٤٦ ق.م - ٤٣١ م

تاريخ الحوادث	اهم الاحداث بالجزائر على عهد الرومان
١٤٦ ق.م	استيلاء الرومان على افريكا - ولاية تونس .
١١٠ ״	ثورة الملك بوغورطة عدو الرومان اللدود ودفاع الاحرار الجزائريين تحت لوائه .
٤٦ ״	استعمار ولاية نوميديا : عمالة قسنطينة .
٢٤٤ - ٢٧٠ م	ثورة الرئيس « ارادبون » بالساحل الجزائري .
٢٩٧ م	سقوط ناحية جرجرة بيد الرومان وتوزع السلطة بينهم .
٢٨٨ - ٢٩٧ م	اندفاع الثورات التحريرية في وجه الرومان .
٤٠٠ م	تأسيس مدينتي جميلة وتيمقادي على يد الجالية الرومانية وانتشار مذهب الدوناتيست بالجزائر .
٤٣١ م	انهيار الجزائر الرومانية على يد الفاندال .

الدولة الفاندالية

٤٣١ ـ ٥٣٤ م

اصل الفاندال

الفاندال شعب قديم من شعوب امة القوط الغربية التي سكنت شمال نهر الدانوب ، وموطنهم – في القرن الثالث قبل الميلاد – بشمال جيرمانيا ما بين وادي فيستول ونهر اوضير L'Oder et la Vistule على سواحل بحر البطليق ؛ منحدرون من السلالة الصقلبية - السلافية – ولقد امتد هذا الشعب وانتشر في جنوب المانيا ، ومنها تدفق على العالم الغربي – في القرن الخامس والسادس الميلادي – فاستولى حينئذ على ارض الغول la Gaulle - فرنسا – واتصل بجبال الثنايا – البيرينات – pyrénnées ثم انحدر الى اسبانيا فاحتلها سنة ٤٠٩ م ونزل بجنوبها فسكن نواحي غرناطة وجيان وهنالك اشتهر اسمه بها ونسبت اليه فصارت تدعى تلك الناحية « فاندلوسيا » ومنها جاء اسم الاندلس بعد ذلك على عهد العرب الفاتحين .

ونظراً لخصوبة موقع بلاد الشمال الافريقي ويسر الحياة الاقتصادية به تسلط عليه هؤلاء الفاندال بمساعدة اهله فكانت تلك السرعة العجيبة منهم في الاستيلاء على هذا الوطن واسسوا به يومئذ دولتهم الملكية سنة ٤٣١ م ، ثم استولوا على البروقنصلية – ولاية تونس – واحتلوا قرطاجنة سنة ٤٣٩ م .

نظامها الحكومي

هذه اول دولة ملكية وراثية تأسست بأرض افريقية توارث عرشها ستة ملوك من آل « جنسريق » ، وكانت اول عاصمة لهم بهذا الوطن مدينة بونة – عنابة – ٤٣١ م ثم انتقلوا الى مدينة صلداي – بجاية – الى ان فتحوا قرطاجنة سنة ٤٣٩ م فانتقلوا اليها سنة ٤٥٥ م .

ونظراً لما كان عليه الفاندال من البعد عن مسايرة المدنية والحضارة فانهم تركوا ما كان من النظم الادارية بهذه البلاد على حاله من قبل ولم يحدثوا فيها اي تغيير سوى فرض سلطانهم على الاهالي واستبدادهم في توزيع اراضي الوطن الخصبة على الخاصة من الامرة المالكة وارباب الدولة ورؤسائها الممتازين . وما تركته الدولة يومئذ من التراب تحت تصرف اهله انما كان في مقابلة ضرائب واتاوات باهضة ! .. وكأن ما سنه المستعمرون بعد ذلك من قانون expropriation منتزع من هذا ؟ ! ... وذلك ما دعا الكثير من الرومان وحملهم على الهجرة الى بيزنطة .

نعم كان سعي الفاندال مع الاهالي اولا سعيا فيه نوع من اللين والسهولة فخفضوا لهم مبلغ الضرائب التي كانت عليهم ، ولكن ذلك فعلموه استمالة لقلوب القوم ليستعينوا بهم على اعدائهم الرومان ، وفعلًا نجحت سياستهم في ذلك وانقاد لهم رؤساء البربر ومدوا لهم يد المساعدة بقصد التشفي من اعدائهم الرومان الذين ارهقوهم مدة قرون ! ... وتطلعا منهم كذلك الى التحرر من نير الاستعمار ... فدخل الكثير منهم في نظام الجيش الفاندالي الذي كان يبلغ يومئذ نحو الثمانين فرقة بما فيها من جنود البحرية ، ولم يكن الجند الفاندالي ليحسن حرب المشاة والمقاتلة على الاقدام بل كان لا يرى في حروبه كلها الا فارساً مغواراً يحمل معه السيف والرمح وكان اغلب هذه الفرق موزعاً على حفظ الامن وحراسة البلاد . وقد عمل الفاندال على استمالة اليهود اليهم وتقريبهم منهم للاستعانة بهم في الاقتصاديات استدراراً لخيرات البلاد . وكان للاسطول الفاندالي السيادة على غربي حوض هذا البحر الابيض المتوسط . ولهذه الدولة نقود مسكوكة مضروبة باسمها .

حدود الجزائر الفاندالية

كان لمجرد استيلاء الفاندال على القطر الافريقي هذا ان شرعوا في تقسيمه الى ست مناطق مختلفة في الاعتبار والمساحة ؛ ثلاث منها هي بالمملكة التونسية اليوم ، والمقاطعة الرابعة هي عبارة عن منطقة نوميديا ــ عمالة قسنطينة ــ والخامسة عمل تبسة ، وهم بهاتين الولايتين اقلية بالنسبة الى المقاطعات الاربع الاخرى ؛ والسادسة هي عبارة عن ارض المغرب الاقصى .

معتقد الفاندال

كانت الامة الفاندالية وثنية تعبد « دونار » الرعد ، و « تيو » الحسام ، وتخضع للشمس والقمر وغيرهما من الاجرام العلوية ؛ وتضيف الى ذلك آلهة اخرى من معبودات الوثنية : ومنهم من تمسح على مذهب اريوس Arius الاسكندري وهو مذهب الحكومة ، ولم يلبث الفاندال ان اقبلوا فأنشؤوا يضطهدون الدوناتيين وغيرهم من اهل المذاهب المسيحية الاخرى ووافقهم على ذلك اليهود ايضاً . وذلك ما حمل رجال الكنيسة الارثوذكسية على التضرع الى امبراطور بيزنطة في انشاء حملة على افريقية . ولم يشمل اضطهادهم الديني هذا اهالي الجزائر لقلة من كان فيها على هذا المذهب ، والذي كان يجلس على كرسي اسقفية الجزائر القس فيكتور Victor الذي اشترك في مجمع قرطاجنة المنعقد بامر الملك هونريك Huneric الفاندالي سنة ٤٨٤ م .

البربر والفاندال

ان المتأمل جيداً في موقف البربر وحركاتهم تجاه الفاندال يجدهم غير خاضعين تمام الخضوع لهذه السلطة القاسية التي تسلطت على بلادهم ، بل استمروا مستعصمين بمراكزهم الجبلية الشاهقة ، عاملين على استقلالهم وانتظامهم بها ، وقد استعادوا بفضل خطتهم هذه ما انتزعته السلطة الرومانية منهم ، وكل ما ظهر منهم من مساعدة الفاندال على احتلال البلاد انما كان وراءه حب الانتقام والتشفي من أعدائهم الرومان كما قلنا ، وهم في ذلك

يتأهبون دوماً للفرص ويتحفزون للوثوب نحو الاستقلال ، فكانت لهم هذه الظاهرة أول خطوة سياسية خطاها البربر في سبيل تحرير بلادهم ، ولو انهم في الظاهر استبدلوا استعماراً باستعمار ... وفعلاً لقد استرد البربر سلطتهم شيئاً فشيئاً حتى كاد ان يتحقق لديهم غرضهم المنشود لولا ان فاجأتهم القوات البيزنطية بمهاجمتها .

حركة الجزائر التحريرية

كان لوفاة الملك الفاندالي « جنسريق » سنة ٤٧٧ م اثر كبير في تغيير السياسة الفاندالية بهذه البلاد ، فقد ساء سلوك خلفائه من بعده ، ولم يحسنوا صنعاً في تدبير شؤون المملكة وتسيير نظام الجيش والجندية ، فظهر بذلك انحلال عظيم في الحكومة في حين ان العالم كان متجهاً نحو تاريخ جديد ، وحياة جديدة : ذلك هو عصر ابتداء تاريخ القرون الوسطى ؛ ففي نفس الوقت تحرك البربر منتهزين فرصة ضعف السلطة الفاندالية ونهضوا لاستعادة مجدهم الضائع وأعلنوا الثورة على الفاندال سنة ٤٨٠ م واندلع لهيبها من جبل أوراس وجبل راشد غرباً الى طرابلس شرقاً ، وفي تلك الآونة حطم الفاندال مدينة الجزائر بعدما قضوا على سكانها فأفنوهم ، واستمرت الوقائع والمعارك ما بين مد وجزر الى سنة ٤٨٣ م فانتصر البربر على اعدائهم وتحررت نواحي مدينة تيمقادي وباغاية وتفيست — تبسة — وغيرها بغالب الوطن الجزائري ، وبقيت مدينة سيرته — قسنطينة — محافظة على سيادتها كما كانت من قبل ، اذ لم يقوَ الفاندال على فتحها ، وبذلك كان الاستعمار الفاندالي لم يشمل جميع البلاد ، وانما كان محله السواحل فقط .

الثقافة والحضارة والعمران

اني بكل اسى لا استطيع ان اتحدث الى قارىء الكتاب بشيء جديد مما يتضمنه عنوان هذا الفصل ! ... وانني أصارح حضرة المطالع

بأنه لا يستفيد من مطالعة هذا الفصل أكثر مما وسعه علمه من قبل...
اذ لم يظفر التاريخ في دراسة هذا العصر بما يسمى هنالك علماً أو أدباً أو فناً، ولا لغة كذلك ولا أثراً معمارياً يصلح لان يكون مادة للاستنتاجات والدراسة والبحث، وان كل ما فاز به التاريخ في هذا الميدان هو بعض قطع من نقود: فضة وبرونز مضروبة باسم ملوك هذه الدولة، وعليها نقوش رمزية؛ أو كلمات وألفاظ استخرجها علماء اللغات من لهجات القوم الذين مازجوا هذا العصر أو خالطوا أهله، وهذا كما رأيت لا يسمن ولا يغني من جوع!... وما اشتهرت به هذه الدولة إلا انها أمة تخريب وتحطيم وانحلال في الاخلاق وذلك ما جعل لاسمها معنى مرادفاً للهدم والنقض، فقالوا Vandalisme . واننا اذا نظرنا الى بعض أقوال مؤرخي ذلك العصر ممن كتب عن مشاهدة وعيان أمثال المؤرخ البيزنطي المشهور «بروكوب» أصابنا ذهول عظيم. فان هذا لما نزل بافريقية سنة ٥٣٣ م صحبة القائد البيزنطي الفاتح «بليزاريوس» بصفته كاتبه الخاص عجب مما وجده بها من العمران ونشاط التجارة ونفاق الاسواق وخصوبة الفلاحة؛ وانه بعدما غاب عنها ثم عاد اليها بعد عشرين سنة — من استقرار الروم بها — وجدها على خلاف ذلك!... فمن الصادق يا ترى؟... ونرى التاريخ كذلك يحط من قيمة الفاندال تجاه التعليم أيضاً، فيقول انهم كانوا يعدونه جريمة ينكل بصاحبها؛ وهم يعللون ذلك بعفاء آثارهم ومحو لغتهم اذ لم تكن لغتهم مستعملة إلا في التخاطب كلغة عامية لا تصلح للتعبير عن المعاني الدقيقة؛ ولم يبقَ هنالك سوى اللغة اللاتينية وهي لغة الدولة الذاهبة.

وان عدد امة الفاندال بهذه الديار كان لا يتجاوز المائتي الف نسمة وانهم كانوا يضبطون الحوادث والوقائع التاريخية بعدد ايام ملوكهم.

وهكذا مر الفاندال ببلادنا بدون ان يكون لهم فيها اي اثر يذكر سوى ما وصمهم به التاريخ الذي كتبه عنهم اعداؤهم الرومان والبيزنطيون وعليه سار الباحثون الى اليوم.

انهيار الجزائر الفاندالية

من المعلوم بداهة ان امة مثل هذه منحطة في اخلاقها ساقطة في نظمها العسكرية والمدنية لا تعمر كثيراً ؛ فلقد امضى الفاندال معظم حياتهم بافريقية منهمكين في انواع من العيث والفساد منغمسين في احضان الخلاعة وسوء السيرة ، معرضين عن حياة الجد والحزم غير مبالين بما تتطلبه سياسة الامم من العدالة والاستقامة ، ذلك ما كان باعثاً للاهالي على اثارة الحروب ضد هذه الادارة الغاشمة ومقاومة هذه الفوضى السائدة في الاخلاق وفي الحكم ، وفعلاً نشبت الثورات بين الراعي والرعية ، وكانت المقاومة الشعبية عنيفة فسقطت امامها الحكومة منهزمة واحرزت بعض النواحي من الجزائر على استقلالها مثل اوراس ؛ ويومئذ توحش القائد الفاندالي « جاليار » واستعمل في مواقفه الحربية جميع وسائل القهر والارهاب وتجرأ على مقام ملكه « هلدريق »[1] فعزله عن عرشه سنة ٥٣١ م وجلس هو مكانه ، ويومئذ استنجد هلدريق بقيصر الروم في بيزنطة « يوستنيانوس » ، فصادف ذلك هوى من نفس القيصر حيث انفتحت له طريق الانتقام ممن سلبوا مملكة دولة الرومان الغربية بافريقية ؛ واخذت الدسائس تحوم حول دولة الفاندال المحتضرة ودبرت في ذلك خطط املتها عليهم دواعي الاقتصاص والثأر من الفاندال وملكهم الجديد جاليار وبلغوا بدهائهم السياسي ان شغلوا الدولة عن نفسها باثارة العصبية المذهبية والخلافات الدينية حتى فوجئت بالاسطول البيزنطي في خمسمائة قطعة حربية تحمل ١٥٠٠٠ نسمة ، وهم على ثلاثة اصناف ، نصفهم مشاة ، وخمسة آلاف فارس ، والباقي بحارة ، ولباسهم يومئذ درع سابغ على الصدر يبلغ الساقين وخوذة على الرأس ، وسلاحهم السيف والرمح والسهام.

تحركت هذه الحملة البيزنطية العتيدة من بيزنطة – القسطنطينية – يوم ٢٢ جوان ٥٣٣ م اي قبل الهجرة بـ ٨٩ سنة ؛ ودولة الفاندال يومئذ

---

(١) وعلى عهده كان ابتداء اطلاق اسم « الموروس » على السكان الاصليين لشمال غرب افريقية وهم المعروفون اليوم باسم الموريطانيين.

مشتغلة بغزوة بحرية حيث كان اسطولها محاصراً لجزيرة سردانيا ، فأرست هذه الحملة بمياه صقلية ، ثم انتقلت الى مرسى قابس ، واتفق ان كان اهل صقلية وقابس ثائرين على الفاندال ، فكانت فرصة سانحة للروم البيزنطيين على مواصلة الغزو ، وليس للفاندال يومئذ ما يضمن لهم الانتصار بسبب ان قوتهم الحربية مشتتة في البلاد والاكثرية منها في الغزو مع تعذر تجنيد الاهالي لعدم اتصالهم بهم وانحلال الروابط بينهم وحلول العداوة والبغضاء مكانها ، فكانت هذه الظروف كلها مساعدة للغزو البيزنطي على استمراره في الفتح ، وقد جاء ذلك مصرحاً به على لسان قائد الحملة البيزنطية « بليزاريوس » فقال : لست اعتد بعدد جندي ولا بشجاعتهم اكثر من اعتدادي بحب الاهلين وعطفهم علينا وكرههم للفاندال .

واحتدمت الحرب بين الفريقين بنواحي تونس فانتصر البيزنطيون على الفاندال ، واحتل القائد بليزاربوس عاصمة قرطاجنة في شهر اوط من نفس السنة ، وفر منها جاليمار ملتجئاً الى جبل « تاووريت » من جبال زواوة وبقي هنالك معتصماً بالشعاف والشواهق الى ان احاط به الروم وضربوا عليه الحصار مدة ثلاثة اشهر ، ثم كانت المعركة الاخيرة بينهم يوم ١٣ سبتمبر بقرية « اريانة » — تونس — انكسر فيها الفاندال شر انكسار ، وقد حاول جاليمار الفرار امام العدو للمرة الثانية ذاهباً الى « فاندالوسيا » فلم يفلح بل وقع اسيراً في قبضة الروم ، فحملوه الى بيزنطة واتموا بعده عملية الفتح بتطهير التراب الافريقي من كل اثر فاندالي ؛ فخلص الوطن يومئذ — ديسنبر ٥٣٤ م — للروم البيزنطيين ، وكان بذلك القضاء النهائي على دولة الفاندال في العالم ، وذلك بعدما عاشت ١٠٣ سنة بهذا الوطن الافريقي .

ملوك الفاندال بافريقية

جنسريق	٤٢٩ – ٤٧٧ م
هوندريق	٤٧٧ – ٤٨٤ م
غونداموند	٤٨٤ – ٤٩٦ م
ثراسيموند	٤٩٦ – ٥٢٣ م
هيلدريق	٥٢٣ – ٥٣١ م
جاليمار	٥٣١ – ٥٣٤ م

جدول تاريخي

٤٣١ ـ ٥٣٤ م

تاريخ الحوادث		أهم الاحداث بالجزائر على عهد الفاندال
٤٣١	م	انتصاب دولة الفاندال بالجزائر .
٤٣٥	م	انعقاد الصلح بين الفاندال والروم .
٤٣٩	م	الاستيلاء على قرطاجنة .
٤٧٧	م	وفاة الملك الفاندالي « جنسريق » وتغير السياسة بوفاته .
٤٨٠	م	نشوب ثورات البربر ضد المحتلين .
٤٨٣	م	انتصار البربر وتحرير بعض النواحي الجزائرية .
٥٣١	م	سقوط الملك « هلدريق » وانتصاب « جاليار » مكانه .
٥٣٣	م	غزوة الاسطول البيزنطي لافريقية .
٥٣٤	م	انهيار مملكة الفاندال وسقوط دولتهم .

الدولة البيزنطية

٥٣٤ ـ ٦٤٧ م

لقد بلغ من اتساع رقعة مملكة رومة بما فتحته من البلاد في الشرق وفي الغرب وانتشار سلطانها بمتنأى بعيد عنها كان ان فكر الامبراطور « دقلطيانوس » ـ ٢٩٦ م ـ في توزيع سلطنته على مركزين : احدهما حيث هو بالغرب ، والثاني بالمشرق ليكون له معقلاً حصيناً هناك ، وجعل مقر ذلك مدينة « نيقوميد » ـ ازمير ـ بالاناضول ـ فكانت هذه يومئذ عاصمة الرومان الشرقية ، وكانت مدينة ميلانو بالغرب هي عاصمة المملكة بقسميها ، واستقر الامر على ذلك الى عهد الامبراطور (قسطنطين) الكبير ، فانه ادرك ذهاب هيبة رومة وضعف نفوذها بسبب ما لحقها اخيراً من الفوضى والاضطرابات في كلتا السلطتين المدنية والعسكرية ، وتحقق لديه بانها لا تصلح الآن مقر الرئاسة الامبراطورية العظيمة المترامية الاطراف ، فحول حينئذ مقر حكومته الى المشرق سنة ٣٣٠ م واتخذ عاصمته هنالك مدينة (بيزنطة) [١] وجددها ونسبها اليه ـ القسطنطينية ـ وهيأ لها كل مقومات العواصم الرومانية حتى لقد نقل اليها عدداً من سكان رومة واعضاء مجلس الشيوخ فنشأ عن ذلك للمملكة الرومانية يومئذ عاصمتان شرقية وغربية ،

(١) نسبة الى مؤسسها الاول « بيزاس » رئيس الماغريين ١٢٠٠ ق.م. وقيل بنيت سنة ٦٥٨ ق.م. وعلى انقاضها بنى قسطنطين الاول عاصمته .

والى الشرقية (بيزنطة) تنسب هذه الدولة التي نؤرخ استيلاءها على الجزائر .

وفي سنة ٣٩٥ ، توفي الامبراطور (طيودوس) وكان قد اوصى بتقسيم المملكة بين ولديه ؛ فجعل المملكة الشرقية لولده (اركاديوس) وعاصمتها بيزنطة ؛ والغربية لاخيه (اونوريوس) فنفذت الوصية على ما هي عليه ، وبذلك اصبح ملك الرومان منقسماً الى دولتين كل واحدة منهما مستقلة عن اختها ، وقد قدر لمملكة بيزنطة ان ترث عرش رومة الى الفتح التركي العثماني (٢٠ جمادى الاولى سنة ٨٥٧ هـ - ٢٩ مايو ١٤٥٣ م) واضحت هذه عاصمة الخلافة الاسلامية الى حين .

ولما كان اهل هذه المملكة الشرقية الحديثة مزيجاً من الرومان واللطين واليونان وهم الافرنج ، تسموا فيما اصطلح عليه المؤرخون العرب باسم (الروم) تغليباً لجنسية الامبراطور وتمييزاً لهم عن دولة الرومان الغربية ، فهم الروم البيزنطيون .

نظامها الحكومي

لم تكد بشائر الفتح البيزنطي ترد على الامبراطور « جستنيان » حتى اسرع الى جعل افريقية ولاية من ولايات الدولة الكبرى ، واقام على حكومتها عاملاً مدنياً لا عسكرياً كما كانت على عهد الرومان من قبل ، فكانت بذلك افريقية مثل بيزنطة يحكمها مدير او عامل يتمتع بنفوذ واسع ، ومقره مدينة قرطاجنة البالغة من الحضارة والعمران مبلغ مدينة القسطنطينية يومئذ ، ولم يتحول هذا النظام الا في سنة ٥٨٧ م حيث استطاع « جناريوس » اخماد ثورة البربر فكان بهذا اول حاكم عام عسكري لقب بالبطريق ؛ وكان يبلغ مرتب الحاكم العام سنوياً الى ما ينيف على ١١٠ ٠٠٠ فرنكاً تقريباً ؛ وعنده تجتمع جميع السلط على اختلافها ووراءه جيش من الموظفين منتشر على كامل البلاد والعواصم والقرى واكثره مختص بالتحصيل وجمع المال حيث ان الحكومة البيزنطية ترتكز في سياستها على نهب المال ، وقد كان مبلغ ما تنفقه السلطة على هؤلاء الموظفين ٧٣٧ ٢٩٩ ١٠ ،

من الفرنكات (بتقدير ما قبل الحرب العالمية الاولى) وهذا غير ما يرسل الى الامبراطور نفسه من الاموال وما يجمع من القمح وما يدفع جعالات لرؤساء البربر ، ثم ما يتبع ذلك من نفقات الدولة ... وللحكومة جند ممتزج من الاهالي والبيزنطيين وفيهم الماجور وكلهم تحت تصرف رئاسة القائد العام المدعو : اكسارك .

حدود الجزائر البيزنطي

لا تتجاوز مملكة البيزنطيين بافريقية عن ان تكون جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر الى جبل اوراس ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبتة ، اما في الجنوب فانه لا يتعدى نصف امتداد افريقية الرومانية .

وكانت البلاد منقسمة الى سبعة اقسام ادارية ، ثلاثة منها بالقطر الجزائري :

١) نوميديا وقاعدتها قسنطينة .

٢) القيصرية الشرقية ، او موريطانيا السطيفية ومركزها مدينة سطيف .

٣) القيصرية الغربية او موريطانيا القيصرية ومركزها قيصرية : شرشال ويحكم هذه الاقسام عمال ، ثم تليها اربعة مناطق تشتمل على بقية مملكة القطرين الشقيقين : تونس والمغرب الاقصى ، على ان نفوذ البيزنطيين بالمغرب كان ضئيلاً هنالك لا يتعدى المنطقة الشمالية منه وقاعدتهم فيه مدينة سبتة .

وفي ايام الامبراطور « موريس » (٥٨٢ - ٦٠٢ م) ضمت موريطانيا السطيفية الى ما بقي من موريطانيا القيصرية ، فتكونت منها معاً ولاية واحدة ، كما حدث تغيير آخر في بقية املاك البيزنطيين ...

استيلاء الروم على الجزائر

تقدم وصف حملة البيزنطيين على حكومة الفاندال بافريقية ، وكيف كان استيلاؤهم على ولاية تونس اولاً (صيف سنة ٥٣٣ م) ولما رسخت

قدمهم بها تقدموا في الفتح غرباً الى ولاية الجزائر ؛ ففتحوا هبونة : عنابة ؛ وسيرتا او قرطة : قسنطينة سنة ٥٣٩ م وقالمة وناحية الحضنة ونواحي سطيف واوراس وزابي : المسيلة ، وبلغوا الى قيصرية : شرشال وقرطنة : تنس وجيجل وبجاية وما اتصل بهذه البلاد من السواحل الجزائرية ، وهنالك ابتنى الروم سلسلة من الاستحكامات والحصون والرباطات التي تفصل القسم الساحلي الذي يظهر فيه الحكم البيزنطي واضحاً جلياً عن القسم الداخلي الذي باعدت السياسة الرومية البيزنطية بينه وبينها ؛ فكان اقصى ما بلغ اتساع هذه الحدود التحصينية : سهل مجردة وهضبة الاوراس ؛ ووقفت حدوده الجنوبية عند تبسة ومسكولا : خنشلة وتيمقادي ، ولمبيس ، وطبنة ، والمسيلة ، اما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل لا تكاد تتعدى ارباض الموانى من امثال تيفش : تيبازا ، وقيصرية : شرشال ، وتنس ، ووهران .

الحياة الاجتماعية

رحم الله من قال : ان السياسة لا وجه لها ؛ ... ذلك ان الروم لما نزلوا اول مرة بأرض افريقية استعملوا انواعاً واساليب من الدهاء الديلومامي في استرضاء الاهالي فلم تلبث سياستهم هذه ان كسبت ود هؤلاء البيزنطة فاستفادت ما ارادته منهم من طاعة وجنود ، وذلك لثقة البربر بالروم ظناً منهم ان خلاصهم من فوضى الفاندال يكون على ايدي هؤلاء البيزنطيين ، وما انفك الاهالي في غمرتهم هذه لاهين حتى فاجأتهم « انديجينة سوداء » من بيزنطة بما لا يتفق وطبيعة البلاد ، فكانت هذه قوانين جور فاصلة بين الحاكم والمحكوم لا وجه فيها للاتصال بين الشعبين ؛ فكان طبيعياً وجديراً ان تضع الامة هذه الاثقال عنها وتبتعد عن الحكومة التي لم تحسن وضع نظام ينسجم مع طبيعة البلاد ، ويومئذ تسارع الروم اليهم يعاملونهم معاملة العبيد ويرغمونهم على الطاعة ، وكأنهم بذلك اوروا نار الفتنة واذكوا لهيب الشحناء في قلوب الرعية ، فبدأ النزاع الذي اصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يخمد اوارها بين الروم

واهل البلاد ، واستعمل الروم يومئذ الشدة والعنف في معاملة الرعية والقوا بينهم العداوة والبغضاء بقصد التفرقة ، وارهقوهم بالضرائب والاتاوات الفادحة وحملوهم في ذلك مشاق عظيمة بما جعل الناس يومئذ يعلنون كراهيتهم وحقدهم على الحكومة باعلان الثورة والعصيان في وجه الحكام وفيهم من هاجر وترك موطنه وبلاده ، ومنهم – من شدة الفقر والحاجة – من اضطر الى اللصوصية وقطع الطرق . وقد أجمع المؤرخون على ان سياسة البيزنطيين بافريقية كانت سياسة شنعاء خرقاء ! ... فهي لا تبعد كثيراً عن سياسة الفاندال ان لم تكن من متمماتها . ولقد كان لهذه المعاملة العنيفة أثر بعيد في مستقبل الحكم البيزنطي بهذه البلاد .

الحالة الدينية

لقد جرى مجرى الامثال السائرة عند جميع الامم قولهم في تشبيه النزاع والخلاف الفارغ مهما كان نوعه بمنازعات بيزنطة الدينية ، نعم هو كذلك ! ... فما جر بيزنطة الى حتفها إلا هذه الخلافات والمناقشات الدينية الفارغة ، فقد كان مما عملت عليه هنا بافريقية – كما فعلته ببقية امبراطوريتها أيضاً بالمشرق – ان سعت في اذكاء الخلاف الديني واثارة النقاش بين الناس في ذلك وبعث التعصب المذهبي من مرقده ، وذلك يوم ان اعلن الامبراطور جستينيان وجوب اعتناق المذهب الكاثوليكي والغاء غيره – ٥٣٥ م – وكان الجزائريون يومئذ على المذهب الارثوذكسي – السلفي – والمسيحية يومئذ بالجزائر منتشرة كثيراً بنواحي نوميديا وبجهات وادي شلف وتلمسان والاوراس وفي الزاب ، وأخذت هذه الجهات يومئذ تهتز وتضطرب لهذه المناقشات والمشاحنات الدينية واتسعت شقة الخلاف بين سائر الاوساط وكان هنالك الجدل العنيف بين الطوائف المسيحية وأرباب المذاهب ، وما برحوا كذلك ان فاجأهم صدور قانون من هرقل الاول سنة ٦٣١ م يعلن فيه بتعاليم جديدة ينبغي اتخاذها كمذهب آخر جديد ، فقابلته الرعية بالرفض ، وهنالك من حمله ذلك على اتخاذ الوثنية ديناً وحدثت يومئذ انقسامات دينية واختلاف كبير بين

الكنيسة الشرقية والغربية وأخذت الحكومة في اضطهاد المخالفين لها وخاصة اليهود انتقاماً منهم حيث أعانوا الفاندال على مقاومة مذهب الروم فيما سبق ، وكثر يومئذ الخلاف والمشاغبات الدينية مما عرف في التاريخ باسم المناقشات البيزنطية .

وكان لهذه المناقشات والانقسامات الدينية تأثير شديد في سياسة الدولة لاختلاط السياسة عندهم حتى آل ذلك أحياناً الى خروج امم بأسرها من حوزة الروم الى غيرهم كما حصل للارمن ، فانهم لما حرم مجمع القسطنطينية بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح كما هو مذهب اليعاقبة — ومنهم الارمن — وقرر القول بطبيعتين ومشيئتين وجعل الامبراطور يشدد النكر على مخالفي قرار المجمع فأفضى الحال بالارمن الى تسليم بلادهم الى الفرس ، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له على فتحه للسبب نفسه[١] .

نعم ، وان دل هذا الجدل والنقاش الديني المتصل الذي سبب الانقسام في الكنائس الشرقية على شيء فانه دل على نعمة كانت خفية ، وتلك هي : ذلك الاندفاع وتوقان النفوس الذي كان ولا يزال يحمل الناس على دراسة الفلاسفة الاغريق دراسة متواصلة وبخاصة (ارسطو) الذي اتخذ منطقه اساساً للجدل الديني .

ثورات البربر التحريرية

كان بعد سفر الحاكم العام البيزنطي (بيليسير) الى بيزنطة اضطراب عظيم في القطر الافريقي كله ، وخاصة منه بالجزائر ، فقد ساء سلوك الولاة والعمال فيها بعد سفر الحاكم المذكور ، وانتشر الظلم والطغيان من الحكام الذين خلفوا بيليسير على رأس الادارة الافريقية وتفننوا في تنويع العذاب المنصب على الاهالي وغيرهم من سكان هذه البلاد ، وهم في ذلك

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٥٥ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

يتسترون بالدفاع عن العقيدة والدين ، ويا ما أكثر المغرضين في كل زمان ــ الذين اتخذوا هذه المظاهر الدينية لاشباع نهمهم والتوصل الى غايتهم التي لا تعدو ان تكون أنانية محضة أو آراء وخصومات لقصد سياسي تافه هو بعيد كل البعد عن التدين والعقيدة !...

ويومئذ انفجرت الثورة العامة من ملوك البربر المستقلين المنتشرين في انحاء الجزائر وغيرها من شمال افريقية . وكانت هنالك حروب ووقائع متسلسلة اضطرت القوات البيزنطية الى التسليم والخضوع للاهلين وتحررت يومئذ مراكز كثيرة من القطر الجزائري كانت تحت نفوذ الروم ، وكان من أبرز الشخصيات الجزائرية التي قاومت الاستعمار البيزنطي يومئذ الزعيم (يابداس) رئيس قبائل جبل أوراس ، بمساعدة الرئيس « كوتسينا وأورتاياس » وقد اجتمع حولهم يومئذ أربعون الف مقاتل وسار الكل تحت زعـــامة يابداس فغزوا نوميديا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا البلاد وخربوها ... وفيها كان خراب مدينة تيمقادي ، ويومئذ انهزم البيزنطيون والتجأوا الى انشاء خط ثان من الحصون المتماسكة المتصلة اتقاء هجمات البربر على قلاعهم وحصونهم الداخلية ، وكان من أهمها حصون قسنطينة وقالمة ، وكان اعتماد الروم في اقامة هذه الحصون والقلاع على ما كان قائمـاً من قبل من المنشآت الرومانية كالحمامات والملاعب والمعابد . ولقد أوجز المؤرخ جوليان في وصف هذا النظام الدفاعي بقوله : انشأ البيزنطيون سلسلتين من الحصون ، اما الاولى فسلسلة من الاستحكامات تربط المحارس بعضها ببعض ، وخلفها سلسلة من المدائن الحصينة التي كانت تستعمل دائمـاً ملاجىء للناس .

ورغم ذلك كله فالبربر دائماً سائرون في خطتهم هذه الى الامام فما وهنوا ولا استكانوا بل ما زادهم ذلك الا تحمساً في مقاومة الطغيان البيزنطي ، فاغاروا على الروم في جميع الجهات وتقدموا منتصرين الى ابواب قرطاجنة فضربوا عليها الحصار سنة ٥٩٧ م ثم كانت هدنة ، وما برح القوم واثقين بهدنة الروم حتى فوجئوا بغزاة تشتمل على نواحي

هضبة اوراس كلها ؛ وقتل يومئذ الزعيم يابداس (٥٤٠ م) واحتل الروم معقله (اوراسيوس) على ارتفاع ١٥٠٠ متراً واحتلوا كذلك المسيلة واخضعوا معها الزاب .

فخضع يومئذ الجزائريون الى قوات الروم الهاجمة ريثما استعدوا من جديد للقضاء على خصمهم ؛ واشتد يومئذ الخلاف وزادت الشحناء بين الفريقين وبلغ الروم في تهورهم واعاد الاهالي ثورتهم فعظم الهيجان في الوطن واصبحت البلاد تموج في بحر من الفوضى وعدم النظام ، وهكذا الى الفتح العربي الاسلامي .

الثقافة والحضارة والعمران

لم ينبئنا التاريخ بذكر حالة البلاد الادبية والثقافية في العهد البيزانطي هذا ، اما فن المعمار فانه لم يكن لهم بالجزائر يومئذ سوى تشييد بعض الكنائس واقامة الاسوار حول المدن كأسوار قرطنة : تنس ، وقيصرية : شرشال ، وسطيف ، وميلة ، وتمقادي ، وقصر الصبيحي ، وقالمة ، ومداوروش وتبسة ؛ ويقول المؤرخ غزال عن آثار البيزنطيين بالجزائر : وآثار هؤلاء باقية بنوميديا ما عدا التحاصين فانها تدل على بؤس شديد . وقال ميرسي : كان المؤرخ بروكوب – البيزنطي – لما نزل افريقية مع بيليسير – الفاتح البيزنطي – دهش من عمرانها ونشاط تجارتها ونفاق اسواقها وسعادة فلاحتها ، ولكن بعد عشرين سنة لم يبق شيء من ذلك وعم الخراب جميع افريقية ، ويقال ان الحرب وحكومة يستنيان حملتا افريقية خسارة خمسة ملايين من الانفس ! ... ورغم ذلك ، فانه لا مانع من ان يكون هنالك بقايا معمارية خاصة بالفن البيزنطي الجميل الذي يمتاز به عصر الروم بافريقية عن بقية العصور الاخرى ، ونحن نشاهد اثره فيما اتخذه المسلمون بعد ذلك من النقوش المزخرفة من نوع القاشاني الملون بالتصاوير المرسومة الدالة على براعة الصناع الافريقيين من روم او بربر ، وقد بلغ تأثر العرب بهذا الفن الجميل ان جعلوه في مساجدهم ومعابدهم الخ ... ويذكر لنا ابن فضل الله العمري مدينة

شرشال فيصفها بقوله : انها مدينة تزيد على الوصف في اتساع الافنية ، وارتفاع الابنية ، وعظم القناطر المرفوعة ، والاقبية المعقودة ، والقواعد المشيدة ، والجدر السميكة ، مما يشهد له جوال الارض وسفار الافاق وسمار الحديث بانه لا شبيه له في تحسين بنائها وتحصين صناعتها[1] ولا شك في ان آثار مدينة شرشال هي من بقايا ما شادته دولة الرومان الدابرة ، وما حظ الروم منها الا حظ المحافظ عليها من الضياع والحامي لحماها .

ولرب قائل او متسائل يقول لنا : لماذا لا نرى للامة العربية التي فتحت هذه البلاد والدول الاسلامية التي توالت عليها ما نراه لغيرها من الآثار المعمارية الضخمة والبنايات الضخمة والهياكل العظيمة التي تركها الرومان والبيزنطيون بهذه البلاد وغيرها مما فتحوه او استولوا عليه في سالف العصور ؟ ... فنحن نجيبه بكلمة موجزة كان قد اجاب بها مصطفى الشهابي عن مثل هذا السؤال فقال : « ان السخرة التي كان يعرف بها الرومان وامثالهم من كبار الدول والامم السابقة هي ممنوعة عند اجدادنا العرب ، ولذلك لم يبنوا امثال ما يستهوينا من هذه المعابد والهياكل الضخمة التي شيدتها امم اخرى فاهلكت في بنائها الآفا مؤلفة من البشر »[2] .

اما ثراء البلاد ونشاطها الاقتصادي فان مؤرخي شمال افريقية كادوا ان يتفقوا باجماع على ان العرب وجدوا البلاد ساعة دخولهم كثيرة الزرع وافرة الثمرات ؛ ويؤكد « ديل » ان في السهول الواسعة المهجورة التي تمتد جنوبي هضبة الاوراس وفي الاقليم الجبلي الذي يتوسط سهل تونس ، في كل هذه النواحي يجد الانسان في كل خطوة آثار مدن كبيرة او صغيرة وقرى آهلة واراضي مزروعة على امتداد عظيم .

واني لا ارى في ذلك تنافراً او تناقضاً فيما قررناه من حالة البلاد

---

(١) مسالك الابصار ج ١ ص ٢٤٤ ط القاهرة ١٣٣٢ هـ — ١٩٢٤ م — .

(٢) محاضرات في الاستعمار ص ٣٨ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

الشقية البئيسة طيلة عهد الروم . فان ذلك يعود الى اعتبار اختلاف الاوساط وطبقات الناس ؛ فالوسط المعمر هو دائماً وابداً يستمتع بغلال البلاد وما فيها من مرافق ثقافية او معمارية او اقتصادية او غيرها ، والمستعمرون هم الاهلون وهم دائماً كذلك في ضنك وضيق وجهل مطبق وفقر مدقع ؛ فالجزائر مثلاً اليوم ، من يراها عند المعمرين يراها جنة عدن علية ، ومن ينظر الى اهلها يراهم في جحيم وسعير ، وكذلك حال افريقية على عهد البيزنطيين ، ومنهاج الاستعمار دائماً هو واحد . وبالجملة فان كلا من الفينيقيين والقرطاجانيين واليونان انشأ مستعمرات في هذه البلاد الا ان ذلك لم يؤثر من سكانها اجمعين .

انهيار الجزائر البيزنطية

كلما تدبر الانسان في الاسباب والنتائج التي ادت بالجزائر بل بافريقية البيزنطية الى السقوط والانهيار الا ووجدها ترجع الى سوء الادارة ونظام الحكم الجائر ، وعدم حسن السياسة مع الاهالي باحتقارهم ومعاملتهم معاملة العبيد ، وكثرة الحروب والثورات والفتن والاهوال الناشئة عن ذلك مع التعصبات المذهبية والخصام الديني ، وضعف السلطة الرومية بابتعادها عن الجزائر مع بعد مركز الحكومة العليا عن افريقية ، ومشاغبة الجند الذي لم يكن يتصل بجراياته ، واشتغال الاباطرة بانفسهم في قصف ولهو مع ما كانوا في حاجة اليه من الاستعداد لحروب الفرس ، وتدخل قساوسة رومة يومئذ في الحكم وتسلطهم على الحكام وغير ذلك مما دعا الى ضعف سلطان بيزنطة في هذه البلاد شيئاً فشيئاً ، فأخذت الحكومة تنسحب من الشمال حتى لم يبق من املاكها آخر الامر الا ساحل ضيق ، واحتل البربر ما خلا ذلك من البلاد والحصون ، ويومئذ افترقت الكلمة وظهر الانحلال التام في الادارة والاخلاق وضعفت الحكومة عن القيادة بفتور همم القادة وقلة خبرتهم واغترار بعضهم بنفسه كما وقع للبطريق جريجوريوس الثاني ، او « جرجير » كما يسميه العرب ، فانه عمل على انفصال افريقية عن بيزنطة بقطع العلائق بينه وبين الامبراطورية الشرقية وتحصن بعاصمته « سبيطلة »

بالجنوب الغربي من ولاية تونس واعلن ثورته على الحاكم العسكري الذي كان يشاركه في الحكم (٦٠٧ م) وحينئذ اندلع لهيب نار الخلاف والفوضى واشتبكت الثورات في انحاء المغارب الثلاث واستمر الحال على هذا الى ان اذن نور الاسلام بالشروق فسطع نوره بالمشرق وتمهدت السبيل للعرب الفاتحين ففتحوا افريقية سنة ٢٧ هـ - ٦٤٧ م - وقضوا على تلك الاضطرابات كلها وقتل جرجير في حديث طويل سأحدثك عنه في محله قريباً ، وبموته انقرضت دولة البيزنطيين من افريقية بعد ما قضت بها ١١٣ سنة .

ولاة الجزائر وزعماؤها

لم يشتهر - فيما نعلم - من ولاة الجزائر وزعمائها في هذا العصر الا كولومبوس اسقف نوميدية ، الذي كان له اثر فعال في انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية ، والرئيسان : كوتسينا واوتياس المساعدان للزعيم يابداس في حروبه وثورته على الروم بهضبة اوراس « وماسوناس » الذي كان سلطانه يشمل كل منطقة وهران ، وامتد نفوذه الى الاوراس و « كسيلة » الاوربي الذي سنحدثك عنه فيما يأتي ، و « الكاهنة » الشهيرة التي كان لها من الاثر في مقاومة العرب الفاتحين ما ستقف عليه بنفسك .



مشاهير ملوك الوطن الجزائري .

	المملكة
اورثينة	شط الحضنة
مصيناس [١]	موريطانيا
انطالاس	قبائل الولايات الداخلية
ماسونا ماستيجاس	موريطانيا بأقسامها
قزطيناس [٢]	شرقي اوراس
ارثياس	غربي اوراس
ايدباس	اوراس
بيداس	اوراس
ايعبدة [٣]	اوراس
افسدياس	اوراس

---

(١) يلقب بملك القبائل الموريطانية والرومان وهذا ما يدلنا على امكانية التعايش بين العنصرين .

(٢) قتله الروم غدراً سنة ٥٦٣ م .

(٣) اعظم ملوك الجزائر .

أباطرة الدولة البيزنطية

	تاريخ الولاية
جستنيان	٥٢٧ – ٥٦٦ م
جستين الثاني	٥٦٦ – ٥٧٨
تيبريوس الثاني	٥٧٨ – ٥٨٢
موريس	٥٨٢ – ٦٠٢
فوكاس	٦٠٢ – ٦١٠
هرقل الاول	٦١٠ – ٦٤١
هرقل الثاني	٦٤١
هرقل الصغير (هرقلوناس)	٦٤١
قنسطنط الثاني	٦٤١ – ٦٦٨

من مشاهير الجزائر

بيداس

هو أشهر ملوك الجزائر وزعمائها المستقلين بجبل اوراس ، قاوم الاستعمار البيزنطي بكل جهوده وأذاقهم بأسه وبلغ من الدهاء والسياسة ان وحّد كلمة البربر وجمع شملهم وخاض بهم المعارك ضد الروم . ولقد احيط به ووقع في الحصر مراراً ولكنه نجا وتخلص من العدو في كثير من الوقائع .

جدول تاريخي

٥٣٤ ـ ٦٤٧ م

تاريخ الحوادث	أهم الاحداث بالجزائر على عهد البيزنطيين
٥٣٥ م	الاستيلاء البيزنطي على افريقية وتحتم اعتناق المذهب الكاثوليكي .
٥٣٩ م	الاستيلاء على ولاية الجزائر .
٥٤٠ م	سقوط الزعيم الجزائري « يابداس » في ميدان الدفاع الوطني .
٥٦٣ م	اغتيال الروم غدراً زعيم شرق الاوراس « قزطيناس » .
٥٩٧ م	حصار الاهالي لقرطاجنة ـ البيزنطية .
٦٠٨ م	انفصال « جرجير » عن بيزنطية وتحصنه بمدينة « سبيطلة » .
٦٣١ م	تعاليم هرقل الدينية الجديدة .
٦٤٣ م	فتح العرب المسلمين لافريقية ـ ٢٢ هجرية .

الجزائر العربيّة المسلمة

الأمّة العربيّة

العرب جيل من الناس يسكن الجزيرة او شبه الجزيرة الواقعة بالجنوب الغربي من قارة آسيا ، تحدها شمالاً فلسطين وبلاد الشام ، وجنوباً البحر المحيط الهندي وخليج عدن ، وشرقاً الحيرة والخليج الفارسي ، وغرباً بحر القلزم – البحر الاحمر ؛ وهم من اقدم الامم وجوداً واعرقها اصولاً واكثرها في ادوار التاريخ ذكراً ؛ فهم امة سامية سكنت في اول امرها ارض العربات او العربة ، في تهامة – غرب الجزيرة – انحدرت اليها من وادي الفرات او ما بين النهرين ... واليها نسبت وبها عرفت [1] ، ثم تفرقت هذه الامة في الجزيرة وتفرعت الى ثلاث طبقات وهي : العرب البائدة ، والعاربة ، والمستعربة ، فالبائدة بادت واندثرت وهم قوم عاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة ومن جاورهم من سكان الاحقاف ، والطبقة الثانية هم بنو قحطان في اليمن ، واشتهرت منهم دولتان : سبأ وحمير ؛ والطبقة الثالثة هم العدنانيون بنو اسماعيل نشأوا بمكة والحجاز ثم انتشروا ببادية الجزيرة .

ولغتهم هي من اغنى اللغات واغزرها مادة والفاظاً واوسعها تعبيراً

(١) لقد ذهب العلماء في اصل اشتقاق كلمة « العرب » مذاهب شتى ، والذي رجحه المتأخرون منهم انها مشتقة من كلمة (اوربي) الشمرية ، ومعناها سكان الخيام او الرحل ، وذلك لما بينها وبين كلمة (عبر) من الاتصال الوثيق ثم اصبحت الكلمة هذه في عهد البابليين والاشوريين بمعنى : مدينة .

واعرقها في القدم واروعها لهجة ، فهي نقاوة لغات الشعوب التي سكنت هذه الجزيرة من عهد بعيد وخلاصة ما تكلم به الساميون ، وهي تمتاز كذلك عن اخواتها بكونها اقرب الى اصلها السامي من غيرها ، ذات لهجات مختلفة المظهر ، متحدة المخبر ، ولها من الخصائص والميزات اللغوية ما تفتخر به على سواها من جميع اللغات .

اخلاق العرب وعاداتهم

اشتهر العرب بالاخلاق الكريمة والسجايا الحميدة كالوفاء والاباء والشجاعة والشهامة والبطولة والكرم وقوة البأس وحفظ الجوار مع طلاقة في اللسان ، وفصاحة في البيان ، وفيهم من خرج عن هذه الصفات شذوذاً ... وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ ، او فرس تنتج ، ولا يفتخرون الا بالسيف والضيف والبلاغة ، ولم تكن الكتابة منتشرة فيهم ، بل كانوا يعتمدون الحفظ في كل شيء ، وقد جاء الاسلام وليس يكتب فيهم الا بضعة عشر شخصاً ؛ وعلومهم النسب والاخبار والشعر والكهانة ؛ ولهم دراية بالانواء والنجوم اكتسبوها بتجاربهم وممارستهم للاسفار ؛ وليست لهم مدنية مادية كمدنية مصر وبابل واشور اذ اكثرهم يعيش عيشة النجوع ، وربما كانت لهم في القديم حضارة ومدنية بلغوا فيها شأواً عظيماً .

المجتمع العربي

الامة العربية كما عرفها التاريخ امة بدوية رحالة ، غير ان ما في لغتها من الالفاظ والكلمات والمواد والاوزان المتعددة الدالة على المعاني الاقتصادية والصناعية والسياسية والاجتماعية والعمرانية كل ذلك يدلنا على مبلغ الرقي العقلي والمادي عند العرب وان كانوا لا يألفون الحياة الحضرية ولا يأنسون بالمقام والاستقرار في مكان ، ذلك لتشبعهم بالحرية وبغضهم للقيود مهما كان نوعها : فكثرت فيهم الاسفار والانتقالات والغزو والمغامرات طلباً للمعاش وترفعاً عن المقام على الذل والهوان ؛ ولهم عناية

واهتمام بتربية المواشي والانعام ، ولمعاملاتهم مع الاجانب كالفرس والروم والحبشة والهند صبغة تجارية خاصة ، وهم دائماً في طليعة المحافظين على شرف العائلة وعز القبيلة واحترام الشخصية .

المعتقد العربي

لم يكن للعرب في جاهليتها دين مقرر يدينون به جميعاً ، بل كان شأن العقيدة عندهم فوضى ، فمنهم من كان على ملة ابراهيم ، ومنهم من كان يعبد الاصنام والاوثان والنصب والحيوان ، ومنهم من كان على الفطرة ، ومنهم من كان من اهل الكتاب الى ايام البعثة .

اعقل الامم ؟ ...

لقد أحرز العرب على مكانة سامية في ميدان النشاط العقلي ، وفي صفاء النفس ولطافة الحس مما جعل الاجانب عنهم والدخلاء فيهم يشهدون لهم بذلك ؛ فقد روى شبيب بن شبة – وهو المؤرخ الحجة – عن ابن المقفع[1] قال : كنا في مجلس عظيم فوفد علينا ابن المقفع ، وكان من اشراف الفرس وحكمائهم ، فقال لنا : من اعقل الامم ؟ ... فنظر بعضنا الى بعض وقلنا لعله يميل الى اصله ، فقلنا : الفرس ، قال ليسوا هناك ، ملكوا كثيراً من الارض وحووا عظيماً من الملك ، فما استنبطوا بعقولهم شيئاً ! ... فقلنا : الروم . فقال اصحاب صنعة ، فقلنا : الصين ، فقال اصحاب طرفة ، فقلنا : الهند ، فقال اصحاب فلسفة ، فقلنا : السودان ، فقال شر خلق الله ! ... فقلنا : الخزر ، فقال نعم سائمة ! ... فقلنا : فمن ؟ ... قال : العرب . فضحكنا ! ... فقال ما اردت موافقتكم ، ولكن اذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من

---

(١) هو اول من عني في الاسلام بترجمة كتب المنطق ، ومن اشهر أئمة الكتاب في العصر العباسي الاول ، اصله فارسي ولد في العراق . ونشأ مجوسياً واسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح ؛ كانت وفاته سنة ١٤٢ ﻫ – ٧٥٩ م

المعرفة ؛ ان العرب حكت على غير مثال ، يجود احدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ، رفعتهم عقولهم وأعزتهم هممهم حتى نالوا اكرم الفخر وبلغوا اشرف الذكر ، فلما شرفهم الله بالرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهم على هذه الاخلاق الجميلة ، والفضائل الجليلة ، تنافسوا في زيادة الفضائل ، وتسابقوا الى نيل العلوم والمعارف ، فاكتسبوا منها ما لم يكتسبه الاوائل وآثروا الآثار العظيمة في اقرب مدة من بناء المدائن وعمل القناطر وفتح الخلجان ، فقد اجرى موسى بن نصير البحر اثني عشر ميلًا الى دار الصناعة بتونس ، وصنع مائة مركب وغزا صقلية واخذها ، ووصل عمرو بن العاص بين النيل وبحر القلزم في مدة سنة ، وجرت فيه السفن من خلافة عمر بن الخطاب الى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ، احتفره من الخليج الذي في ناحية الفسطاط ، وقال له خليج امير المؤمنين وساقه الى القلزم ثم ضيعه الولاة وترك وغلب عليه الرمل وانقطع وصار منتهاه الى ذنب التمساح ؛ وتيسر لهم من التصنيف في انواع العلوم ما لم يتيسر لاحد قبلهم . ولقد صدق من قال : ان هذا التاريخ على طوله وفضوله لم يسجل من الامم التي بلغت رسالات الله بالخير والجمال والحق الا اربعاً : العبران في الدين والسلم ، واليونان في الفن والعلم ، والرومان في النظام والحكم ، والعرب في كل اولئك جميعاً .

ويصف بعض المؤرخين الامريكيين العرب فيقول : « انهم هم الذين سبق لهم ان قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانساني طول الفي سنة على الاقل في ايام اليونان ، في العصور الوسطى ، لمدة اربعة قرون تقريباً ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من ان تقود العالم ثانية في المستقبل القريب او البعيد[1] .

وحكى المؤرخ سيديو عن هيمبولد (Hamboldat) انه قال : ان العرب

---

(١) الدولة العربية الكبرى لمحمود كامل ص ١٨

خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الامم المنتشرة من شواطىء الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا ، وبين العلوم واسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على ايديهم لان لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم اثرت في الدنيا تأثيراً لا يشتبه بغيره ...

ثم قال : وهذا حجة على انهم كما قال غيرنا – ونحن نعترف به – : اساتذتنا ومعلمونا [١] . ويقول سيديو ايضاً : ان الكنوز الادبية العظيمة التي اوجدها العرب في ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمي واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلاً على نشاطهم الفكري وتؤيد الرأي القـــائل بان العرب هم اساتذتنا في كل شيء ، اذ انهم زودونا بمواد جليلة في تاريخ العصور الوسطى ، وباسفار مجيدة في التراجم ، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها ، وفناً معمارياً آية في الروعة والجمال ، واكتشافات هامة في الفنون والصناعات [٢] .

ويذكر الدكتور غوستاف لوبون شأن الحضارة الاسلامية فيقول : انه كان لها تأثير عظيم في العالم ، وان هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، فالعرب هم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، والعرب هم الذين فتحوا لأوروبة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية فكانوا ممدنين لنا وأئمة ستة قرون ... وظلت الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات اوروبا خمسة او ستة قرون ، فاذا كانت هناك امة نقر باننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الامة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم ان يعترف للعرب بجميل صنعهم في انقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً ابدياً . قال مسيو ليبري : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوروبة الحديثة في الآداب عدة قرون [٣] .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي ج ٢ ص ١٥٨ ط دمشق ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م

(٢) مختصر تاريخ العرب لسيد امير علي ، تعريب رياض رأفت ص ٣٩٥ ط القاهرة ١٩٣٨ م

(٣) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص٣١ - ٥٣٠ - ٦٧٧ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م

ظهور الاسلام

قضت حكمة الباري جل جلاله بانقضاء ايام الفوضى والجور المخيمين على العالم يومئذ ، وبانقشاع غشاوة الجهل الضاربة اطنابها على الناس . كي يسود العدل ويظهر العلم ؛ فانبثق نور النبوة والوحي على رأس القرن السابع الميلادي ، فارسل الى رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون . هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ؛ وهو عليه الصلاة والسلام من جنس العرب يعرفون نسبه وفضله وصدقه وامانته وعفافه ، فدعاهم الى عبادة الله وحده ، وخلع ما كان يعبد آباؤهم من الحجارة والاوثان ، وأمرهم بالصدق والوفاء والعفاف وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم وسفك الدماء ونهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وقول الزور ، واكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات ، وجاءهم بقواعد الاسلام الخمس وشريعة كلها عدل وسداد ؛ فانجذبت اليه النفوس الطاهرة فآمنت به وصدقته .

جاء عن « بوسورت سميت » مؤلف كتاب « حياة محمد » باللغة الانكليزية ، قال : ان من حسن الحظ الوحيد في التاريخ دون غيره ان محمداً اسس في وقت واحد ثلاثة اشياء هي من اعظم الامور وجليل الاعمال : فانه مؤسس لامة وامبراطورية وديانة ، مع انه امي وقلما كان يقدر ان يقرأ او يكتب ، فمع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد . وقال الدكتور غوستاف لوبون : « ان محمداً اصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الاسلام ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك فضل محمد على العرب عظيم ... واذا ما قيست قيمة الرجال بجليل اعمالهم كان محمد من اعظم من عرفهم التاريخ ... والتعصب الديني هو الذي اعمى بصائر مؤرخي الغرب عن الاعتراف بفضل محمد[1] .

---

(١) حضارة العرب ص ١٤

لا يخفى ما كانت عليه دولتا الفرس والروم قبيل الاسلام من النزاع والتطاحن في الحروب واستعمال العرب وتسخيرهم في حروبهم ، وكلتا الدولتين كانت تستعمل في مصلحتها ما يليها ويجاورها من الامة العربية ، وقد فاتها ان الالحاح على الفريسة قد يخلق منها مفترساً ، وكذلك كان الامر فكان استمرار هذه الحروب سبباً قوياً في ضعف الحكومتين معاً ، وتمهيداً للعرب في انشاء دولتهم وتدريبهم على النظم الحربية والتراتيب العسكرية ، وذلك ما ساعدهم فيما بعد وفي أجل قريب على فتوحاتهم المترامية الاطراف وبسط نفوذهم على القارات الثلاث : آسيا وافريقية واوروبا . وقضوا بالفعل على هاتين الدولتين العظيمتين في الشرق وفي الغرب : فارس والروم ، فاستبدل الله منهما هذه الامة العربية المسلمة ؛ وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ... ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

ووصف عالم الماني ميزة المسلمين في فتوحاتهم فقال : « ... ينبغي لكل مسلم ان يعد نفسه مسؤولاً شخصياً عن المحيط الذي يحيط به وكل ما يقع حوله ، ومأمور بالجهاد لاقامة الحق ومحق الباطل في كل وقت وفي كل جهة ، فان القرآن يقول : « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذا هو المبرر الخلقي للحركة الاسلامية الجهادية والفتوح الاسلامية الاولى . والاستعمار الاسلامي ، فالاسلام استعماري ان كان لا بد من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء ، وليس من الاثرة الاقتصادية القومية في شيء ، ولم يكن يحفز المجاهدين الاولين الى الجهاد طمع في خفض العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، لم يقصد منه

الا بناء اطار عالمي لاحسن ما يمكن للانسان من ارتقاء روحي[1] .

ثم ان هؤلاء العرب الفاتحين لم يكونوا في فتوحاتهم هذه خدمة لجنس او رسلًا لشعب او وطن هو من دون الاوطان الاخرى يسعون لرفاهيته او يتخصصون لخدمة مصالحه وحده ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الاوطان ، لم يخلقوا الا ليكونوا حكاماً ولم تخلق الا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون النـــاس من حكم الروم والفرس الى حكم العرب والى حكمهم انفسهم ، انما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً الى عبادة الله وحده ، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزد جرد : « الله ابعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » .

فها نحن نرى الامم وجميع الشعوب عند هؤلاء سواء والناس عندهم سواسية فكلهم كما قال نبي الاسلام : كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على اسود ، ولا لأصفر على احمر ... الا بالتقوى . وليس منا من دعا الى عصبية او مات على عصبية او قاتل عصبية . يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير .

وبعد ما فتح الله على نبيه الجزيرة ونشر عليها بنوده والويته وتم فتح العراق والشام والموصل وفارس على عهد الخليفة الاول ابي بكر الصديق (ض) ثم كان تمام فتح العراقين ومصر وطرابلس الغرب (لوبيا) على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (ض) وامتلك المسلمون اهم مراكز الدنيا يومئذ في اقل من نصف قرن ، فاتخذوا من مصر بالاخص مركزاً لتتبع الفتح بشمال افريقية .

---

(١) Islam At the cross By Mohammad Asad (Lopold weiss fifth Editions p. 29

العرب في شمال أفريقية

قبل ان نخوض في تفاصيل الفتح العربي الاسلامي ، وجب علينا تأدية لامانة التاريخ ان نلقي بنظرة تمهيدية خاطفة الى ما اشيع من تلك النظرية المتعلقة بتاريخ العرب القديم القائلة باتصال هؤلاء بشمال افريقية ، منذ احقاب طوال ، كما قد كنا اشرنا الى ذلك في اوائل الكتاب ، ولما جاء دور العرب الآن كان حقاً علينا ان نحقق المقام بما نستطيع مما اتصلنا به من المصادر التاريخية ، وذلك ما يدفعنا الى العودة بالقارىء الكريم الى دراسة موجزة عن تاريخ العرب بشمال افريقية قديماً .

دولة حمير وسبأ بالمغرب ؟!!

ان موطن هذه الدولة العربية كما هو معلوم باليمن ، تلك البلاد التي اشتهرت عند الرومان باسم البلاد السعيدة ، كما هي معروفة عند اهلها باليمن الخضراء ، وذلك لما بلغته هذه المملكة من التفوق العجيب في الحضارة والخصب ... وان ملوك هذه الدولة مشهورون في التاريخ باسم الاقيال والاذواء او التبابعة ، وفي كتب التاريخ خلط كبير بين ملوك سبأ وحمير . وفي عددهم وسنيهم ايضاً ، وشيب تاريخهم بكثير من الخرافات ! ...

واياً ما كان فان اول من تملك من ولد قحطان : هو حمير بن سبأ وقد توارث بنوه الملك من بعده حتى صار الى الحارث الرايش الذي يرجع تاريخ حكمه الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وقد اجتمع له ملك اليمن كله ، وهو تبع الاول بلغ في غزواته الى الهند ثم غزا بعدها الترك في اذربيجان ، وكان الرابع من هؤلاء التبابعة هو افريقش بن

أبرهة ، او افريقش ذو القرنين المسمى بالصعب وهو الذي يقال عنه انه غزا بلاد المغرب كما عند ابن خلدون ، قال : واتفق المؤرخون على غزو افريقش بن قيس بن صيفي من التبابعة الى المغرب كما ذكرنا في اخبار الروم [١] ... ويقول ايضاً : وسار افريقش بن شمر الى افريقية بالبربر وكنعان فملكها [٢] . وان المعروف من تاريخ افريقش هذا انه تملك مدة عشرين سنة (٣٠٠ – ٣٢٠ م) . ويذكر – ابن خلدون – ايضاً انه وصل ملك هذه الدولة العربية بالمغرب الى طنجة ؟ ... ونقل عن ابن الكلبي ان حمير ، ابا القبائل اليمنية ، ملك المغرب مائة سنة ؟ ... وان صنهاجة وكتامة من حمير ، ثم اننا نرى هذا المؤرخ نفسه في مكان آخر من تاريخه يحكم بتزييف كل هذه الروايات ، فانظر الى قوله في المقدمة : ومن الاخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة – مثله ! . في اخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب ، انهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب ... ثم انه هو نفسه يعود الى الموضوع هذا في صلب تاريخه كمستدرك او ناقص لما زيفه هنا فيقول عن هؤلاء التبابعة : وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن الى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب تارة [٣] ... رباه ما هذا الاضطراب ؟ ! ... وفي كتاب المعارف لابن قتيبة الذي قال عنه (وستنفيلد) : انه من اقدم الكتب التاريخية المحضة التي بقيت الى الآن من مؤلفات العرب ، ما يثبت ذلك ويؤيده ، قال : ان ياسر بن عمرو ملك اليمن (٣٥٠ – ٣٧٥ م) الملقب بياسر انعم لانعامه عليهم ، لما سار غازياً نحو المغرب بلغ وادياً يقال له وادي الرمل فلما انتهى اليه لم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل ، وعبر بعض اصحابه فلم يرجعوا فامر بنصب صنم من نحاس على صخرة في شفير الوادي وكتب على صدره

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٥١ وج ٦ ص ١٠٦ والمقدمة ص ٧١ ط بولاق ١٧٤ م .

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ٨٨ .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٦ – ٧ وج ١ من تاريخه ص ٧٧ – ٧٨ – ٧٩ – ٨٨ – ١٣٢ وج ٦ ص ٩٦ – ٩٧ – ١٠٦ – ١٠٧ .

بالخط المسند : هذا الصنم لياسر انعم الحميري ، ليس وراءه مذهب ، فلا يتكلفن احد ذلك فيعطب . ورجع [1] ، ولقد اثبت ابن خلدون نفسه ما نقلناه عن ابن قتيبة (ج ١ ص ٧٩) ومثله ابن الاثير في كامله (ج ١ ص ١٥٦) او بعد هذه النصوص كلها يصبح تاريخ العرب القديم بشمال افريقية قضية ملغاة ؟ ! .. ولاسيا اذا صح وان الاحباش سكان (اثيوبيا) بافريقية انهم انتقلوا اليها من جزيرة العرب او من جنوبها فان ذلك مما يزيدنا تأكيداً ويكون لنا كبرهان ساطع على ثبوت الاتصال الوثيق بين سكان افريقية والجزيرة العربية منذ القديم .

وسواء اصح خبر اتصال هؤلاء العرب التبابعة بشمال افريقية ام لم يصح ، فانه قد ثبت يقيناً بان ملوك الرعاة - الفراعنة - المعروفين باسم (الشاسو) او - الهكسوس - وهم من العرب كما لا يخفى ، اتصلوا بمصر من برزخ السويس في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح . واستمر سلطانهم على الديار المصرية الى سنة ١٥٨٠ ق . م . وامتد نفوذهم الى ارض افريقية بدون ان تكون لهم فيها دولة منظمة ، ولذلك لم يكن لهم بها ذكر يحفل بتدوينه المؤرخون . وهكذا يبدو الاثر السامي واضحاً بمصر على عهد الاسرة الفرعونية الرابعة ونقل (يوسيفوس) فلافيوس وهو احد المعتمدين من مؤرخي اليهود الاقدمين (٣٧ - ١٠٠ م) : ان (افرون) بن مدين بن ابراهيم الخليل - بين اوائل القرن ١٨ واواخر ١٩ ق م . - جرد حملة على لوبيا واحتلها ، وان ابناء ابنائه اقاموا هنالك وسموا الارض باسم افريقيا ، ولقد اثبتت البحوث والكشوف العصرية الحديثة بان ابراهيم - الخليل - كان سامياً عربياً ، وانه كان يتكلم العربية ، وهي طبعاً غير العربية التي نعرفها اليوم او نكتبها ونتخاطب بها ، ولا هي كذلك التي بالشعر الجاهلي [2] . وهل هي الكلدانية ؟ .

كما انه قد صح في التاريخ بان الساميين جاؤوا الى افريقية من جزيرة

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٧٣ ط مصر ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م .

(٢) ارجع ايضاً الى ص ٤٨ من الكتاب .

العرب في ثلاث دفعات ، وكان مجيئهم اليها في كل مرة من طريقين : شمالية عن طريق برزخ السويس ومصر ، وجنوبية عن طريق باب المندب ، وكانت الدفعة الاولى في زمن قديم جداً لا يعرف مبدؤه ، فاختلطوا باهل البلاد الاصليين وامتزجوا بهم ، فتولدت منهم امم هي الامة المصرية القديمة ، وقبائل البربر في المغرب ... والمرة الثانية كانت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً ، او في عصور اخرى ترجع الى ما بين القرن العاشر والقرن الاول قبل الميلاد ؟ . وهؤلاء العرب هم الذين اتوا بالجمال معهم الى هذه البلاد اذ لم يكن الجمل معروفاً بها قبل هذا التاريخ ، كما انهم جاؤوا قبل ذلك بالخيل ؛ اما المرة الثالثة فهي التي كانت في قصة الهجرة الاولى الى الحبشة في صدر الاسلام .

ولقد اكتشف الدكتور (استانلي تيمبور) على مقربة من نهر (زمبر) في مقاطعة (رودسيا) من جنوب افريقية آثاراً منقوشة عليها رسوم مكتوبة استدل بها الدكتور على ان العرب قد استثمروا هنالك مناجم الذهب التي كان استثمرها أسلافهم « عرب اليمن » قبل ذلك بعهد طويل . وكما ظفر الحفريون بنقوش حميرية ببعض قرى افريقية . فكل ذلك يجعلنا نحتفل لخبر هؤلاء العرب من التبابعة الحميريين في شمال افريقية ، وقد يكون الضريح الموجود الى اليوم بالجنوب الغربي من بسكرة المنسوب الى خالد بن سنان العبسي[1] هو لاحد أعضاء هذه الجاليات العربية القديمة التي ارتادت هذه الاوطان ، هذا ان لم يكن قبراً لاحد المبشرين بالمسيحية ممن ذكرنا أسماءهم في صفحة ٨٦ من كتابنا هذا ؛ أو قد يكون كذلك لاحد رجال الكنيسة وأعيان مذاهبها الشهيرة ؟ ... والمستقبل كشاف .

---

(١) راجع الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٦ ، ونهاية الارب للنويري ج ١ ص ١٠٦ — ١١٠ ، والجمهرة لابن حزم ص ٢٤٠ ، والكامل لابن الاثير ج ١ ص ٢٧٠ ، ومعجم البلدان ليـاقوت ج ٣ ص ١٩٣ ، وعيون الاخبار للصديقي (مخطوط) ورقة ١٣ ، ومحاضرات الادباء للاصفهاني ج ٢ ص ٢٧٨ ، والاصابة لابن حجر ج ١ ص ٤٤٦ ، والمؤنس لابن ابي دينار ص ١٧ ، ورحلة العياشي ج ٢ ص ٢١٤ ، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٣٥ ط مصر ١٣٠٣ هـ .

فتح أفريقية

٢٢ هـ - ٦٤٣ م

افريقية - المغرب

اتسع مدلول لفظ افريقية على عهد البيزنطيين فشمل كل ما دخل تحت نفوذهم من هذه القارة : من برقة الى طنجة ؛ وبهذا المعنى استعمله العرب في أول الامر ؛ ثم بعد ذلك أخذ لفظ افريقية يضيق شيئاً فشيئاً وبدأ لفظ المغرب في الظهور ، فاقتصر اسم افريقية على ما يلي مصر غرباً الى بجاية من مقاطعة قسنطينة - الجزائر - ثم يلي ذلك المغرب حتى المحيط ، وربما أدخل فيه بعضهم الاندلس ؛ ولا شك ان لفظ المغرب حسب مدلول معناه هو ما يقابل الشرق ، ولهذا أدخل فيه بعضهم مصر والاندلس ، وقصره آخرون على المغرب العربي الحالي وهو الاقليم الذي يلي مصر غرباً حتى المحيط ، ثم هم يقسمونه أجزاءاً بحسب الحكومات والولايات كبرقة وطرابلس وافريقية - تونس - والمغرب الاوسط - الجزائر - والمغرب الاقصى والسوس .

مقدمات الفتح

كان من الطبيعي المعقول ان يتابع العرب فتوحاتهم بشمال افريقية بعدما فتحوا مصر والشام وغيرهما من ممتلكات امبراطورية بيزنطة ،

والجزائر يومئذ هي ضمن هذه الامبراطورية التي غزاها العرب في الشرق ، فكان لزاماً على الدولة العربية الناشئة ومن واجبها السياسي ان تستمر على خطتها في الفتح وتتابع ممالك الدولة المغزوة حيثما انتشرت في الارض وانبسط سلطانها في المعمورة ، وذلك توطيداً للامبراطورية الاسلامية الناشئة يومئذ في الشرق ، واتماماً لسلسلة الفتوحات العربية ، فقد كتب على العرب الفاتحين ان يصطدموا بالروم في المغرب كما اصطدموا بهم في الشرق .

من المعقول جداً ان يفكر فاتح مصر عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، في متابعة الفتح والاستيلاء على هذا الشمال الافريقي ، بعد فراغه من الاستيلاء على القطر المصري وتمام جلاء الروم عنه ؛ ولا شك انه بلغته اخباره واتصل بها وهو يومئذ على فتح مصر ، فعرف انه من بلاد الروم البيزنطيين وان لهم فيه منعة وعزة ، وانه جزء من مصر ، وكان اهل برقة وطرابلس اذ ذاك على علاقات قوية موصولة مع اهل مصر ، حتى ان بعض قبائلها كان معدوداً من قبطها . وكانت الطرق بينهما مطروقة مأنوسة ، فلما فرغ عمرو من فتح الاسكندرية وجد الطريق الى برقة سهلة ميسورة ؛ فخشي من وثبة تكون من الروم يهاجمون بها مصر ، او تدبير يحكمه روم بيزنطة بها ، فبعث اولاً بالطلائع تستطلع له احوال البلاد ، وبعد ان اتصل بالمعلومات الكافية سار هو بنفسه فغزا برقة وطرابلس ثم صبرة او — سبرت Sabrata — ففتحها عنوة سنة ٢٢ هـ — ٦٤٣ م ؛ ومن هناك بعث ابن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يستأذنه في فتح افريقية فأوقفه عمر ونهاه عن التمادي في الفتح قائلاً له في كتابه الذي ارسله اليه : انها ليست بافريقية ولكنها المفرقة غادرة (الغادرة) مغدور بها ، وذلك لأن اهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً [١] ، وكان ملك الاندلس صالحهم ثم غدر بهم ؛ لا يغزوها احد ما بقيت ، او قال : لا اوجه اليها احداً

---

(١) وكأن كلمة موسى بن نصير التي تقدمت في صفحة ٥٠ من الكتاب مقتبسة من هذا ، او هي من قبيل توارد الخواطر ؟ ... فانظرها هناك .

ما مقلت عيني الماء . ويبدو من كلام الخليفة انه كان على خبرة تامة واطلاع واسع على احوال الممالك وخاصة افريقية فانه كان على بصيرة منها ومن تاريخها وطبيعة اهلها فعرف انها ليست مأمونة الجانب ولا ميسورة الفتح ولا قريبة الطاعة ، فعجل بايقاف عمرو .

ونستطيع ان نفهم كلمة عمرو هذه بوضوح تام ونشرحها على ضوء النظرية التي اشار بها ابن خلدون حينما تعرض للكلام عن عصيان البربر وانتقاضهم على العرب وقرر ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة ... ثم قال : والسبب في ذلك هو اختلاف الآراء والاهواء ، وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها ، فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت ، وان كانت ذات عصبية ، لان كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة . ثم يستشهد ابن خلدون على استنتاجه هذا بما حدث في افريقية والمغرب من احداث وما وقع فيهما من فتن وثورات فيقول : « وانظر ما وقع من ذلك في افريقية والمغرب منذ اول الاسلام ولهذا العهد ، فان ساكني هذه الاوطان من البربر اهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاول الذي كان لابن ابي سرح عليهم وعلى الافرنجة شيئاً ، وعاودوا بعد ذلك الى الثورة والردة مرة بعد اخرى وعظم الاثخان من المسلمين فيهم ، ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرات عديدة ...

وهذا معنى ما ينقل عن عمر من ان افريقية مفرقة لقلوب اهلها ، اشارة منه الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحامية لهم على عدم الاذعان والانقياد ...

والبربر قبائلهم بالمغرب اكثر من ان تحصى ، وكلهم بادية اهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردة فطال امر العرب في تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب »[1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٠ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

ورغم ذلك كله فان عصبيتهم هذه لم تكن مانعة من تبكيرهم بالاسلام كما ستعرفه .

ولا شك ان عمراً رأى من قوات جريجوريوس المتحصنة المعدة لدفع العرب ومقاومتهم ما يحتاج معها الى المدد ، ولما اتصل بكلمة الخليفة خشي من الهزيمة اذ ليس لديه من قوة الجيش ما يكفي لمهاجمة البربر والروم في بلادهم فلم يجد عمرو اذاً بداً من الانسحاب والتراجع ، فطوى كشحه وانصرف عائداً الى مصر بعد ان صالح اهل برقة على ثلاثة عشر الف دينار ، وقد الحقت هذه الناحية بولاية مصر فاعتبرت جزءاً منها يحكمها عامل مصري ، يجبي خراجها ويقود جندها .

حملة ابن ابي سرح

لقد اصبح عبدالله بن سعد بن ابي سرح عاملاً على مصر منذ سنة ٢٥ هـ — ٦٤٦ م . وما كاد يستتب له الامر حتى فاتح الخليفة يومئذ عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، يخبره بقرب الروم من حوز المسلمين ويستأذنه في غزو افريقية ؛ وبعد ما تدبر الخليفة في الامر كتب الى عبدالله سنة ٢٧ ، ويقال سنة ٢٨ او سنة ٢٩ هجرية ، يأمره بغزوها ؛ وتقاطر المسلمون من مختلف القبائل على الخليفة يريدون المشاركة في هذا الفتح وعلى رأس كل قوم نفر من كبرائهم ، وكان جيش هذه الحملة يتجمع بـ « الجرف » ، وهو مكان يبعد عن المدينة المنورة بثلاثة اميال ، والخليفة نفسه لا ني ان يشجع الناس على التطوع ، فأعان الجيش بألف بعير من ماله : يحمل عليها ضعفاء الناس ، وحمل على الخيل ، وفرق السلاح وامر للناس بأعطياتهم ؛ واندمج في سلك الغزوة نفر غير قليل من مشاهير الصحابة واولادهم ، وقد عرف هذا الجيش بجيش العبادلة . ولما اكتمل القوم خطب فيهم الخليفة مرغباً لهم في الجهاد ، قائلاً : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم الى ان تقدموا على عبدالله بن سعد فيكون الامر اليه ، واستودعتكم الله . فارتحل الجيش من المدينة في المحرم سنة ٢٧ هـ — اكتوبر ٦٤٧ م .

ولما صار الجيش الى عبدالله بن سعد واتصل بقوات الخليفة أخذ عدته وجمع أمره واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ، وبعث أمامه بالطلائع ، ثم فصل عن مصر وخرج بنفسه للفتح في عشرين الف جندي ما بين عرب من الجزيرة وقبط من مصر وبربر من افريقية ؛ وسار حتى بلغ قمونية أو قمودة (ولعلها كابوت فادا Caput vada الميناء البيزنطي المعروف) وهنـــاك استقر وبدأت المفاوضات بينه وبين البطريق[1] جريجوريوس (جرجير) حاكم افريقية وأمبراطورها المستبد ، المتربص يومئذ بمدينة سبيطلة ـ على مائة وخمسين ميلاً جنوب قرطاجنة ـ وهناك عرض عليه عبدالله الاسلام أو الجزية وطالت المفاوضات ١٣ يوماً[2] وكانت المناوشات طوال هذه المدة تدور بين القوم بفتور ؛ وجرجير يومئذ مصر على الرفض ، وكأن المسلمين يومئذ أدركهم شيء من الفتور فمالوا الى طلب الامداد من الشرق ؛ فجاءتهم بعثة عبدالله بن الزبير فهللوا لها وكبروا وتحمسوا لمقاتلة الروم فتقدموا من قمونية الى حيث البطريق جرجير رابضاً في مائة وعشرين الف مقاتل ؛ ويقول الباجي : في مائتي الف مقاتل[3] ؟ ... فدارت المعركة بين الطرفين على مقربة من حصن عقوبة ـ فحص متسع ، بينه وبين دار الملك : سبيطلة ٣٦ كيلومتراً ـ فانهزم الروم شر هزيمة وقتل فيها جرجير ، فأقام الافارقة عليهم مكانه « جناحة Ghenaha » فهو الذي عقد الصلح مع العرب بعد ذلك ، فأصبحت ولاية افريقية يومئذ تحت نفوذ العرب وانتشر الفاتحون بكامل الولاية يغنمون وينهبون وانحاز أغلب المنهزمين الى الشرق في حصن الجم (العجم ـ الاعاجم) فأحاط به العرب وحاصروه بمن فيه ففتحوه ، وفي تاريخ الخميس قال : ان فتوحات عبدالله بن سعد بن أبي

---

(١) لقب مدني سياسي Patrice, Patrique, وهو غير البطريرك Patriarche المختص برؤساء الدين .

(٢) وفيها تلقب عبدالله بن عباس رضي الله عنه بحبر العرب من طرف جرجير ، حيث قال لعبدالله : ما ينبغي الا ان تكون حبر العرب .

(٣) يقدر الرواة ان عدد سكان شمال افريقية يومئذ نحو ١٩ مليوناً ؟ ...

سرح بلغت الى الجزائر التي في بحر بلاد المغرب[1]. ويومئذ لجأ رؤساء البربر الى طلب الصلح من ابن أبي سرح وتعاهدوا معه على ان ينصرف عن بلادهم لقاء مبلغ يقدره البعض بمليونين وخمسمائة الف دينار، ويقدره البعض الآخر بثلاثمائة قنطار من الذهب[2] ويروى مائة الف رطل ذهب؟... وزاد على ذلك ابن أبي سرح فاشترط عليهم بأن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد التر داد رد عليهم، فوقع الاتفاق على ذلك، واقتسمت الغنائم بين الغزاة، فأصاب كل فارس ثلاثة آلاف مثقال - دينار - والراجل منهم الف وعاد البشير (عبدالله بن الزبير) الى المدينة ليقص خبر الفتح على منبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكتب ابن أبي سرح الى نائبه بمصر يأمره بانفاذ المراكب اليه ليحمل عليها الغنائم واثقال المسلمين خشية انقلاب الروم عليه، فكان الامر كذلك، وعاد ابن أبي سرح الى مصر من غير ان يولي على افريقية أحداً ولم يتخذ بها معسكراً، ولقد دامت هذه الغارة خمسة عشر شهراً، ثم كانت بعدها الاحداث التي عصفت بالبلاد العربية عقب اغتيال الخليفة عثمان، فتأخر اتمام الفتح الى ايام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

ينتقد بعض المؤرخين عودة عبدالله بن سعد هذه وانفصاله عن افريقية بعدما انتصر ذلك الانتصار الباهر على الروم وفاز المسلمون بمغانم كثيرة!... وقد رد بعضهم أسباب هذه العودة الى أحداث اضطرت قائد الحملة الى التعجيل بالمسلمين قبل انقلاب الروم عليهم فيسلبوهم ما غنموا، وقد لاحت له مخايل المقاومة التي أبداها أهل الساحل يومئذ، وخصوصاً اذا لاحظنا كذلك ما كان من التوتر بين قادة الجيش العربي مع ضعف الجند أمام قوات الروم والبربر المتكاثر وانقطاع العرب عن المدد، مع اضطراب

---

(١) تاريخ الخميس للدياربكري ج ٢ ص ٢٩٧ ط القاهرة ١٣٠٢ هـ.

(٢) حاول ياقوت تقدير القنطار فقال انه يبلغ ثمانية آلاف وأربعمائة دينار وهو عدد تقريبي وقدر «دوسلان» الدينار في ذلك العصر بعشرة فرنكات.

حبل الخلافة بالمشرق . فاذا لاحظنا ذلك كله فلا نستبعد هذه العجلة في رجوع القائد بجملته الى مركز ولايته بمصر . ولو ساعدت الظروف بيزنطة وكانت على شيء من القوات لاستعادت البلاد في هذه الفترة ، ولكنها كانت تعاني ما تعانيه نفس الدولة الاسلامية الناشئة من الضعف واضطراب الحال .

اضطراب افريقية

ما كاد يتصل الامبراطور البيزنطي بخبر انعقاد الصلح على الصفة المتقدمة مع العرب وبما نال العرب من مال ونشب حتى ثارت ثائرته واستشرف هو أيضاً الى مثل ذلك أو أكثر ، فأسرع الى تعبئة بعثة عسكرية الى افريقية وجعل قيادتها لاحد بطارقته ، فجاءت الحملة وأظهرت رغائب الامبراطور ومطالبه الفادحة وأرغمت الشعب على ذلك ، فثار الافارقة لهذا واشتد الهيجان وكانت بين الفريقين حوادث دامية وأخيراً تغلب البطريق على حاكم افريقية - خليفة جرجير - فعزله وجلس هو مكانه ؛ ويومئذ انسل هذا الحاكم المعزول الى الشرق ملتجئاً الى الخليفة الاموي معاوية بن أبي سفيان فحرضه على عودة العرب الى افريقية على ان يكون هو دليلهم على عورات القوم ، وما شعر الخليفة بالامر حتى فاجأهم اسطول بيزنطة مهاجماً الاسكندرية فكانت هنالك واقعة ذات الصواري المشهورة ٣١ هـ - ٦٥١ م انهزم فيها الروم أيضاً .

حملة معاوية بن خديج[1]

يذكر كثير من المؤرخين ان في اثناء هذه الفترة التي أعقبت رجوع عبدالله بن سعد والتي دامت نحو السبعة عشر سنة هناك من اتصل من زعماء البربر بالعرب في المشرق يحثونهم على العودة الى افريقية واستئناف الفتح تخلصاً من الارهاق والاضطراب الذي حصل لهم ، وهذا صحيح

---

(١) ضبطه صاحب معالم الايمان ج ١ ص ١١٣ ط تونس ١٣٢٠ هـ فقال : خديج بضم الخاء المعجمة وفتح الدال من خديج ...

تؤيده المعاملة الحسنة التي كان يجدها الجيش الفاتح من الاهالي ، وقصة الحاكم المعزول .

أصدر أمره الخليفة بغزو افريقية الى عامله على مصر وكان يومئذ معاوية بن خديج ؛ فخرج الجيش الاسلامي سنة ٤٥ هـ - ٦٦٦ م في عشرة آلاف مجاهد ، وفيهم الكثير من أعيان الصحابة من المهاجرين والانصار ، وجاء معهم يومئذ حاكم افريقية المخلوع وهو الذي كان عند الخليفة يحثه على الغزو ومات في الطريق وسار ابن خديج في طريقه الى افريقية ففتح بعض مواطنها مثل بنزرت وجلولاء وجربة وسوسة ؛ ثم عاد من غير سبب معقول ودون أن يخلف أي أثر يذكر ؟ ...

حملة عقبة بن نافع الاولى

لقد سبق لعقبة ان عرفته افريقية وعرفها فمارسها منذ كان مع عمرو بن العاص في فتوحاته وبعوثه الاولى فأقام بها أميراً على ما فتح منها ، ومتجولاً مغيراً تارة ودارساً ومبشراً ونذيراً تارة أخرى ، ولبث مقيماً بالنواحي حتى استعمله معاوية بن أبي سفيان على ولايتها هذه المرة سنة ٥٠ هـ - ٦٧٠ م فسار اليها على رأس عشرة آلاف جندي وانضم اليه من كان أسلم من أهل البلاد . ففتح بهم أماكن أغلبها بولاية تونس وكان سيره هذا بالداخل متجنباً السواحل لما فيها من الحصون والمحارس البيزنطية .

ويشهد التاريخ لحملة عقبة هذه بأنها حملة موفقة جديرة بأن تعد فتحاً حقيقياً لافريقية ، كما انه هو أحق وأجدر بلقب الفاتح من غيره ممن سبقه ، وذلك لما فكر فيه عقبة يومئذ وأهمه من اقامة مدينة للمسلمين في افريقية اذ قال : ان افريقية اذا دخلها إمام تحوموا بالاسلام فاذا خرج منها رجع من كان أسلم بها وارتد الى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً وتكون عز الاسلام الى (أول) الدهر . وبذلك وضع عقبة الحجر الاساسي لابتناء

افريقية الاسلامية فأنشأ مدينة « القيروان » . فلعمري انه قد وفق في ذلك الى شيء لم يوفق اليه غيره من الفاتحين السابقين وهو أمر ضروري في انشاء الممالك واتخاذ الحصون بها .

كان الجند قبل حملة عقبة هذه يخرج من مصر مغيراً على ما يستطيع من بلاد افريقية ثم يعود الى مصر او برقة بالغنائم او من غير غنائم دون ان يخلف في البلاد اثراً ودون ان يكون في غاراته معنى للفتح !... فاصبحت افريقية بصنيع عقبة مقراً يقيم به المسلمون مطمئنين فيه دون ان يعودوا الى مصر بعد كل غزوة ؛ وكأن افريقية بذلك استقلت بعض الشيء – رغم تبعيتها لمصر – فأصبحت ولاية اسلامية ثانية ، وهذه هي الخطوة الاولى نحو ظهور ولاية افريقية اسلامية بهذه البلاد .

ثم ان حسن اختيار عقبة لموقع مدينة القيروان كان في غاية الاحكام الحربي اذ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضوع مركزاً لاعماله – كما قال المؤرخ كودل – : يستطيع ان يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر ، واذا اراد ان يطاردهم الى هضابهم وجد الطريق مفتحة امامه ، اذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول الى اعالي الهضاب ، عن طريق وادي زرود ووادي مرجلل ومسلك جبل بارجوه ومن اعالي الهضاب كان يستطيع الاشراف على ما يجاورها ، فيتيسر له حكمها اذا كانت لديه القوة الكافية لذلك . ولقد لاحظ عقبة نفسه هذه الملاحظة الحربية لتحصين مركز القيادة الاسلامية هذا بقوله لاصحابه المؤسسين الفاتحين : اني اخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها صاحب البحر اجعلوا بينها وبين البحر ما لا تقصر فيه الصلاة ، واحاط عقبة المدينة بسور يبلغ دوره اثني عشر ميلاً ؛ وبعد ان مكث عقبة بافريقية ما يقرب من خمس سنوات استخلف بابي المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد (والي مصر) ولا نعلم عن اسباب هذا الاستخلاف او العزل شيئاً ؟... والظاهر انه كان بسعي من مسلمة .

فتح المغرب الاوسط - الجزائر -

انتصب مسلمة بن مخلد على ولاية افريقية وتحتها يومئذ مدينة مصر، وقد جمع له الخليفة في ولايته هذه ما بين مصر وافريقية والمغرب والصلاة، فشق عليه القيام بجميع هذه الاعمال الهامة كلها، فبعث بمولاه ابي المهاجر دينار الى المغرب وقال: ان ابا المهاجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير ميل، فنحن نحب ان نكافئه. فلم يلبث دينار ان اصبح اميراً على افريقية سنة ٥٥ ﻫ واستمر على ولايتها مدى سبع سنوات تنتهي سنة ٦٢ ﻫ (٦٧٤ - ٦٨٢ م).

خرج عقبة من افريقية مهاناً من طرف ابي المهاجر فذهب الى الخليفة بالشام يشكو اليه حاله، فما زاده معاوية على ان قال له: «قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الامام المظلوم [1] وتقديمه اياه وقيامه بدمه وبذله مهجته وقد رددتك الى عملك»؟ ... ولكن مسلمة يأبى ذلك!... فالى ما بعد وفاته ...

اتصل ابو المهاجر بافريقية واسس بها مركزاً هو غير قيروان عقبة ولكنه بجانبه على مسافة ميلين «تيكروان» وسار في خطته غرباً الى المغرب الاوسط او بلاد الجزائر، حيث يخيم ملك البربر «كسيلة» بجبال اوراس، فاتخذ مسلكه الى هنالك بوابة بسكرة المنخفضة التي تمثل فجوة في الاطلس فتمكن من الانتصار على اعمال قسنطينة سنة ٥٩ ﻫ - ٦٧٨ م وجعل مركز قيادته العليا مدينة ميلة فابتنى بها دار الامارة وجعلها ملاصقة للجامع كما شاهدها البكري بنفسه ومكث الامير بها سنتين، وقد حظيت الجزائر بذلك - طيلة هذه المدة - بشرف امارة افريقية الاسلامية، وبذلك كان ابو المهاجر اول امير مسلم وطئت خيله المغرب الاوسط، واول من حمل الاسلام الى هذه الديار الجزائرية؛ ومنها تقدم في فتوحه الى احواز تلمسان فقضى بها زمناً طويلاً احتفر

---

(١) يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فيه آباراً لجنده تسمت باسمه « عيون أبي المهاجر » وهنالك ظفر بخصمه كسيلة فحمل عليه حملة شديدة وعرض عليه الاسلام فاعتصم به ، وحينئذ خلى عنه الامير وأبقاه معه ، ثم كان بعد ذلك حصار الروم بقرطاجنة فتنزلوا له عن شبه الجزيرة « شريك » .

اتفق المؤرخون لاعمال أبي المهاجر في الفتوح بأنها كانت على جانب عظيم من الاهمية والخطورة ، فانه أول من جعل غايته الاخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب والاسلام فيها ، فهو لم يعاهد الروم على ان ينصرف على قرطاجنة كما فعل غيره لقاء فدية من المال وانما طلب اليهم ان يتنازلوا له عن جزء من البلاد لانه لم يطلب الغنم والعودة ، وانما كان يرغب في اتمام فتح البلاد ، وان سياسته كانت ترمي الى تقريب البربر وكسبهم بالمودة وحسن المعاملة .

حملة عقبة بن نافع الثانية

قضت حكمة الباري ان يبقى وعد معاوية لعقبة معلقاً حتى بعد وفاة الخليفة نفسه ووفاة والي مصر مسلمة بن مخلد أيضاً . وما كان لعقبة أن ييأس من مجيء ساعة ينفذ فيها وعد معاوية ، وقد حان الوقت الآن فرجع عقبة الى عمله بأمر صدر من اليزيد بن معاوية وقد مات المعارض – مسلمة – فبدأ عمله بافريقية سنة ٦٢ هـ – ٦٨٢ م وان أول ما قام به من الاعمال هو الاعتناء بمؤسسة القيروان فأعاد عمرانها واقتص من مهينه أبي المهاجر فأوثقه بالحديد ، ويقال انه وجد بخزينته مائة الف دينار ، وأخذه معه هو وكسيلة (الملك البربري) وتوجه بها في خمسة عشر الفاً من جنوده الى فتح البلاد وتدويخ أهلها ، فتتبع طريق السهل وتجنب المسير على الهضبة الوعرة ففتح في طريقه مدينة « باغاية » – شرق جبل اوراس قرب خنشلة – وذلك حيث تحصن له البربر والروم لمقاومته ، فقاتلهم قتالاً شديداً وغنم منهم خيلاً لم يرَ أصلب منها ولا أسرع فهي من نتاج خيل اوراس ، ومنها توجه الى مدينة

لميس – لمبيز ذلك الحصن البيزنطي المعروف وكانت المقاتلة هنالك أشد وأعظم وأصاب بها مغانم كثيرة ، وكره المقام عليها فوصل الى الزاب وأحاط بعاصمته يومئذ « ازبة » على مرحلة شرقي المسيلة وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، وهنالك احتشد له جيش العدو فقاتلهم بها قتالاً عنيفاً وما زال بهم حتى بدد شملهم فأطاعوه ، ومنها توجه الى « تيهرت » وكان بها حصن بيزنطي قديم اقتتل فيه العرب والروم والبربر فلم يكن لهذين طاقة بالعرب إلا ان الامر اشتد على المسلمين أكثر من ذي قبل لقلتهم أمام جيوش العدو الجرارة ، ومن هناك انحدر عقبة من الهضبة الى السهل الساحلي وسار الى المغرب الاقصى وعرج في طريقه على تلمسان ودخل طنجة ففتحها واحتل مدن المغرب وتقدم الى التخوم حتى بلغ المحيط الاطلسي وكان بصحبته أبو المهاجر ، وقد حكى هذا عن أميره فقال : فبلغ عقبة بن نافع في غزواته الى السوس الادنى والسوس الاقصى والبحر المحيط وأدخل فيه فرسه حتى بلغ الماء لبب فرسه وشهر سيفه ورفع بصره الى السماء وهو يقول بأعلى صوته : يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك !...

واقعة تهودة

عاد عقبة أدراجه بعد ان اعترضه البحر عن التقدم في الغزو والفتح راجعاً الى القيروان ، وكان معه أسيره كسيلة فحبسه في مهانة وذل . وعلم به أبو المهاجر المكبل يومئذ بالحديد فنهى عقبة عن إهانة الملك البربري قائلًا له : « ما هذا الذي صنعت ؟... كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يستألف جبابرة العرب كالاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن ، وأنت تجيء الى رجل هو خيار قومه في دار عزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه !... توثق من الرجل فاني أخاف فتكه ! » فلم يلتفت عقبة لنصيحة دينار واستمر على اهانة كسيلة ، واستطاع هذا ان يفر دون ان يشعر به عقبة وقد عرف الطريق الذي يسلكه عقبة في

مسيره الى القيروان من قوله للجند قبل ذلك : امر الى مدينة تهودة والى مدينة بادس اعرف ما يكفيهما من العدة والجيوش – وكانا في ذلك الوقت من اعظم بلاد الجزائر – فاعترضه هنالك كسيلة في قومه وقد نكثوا عهدهم ، واستمر عقبة متوجهاً الى القيروان وقد دبرت له مكيدة اخرى في طريقه حينما كان سائراً الى المغرب الاقصى فكان هناك من تعقبه بردم الابار خلفه ليقطع عليه سبيل العودة ويضلل عليه الطريق ؛ وما بلغ عقبة مدينة طبنة : بريكة حتى اطمأن على نفسه فأذن لبعض الفرق من الجند بالتقدم امامه والسبق الى دار الامارة : القيروان ، ولم يبقَ مع عقبة يومئذ من الجند سوى نحو ثلاثمائة فقط ؛ وكان فيما حضر مع عقبة من بربر الجزائر في هذا الفتح وانتهى معه الى البحر المحيط بالسوس : قبيل بني عبد الواد ومنهم ملوك تلمسان فيما بعد – فانهم أبلوا في هذه الغزوة البلاء الحسن فدعا لهم عقبة واذن في رجوعهم قبل استتمام الزحف[1] . وحينئذ اسرع اليه البربر والروم وقد سنحت لهم الفرصة يومئذ لقتاله وظهر كسيلة على رأس الجند المحارب .

ويذكر ابن الاثير ان ابا المهاجر حين رأى تحفز كسيلة ومسيره نحو المسلمين قال لعقبة : « عاجله قبل ان يقوى جمعه » ثم يقول « فزحف عقبة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه » ولقد سئل كسيلة من طرف قومه عن انحرافه عن طريق عقبة فقيل له لم تتنحى من بين يديه ونحن في خمسة آلاف ؟ فقال « انكم كل يوم في زيادة وهم في نقصان ، ومدد الرجل قد افترق عنه فاذا طلب افريقية زحفت اليه » ولما رأى ذلك ابو المهاجر تمثل بقول ابي محجن الثقفي .

كفى حزناً ان ترتدي الخيل بالقنا واترك مشدوداً عـــليّ وثاقيا
اذا قمت عناني الحديد واغلقت مصارع من دوني تصم المناديا

وحينئذ ادرك عقبة خطأه في سياسته مع العاهل البربري كسيلة ولات

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

حين مناص !.. فأسرع الى ابي المهاجر فأطلقه وقال له « الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وانا اغتنم الشهادة ، فأنف دينار من قول عقبة واجابه بقوله : وانا ايضاً اغتنم الشهادة ! . ووقفا جنباً لجنب مستبسلين في كفاح العدو وترجل القوم وكسروا جفان سيوفهم ونزل الصبر واستلحم عقبة واصحابه ، رضي الله عنهم ، ولم يفلت منهم احد وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد وفيهم ابو المهاجر (تركه) اصحابه في اعتقاله فأبلى ، رضي الله عنه ، في ذلك اليوم البلاء الحسن واجداث الصحابة رضي الله عنهم اولئك الشهداء عقبة واصحابه بمكانهم ذلك من ارض الزاب لهذا العهد (بالجنوب الشرقي من مدينة بسكرة - الجزائر -) وقد جعل على قبر عقبة اسنمة ثم جصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في عدد المزارات ومظان البركة بل هو اشرف مزور من الاجداث في بقاع الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ احد مد احدهم ولا نصيفه [١] ». وكان استشهادهم رضى الله عنهم سنة ٦٣ هـ - ٦٨٢ م .

ويرى بعض المحققين من علماء الآثار وتحف الفن ان باب مسجد سيدي عقبة القائم اليوم بنفس الضريح هو من صنع عهد عاهل الدولة الزيرية الامير المعز بن باديس الصنهاجي ، وذلك اعتماداً منهم على ما دلت عليه قواعد هذا الفن ودلائله المتركزة على قرائن الاحوال والاستنتاجات الفنية [٢] .

تملك كسيلة

بعدما انتصر كسيلة على الفاتح العربي عقبة في واقعة تهودة المشهورة ،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٦ و ج ٦ ص ١٤٦ و ١٤٧ والمغرب للبكري ص ٧٤ ط الجزائر ١٩١١ م والاستبصار ص ٤ ط فينا ١٨٥٢ م وانظر ابن الاثير والنويري ايضاً .

(٢) Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman - Alger 1957 — p. 151

ذهب تواً الى مركز القيادة العربية وعاصمة الاسلام الجديدة بافريقية : القيروان ، وكان بها يومئذ زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة ؛ فاعتزم هذا اولاً على المقاومة ثم عدل عنها نزولاً عند رأي الجماعة وتدبير اولى الشورى ؛ فانتقل منها سنة ٦٥ هـ — ٦٨٤ م مرتحلًا الى برقة . وترك افريقية ناراً تلظى ، ففشت الردة وكثرت المنازعات والمشاغبات السياسية وبقي الامر على ذلك الى اتمام الفتح على عهد حسان ابن النعمان .

وبخروج زهير من القيروان خرجت افريقية عن ايدي المسلمين ووقعت بيد كسيلة البربري النصراني ، فلبث فيها ملكاً طيلة هذه الفترة التي بين استشهاد عقبة وعودة زهير بن قيس البلوى ، اي مدة اربع سنوات ، مما دعا العرب الى فتحها من جديد والزحف اليها سنة ٦٩ هـ — ٦٨٨ م .

أمراء افريقية وحكامها

	تاريخ التولية
عمرو بن العاص	٢٢ هـ – ٦٤٣ م
عبدالله بن سعد بن ابي سرح	٢٧ هـ – ٦٤٨ م
معاوية بن خديج الكندي	٤٥ هـ – ٦٦٥ م
عقبة بن نافع الفهري	٤٩ هـ – ٦٧٠ م
ابو المهاجر دينار	٥٥ هـ – ٦٧٥ م
عقبة بن نافع (للمرة الثانية)	٦٢ هـ – ٦٨٢ م

الخلفاء

	تاريخ الولاية	
عمر بن الخطاب	١٣ – ٢٣ ﻫ	٦٣٤ – ٦٤٤ م
عثمان بن عفان	٢٣ – ٣٥ ﻫ	٦٤٤ – ٦٥٦ م
علي بن ابي طالب	٣٥ – ٤٠ ﻫ	٦٥٦ – ٦٦١ م
معاوية بن ابي سفيان	٤٠ – ٦٠ ﻫ	٦٦١ – ٦٨٠ م
يزيد بن معاوية	٦٠ – ٦٣ ﻫ	٦٨٠ – ٦٨٣ م
معاوية الثاني	٦٣ – ٦٣ ﻫ	٦٨٣ – ٦٨٣ م

جدول تاريخي

٢١ ـ ٦٣ هـ

٦٤٢ ـ ٦٨٢ م

تاريخ الحوادث	أهم الاحداث بالجزائر على عهد الفتح الاسلامي
٢١ هـ = ٦٤٢ م	طليعة عقبة بن نافع الفهري بافريقية ، في شهر ذي العقدة ـ سبتمبر .
٢٢ هـ = ٦٤٣ م	مسير عمرو بن العاص الى برقة وفتحها وفتح فزان .
٢٣ هـ «	فتح طرابلس وصبرة ـ بعث ودان ـ عود عمرو من افريقية .
٢٧ هـ = ٦٤٧ م	حملة عبدالله بن سعد بن ابي سرح على افريقية .
٢٨ هـ «	موقعة سبيطلة .
٤١ هـ = ٦٦٣ م	بعث عقبة التمهيدي الى الصحراء .
٤٥ هـ = ٦٦٥ م	حملة معاوية بن حديج على افريقية .
٤٩ هـ = ٧٦٩ م	حملة عقبة بن نافع الاولى على افريقية .
٥٠ هـ = ٦٧٠ م	اختطاط القيروان .
٥٥ هـ = ٦٧٤ م	ولاية ابي المهاجر دينار على افريقية وفتح المغرب الاوسط : الجزائر .
٥٩ هـ = ٦٧٨ م	حصار ابي المهاجر لقرطاجنة .
٦٢ هـ = ٦٨٢ م	بدء ولاية عقبة بن نافع الثانية ، وحملته الكبرى على الشمال الافريقي كله .
٦٣ هـ «	موقعة تهودة واستشهاد عقبة ـ انتصاب كسيلة على عرش القيروان .

مُواصَلة الفَتح

حملة زهير بن قيس البلوي

اذا كان اولو الامر في الدولة الاسلامية مخيرين فيما مضى بين ان يواصلوا الفتوح او ينصرفوا عنها ، واذا كانت الغزوات على المغرب قد ظلت الى الآن رهناً برغبة الخليفة او الحاح عامل مصر ، فقد اصبحت اعادة ما كان قد تم فتحه الى الطاعة ، واتمام فتح بقية البلاد كما قال الاستاذ حسين مؤنس : ضرورة لا بد منها ، لا للمسلمين وحدهم بل للمغرب واهله كذلك ؛ فلقد ظل رجال الامبراطورية البيزنطية بعد استشهاد عقبة يحتلون الولاية القنصلية احتلالاً قوياً والشريط الساحلي من الولاية الداخلية والجزء الاكبر من نوميديا ، وظل الروم على اتصال بالملك البربري كسيلة وقد عاد اليهم نشاطه لاستعادة مملكتهم بهذه البلاد فتنبه لذلك كله الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ورغم ما كان يحيط به في الشرط من ثورة ابن الزبير واضطرابات الشيعة فلقد امر بتولية زهير بن قيس البلوي اميراً على افريقية ، سنة ٦٩ هـ – ٦٨٨ م وبعث اليه بأربعة آلاف جندي عربي انضمت الى جيوش زهير التي تبلغ الالفين من البربر ؛ وكان زهير بعد منصرفه من القيروان مقيماً ببرقة فسار على طريق الساحل حتى افضى الى جوار القيروان وعسكر بجوارها ؛ وما كاد كسيلة يتصل بخبر حملة زهير هذه حتى جمع اليه قومه وحشد البربر والروم واحضر اشراف اصحابه وقال : « قد رايت

ان ارحل (من القيروان) الى ممش [1] فانزلها فان بالقيروان خلقا كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف ان قاتلنا زهيراً ان يثب هؤلاء من ورائنا ؛ فاذا نزلنا ممش امناهم وقاتلنا زهيراً فان ظفرنا بهم تبعناهم الى طرابلس وقطعنا اثرهم من افريقية وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا ، فأجابوه الى ذلك ورحل الى « ممش » وخرج زهير زاحفاً بجنوده الى ممش ، فكانت هناك المعركة الحاسمة التي انجلت عن قتل كسيلة في اصحابه وفرار من بقي منهم معتصماً بالجبال فادركهم جيش العرب فقتلوهم ، وبعدما جال زهير في ارجاء اعمال القيروان ورأى ان مهمته قد انتهت بأخذ الثأر من قاتل عقبة وتخليص المسلمين من عدوهم ولى مسرعاً الى برقة قائلاً : اني ما قدمت الا للجهاد وأخاف على نفسي ان تميل بي الى الدنيا فأهلك . ولست ارضى بالدنيا لاجل ملكها ورغد عيشها ؛ وتنازل عن ولايته عن طواعية من نفسه ولكن الروم اغتنموا خلو البلاد من امير وتوغل المسلمين في النواحي الغربية بجهات ملوية فبادروا الى استمداد قيصر القسطنطينية فأمدهم بأسطول ضخم عرجوا به على برقة فأبصرهم زهير هنالك بأيديهم الاسرى من المسلمين ، فأقام على محاربتهم حتى استشهد هو واصحابه في حومة الوغى رحمهم الله .

حملة حسان بن النعمان

كانت مقاومة زهير بافريقية متجهة في الغالب الى ناحية بربر الشمال ، وهم أقوى عناصر المقاومة يومئذ ، وهم الذين اسقطوا عقبة في الميدان ، ولكنه مع ذلك اغفل ناحية الروم ، وهم عنصر المقاومة الثاني ، فلم يحفل لهم لان ريحهم كانت قد سكنت منذ زمن طويل ولم يكن يتوقع ان يستيقظ الروم مرة اخرى كما قال حسين مؤنس ويعودوا الى محاولة استعادة البلاد ، ففاجأوه هذه المفاجأة التي استشهد فيها ببرقة ، لهذا كان مقتله

---

(١) ممش او ممس Mamma مدينة بيزنطية حصينة قديمة تقع بجنوب القيروان كانت من محارس الرباط الثاني الكبرى

منبهاً لخلفه من بعده الى انه لا يتم هذا الفتح الا اذا عمل على استئصال العنصر البيزنطي من البلاد ومن هنا كان على الفاتح الجديد ان يتوجه بهمته نحو الروم .

يذكر المؤرخون من العرب لحملة حسان هذه عدة تواريخ فهم مختلفون فيها ما بين سنة ٧٣ الى سنة ٧٩ هـ على ان الراجح من تلك الروايات كلها هو سنة ٧٦ هـ ٦٩٥ م حسبما يؤيد ذلك مؤرخو الروم ايضاً فهم متفقون على ان حسان هاجم قرطاجنة هجومه الاول في هذه السنة .

سار حسان مسرعاً الى افريقية بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان وكان عدد جيشه اربعين الفاً وهو اعظم عدد عرفته افريقية لجيش العرب منذ ابتداء الفتح ، ولم يشهد الافارقة جيشاً اسلامياً عظيماً قبل هذا ، فاجتاز ببرقة وطرابلس وهناك وجد نفراً من المسلمين – ما بين عرب وبربر – فأخذهم معه وسار اولاً الى القيروان ومنها حمل على قرطاجنة اذ لم تزل يومئذ بيد الروم لم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية حيث كانت الامداد تأتيها بسرعة ، فحاصرها حسان مرتين فاستغاث الروم بملك اسبانيا القوطي[1] الذي ازعجه اقتراب العرب من بلاده ، فرجع اليهم حسان للمرة الثالثة فقضى عليهم القضاء الاخير وامر بهدم المدينة وتخريبها حتى لا يبقى للروم ولا للبربر مطمع في التستر بجدرانها وحصونها ، وبذلك قضى على آخر معقل للروم بهذه البلاد ثم عاد الى القيروان ، وانطلق الروم على وجوههم ملتجئين مشردين في البلاد فدخلوا بونة – من القطر الجزائري – وغيرها مما وراء البحر كصقلية وسردانيا والاندلس ...

يوم البــــلاء ! ...

اطلق المؤرخون هذا الوصف على ذلك اليوم الذي التقى فيه حسان

---

(١) القوط هم قوم من الشعوب البربرية الجرمانية التي هبطت من شمال اوروبا في اوائل القرن الخامس الميلادي فقوضت صرح الامبراطورية الرومانية وكان من نصيبها اسبانيا .

بالكاهنة وما كان اطلاق . المؤرخين ذلك من تلقاء انفسهم ، كلا ، وانما هي تسمية اتصلت بهذا اليوم منذ جربان تلك الحوادث الهائلة فيه : حوادث الكاهنة وحسان ، وذلك - لا شك - لهول الموقف وما لحق الناس يومئذ من الفزع الاكبر ! ...

ما كادت الكاهنة تتحقق من اتصال العرب بالجزائر ، وما كادت تتسامع بسير حسان اليها حتى رحلت من الجبل - الاوراس - في عدد لا يحصى من قومها جراوة ، وجراوة هذه هي احدى قبائل البتر الحضر المقيمين في الاوراس ، فحطت رحالها عند باغاية ، وهي مدينة حصينة على سفح الاوراس قرب خنشلة ، تقوم من الجبال مقام الباب من الدار ، وهي لا شك تقصد من ذلك ان تكون على مقربة من مواطن جراوة الاصلية في الاوراس لكي تستمد منها العون او تطلب النجاة فيها اذا دارت الدائرة عليها ، وكان لمجرد وصولها الى باغاية ان امرت بهدم اسوارها وحصونها خشية من تحصن العرب بها ، ولو انها استبقتها لقومها لكان اولى بها في سياستها الحربية من ذلك التحطيم ، فقد ظهر منها بذلك انها لا تحسن الخطط الحربية ، ثم سارت من هنالك الى مدينة (سكتاتة) (مسكيانة) على مرحلة من باغاية ومجانة بعمالة قسنطينة .

وسار حسان من القيروان حتى دخل تبسة ومنها اتجه نحو الشمال الشرقي في واد كثير النهيرات والاخوار والزروع حتى ادرك وادي نيني وهو الذي سماه ابن عذارى بوادي سكتاتة ، ويسميه ابن خلدون مسكيانة ، اي بين عين البيضاء وتبسة . ويقول ياقوت ان نيني واد شهير في طرف افريقية ، وهناك عسكر حسان ، وجعل ينتظر الكاهنة ، وكانت المعركة خسارة على العرب وهم بعد مجهودون من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها فانهزموا انهزاماً شنيعاً وامرت منهم الكاهنة ثمانين رجلاً ، ثم اطلقتهم الا واحداً خالد بن يزيد القيسي وقيل العبسي فتبنته لما رأته عليه من الجمال والشجاعة، ولم تكتف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الاوراس بل تتبعت حسان حتى اخرجته من حدود افريقية واطمأنت على سلطانها منه ثم عادت ادراجها .

حسان ببرقة

تقهقر حسان الى برقة ، وبنى هناك قصوراً سميت بقصور حسان ، ومنها كتب الى الخليفة يعرض حاله عليه ويبسط له ما حدث ، ومما جاء في رسالته هذه قوله : ان امم الغرب ليس لها غاية ، ولا يقف احد منها على نهاية ، كلما بدت امة خلفتها امم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم ... فعاد اليه الجواب من امير المؤمنين يأمره بالاقامة حيث وافاه الجواب . فذلك ما حمل حسان على المكث يومئذ ببرقة ثلاث سنوات وبضع شهور » وملكت الكاهنة افريقية كلها واساءت السيرة في قومها وعسفتهم وظلمتهم » .

الكاهنة في تحطيم وتخريب البلاد

يبدو أن الكاهنة لم تدرك تطور سياسة الفتح بعد مقتل عقبة وبعد قيام مدينة القيروان ، فانها كانت ترى ان العرب لا يزالون يريدون من الفتوح الا امراً واحداً : الاموال والغنائم والاسلاب فقط ، وقد فاتها انهم اليوم غيرهم بالامس وان خطتهم السياسية في الفتح تغيرت منذ انشأ عقبة القيروان وسقط بنفسه شهيداً في الميدان ، فانهم اصبحوا لا يريدون من مغازيهم الا استكمال الفتح بادخال الاسلام على اهل البلاد ، ولكن الكاهنة لم تشعر بذلك كله رغم كهانتها ! ... فلما رأت ابطاء العرب عنها قالت للبربر ان العرب انما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن انما نريد منها المزارع والمراعي ، فلا نرى لكم الا خراب بلاد افريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر ، فوجهت قومها يقطعون الشجر ويهدمون الحصون وذلك ما يسمى بسياسة الارض المحترقة La Terre Brulée مثل ما فعلت روسيا في حوادث نابوليون (١٨١٢ م) ... وقد كانت افريقية على ما يروى ظلًا واحداً من طرابلس الى طنجة مسيرة الفي ميل في مثله ، كلها مدائن منتظمة وقرى متصلة حتى انه لم يكن في اقليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصوناً منها ? ...

اتمام الفتح

لقد اثار صنيع الكاهنة هذا احقاد الكثيرين من اهل البلاد وأدركوا انها سياسة خرقاء ، ففيهم من أظهر الاعتراض فأرهقته ، وفيهم من سالم على مضض ، وعم الاستياء البلاد ، الامر الذي بلغ ببعضهم ان سعى في استقدام حسان منتصراً له ، وجاءت الحامية من دار الخلافة سنة ٨١ هـ — ٧٠٠ م فكاتب حسان يومئذ خالد بن يزيد في ذلك ، فأجابه في ظهر الكتاب : « ان البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فاطوِ المراحل وجد في المسير » . مما يدل على ان خالداً بقي عند الكاهنة عينا على البربر ويومئذ سار حسان قاصداً معقل الكاهنة بالاوراس ، فلما قرب من البلاد لقيه جمع من أهلها يستغيثون به ضد الكاهنة فقدموا اليه الاموال والطاعة ، فسره ذلك ، وكانت له هذه أول خطوة في تحقق النجاح من غزوته .

ولما رأت الكاهنة ما أصبح عليه أهل البلاد من النفور عنها والاقبال على الفاتحين العرب ، تحققت الخيبة وتوقعت السقوط بيد حسان فاستنكفت ان تسلم نفسها ووجدت ذلك عاراً عليها فاستأمنت لولديها من حسان بواسطة خالد وأخذت هي في اعداد ملجأ لها بجبل اوراس ، وهناك كانت المقاتلة بين الفريقين في جيوش عظيمة من كلا الطرفين ، فانتصرت يومئذ الجيوش العربية وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بسر تتحصن بها فأصبحت القلعة لاصقة بالارض فمضت تريد جبال اوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبده فتبعها حسان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة ، ونزل الموضع الذي قتلت فيه ، ويقول ابن خلدون : انها قتلت بمكان البسر المعروف بها لهذا العهد بجبل اوراس واستأمن اليه البربر على الاسلام والطاعة ، وعلى ان يكون منهم اثنا عشر الفاً مجاهدين معه فأجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم ، وعقد للاكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل اوراس [1] وكان الفراغ من وقائع الكاهنة في رمضان سنة ٨٢ هـ (اكتوبر ٧٠١ م) .

---

(١) معالم الايمان ج ١ ص ٦٠ — ٦١ وتاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ .

وكثيراً ما رأينا علماء الغرب المفكرين وكبار الكتاب منهم يأسفون جد الاسف على عدم متابعة الفتح الاسلامي وعدم تيسره للعرب في اوروبا ، نظراً لما جاء به هؤلاء الفاتحون من الرقي والحضارة ، فهذا الدكتور غوستاف لوبون يقول : « ... يروى ان موسى بن نصير فكر بعد فتح اسبانية في العودة الى بلاد الغول – فرنسا – والمانيا وفي الاستيلاء على القسطنطينية وفي اخضاع العالم القديم لاحكام القرآن ، وانه لم يعقه عن ذلك العمل العظيم سوى امر الخليفة اياه بان يعود الى دمشق ، فلو وفق موسى بن نصير لذلك لجعل اوروبا مسلمة ولحقق للامم المتمدنة وحدتها الدينية ولانقذ على ما يحتمل اوروبا من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه اسبانيا بفضل العرب » . وانصت الى « كلود فارير » الاديب والكاتب الفرنسي الكبير وهو احد اعضاء مجمع الاكاديمي بباريس كيف لم يخف حزنه وجزعه الشديد من الهزيمة التي اصابت العرب في وقعة « بواتيي » بارض فرنسا ، وهي الوقعة المشهورة ببلاط الشهداء ، فاسمع اليه اذ يقول : « في سنة ٧٣٢ هـ – ١١١٤ م حدثت فاجعة ربما كانت من اشأم الفجائع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى ، وكان منها ان غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون او ثمانية ان لم نقل اكثر – طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الاعلى عهد النهضة (لارونيصانص) ... هذه الفاجعة هي التي اريد امقت حتى ذكرها ، واعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من بلدة (بواتيي) – قريباً من بلدة (تور) في مقاطعة (شامبانيا) اولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكارلونجي (شارل مارتل) على كتائب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة فانهزموا راجعين ادراجهم ، في ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنية ثمانية قرون الى الوراء ... ما عساها تكون بلادنا الفرنسية لو انقذها الاسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح ؟ ... وهكذا نجد مثله الاديب (هانري شامبوت) مدير مجلة (ريفو باري لمنيتي) يكشف لنا عن ندامة التاريخ وامتعاضه الشديد لهذه النتيجة الحاصلة

للعرب في اوروبا في هذه الوقعة فيقول : « لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما اصيبت بفضائعها ... ولولا ذلك لما تاخر سير المدنية ثمانية قرون [1] ! ...

المجتمع الجزائري

كان سكان الجزائر كغيرهم من بقية سكان اقطار المغرب – على عهد الفتح الاسلامي – ثلاث طوائف : البربر ، والبيزنطيون ، والافارقة ، فالبربر سكان البلاد الاصليون والغالبية العظمى بها ، وهم ينقسمون بصفة عامة الى قسمين كبيرين : الاول البربر المستقرون وهم سكان السهول الساحلية وبعض الاراضي الصالحة للزراعة في الداخل المتسمون بالبربر البرانس ، وقد اطلق عليهم الرومان اسم الموريطانيين كما اطلقوا على اسم بلادهم موريطانيا القيصرية – اي القطر الجزائري – ، والقسم الثاني البربر الراحل ، وهم الذين يسكنون البوادي والجبال ويعيشون عيشة قريبة مما كان عليه العرب الجاهليون ويسمون البربر البتر ، وهم الذين اطلق عليهم الرومان اسم النوميديين اي سكان نوميديا وهي جبال الاطلس الوسطى. والطائفة الثانية وهم البيزنطيون وكانوا يومئذ حكام البلاد وسادتها امتد سلطانهم على افريقية – تونس – وربما شمل بعض اجزاء من سواحل المغربين – الاوسط والاقصى – وكان عددهم قليلًا ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من التحضر والمدنية ، وكانت ديانتهم المسيحية ، وكان مركزهم الرئيسي ميناء قرطاجنة ، اما الطائفة الثالثة وهم الافارقة وهم جماعات من اهل البلاد خالطت البيزنطيين والرومان قبلهم واخذت حضارتهم ولغتهم ودينهم وربما تزاوجت معهم ، وكانوا قلة في البلاد ولكنهم كانوا

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٢٢ وقصة الادب في الاندلس لمحمد عبد خفاجي ج ١٠ ص ١١ – ٢٢ ط القاهرة ١٩٥٥ م

يتولون الوظائف الكبيرة ويقومون بالتجارة وشؤون المال ، ومن هنا فقد كان لهم دور عظيم في تاريخ البلاد قبل الاسلام[1] .

تبكير البربر بالاسلام والعروبة

يبدو من دراسة تاريخ الفتح العربي للمغرب ان هناك طوائف وقبائل كثيرة من البربر أقبلت على اعتناق الاسلام من أول وهلة بدون عناء كبير ولا مشقة ، وان أغلب هذه القبائل هي من فصيلة البتر كقبيلة زناتة وبرغواطه ونفوسة ولواته وهوارة الخ ... وأكثرهم من أهل الجنوب ، وذلك لشدة الشبه بين هذه القبائل الجنوبية والجاليات العربية ، سواء ذلك في حياتهم البسيطة الساذجة أم في أذواقهم وميولهم واتجاهاتهم السياسية ، وقد لاحظ البربر في المسلمين الفاتحين الاستقامة والعدل والمساواة ، فرأوا فيهم المنقذ الوحيد مما هم فيه من الميز العنصري والجور السياسي والاضطهاد الديني والفوضى الشاملة ، ومصداق ذلك ما لقيه العرب في البربر من النصرة والنجدة في حوادث كسيلة بتهودة والكاهنة بالاوراس ، فان الذي حمى الاسرى المسلمين عند استشهاد عقبة ، هو ابن مصاد صاحب قفصة والذي تقدم في طليعة جيش حسان الذي أرسله على الكاهنة هو هلال بن شروال اللواتي مع محمد بن أبي بكر في جماعة من البتر ؛ والذي وفد على الخليفة عثمان بن عفان وأسلم على يديه منذ الساعة الاولى هو رئيس مغراوة وسائر زناتة : الملك صولات بن وزمار ، واسلام كسيلة ملك أورويه بجبال الاوراس لاول ملاقاته مع أبي المهاجر ، وكاد الاسلام يومئذ يعم افريقية أجمع لولا تلك الاساءة التي أساءها عقبة لكسيلة التي انتجت قتله ووقف معها سير الفتح العربي اياماً ... واسلام ولدي الكاهنة الخ ... وضرورة ان اسلام هؤلاء الرؤساء والملوك : ابن مصاد ، وصولات ، وكسيلة تبعه اسلام قومهم معهم اذ الناس على دين ملوكهم ؛ وللبلاذري رواية في ذلك تؤيد لنا

---

(١) تعاليق حسين مؤنس على تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١٩ ط القاهرة ١٩٥٨ م

هذا التبكير في البربر للاسلام منذ ايام الفتح الاولى ؛ قال : ان عمرو بن العاص ارسل الى عمر بن الخطاب كتاباً يعلمه فيه انه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويلة ، وان من بين زويلة وبرقة اسلم كلهم ، (فتوح البلدان ص ٢٢٤) فكل ذلك وغيره يجعلنا على يقين من اقبال البربر على الاسلام من اول مرة ؛ وهذا لا يمنع مما رواه ابن خلدون عن محمد بن ابي زيد من ارتداد البربر عن الاسلام اثنتي عشرة مرة ؛ وانهم لم يستقروا على الاسلام الا في عهد موسى بن نصير وقيل بعد ، اجل قد يكون ذلك صحيحاً بالاضافة الى الفترات التي تخللت ايام الفتح والاضطرابات التي كانت تحدث اثناء ذلك مما لا يخلو منه عصر من عصور الغزوات والحروب ؛ مع خلو الوطن يومئذ من مرشد او أمير ، فكثيراً ما رأينا الغزاة الفاتحين يعودون الى اوطانهم بسرعة بدون ان يبقى في البلاد احد منهم ! ... ولا ننس بعد المسافة بين افريقية وبلاد الاسلام ؛ ولا ينكر كذلك ما كان يصيب البربر احياناً من بعض الولاة من العسف والارهاق ؛ فسواء أكان البربر أم غيرهم على هذه الحال فانهم - حتماً - يرتدون ، ولكن ذلك كله لم يؤثر في البربر من ناحية الدين ؛ بل كانت اغلب ثوراتهم سياسية اكثر منها دينية . اما المسيحية فقد تضاءل شأنها حتى كاد امرها ان يذهب . واما عن التبكير بالعروبة وتأثير العرب العظيم في البربر فاننا لا نستطيع ان نأتي ببرهان اوضح مما ظهر من معجزات البيان على لسان القائد البربري طارق بن زياد النفزي في تلك الخطبة المؤثرة البليغة التي سجلها التاريخ للعظة والاعتبار ؛ هي خطبته امام جيشه المغوار يوم تقدم به لفتح الاندلس[1] .

ويكشف لنا غوستاف لوبون عن اعجابه البالغ من تعرب البربر وتعريب لغتهم البربرية فيقول : « وتعريب البربرية كما تعرب البربر انفسم مع ذلك ، فيتألف نحو ثلث البربرية التي يتكلم بها سكان منطقة القبائل

---

(١) انظرها في كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١١٧ ط القاهرة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م ووفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٧٧ ط بولاق ١٢٩٩ هـ .

الكبرى - الزواوية بالجزائر - من كلمات عربية ، فأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة اخرى مقدار تأثير العرب المظيم الذي لم يكتب مثله لأية امة اخرى ، ومن هذه الامم الاغريق والرومان الذين دام سلطانهم في شمال افريقية دوام سلطان العرب من غير ان يتفق للغتهم اي اثر في اللغة البربرية »[1] .

وتوضح اسباب هذا التعرب والتعريب وتشرح السر المكتوم في ذلك بجلد الدكتور « فيليب حتي » يقول : ان سواد البربر الذين كانوا يسكنون بعيداً عن الشاطىء لم يتأثروا بالحضارة الرومانية او البيزنطية لانها حضارة غريبة عن اولئك الافريقيين الرحل ، وان الاسلام قد امتاز بطبائع اجتذاب البربر ، وان العرب وثقوا صلاتهم بأبناء عمومتهم فتحققت معجزة الاسلام في استعراب اللغة البربرية وتحويل البربر الى دين الاسلام وان دم العرب وجد مجاري بشرية « Ethnic » جديدة صالحة لتغذيته كما وجدت اللغة العربية حقلاً واسعاً للامتداد وتمكين الاسلام من قواعد جديدة تعينه على الصعود الى سيادة العالم[2] .

وكان مما عمل على تثبيت قدم العروبة في البربر ما انتشر بينهم من طوائف الجند العربي واختلاطهم بالوافدين عليهم من عرب المدنية وعرب الشام لغزو الاندلس ؛ وما بثه الامراء في القبائل من معلمي القرآن والفقه . فقد حكى الدباغ في معالمه عن عياث بن شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد ارخاها من خلفه[3] . فاذا علمنا ان سفيان بن وهب هذا دخل افريقية سنة ٧٨ هـ عرفنا ان الكتاتيب كانت قائمة قبل ذلك التاريخ بالقيروان ؛ ولا تنس

---

(١) حضارة العرب ص ٣٠٥ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م

(٢) محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ١٣٨ — ١٤٤ ودائرة المعارف الاسلامية مادة : بربر

(٣) معالم الايمان ج ١ ص ١٢٠ ط تونس ١٣٣٠ هـ

كذلك ما كان للبعثة العلمية التي بعث بها عمر بن عبد العزيز الى افريقية من الاثر الحسن في نشر العروبة وخدمة الاسلام بين البربر . قال بيروني : احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم واخلاقهم ؛ ويوجه ذلك بعضهم بأن العرب والفنيقيين متقاربون في اللغة ، ومتحدرون في الاصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع .

وقد سار استعراب البربر قدماً خطوات جبارة وتم الاستعراب هذا فيما بعد في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بقدوم بني هلال ، ولذلك فان المتوفرين على دراسة تاريخ البربر يقرون انهم ما زالت سلالتهم هي العنصر الغالب في شمال افريقية ولكنهم تغيروا تغييراً عظيماً لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم في اغلب الاحيان ، فهم لم يعودوا يذكرون شيئاً عن اصلهم الحقيقي او لغتهم او عاداتهم .

ومهما كان الامر فقد لاقى العرب الامرين في فتح بلاد البربر واعترتهم في ذلك مصاعب ومشاكل عديدة لا نظير لها فيما فتحوا من سائر الاقطار ، فلم يتورع البربر عن مقاتلة العرب والاستبسال في مقاومتهم ولقد استردوا استقلالهم مرات ، وخاض العرب معهم معارك هائلة ، ولم يقدر لهؤلاء الفاتحين تمام الانتصار والسيادة على شمال افريقية الا بعد نصف قرن من تاريخ الفتح .

النظام والادارة

قضى المغرب مدة وجيزة من الزمن تابعاً في ادارته لولاية مصر الى ان تولاه معاوية بن حديج فأصبح ولاية مستقلة ملحقة رأساً بدار الخلافة .

وفي ولاية حسان بن النعمان اختطت الخطط والتراتيب والنظم السياسية والادارية ، فهو الذي دون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقية وعلى من اقام معهم على دين النصرانية ، فكأن العرب اعتبروا الاراضي التي كانت للروم فتحت عنوة فاستحلوها واعتبروا اهلها

ومن وجدوه عليها موالي لهم يتصرفون في شؤونهم كما يريدون ؛ في حين اعتبروا الاراضي التي كانت للبربر مفتوحة صلحاً فتركوها في ايدي اصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر انفسهم احراراً لهم ما للعرب من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات ؛ فكان حسان يعاملهم على قاعدة المساواة التامة ليس هناك شعب حاكم وآخر محكوم فالكل امام القانون الاسلامي سواء ؛ فالاحكام تجري بينهم بالعدل والاحسان ، ويظهر ان منصب القضاء كان للخليفة وحده فهو الذي يعين القاضي كما ثبت عن عمر بن عبد العزيز فانه هو الذي اختار لقضاء افريقية عبد الله بن المغيرة بن بردة الكناني .

ولم يقتصر حسان في نظام الجندية على الجيش العربي فقط ، بل اشترك فيه البربر ايضاً ، فضم اليه منهم اثني عشر الفاً واتخذ منهم طائفة بمثابة الحرس المتنقل تتجول في اقطار المغرب لبسط الامن العام ، على انهم لا يفارقونه جميعاً في مواطن الجهاد ، وكانت لهم ارزاق ومنح غير ما يصيبونه في الحروب ؛ وكان الوالي يومئذ مكلفاً باعطاء الجند والعمال من مال الجباية وما يفيئه الله عليه من الغنائم ، وتؤكد التواريخ العربية على ان ولدي الكاهنة نالا الولاية على قومهما في ادارة حسان بعد اسلامهما ، فكان احدهما رئيساً مدنياً على قبيلة جراوة والآخر على الجيش ، وبذلك وضع حسان اساس الحكومة الاسلامية بهذه البلاد وجعل خططها الفرعية للبربر ، كما اشتغل بانشاء ميناء بحري جديد تشرف منه ولاية المغرب على البحر الابيض المتوسط فاختط محرس تونس واستخدم الاهالي في صناعة الخشب لانشاء المراكب ، وجاء بألف عائلة مصرية تحسن الصناعات فأسكنها هنالك واسس لهم دار الصناعة بتونس فكانت هذه اول دار اسست للصناعة في الاسلام ؛ وفيها صنع بعد ذلك بأمر موسى بن نصير مائة مركب ؛ وظلت العملة الرومية رائجة بين المتعاملين في افريقية الى ان ضرب موسى بن نصير نقوده بها سنة ٩٢ هـ - ٧١٠ م وبهذا كانت السياسة الاسلامية في افريقية اساساً لهذا التطور العظيم في تاريخ هذه البلاد ، فلم تعد شريطاً ساحلياً يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين ، وفيما يلي ذلك « اهال » متوحشون على درجة

يسيرة جداً من الرقي ، وانما اصبحت بلاداً واحدة يسكنها شعب مسلم قوي متحضر ينشىء الدولة ويساهم في العلم والحضارة الانسانية بنصيب مشكور [1].

رفاهية افريقية

اننا اذا نظرنا الى ما قيل عن افريقية وبلاد المغرب كلها يومئذ من انها كانت ظلًا واحداً من برقة الى طانجة : قرى متصلة ومدائن منتظمة ، وما قيل ايضاً عن قرى الزاب وخده من انها كانت تبلغ ثلاثمائة وستين قرية كلها آهلة عامرة ؛ والى ما صالح عليه الولاة اهل البلاد من تلك الاموال الطائلة والقناطر المقنطرة مـــن الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث [2] وما ظفر به الغزاة من عظم الغنيمة ، والى مسبي طبنة – بريكة – الذي بلغ عشرين الفاً يوم فتحها موسى بن نصير وما استصحبه معهم القادة والامراء الى الخلفاء من الهدايا والتحف النفيسة ... جزمنا بخصب هذه البلاد ورفاهيتها وسعة رزقها ...

فلقد اهدى حسان الى امير مصر وهو يومئذ عبد العزيز بن مروان مائتي جارية من ابناء ملوك الروم والبربر وجمالاً وخيلًا وامتعة ووصائف ووصفان . وذهب الى الخليفة الوليد بشيء كثير من الذهب والفضة والجواهر واليواقيت فاستعظمه الوليد وعجب من امره ؛ وقد بلغ سهم الفارس يومئذ ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل الفاً الخ ...

وروى مالك – الامام – عن يحيى بن سعيد عامل عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية قال :

« بعثني عمر على صدقات افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم

---

(١) انظر فتح العرب للمغرب ص ٢٧٨ .

(٢) يذكر انه لما اصاب عبدالله بن سعد بن ابي سرح من تلك الاموال الطائلة التي صالح عليها اهل المغرب ؛ كان هنالك من العرب من اظهر العجب والدهش من كثرة هذا المال ووفرة الغنيمة ! ... وحينئذ تقدم اليه اهلي يحمل في يده زيتونة ، يرمز بذلك الى انهم حصلوا على هذه الثروة من فلاحة الزيتون .

فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، فقد اغنى عمر بن عبد العزيز النـــاس » .

فكل هذه دلائل ناطقة على عظمة ثروة البلاد ويسارها ، وليس من التناقض ما قدمه عبد الرحمن بن حبيب للخليفة العباسي المنصور بعد ذلك من هدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل واعتذر له عن ضعف هديته بأن المغرب اليوم بلاد اسلامية لا سبي فيها ؛ فلعل ذلك كان في ظروف خاصة احاطت بالبلاد لقحط او جدب او لنظرة سياسية هنالك ؟ ...

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر ولاة الجزائر وزعمائها في هذا العصر زعيم مغراوة ورئيسها العظيم صولات بن وزمار بن صقلاب ، وقبيلته من اشهر القبائل البربرية العتيدة المتفرعة من زناتة ، وموطنها بشمال وانشريس ووادي شلف الى البحر ، وينتهي شرقاً الى وادي السبت قرب متيجة ، وغرباً الى البطحاء بناحية نهر مينة من عمالة الجزائر ، ومن بلادها بالجزائر : الاغواط والحضنة وريغة .

وفد هذا الرئيس الجزائري الجليل على الخليفة عثمان بن عفان واسلم على يده وقيل كانت وفادته على الخليفة صحبة عبدالله بن سعد بن ابي سرح ، وعقد له الخليفة على قومه وابقاه رئيساً عليهم ؛ قال ابن خلدون : فاختص صولات وسائر الاحياء من مغراوة بولاء عثمان واهل بيته من بني امية ، وكانوا خالصة لهم دون غيرهم من سائر قريش ، وذلك ما كان سبباً في مظاهرة هذه القبيلة للدعوة المروانية بالاندلس بعد ذلك ، رعياً لهذا الولاء .

استمر صولات على رئاسته الى وفاته فورثها عنه ولده حفص فكان من اعظم ملوك زناته ، ثم خلفه من بعده ابنه خزر فاشتهر ملك مغراوة على عهده وعرف بعد ذلك ملوكهم ببني خزر الى ان قضى عليهم المرابطون سنة ٤٧٣ هـ — ١٠٨٠ م . ومن مشاهير رجال صنهاجة يومئذ ميسون بن جميل بن أخت طارق بن زياد النفزاوي صاحب فتح الاندلس .

ملوك الوطن الجزائري

ستردید ـ كسيلة

لم اقف في هذا الدور من تاريخ الجزائر على كثير من اسماء الملوك سوى اربعة : صولاة ملك مغراوة ، والكاهنة ملكة جراوة ؛ وستردید ، وكسيلة [1] ؛ يقول ابن خلدون : وكانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح ، اوربة واهوارة وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفزاوة البتر وكان التقدم لعهد الفتح لاوربة هؤلاء بما كانوا اكثر عدداً واشد بأساً وقوة ، وكان اميرهم بين يدي الفتح : ستردید ابن رومي أو زوغي ؟ ... بن بارزت بن برزيات ؛ ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة وادرك الفتح الاسلامي ومات سنة احدى وسبعين هجرية [2] وولي عليهم كسيلة بن لمرم وفي الاستبصار : أقدم اولمزم ، اولزم ؟ ... الاوربي فكان اميراً على

---

(١) ضبطه ابن الاثير بفتح الكاف وكسر السين المهملة ، انظر اسد الغابة ج ٣ ص ٣٢١ ط القاهرة ١٢٨٠ هـ .

(٢) يذهب فورناي Fournel الى ان ابن خلدون اراد ان يقول سنة ٥١ هـ فأخطأ النساخ ورسموه ٧١ هـ ، ورجحه حسين مؤنس فقال : وهذا تعليل معقول لان الحوادث تستقيم به .

البرانس كلهم [1] وكلاهما كان على دين النصرانية فأسلما لاول الفتح ثم ارتدا عند ولاية ابي المهاجر واجتمع اليهما البرانس ، وزحف اليهم ابو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيلة فاسلم واستبقاه ثم جاء عقبة بعد ابي المهاجر فنكبه غيضاً على صحابته لابي المهاجر ، ثم استفتح حصون الفرنجة ... وقفل راجعاً وكسيلة اثناء هذا كله في اعتقاله بجمعه معه في عسكره سائر غزواته ، فلما قفل من السوس سرح العساكر الى القيروان حتى بقي في خف من الجنود ، وتراسل كسيلة وقومه فارسلوا له شهودا او انتهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه وملك افريقية خمس سنين ونزل القيروان واعطى الامان لمن بقي بها ممن تخلف من العرب اهل الذراري والاثقال وعظم سلطانه على البربر [2] .

وذهب ماسكرى الى ان كسيلة كان واسع الملك ، وان ملكه امتد الى الاوراس والى ما يليها غرباً ؛ باضافة الجزء الجنوبي من قسنطينة والجانب الاكبر من تونس ومعلوم ان مركز قوته الحربية ايام الفتح كان المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت ووهران ؛ وكانت وفاته في واقعة ممس Memsa — جنوب القيروان قتله زهير بن قيس البلوى سنة ٧٠ هـ — ٦٨٩ م ؟ ...

(١) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ — ١٠٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

امراء افريقية وحكامها

الامويون

	تاريخ التولية
زهير بن قيس البلوى	٦٩ هـ — ٦٨٨ م
حسان بن النعمان	٧٣ هـ — ٦٩٢ م
موسى بن نصير [١]	٨٦ هـ — ٧٠٥ م

(١) وهو الذي تم على يده فتح بلاد هوارة وكتامة وصنهاجة ومجانة من بلاد الجزائر وغيرها من بلاد المغرب والاندلس .

الخلفاء الامويون

	تاريخ التولية
مروان بن الحكم	٦٤ هـ — ٦٧٣ م
عبد الملك بن مروان	٦٥ هـ — ٦٨٥ م
الوليد بن عبد الملك	٨٦ هـ — ٧٠٥ م

من مشاهير الجزائر

الكاهنة

٨٢ هـ ـ ٧٠١ م

هي ملكة بربرية اسمها دهيا بنت تابتت بن تيفان ، كانت زوجاً لرجل من رؤساء قبيلة جراوة احدى قبائل البتر العظيمة المقيمة بجبل « اوراس » جنوب قسنطينة ، وينتهي نسب هذه الملكة الى جد هذه القبيلة المسماة باسمه « جراو » وقد كانت الكثرة والرئاسة في هذا القبيل قبل الاسلام. كانت هذه المرأة البربرية الزعيمة مقيمة بعاصمتها « تيسدروس » قرب خنشلة ولها ابنان احدهما بربري والآخر يوناني كما حدثنا بذلك ابن عذاري [1] ، وكانت تدعي الاطلاع على أحوال الغيب والتكهن للناس فعرفت بذلك في قومها واشتهرت يومئذ بلقب « الكاهنة » ويقال انه كان لها صنم عظيم من الخشب يحمل بين يديها على جمل ، وهناك من المؤرخين من يقول انها كانت على دين اليهودية ؟ ... واستبدت بالملك بعد زوجها فتملكت كما يقول ابن خلدون خمساً وعشرين سنة ، وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة ، ويقال ان قتل عقبة كان بايعاز وتدبير منها . وهي التي هزمت حسان بن النعمان في غزواته الاولى فتقهقر الى برقة ، وأسرت طائفة من جنده فتبنت منهم خالد بن يزيد القيسي وأطلقت البقية وعملت يومئذ

---

(١) انظر البيان المغرب ج ١ ص ٢١

على تخريب افريقية وهدم البلاد والحصون تثبيطاً لعزائم العرب عن الفتح حتى لا يجدون ملجأ او مدخلاً ، لعلهم اليه يرجعون ؟ ... ولكن العرب استمروا رابضين بطرابلس ينتظرون المدد من دار الخلافة حتى جاءتهم النجدة فحملوا على البلاد فاقتحموها واشتد الخناق يومئذ على الكاهنة وانفت ان تسلم نفسها لحسان ووجدت ذلك عاراً عليها ، وربما خشيت ان يأسرها العرب فيحملونها معهم سبية الى دمشق ففضلت ان تستأمن لولديها عند حسان وان تظل هي - ومن بقي على الولاء لها - على حرب العرب فاستقدمت خالد بن يزيد وقالت له انما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم فأوصيك بأخويك هذين خيراً فقال خالد : اني أخاف ان كان ما تقولين حقاً ! ان لا يستبقيا ؟ ... قالت بلى : ويكون احدهما عند العرب أعظم شأناً من اليوم ، فانطلق فخذ لهما أماناً ؛ وانطلق خالد الى حسان فأخبره خبرها وأخذ لابنيها أماناً ، وكان مع حسان جماعة من البربر البتر فولى عليهم الاكبر من ابني الكاهنة- وقربه [1] . وتقول المصادر انها اطلعت بطريق الكهانة على انها مقتولة فأخبرت خالداً بذلك ، فقال لها : اذاً فارحلي وخلي البلاد ! ... فقالت : وكيف أفر وأنا ملكة ؟ ... والملوك لا تفر من الموت فأقلد قومي عاراً الى آخر الدهر . ولا عجب في هذا الموقف الحازم الذي أخذته الكاهنة على نفسها وظهرت به في ميدان الكفاح والبطولة والدفاع عن الوطن فانها الملكة وهي التي تعرف حق المعرفة تاريخ المرأة البربرية ومواقفها الحاسمة في التاريخ ، وقد رأينا ما أحرزته البطلة البربرية « سيرة » من الانتصار حينما وقفت في وجه الكونت « تيبدوس » الروماني بعد وفاة أخيها « فيرموس » ملك موريطانيا القيصرية وما باء به هذا القائد الروماني من الخيبة والهزيمة الشنعاء التي حصلت له بالقرب من ناحية « أورزيا » سور الغزلان سنة ٣٧٥ م . وهكذا استمرت هذه الملكة الصنديدة الجزائرية على كفاحها حتى دخل عليها حسان الحصن ففرت أمامه الى حيث أدركها حسان

---

(١) راجع فتوح افريقية ص ٢٠١ والبيان المغرب ج ١ ص ٢٢ و ٢٣

فقتلها بمكان السر المعروف بجبل اوراس عند بئر العطر التي سميت بعد ذلك ببئر الكاهنة ويقال انها قتلت بطبرقة ؟... بحدود الجزائر الشمالية الشرقية ؛ وذلك في رمضان سنة ٨٢ هـ - ٧٠١ م وبموتها تم فتح العرب المغرب - وخاصة الجزائر - وقد كان فتحاً لا كالفتوح السياسية والانتصارات الحربية العامة بل هو فتح من فتوح الحضارة الشرقية بما فيها من مادة وروح ؛ ذلك لان الاسلام ليس هو مجموعة من طقوس أو عبادات وقرب يتقرب بها الانسان الى مولاه فحسب انما هو فوق ذلك مجموع من قواعد ونظم سياسية واجتماعية يستطيع الناس ان يعيشوا بمقتضاها ؛ فالمؤمن لا يجد في الاسلام حلاً لمسألة الآخرة فقط بل وسبيلاً للعيش في الدنيا سيداً أيضاً .

وفي تحقيق ما ذهبنا اليه من هذا المعنى يقرر الدكتور غوستاف لوبون ويقول : « ... فاذا حدث ان اعتنق بعض اقوام النصرانية الاسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين بما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ... فالحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم[1] » . ويقول المؤرخ (فون جوت شميت) : ان الاقبال الهام على اعتناق دين جديد على اثر فتح أجنبي أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم ، ولكن الاسلام يقف وحيداً في هذا الفوز .

---

(١) حضارة العرب ص ١٥

جدول تاريخي

٦٩ ـ ٨٢ هـ

٦٨٨ ـ ٧٠١ م

تاريخ الحوادث	أهم الاحداث بالجزائر على عهد الفتح الاسلامي
٦٥ هـ = ٦٨٤ م	انسحاب زهير بن قيس الى برقة واخلاء افريقية .
٦٩ هـ = ٦٨٨ م	انتصار زهير بن قيس في حملته على كسيلة وقتله .
٧٠ هـ = ٦٨٩ م	وقعة ممس بجنوب القيروان .
٧١ هـ = ٦٩٠ م	مقتل زهير في برقة .
٧٦ هـ = ٦٩٥ م	مسير حسان بن النعمان الى افريقية وانتصاره على الروم بقرطاجنة .
٧٧ هـ = ٦٩٦ م	واقعة نيني ـ وادي مسكيانة ـ وارتداد حسان عن افريقية .
٨٠ هـ = ٦٩٩ م	الكاهنة تخرب افريقية .
٨١ هـ = ٧٠٠ م	مسير حسان الثاني الى افريقية .
٨٢ هـ = ٧٠١ م	انتصار حسان على الكاهنة وقتلها (رمضان ـ اكتوبر) .

الخوارج بأفريقية

١٢٢ ـ ١٥٧ هـ

٧٤٠ ـ ٧٧٤ م

الخوارج في التاريخ اسم لطائفة او طوائف كانت بايعت علي بن ابي طالب بالخلافة ثم خرجت عنه ونقضت بيعتها في قضية التحكيم المشهورة ؛ وهي في مبايعتها هذه كانت ترمي الى غرضين : فمنها من بايع الامام لكونه يراه احق بذلك من غيره يومئذ ، ومنهم من تقدم الى ذلك اعتزازاً به وبغضاً للعثمانيين الامويين ؛ وكثيراً ما سمع هذا الفريق الثاني من الخليفة اللعن منصباً على قتلة عثمان وحزبه لهم ؛ فكان ذلك من بواعث الحذر عند هؤلاء خشية اتفاق الكلمة بين الحزبين فعملوا جهدهم على توسيع شقة الخلاف بين معاوية وعلي، رضي الله عنهما ، وكان ذلك سبباً في موقعة الجمل المشهورة (١٠ جمادى الثانية ٣٦ هـ ـ ديسامبر ٦٥٦ م) وهم الذين ايضاً حملوا علياً على قبول التحكيم والنزول عنده (الجمعة ١٠ صفر ٣٧ هـ ٢٩ جوليط ٦٥٧ م) ثم عملوا على نقض ذلك وحاولوا علياً في رفضه ودعوه الى اعلان ذلك بنفسه فامتنع كرم الله وجهه من مجاراتهم على هذا التلاعب الذي لم يظهر له وجه معقول ، وحينئذ سخط عليه القوم واعلنوا خروجهم عن طاعته والانعزال عن الجماعة ، ثم عاد فريق منهم الى الطاعة واصر آخرون على الخلاف والمعصية ، وغادر الفريق الثاني الكوفة وهي يومئذ مركز الخلافة العلوية وسكن بظاهر قرية قريبة منها تعرف بحروراء ؛ وكل ذلك وعلي يعمل على رفع الخلاف وجمع الشمل فبعث

اليهم رسله بذلك فقتلوهم وتجاهروا بالعصيان ، وبعدما انذر الخليفة واعذر حمل على اهل النهروان فأتى عليهم قتلاً ؛ ويومئذ تكونت بذرة الخارجية في الاسلام واصبحت بعد ذلك فكرة مستقلة ومبدأً سياسياً خاصاً ، ثم تطورت الى عقيدة دينية وطريقة متبعة ، ثم كانت مذهباً مدوناً باصوله وفروعه عقيدة وفقها ؛ ثم نشأت عنه فرق كثيرة بلغت الى حد العشرين فرقة وكلها تنطوي تحت اسم الخوارج ؛ والى اتجاه هؤلاء الخوارج وتعاليمهم السياسية يرجع السبب الاكبر في ثورات البربر التي عمت المغرب العربي يومئذ او كادت .

الحركات الخارجية بالمغرب

كانت منازعات الاحزاب السياسية بالمشرق على اشدها طوال العصر الاموي ، وعصفت برجال الدولة ثارات العصبية ، فكثر الاضطهاد وتعددت الخصومات ، وكان للامويين طائفة عظيمة من الاعداء السياسيين لا يكفون عن الشغب ولا يكف الامويون عن تعقبهم بالاذى ، فكثر فرار هؤلاء من البلاد والتماسهم الامان في ناحية بعيدة عن مركز الدولة ، وكان المغرب من النواحي التي كثر التماس هؤلاء الفارين للامان فيها لاتساعها وتشعب مسالكها وكثرة قبائلها ، وكان الكثير من هذه القبائل ينطوي على السخط على العمال لما يصيبها من الاذى على ايديهم فكانت ترحب بهؤلاء اللاجئين لانهم واياها على هوى واحد ، ولهذا كثر وفودهم على المغرب والتجاؤهم الى قبائله [1] .

ولقد حاول البربر التماس سناد لهم يتقون به السلطة العربية فلم يجدوا لهم خيراً من الاخذ بدعوة الخوارج التي ينص دستورها على عدم اشتراط القرشية في الخلافة ، وبقوا ينتظرون الفرصة لذلك حتى سنحت لهم على عهد امير افريقية عبد الله بن الحبحاب الذي كان وقتئذ مهتماً ومشتغلاً بتجهيز جيش الفتح الى صقلية ؛ فاندفع البربر يومئذ نحو تكوين

(١) انظر فتح العرب للمغرب ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .

دولة لهم مستقلة عن الحكومة المركزية ، فانتحلوا مذهب الصفرية والاباضية [1] من الخوارج وترقبوا خروج الجيش العربي وسنوح الفرصة فاتفق يوماً ان شخص الجند الى مدينة ضبنه عاصمة الزاب (غربي اوراس) ، فنهض البربر في نحو الاربعين الفاً من الصفرية وخمسة وعشرين الفاً من الاباضية ملتفين حول رئيسهم ميسرة المطغري [2] الصفري الخارجي ، واوقدوا ثوراتهم بالمغرب الاقصى فاحتلوا طنجة وعزلوا عنها عاملها يومئذ عمر بن عبدالله المرادي وبايعوا بها صاحبهم ميسرة خليفة سنة ١٢٢ هـ — ٧٤٠ م فكان هذا اول من دعي باسم الخلافة بالمغرب من البربر ثم انقلبوا عليه فقتلوه وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي ؛ فقام هذا بشأنهم وزحف بهم فيما بين المغربين : الاوسط والاقصى ، وجاءت عساكر الامير ابن الحبحاب لرد هجمات البربر والتقى الجمعان بوادي شلف فانهزم فيها الجند العربي وقتل قائده يومئذ خالد بن حبيب وهي الواقعة المشهورة بواقعة الاشراف (١١٤ هـ — ٧٣٢ م) .

وفي سنة ١٢٣ هـ — ٧٤١ م تذمرت الرعية من عسف الامير كلثوم بن عياض حيث كان يعاملها معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين قائمين بجميع الواجبات ، مؤتسياً في ذلك بسابقه :

---

(١) كلاهما من اشهر واكبر فرق الخوارج الستة ، فالصفرية هم اتباع زياد بن الاصفر ، وقيل يعقوب بن ليثس الصفري نسبة الى صناعة الصفر — النحاس — ، وقيل هم اتباع عبدالله بن صفار السعدي وهو احد بني مقاعس الحارث بن عمرو ، وقيل عبدالله بن صفار من بني صويمر بن مقاعس ؛ وزعم بعضهم ان الصفرية بكسر الصاد؟ ... ويقال لهم الزيادية والنكارية . والاباضية هم اتباع عبدالله بن اباض — بكسر الهمزة — المقاعسي التميمي الصريمي وكان من غلات الحكمية ، توفي بجبل نفوسة كما ذكره ابن حوقل سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٨ م . ويقال انهم ينتسبون الى اباض — بضم الهمزة — وهي قرية بالعرض من ارض اليمامة لم يُرَ اطول من نخلها ، نزل بها نجد بن عامر الخارجي وتسمى بأمير المؤمنين .

(٢) ويقال ايضاً المدغري بالدال لا بالطاء نسبة الى المداغر الذين هم بأزاء ندرومة . وأما « مطغرة » هكذا بالطاء فهو اسم لمكانين او هما قبيلان اثنان أحدهما بعمل « تازا » والآخر من عمل « تلمسان » .

يزيد بن أبي مسلم ، وهو نفس عمل الحجاج بأهل العراق ، ويومئذ اشتكت الرعية امرها الى حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع المقيم يومئذ بتلمسان ، فكاتب هذا الى كلثوم ينهاه عن ذلك ويتهدده ، فبعث كلثوم بالاعتذار الى حبيب تصنعاً ؛ ثم زحف بجنوده على تلمسان فقاتل حبيباً ... وهكذا وجد رسل الخوارج المقبلون من المشرق واكثرهم من المنهزمين في حروب العصيات امام المروانيين ، مرتعاً خصباً لبذر تعاليمهم حيث كانت النفوس مستعدة للثورة ، فحرضوا البربر على الخروج عن الخليفة الاموي وحركوهم لرفع راية العصيان ، حتى اذا تقدم البربر الى الخليفة بالشكوى فلم يستجب لهم ولم يسمح لهم حتى بالمثول امامه ، فاندلعت بافريقية حينئذ نيران الثورة من كل جهة ، وتوالت بعد ذلك الفتن وبقيادة هؤلاء الخوارج فدخلوا القيروان مراراً ؛ وهكذا حتى جاء حنظلة بن صفوان اميراً على افريقية سنة ١٢٤ هـ - ٧٤٢ م فحارب الخوارج واجلاهم وشرد جموعهم في مقتلة عظيمة بلغ عدد القتلى بها ١٨٠،٠٠٠ قتيل ، قيل انه ما علم في الارض مقتلة كانت اعظم منها ، وانتشرت الفوضى والاضرابات فعمت المغرب كله من اقصاه الى اقصاه .

ويومئذ ظهر الفهريون احفاد عقبة بن نافع على مسرح تاريخ المغرب منهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي غزا تلمسان سنة ١٣٥ هـ - ٧٥٢ م وظفر بالبربر ودوخ افريقية كلها وذلل من بها من القبائل البربرية ؛ واستبد هؤلاء الفهريون بالادارة فانكشف ضعفهم وظهر عجزهم امام الخوارج الذين تغطرسوا على الحكومة العربية الى ان جهز لهم الخليفة ابو جعفر المنصور جيشاً يشتمل على خمسين الف جندي موزعاً تحت رعاية ثمانية وعشرين رجلاً من خيرة القادة والرؤساء والكل تحت امرة واشراف القائد الاعلى محمد بن الاشعث امير مصر : فجاءت الجنود الى افريقية صيف سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م فقضت اولاً على ريح الثوار بطرابلس ومات يومئذ قائد الثوار ابو الخطاب بن السمح الاباضي في شهر صفر - ماي - ، فظن ابن الاشعث بذلك انه قد قضى على الفتنة بقتل ابي الخطاب ، وان الخوارج سينتهون عن خطتهم ويعودون الى الطاعة ، وسرعان ما

علم ان هناك ستة عشر الف ثائر تنتظر امر رئيسها ابي هريرة الزناتي ، فتقدم الى هؤلاء فقاتلهم في شهر ربيع الاول ، صيف سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م وتغلب عليهم فدخل القيروان عاصمة الامارة فجدد سورها واتمه في سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م وما كاد يستقر على عرشها حتى نهض بعض النداد والشراد الى مقاومة جيش الامارة العربية تحت قيادة احد منهم يدعى هاشم بن الشاحج فهزموا جند الامير وتفرقوا في البلاد وذهب رئيسهم الى تاهرت وقد كان معه من الاتباع نحو العشرين الفاً ، ومنها ذهب الى تهودة بالزاب الجزائري وهنالك قهرتهم الجنود العربية فاندحروا منهزمين ، وما كاد الامير يستريح من هذه الفتنة القائمة حتى فاجأه ثائر آخر من الجند يدعى عيسى بن عجلان الخراساني ومعه طائفة من القادة العصاة فشنوا على الامارة العربية حرباً عواناً اعجزت ابن الاشعث عن المقاومة حيث تكاثرت ضده الوقائع والفتن ، وكان هو في اقلية من الحامية والعساكر بسبب كثرة من مات منهم في تلك الحروب ، وحينئذ خرج ابن الاشعث من المغرب عائداً الى ولايته ومنصبه بمصر ؛ وكان على ولاية الزاب يومئذ الاغلب بن سالم التميمي فعينه الخليفة اميراً على افريقية ؛ فخرج يومئذ من دار عمالته طبنة ، وذهب الى القيروان ، وذلك في اواخر جمادى الثانية سنة ١٤٨ هـ - جوليط ٧٦٥ م وخلفه على الزاب يومئذ عمر بن حفص بن قبيصة المهلبي المعروف بهزار مرد وبأبي الدوانق مجدد مدينة طبنة (١٥١ هـ - ٧٦٨ م) .

ثورة ابي قرة بتلمسان

اتفق ان قبائل من البربر منهم مغيلة وبنو يفرن قد نقضوا بيعتهم ونهضوا بنواحي تلمسان فخرجوا عن الطاعة وبايعوا صاحبهم زعيم زناتة ابا قرة اليفرني او المغيلي أصح الصفري [١] بايعوه بالخلافة سنة ١٤٨ هـ - ٧٥٧ م وثارت الحرب ضد الحكومة العربية فنهض اليهم الامير الاغلب

---

(١) وهو الذي نزل عليه صقر قريش عبد الرحمن الداخل مقدمه من الشرق واختفى عنده .

بن سالم فشتت شملهم من غير قتال ، ثم كانت الهزائم والحروب بينهم سجالاً ، ومات الاغلب فيها في شهر شعبان سنة ١٥٠ هـ - سبطمبر ٧٦٧ م .
فخلفه على الامارة ايضاً عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزار مرد والمشهور بأبي الدوانق . وكانت بداية تاريخ امارته في صفر ١٥١ هـ - فيفرلي ٧٦٨ م .
وبعد ثلاث سنوات وأشهر من امارته أمر من طرف الخلافة بالمسير الى مدينة طبنة عاصمة الزاب الجزائري لتجديد بنائها وترميمها ؛ وقد بلغ سبيها يومئذ عشرين الفاً ، فخرج عمر من القيروان واستخلف عليها حبيب بن حبيب المهلبي . وبينما الامير منكباً على عمله في تعمير طبنة اذ انتفض عليه المغرب كله وجاءته الجموع الثائرة من كل جانب فاحاطت بالزاب وخاصة حيث الامير بطبنة ؛ وبلغ عدد جند الثورة يومئذ واحداً وسبعين الفاً ، فكان مع ابي قرة منهم اربعون الفاً ، ومع عبد الرحمن بن رستم خمسة عشر الفاً ، ومع عاصم السدراتي ستة آلاف ، ومع المسعود الزناتي عشرة آلاف فارس ، وغيرهم من الاتباع كثير ، ولما تحقق الامير منهم الخطر عزم على محاربتهم والخروج اليهم بنفسه فمنعه الخاصة من اهل مشورته وقالوا له : اخرج منا من اردت الى عدوك ولا تبرح مكانك من طبنة ، فانك ان اصبت تلف المغرب وفسد ، وحينئذ لجأ الى الحيلة والدهاء واهتدى الى انقاذ الموقف بتقديم الاموال والحلل الفاخرة والهدايا الثمينة الى كل من ابي قرة وأخيه فصانعهما بذلك ، فعملا حينئذ على سحب الجنود من يومها ، ثم لحقتهم جيوش الامير بتهودة فقضت على فئة عبد الرحمن بن رستم وهزمته الى تيهرت .

ويومئذ اخذ امر الخوارج في الضعف والانحلال واستمرت الوقائع تتكرر وتتجدد بين الخوارج والحكومة العربية ما بين مد وجزر الى ان قضى عليهم الامير يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٥٧ هـ - ٧٧٤ م فاستكانوا حينئذ للغلب واطاعوا للدين ؛ وقد بلغت وقائعهم نحو ثلاثمائة وخمس وسبعين وقعة في مدة لا تزيد عن خمس وثلاثين سنة ؛ ويذكر عن المنصور العباس انه انفق في محاربة الخوارج بأفريقية ٦٣٠٠٠٠٠٠ درهماً وذلك لسنة واحدة فقط (١٥٤ هـ = ٧٧١ م) وكل هذه الوقائع نشأت كما ذكرنا آنفاً عما

جبلت عليه اخلاق البربر وما تركز في غريزتهم من حب الحرية الى حد الفوضى وكراهية السلطة عليهم كيفما كان نوعها ، وما تهدف اليه عقيدة الخوارج من وجوب القيام على الحكومات الوراثية ، وكان الحافز الاكبر في ذلك ما كان عليه بعض ولاة المغرب يومئذ من العسف والجور ، فهذا ما دفع باهل المغرب الى احضان الدعوة الخارجية .

امارات الخوارج بالجزائر

كانت الحركة الخارجية بالمغرب عاملاً قوياً في استقلال بعض القبائل الجزائرية تحت امارات اباضية ، فمنها امارة بني مسرة وهم فخذ من زناته ، وعاصمتهم « اوزكا » بنواحي سعيدة بعمالة وهران على ثلاث مراحل بجنوب تيهرت ورئيسهم عبد الرحمن بن اودموت بن سنان ثم تنقلت الرئاسة في منيه من بعده . وامارة بني دمر بنواحي قصر البخاري من عمالة الجزائر وعاصمتهم فيها « تيمطلاس » ورئيسهم مصادف بن جرتيل ، كان بين حصنه وبلد متيجة مسير ثلاثة ايام مما يلي البحر ، وامارة هوارة بنواحي وادي شلف حوالي نهر مينة شرقاً ومدينة سيق غرباً من عمالة وهران ، وعاصمتها « قلعة مغيلة دلول » على مسافة يومين من مستغانم - بتقديرهم وهو ما يبلغ نحو المائة كيلومتراً ؟ - ، وكانت رئاسة هؤلاء لرجل يقال له ابن مسالة الاباضي ، وهو مخالف للائمة الرستميين بتيهرت . ويذكر ابن خلدون ان الصفرية وهم من الخوارج ، هم الذين اختطوا مدينة « سجلماسة) تافيلالت سنة ١٤٠ هـ = ٧٥٧ م وانها فلاريب بانها كانت ضمن هذه الامارات .

المذاهب والعقائد

لا نشك ونحن في هذا الدور الاول من تاريخ الفتح الاسلامي للمغرب ، بأن المغرب يومئذ كان في تدينه بالاسلام متمسكاً به على طريق المذهبية او الدعوة السياسية في عقيدته او في عبادته ومعاملاته كلا ، بل نراه بعيداً عن ذلك كله حيث لم تكن حينئذ مدارس او آراء لهذه المذاهب مدروسة منظمة ولا مناهجها وقواعدها معروفة والكثير

منها كان منعدماً لم يكتب له وجود بعد ، فكانت العقيدة والعبادة والمعاملة وكل ما جاء به الصحابة والتابعون معهم لفتح هذه البلاد هو ما تلقنوه وسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حفظوه عن بعضهم بعض بمن شاهده منه من الاصحاب : من قول أو عمل أو تقرير ، ولم يكن معهم من تفسير القرآن الكريم إلا ما وعوه في صدورهم أو جمعوا عليه وعلاه فهمهم من تفسير الرسول أو فهم صحيح أوتيه أولو الفطنة والذكاء منهم من كثرة مدارستهم لاسلوب القرآن الكريم وملازمتهم للسنة وتفهمهم لكلام العرب أو ما ارتسم على صفحة قلوبهم من عمل أكابر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، فالعقيدة الاسلامية والقيام بجميع الواجبات الدينية كانت سائرة على الطريقة السلفية لاشائبة فيه لمنهج خاص او منحى من المناحي المختلفة التي انتهجها او اضطر للاخذ بها اهل المذاهب الاسلامية فيما بعد ، والدليل على ذلك من الشواهد كثيرة ومنها هذه البعثة العلمية المباركة المختارة من التابعين الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز الى المغرب لتثقيف اهله بالثقافة السنية وتلقين البربر قواعد هذا الدين كما جاء بها صاحبه صلى الله عليه وسلم ، فهي كما تراها ليلها كنهارها خالصة من كل شائبة تركيب او تعقيد او اشارة الى رأي او مبدإ خاص :

حدث عبد الاعلى بن عقبة الغفاري فقال : لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة ، جمع حنظلة علماء افريقية ، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية ليفقهوا اهلها في الدين ، منهم سعد بن مسعود وحبان بن ابي جبلة وطلق بن حابان وغيرهم فكتبوا له هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها وهي :

باسم الله الرحمن الرحيم

من حنظلة بن صفوان الى جميع اهل طنجة

اما بعد فان اهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قالوا : انه يرجع جميع ما انزل الله عزوجل الى عشر آيات: آمرة ، وزاجرة ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ، ومحكمة ، ومتشابهة ، وحلال ،

وحرام ، وامثال . فآمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكرة ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخبر الاولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال امر ان يوتى ، وحرام امر ان يجتنب ، وامثال واعظة . فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة واقذرته المنذرة ، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ، ونية صالحة ، فقد افلح وانجح وحيا حياة الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [1] .

وعن معاوية الصمادحي عن عبد الرحمن بن زياد قال : ان الخمر كانت عند اهل افريقية حلالا حتى بعث عمر بن عبد العزيز هؤلاء الفقهاء فعرفوا انها حرمت ، ثم ايضاً لما دخلت المسودة يعني الجند فشا ذكرها انها حرام [2] .

هكذا كان اهل هذا العصر في تدينهم بالاسلام من غير التفات الى راي او مذهب خاص . اذ لم تكن المذاهب اذ ذاك — بمعناها الاصطلاحي — معروفة ولا موجودة .

اللهم الا ما يذكر عن بعض من جره دعاة الاعتزال الى عقائدهم ، وهؤلاء لم يكن لهم كبير شان في اجراء قواعد هذا الدين بين الناس ، فقد روي عن واصل بن عطاء راس المعتزلة (٨٠ - ٨١/هـ = ٧٠٠ - ٧٩٧ م) انه بعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير ، وفي ذلك يقول صفوان الانصارى يمدح واصلا .

له خلف شعب الصين في كل ثغرة الى سوسها الاقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم تهكم جبار ولا كيد ماكر

اما عن شان الاديان الاخرى فقد تضاءل شانها امام الاسلام .

---

(١) رياض النفوس لابي بكر عبد الله المالكي ج ١ ص ٦٧ ط القاهرة ١٩٥١ م

(٢) طبقات علماء افريقية لابى العرب ج ١ ص ٢٠ - ٢١ ط باريس ١٩١٥ م

المجتمع المغربي

ان اعظم واجل مظهر برزت به افريقية العربية المسلمة في هذا العصر هو اتجاه شمالها الى الشرق في اقتباس حضارته ومدنيته ؛ فالى مركز الوحي كان التفاته في تصحيح عقائده وعباداته ؛ والى عواصم الشرق اللامعة كان اتجاهه في ثقافته العلمية الفنية ، لو لا ما نشأ يومئذ عن بعض الواردين عليه من المشرق من دعاة الحزبية والطائفية والسياسة المفرقة فحاد عن جادة الاسلام حتى كاد يكون ان لا اسلام ! ... فنشأت عن ذلك تلك الفتن والاضطرابات التي شملت المغرب العربي كله وكانت منها تلك الوقائع التي فصلناها فيما تقدم وكلها نشأت عن سوء التوجيه في نشر تعاليم الاسلام مع ما يمازجها من النزعات السياسية والمذهبية . وقد نشأ عن ذلك نفور في النفوس من اهل التأويل والاحتكام الى العقل من المشارقة ، فابتعدوا لذلك عن مذهب ابي حنيفة الذي اشتهر اهله بالرأي والقياس وتركوا فقهه ونبذوا عقائد المعتزلة نتيجة لما اصاب بلادهم وما تعرضت له من المتاعب بسبب اصحاب الآراء والتأويلات من دعاة الاراء والمتطرفة وتمسكوا بالكتاب والسنة تمسكاً شديداً حتى انهم رفضوا القياس والاجماع ؛ واقبلوا يومئذ على الاخذ بما جاءهم به من حضر مجالس مالك بن انس بالمدينة ممن قصد الحجاز من طلبة العلم الافارقة حيث علموا فيه التزام القرآن والحديث والابتعاد عن التأويل والقول بالرأي مع الاقتصاد في القياس ما امكن وان كان جل اعتماد امراء افريقية من العرب في هذه الفترة الى آخر عهد الاغالبة على العراقيين من فقهاء المذهب الحنفي ، وبذلك انقسم اهل المغرب الى قسمين ، فالحكام كانوا على مذهب اهل العراق ، والافريقيون وزعماؤهم من الفقهاء كانوا مالكية ، وقد شعر الحكام والامراء بهذه المعارضة القوية الخطرة التي يتزعمها اولئك الفقهاء . فبطشوا ببعضهم وقتلوا البعض الآخر ، فزاد ذلك من تقدير الناس اياهم ، ولم يصبحوا مجرد فقهاء ذوي دين وخلق متينين فحسب ؛ بل شهداء لقوا الاذى والحتوف ايضاً في سبيل العقيدة الصحيحة وفي سبيل الضعفاء والمظلومين من اهل البلاد ، وانتقلوا – بهذه الصفة المزدوجة – الى مقام الاولياء ، وارتبط في اذهان

الناس معنى الولي بصورة الزعيم القومي ، وهكذا نرى مبادىء العقيدة التي اشتهر بها اهل المغرب في الاولياء والصالحين ، ونستطيع ان نفسر تفاني المغاربة في سبيل الصالحين وكبار الفقهاء ، ذلك لان الولاية ارتبطت في اذهانهم بمعنى الدفاع عن الحق وحماية الرعية من الحكام الاجانب ، ومن هنا نضع ايدينا على عصب ثان من اعصاب التاريخ المغربي الاسلامي ، عصب الايمان في الزهاد والاولياء الذي ما زال ينبض حتى قامت بفضله الدول المغربية الاصلية ، وغير غريب في هذه الحالة ان نجد الذين وضعوا اسس دولتي المغرب الكبيرتين ـ المرابطين والموحدين ـ كانوا من الفقهاء المالكيين على وجه التحديد [1] ، وبذلك عم تقليد المذهب المالكي وصاحبه في سيرته ، وحتى في حياته الخاصة التي كان يعيشها الامام لنفسه ، سواء ذلك في مأكله ومشربه وملبسه وفي مشيته وحديثه الخ ... وبذلك نستطيع ان نقول ان حضارة المغرب العربي وتهذيبه كانا على يدي مالك كما ان تمدن الاندلس كان على يدي زرياب .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر من عرفه التاريخ من ولاة الجزائر في صدر الاسلام الاغلب بن سالم التميمي عامل طبنة ـ عاصمة الزاب الجزائري ـ قبل ولايته الامارة ؛ كما عرفنا المهنا بن المخارق الذي استخلفه عليها ايضاً عمر بن حفص سنة ١٥٤ هـ ـ ٧٧١ م ، وعاصم السدراتي ، والمنصور الزناتي ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري والفضل بن روح قبل امارته وهو آخر المهالبة بها ، فكل هؤلاء كان على ولاية طبنة ؛ وكان على ولاية تلمسان ابو قرة اليفرني ، وموسى بن ابي خالد مولي معاوية بن حديج ، عزله ابن الحبحاب وولى مكانه حبيب بن ابي عبيدة ، وكان على ولاية وطن زناتة بهذا المغرب الاوسط عبد الجبار بن قيس المرادي ، واميرورفجومة النفزاوية بجبل اوراس عاصم بن جميل الكاهن .

---

(١) راجع مقدمة حسين مونس لكتاب رياض النفوس ط القاهرة ١٩٥١ م .

امراء افريقية وحكامها

الامويون

	تاريخ التولية
عبد الله بن موسى بن نصير (اثناء تغيب والده بالاندلس) .	٩٥ هـ = ٧١٤ م
محمد بن يزيد ، مولى قريش[1] .	٩٦ هـ = ٧١٥ م
اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر دينار .	٩٩ هـ = ٧١٨ م
يزيد بن ابي مسلم دينار الثقفي .	١٠١ هـ = ٧٢٠ م
محمد بن اوس الانصاري .	١٠٢ هـ = ٧٢١ م
بشر بن صفوان الكلبي .	١٠٢ هـ = ٧٢١ م
عبيدة بن عبد الرحمن (بن ابي الاغر) السلمي (ربيع الاول – جوان)	١١٠ هـ = ٧٢٩ م
عبد الله بن الحبحاب الموصلي (ربيع الثاني – ماي)	١١٦ هـ = ٧٣٥ م
كلثوم بن عياض القيسي (القشيري) ؟ (رمضان – جوليط)	١٢٣ هـ = ٧٤١ م
حنظلة بن صفوان الكلبي (ربيع الثاني – فيفري)	١٢٤ هـ = ٧٤٢ م
عبد الرحمن بن حبيب الفهري .	١٢٧ هـ = ٧٤٥ م
الياس بن حبيب الفهري .	١٣٨ هـ = ٧٥٦ م

(١) كانت له عملة مضروبة باسمه .

الخلفاء الامويون

	تاريخ التولية
سليمان بن عبد الملك .	٩٦ هـ = ٧١٥ م
عمر بن عبد العزيز .	٩٩ هـ = ٧١٧ م
يزيد بن عبد الملك .	١٠١ هـ = ٧٢٠ م
هشام بن عبد الملك .	١٠٥ هـ = ٧٢٤ م
الوليد بن يزيد بن عبد الملك .	١٢٥ هـ = ٧٤٣ م
يزيد بن الوليد .	١٢٦ هـ = ٧٤٤ م
ابراهيم بن الوليد .	١٢٦ هـ = ٧٤٤ م
مروان بن محمد الجعدي .	١٢٧ هـ = ٧٤٤ م

امراء افريقية وحكامها

العباسيون

تاريخ التولية

حبيب بن عبد الرحمن (رجب – ديسامبر) . ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م
عاصم بن جميل الورفجومي (ثائر) (محرم – ماي) . ١٤٠ هـ = ٧٥٧ م
عبد الملك بن ابي الجعد اليفرني (ثائر) . ١٤٠ هـ = ٧٥٨ م
ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري الاباضي . ١٤١ هـ = ٧٥٩ م
محمد بن الاشعث الخزاعي . ١٤٣ هـ = ٧٦٣ م
عيسى بن يوسف (او موسى) الخراساني (ربيع الاول – افريل) ١٤٨ هـ = ٧٦٦ م
علي بن موسى الخراساني (ثائر) . ١٤٨ هـ = ٧٦٦ م
الاغلب بن سالم بن عقال التميمي (جمادى الثانية – جوليط) ١٤٨ هـ = ٧٦٦ م
الحسن بن حرب الكندي . ١٤٩ هـ = ٧٦٦ م
الاغلب (للمرة الثانية) . ١٥١ هـ = ٧٦٧ م

بنو المهلب

ابو جعفر عمر بن حفص هزار مراد المهلبي[1] (صفر – فيفري) ١٥١ هـ = ٧٦٨ م
ابو خالد يزيد[2] بن حاتم بن قبيصة بن المهلب . ١٥٤ هـ = ٧٧٠ م

---

(١) ضرب العملة باسمه .

(٢) استمر ابو خالد على امارته بافريقية الى ان توفي يوم ١٨ رمضان سنة ١٧٠ هـ = ٨ ماي ٧٨٧ م وقد ضرب العملة باسمه ، وفي عهده تأسست الدولة الرستمية بتيهرت سنة ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م وهي اول دولة مسلمة مستقلة تأسست بالجزائر .

الخلفاء العباسيون

	تاريخ التولية
ابو العباس السفاح .	١٣٢ هـ = ٧٥٠ م
ابو جعفر المنصور .	١٣٦ هـ = ٧٥٤ م
المهدي بن المنصور .	١٥٨ هـ = ٧٧٥ م
الهادي بن المهدي .	١٦٩ هـ = ٧٨٥ م
هارون الرشيد .	١٧٠ هـ = ٧٨٦ م

من مشاهير الجزائر

سمكو بن واسول

هو بربري من قبيلة مكناسة من اهل مواطن ملوية ، كان يعد من تابعي التابعين ، وهو جد ملوك سجلماسة من بنى مدرار كان من حملة العلم الذين اخذوا عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، وناهيك بعكرمة ، فقد قيل لسعيد بن جبير هل تعلم احدا اعلم منك ؟ ... فقال : عكرمة ؛ وجزم ابن خلكان في تاريخه بان عكرمة من برابرة المغرب .

ابو الوليد مروان المسيلي

ترجم له ابو العرب في طبقات علماء افريقية وقال عنه انه كان ثقة مستجابا فاضلا في مثل سن سحنون بن سعد ، وكان سحنون يقول : مروان رجل صالح وهو مولى ال عمر بن حنبل : ما رايت احدا اوعى من وكيع ولا احفظ ، وكيع امام المسلمين . وكان سحنون يعرف فضله ، وحدث عن ابي الوليد هذا ولده عبد الرحمن فقال : كان ابي يعمل الطوب بيده ، فيتصدق بثلث ما يربح ، وينفق الثلث ويرد ثلثاً في الطين والتبن وفيما يصلح به عمل الطوب . قال : ولم يكن له سرير يرقد عليه ، انما كان قد نصب

طوبا فعليه ينام في بيته . وكان يرمي بالتشبيه ، فقيل لسحنون ان مروان يرى التشبيه فلم يقبل ذلك وقال : مروان لا يقول الا ما روى ؛ ونمى ذلك الى الامير محمد بن الاغلب فوجه في طلبه فوافى قبل دخوله عليه خصيا بيده عود او طنبور فأخذه مروان من يده بنزع عنيف فكسره . فدخل الخصي على الامير وقال شيخ بالباب كسر من يدى كذ وكذا وخرق الخصي ثيابه لعظم ما نزل به عند نفسه ، فلما دخل مروان على الامير عاتبه فيما صنع ، فقال نعم رايت منكراً فغيرته ! ... فلم يراجعه الامير ، وسأله عن مذهبه فيما قيل له وما يدين به في ذلك ؟ .. فقرأ عليه سورة الاخلاص حتى ختمها . قال وانما شنع عليه اهل الزيغ وكان بعيداً مما قيل فيه ... قال وكان موته فيما احسب قريباً من موت سحنون [1] في حدود سنة اربعين ومائتين للهجرة .

(١) طبقات علماء افريقية لابي العرب ص ١١٥ ط باريس ١٩١٥ م ورياض النفوس للمالكي ج ١ ص ٣٠٣ ط القاهرة ١٩٥١

جـدول تاريخي

٨٥ ـ ١٥٧ هـ

٧٠٤ ـ ٧٧٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وأبرز الاحداث
٨٥ هـ = ٧٠٤ م	عزل حسان وبدء ولاية موسى بن نصير .
٨٦ هـ = ٧٠٥ م	فتح زغوان .
٨٩ هـ = ٧٠٧ م	حملة موسى بن نصير على المغرب الاوسط : الجزائر .
٩٠ هـ = ٧٠٨ م	حملته على المغرب الاقصى .
١٢٢ هـ = ٧٤٠ م	ثورة ميسرة المطغري ـ او المدغري ـ ومبايعته بالخلافة .
١٢٣ هـ = ٧٤٠ م	واقعة الاشراف بنواحي وادي شلف ؛ ومقاتلة كلثوم بن عياض لحبيب بن عبيدة بتلمسان .
١٢٤ هـ = ٧٤٢ م	واقعة القرن والاصنام ، وحروب حنظلة بن صفوان مع الخوارج .
١٤٠ هـ = ٧٥٧ م	ثورات البربر بنواحي تلمسان ومبايعتهم لابن قرة اليفرني مؤسس مملكتهم .
١٤٤ هـ = ٧٦١ م	مقاتلة محمد بن الاشعث للخوارج وموت زعيمهم ابي الخطاب .
١٤٨ هـ = ٧٦٥ م	مقاومة الاغلب بن سالم التميمي لبرابرة تلمسان .
١٥٠ هـ = ٧٦٧ م	حصار البربر من الخوارج للامير ابي جعفر عمر بن حفص بمدينة طبنة .
١٥١ هـ = ٧٦٨ م	تعمير طبنة على يدي الامير عمر بن حفص .
١٥٧ هـ = ٧٧٤ م	قضاء يزيد بن حاتم على الخوارج .

الدَّولة الرستميّة

١٦٠ ـ ٢٩٦ هـ

٧٧٦ ـ ٩٠٩ م

نشأتها

خرج ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري امام الاباضية من القيروان سنة ١٤١ هـ - ٧٥٨ م لقمع شوكة قبيلة وفرجومه المقيمة بطرابلس ، واستخلف عنه القاضي عبد الرحمن بن رستم ، وبقي ابو الخطاب هنالك الى سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م حيث بعث لابن رستم ليلتحق به في وقائع الامير محمد بن الاشعث ؛ وما كاد ابن رستم يتصل في جنوده وعساكره الجرارة بأبي الخطاب حتى بلغه نعيه وانهزام جيشه ؛ وشاهد يومئذ ابن رستم في قابس حوادث ثورات الاهالي على العامل بها ؛ فما وسعه الا الرجوع الى القيروان فصادفها كذلك في ثورة عامة عارمة فتسلل منها في اهله وولده وخرج مختفياً عن الاعين الى ان حل بالمغرب الاوسط فنزل على قبيلة (لماية) بجبل منيع يسمى سوفجج . فاقتبله اهالي الجبل بما يليق به من الاكرام ، وشاع يومئذ ذكره في الآفاق فوفدت عليه وجوه الاباضية من العلماء والاعيان واخذوا حينئذ في تدبير امرهم وتنظيم شؤونهم من رفع شأن الخوارج بانشاء دولة لهم ؛ وبينما

القوم يخوضون في ذلك اذ فاجأتهم جنود ابن الاشعث فأحاطت بالجبل ثم ارتدوا عنه بأمر اميرهم ؛ ويومئذ خرج ابن رستم في اصحابه يطلبون مكاناً منيعاً يتخذونه كمركز لبث دعوتهم ونشر مبادئهم بتلك النواحي ، فكان ذلك المكان بعمالة وهران على غيضة بين ثلاثة انهر عند سفح جبل جزول[1] ، هو (تيهرت) المعروفة اليوم بتاقدمت غرب المدينة الرومانية (تيارات) الحالية اي على نحو خمسة اميال منها[2] ، وكان شروعهم في ذلك سنة ١٤٨ هـ – ٧٦٥ م ؛ ثم كانت بيعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة فيه سنة ١٦٠ هـ – ٧٧٦ م فكان بذلك عبد الرحمن اول مؤسس لدولة اسلامية جزائرية مستقلة ، ويبدو من عدم مقاومة الامير العباسي بالقيروان لهذه الدولة الجزائرية الناشئة ان الامارة العربية كانت ضعيفة بالمغرب العربي يومئذ ؛ كما ان اهمال الاغالبة لها هو كذلك من بواعث نشاط هذه الدولة في توطيد ملكها بهذه الديار .

ولقد نجحت هذه الدولة في تأسيس مركزها هذا فوفقت فيه غاية التوفيق فان قرب تيهرت من الصحراء يمنعها من الوقوع في يد العدو في أيام الحرب ، كما ان موقعها هذا بين جبال الاطلس الى بلاد التل الخصبة جعلها تهيمن على بلاد المغرت من جهاتها الاربع ، فلا هي متطرفة جنوباً ولا شمالاً ، ثم انها كانت حسب موقعها الجغرافي ايضاً متوسطة بين ولاية تونس والمغرب الاقصى .

نظامها الحكومي

يرتكز محور نظام الحكم بهذه الدولة على قواعد الكتاب والسنة حسب ما تؤديه قواعد اجتهاد ائمة المذهب الاباضي تحت ادارة واشراف رئيسها

---

(١) وهو جبل متصل بارض السوس ويسمى عندهم بجبل دري وهو ما يسمى في ارض الزاب الجزائري بجبل « أوراس » . انظر اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٠ ط ليدي ١٨٦٠ م .

(٢) انظر البكري ص ٦٦ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

الاعلى الملقب بالامام – اذ لا خلافة وراثية عندهم – والامام يتعين في منصبه هذا بالانتخاب والكفاءة او العهد اليه من سلفه ؛ وله مستشارون ومحتسبون وامناء بيت المال ؛ وللقاضي السلطة المطلقة في تنفيذ الاحكام الشرعية وهو في الغالب يكون من غير اهل البلد ليهابه الناس ، وهناك شرطة لحماية الامن العام وجند مختلط من العرب والعجم والبربر . وماليتها متكونة مما يتجمع في خزينتها من مال الزكاة والجزية والخراج [1] مع ما كان يتجمع لديها من تبرعات خوارج المشرق ايضاً . فكانت الحكومة تنفق منها بالعدل وما فضل عنها ردته على الفقراء والمساكين ، وللحكومة سكة مضروبة باسمها اما لغتها الرسمية فهي العربية وبجانبها البربرية وكثيراً ما ترجمت اليها كتب العلم والدين والدواوين ايضاً وحتى القرآن الكريم ؛ ولقد تعاقب على ملك هذه الدولة ثمانية من الائمة .

حدود المملكة الرستمية

يحد هذه المملكة شمالاً تلول منداس الى قرب غليزان ، ويذهب الخط جنوباً من هناك الى فرندة وينعطف شرقي جبل عمور ، ومن هنالك الى وطن ميزاب والى وارجلة ، وينبعث الخط من الناحية الشرقية الى تيسميسل والسرسو ، ويذهب صعداً الى ثنية الاحد والى قصر البخاري مشرقاً واعالي وادي شلف : ويذهب جنوباً شرقي الاغواط الى تقرت ووادي ريغ ؛ وبالجملة فان هذه الدولة قد استولت على جميع التراب الجزائري الحاضر ما عدا ناحية الزاب شرقاً وتلمسان غرباً .

وفي كتاب البلدان لليعقوبي قال : « ويتصل بمدينة تاهرت بلد عظيم ينسب الى تاهرت في طاعة محمد بن افلح بن عبد الرحمن بن رستم ، والحصن الذي على ساحل البحر الاعظم ترمي به مراكب تاهرت يقال

---

(١) الجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والخراج مال يؤخذ من ارض الصلح ومما فتح عنوة (قهراً وقسراً) بخلاف الفيء فانه لا يؤخذ الا من ارض العنوة فقط .

له مرمى فروخ . وفي سياق حديثه عن مدينة طرابلس وارض نفوسة قال : « ان بهذه الارض قوم عجم الالسن اباضية كلهم ، لهم رئيس يقال له الياس لا يخرجون عن امره ومنازلهم في جبال طرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة لا يؤدون خراجاً الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الاباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم فارسي »[1] الخ ...

فهذا النص يجعلنا نعتقد سعة رقعة المملكة الجزائرية وانتشار سلطان الرستميين بها الى ما وراء طرابلس الغرب شرقاً . ويذكر لنا ياقوت الحموي عاصمة الرستميين — تاهرت — فيقول انها لم تكن في طاعة صاحب افريقية ولا بلغت عساكر المسودة اليها قط ولا دخلت في سلطان بني الاغلب .

الامام عبد الرحمن بن رستم

اصل هذا الامام فارسي وينسب الى الاسرة الملكية الكسروية ؟ ... وهو من موالي عثمان بن عفان ، بويع بالامامة سنة ١٦٠ هـ — ٧٧٦ م بتاهرت وكان على جانب عظيم من العلم والعمل والعدل والزهد ؛ وكانت له عناية كبرى باعلاء شأن دولته ، وله اهتمام خاص بفن المعمار ، مشتغل بشؤون الرعية والسهر على مصالحها ؛ وبلغ من زهده ان رد على اهل المشرق ما بعثوا به اليه من عشرة احمال ذهباً ، وقد سبق ان قبل منهم مثلما قبل ذلك حيث كانت الدولة في حاجة اليه ايام التأسيس ، وكانت ايامه كلها سلماً وامناً ، وله من التأليف تفسير للقرآن العظيم وديوان خطب ، ورسائل اخوانيات كاتب بها اخوانه واصدقاءه ، وكانت وفاته سنة ١٧١ هـ — ٧٨٧ م وقد عهد بالامر بعده الى سبعة من الاعيان

---

(١) كتاب البلدان ص ٧ و ١٤ ط ليدن ١٨٦٠ م .

منهم ولده عبد الوهاب فبايعه الناس بعده [1] .

الامام عبد الوهاب

بويع اثر وفاة والده بشهر ، وهو من اعلم علماء الاباضية في وقته ، كان متضلعاً في علوم الشريعة وله في الفقه كتاب اشتهر باسم « مسائل نفوسة » ما عدا فتاوي ورسائل في مسائل شتى . واشتهر بقوة الشكيمة والدهاء السياسي والحزم والثروة الطائلة ؛ وان اول ما قام به من الاعمال السياسية ان عمل على موادعة امير القيروان روح بن حاتم وربط صلته به ، فاطمأن الناس الى ذلك وتأكدوا من رسوخ قدم الدولة الرستمية في الملك .

ثورة ابن فندين

هو احد الرجال السبعة الذين عهد اليهم عبد الرحمن بن رستم بأمر الشورى بعده ، فطمح اولاً الى الملك وتطلع الى منصب الامامة ، وبعدما تحقق اخفاقه بمبايعة عبد الوهاب تشوف الى تبوأ المناصب الممتازة في الدولة فلم ينجح كذلك ، ويومئذ عمل على ايقاد نار الفتنة ضد الحكومة القائمة ودبر مكيدة لاغتيال الامام وجاء بشيعته من النكارية — وهم من الخوارج ايضاً — فكانت بينه وبين الحكومة وقائع عديدة سفكت فيها الدماء انهارا فاضطرت الحكومة الى مهادنته حقناً للدماء ؛ وبقي ابن فندين مع ذلك يترقب الفرصة للوثوب مرة ثانية على الدولة ؛ فاتفق يوماً ان صادف تغيب الامام عن العاصمة — تاهرت — فزحف هذا الثائر باتباعه على المدينة فكان فيها حتفه على يد افلح بن عبد الوهاب ، ويقدر عدد القتلى في هذه الواقعة باثني عشر الفاً ، فاستثار ذلك دفين حقد البكارية وكمين ضغينتهم فهاجموا العاصمة وقتلوا ميمون بن عبد الوهاب ثم انهزموا واندحروا .

---

(١) يذكر النسابون ان لعبد الرحمن بن رستم بنتا اسمها « اروى » تزوجها مدرار المنتصر صاحب سجلماسة ؛ بنى بها بعد اعتزاله الملك توفي سنة ٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م .

عصيان زناتة [1]

رفضت هذه القبيلة الجزائرية مبايعة الدولة الرستمية واعلنت عصيانها سنة ١٧٣ هـ - ٧٨٩ م ومدت يدها الى دولة الادراسة القائمة يومئذ بالمغرب الاقصى وتلمسان ؛ فنهضت اليها الحكومة الجزائرية لردها الى الطاعة وسعت لديها بكل وسيلة فلم تنجح ويومئذ اعلنت الدولة الحرب في وجه القبيلة وخاصة منها بطن مغراوة وبني يفرن فلم يجد الحكومة ذلك نفعاً واستمرت زناتة على عصيانها خاضعة للادارسة الى النهاية .

ثورة بني مسالة

كانت رآسة قبيلة هوارة التي تحتل الساحل من برقة الى قابس ، لهؤلاء من بني مسالة فاتفق ان خطب احد رؤسائها يد بنت رئيس من رؤساء قبائل البربر بالجزائر بقصد الالتحام مع هذه القبيلة تعزيزاً لقبيلته ؛ فحال بينهما الامام الرستمي خشية تحزب القبيلتين ضده وعقد هذه المصاهرة لنفسه ، فغضب لذلـــك بنو مسالة فهاجموا المغرب الاوسط وحملوا على الرستميين السلاح فانتصر عليهم الامام عبد الوهاب وطاردتهم جيوشه الى ناحية تلمسان .

امتداد المملكة الرستمية

اشتد سعير التنافس بين امراء افريقية من الاغالبة ورؤساء هوارة ،

---

(١) قبيلة بربرية عريقة في القدم منتشرة في كامل الشمال الافريقي وهي تسكن على الاخص المغرب الاوسط - الجزائر - بحيث انه ينسب اليها ويعرف بها ، فيقال وطن زناتة ؛ ومنها بطن مغراوة وجراوة قوم الكاهنة ، بنو يفرن ورجله بالجنوب الجزائري ، وكانت الرآسة فيهم قبل الاسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن وموطنهما بنواحي تلمسان الى وهران وشلف شمالاً والى غريس من ناحية المعسكر جنوباً . ويقول الادريسي ان زناتة عرب صرح وانما تبربروا بالمجاورة والمحالفة للبربر من المصاميد ؟ ... ويؤثر عن حسان بن النعمان انه كان يقول بعروبتهم ؟ ... ومن زناتة بنو ورسيفن ملوك مليانة ، وبنو منديل ملوك مازونه ، وبنو خزر ملوك وهران .

فأدى ذلك الخلاف والنزاع الى اتقاد الحرب بينهما وكاد النصر ان يكون حليف الامارة الاغلبية لولا استنجاد هوارة بالدولة الرستمية واستنصارها بها ويومئذ رأى الامام عبد الوهاب ان الفرصة سنحت له لبسط نفوذه على النواحي الشرقية ففتح منها طرابلس وقابس وجزيرة جربة ؛ وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ... وبلغ الخبر – أي خبر ثورة هوارة بطرابلس ضد الاغالبة ١٩٦ هـ – ٨١١ م – الى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البرابر وجاء الى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناته وكان يقاتل من باب هوارة ثم جاءه الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على ان يكون البلد والبحر لعبدالله – والي طرابلس من قبل الاغالبة – واعمالها لعبد الوهاب ، وسار الى القيروان [1] . وقضى عبد الوهاب نحبه سنة ١٩٠ هـ – ٨٠٥ م وقيل انه عاش الى سنة ٢٠٨ هـ – ٨٢٣ م فبويع بعده لابنه افلح .

الامام افلح

هو أطول ائمة هذه الدولة مدة في الملك ، فانه بويع اثر وفاة والده عبد الوهاب سنة ١٩٠ هـ – ٨٠٥م الى ان توفي سنة ٢٤٠ هـ – ٨٥٤ م أي مدة خمسين سنة ، وكان يسلم عليه بالخلافة كما ذكره ابن الفقيه الهمذاني [2] ، وكانت ايامه كلها ايام رغد ويسر ؛ وهو احد افذاذ ائمة الدولة البارزين والعلماء العارفين ذا أدب جم واطلاع واسع وشعر رقيق ومتانة في الدين ؛ كانت له مواقف حاسمة رد بها على ثوار جبل نفوسة ، وهو تارة يسلك معهم مسلك اللين واللطف ، وتارة يأخذهم بالشدة والعنف وكان الانتصار حليفه دائماً .

اما علاقته بالخارج ، فانه كان على صفاء واتصال ودي مع خلفاء

---

(١) العبر جزء ٤ ص ١٩٧ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

(٢) كتاب البلدان ص ٣٠ ط الجزائر ١٩٤٩ م .

الاندلس الامويين ومع السودان ايضاً تربط بينهم جميعاً أواصر التجارة ووحدة الهوى أيضاً ؛ ويظهر ذلك جلياً في جفاء الامام للدولة الاغلبية المجاورة التي هي من صنائع الدولة العباسية : فانه لما بنى ابو العباس محمد بن الاغلب مدينة « العباسية » بقرب تيهرت سنة ٢٢٧هـ — ٨٤١م هدمها الامام افلح وأحرقها وكتب في ذلك الى صاحب الاندلس يتقرب اليه ، فبعث اليه هذا بمائة الف درهم ؛ فانتقم لذلك العباسيون بالقبض على ابنه أبي اليقظان حين قدم الى الحج وأودعوه السجن ببغداد ، فحزن الامام على ولده ولم يزل محزوناً مهموماً الى ان توفي سنة ٢٤٠هـ — ٨٥٤م وتولى بعده ولده الثاني أبو بكر .

الامام ابو بكر بن افلح

اشتهر الامام أبو بكر بخصال الكرم والجود ولين العريكة والتسامح وسهولة الخلق ميالاً الى الدعة والرفاهية ، تاركاً أمر ملكه وادارة شؤون دولته الى صهره ابن عرفة التيهرتي الذي أصبح بسعاية من الوشاة والحسدة ينافس الامام في ملكه فحصلت بينهما من ذلك وحشة أدت الى اغتيال ابن عرفة واضطراب حبل الحكومة بقيام اصحابه على الامام واستمرت الفتن بتيهرت الى ان عاد أبو اليقظان من الشرق واستلم زمام الدولة من أخيه فقهر الثائرين وقضى على الخصوم فسكنت البلاد مدة ثم نشأت حركات ثورية أيضاً من الاعاجم المزاحمين لآل ابن رستم في الرئاسة ، انتصر فيها هؤلاء مراراً على الحكومة كما أذاقهم الجند بأسه أيضاً في كثير من مواقف القتال ، وعمت الفتنة اباضية جبل نفوسة فانضم اليهم أبو اليقظان وتعددت المعارك بين الطائفتين وكان النصر فيها سجالاً ، ولم يزل شأن أبي بكر يضعف أمام خصومه وأعدائه حتى لاذ بالفرار بعد عامين من ولايته فقط ، واحتل المدينة محمد بن مسالة الهواري فقبض على دفة الحكم وأجلى عن المدينة من كان فيها من أهل لواتة ثم أجمع الناس على مبايعة أبي اليقظان .

الامام أبو اليقظان

هو محمد بن افلح بويع بحصن لواتة على قرب من تاسلونت حيث تنفجر عيون نهر مينة الجاري قبلة تيهرت ، وكانت مبايعته اثر خروج أخيه الامام أبي بكر سنة ٢٤١ هـ - ٨٥٥ م . وقد حفظ لنا التاريخ من صفاته الخلقية انه كان ربعة ابيض الرأس واللحية ؛ ومن الخليقة انه كان ذا علم وورع متعففاً ناسكاً زاهداً فان كل ما وجد في تركته بعد موته هو سبعة عشر ديناراً فقط ! ... وقد سبقت منا الاشارة الى حجه ايام ولاية والده افلح وقبض العباسيين عليه الى خلافة المتوكل حيث رفع عنه القبض فعاد الى الجزائر ، فوافاها ثائرة على اخيه فحاول القبض على زمام الدولة فلم ينجح واستمرت حوادث اصحاب ابن عرفة والمنافسين من الاعاجم حتى انضم ابو اليقظان الى اباضية نفوسة فاعانوه على القضاء على الثورة وفتح تيهرت صلحاً واستقر بها اماماً مطاعاً الى وفاته سنة ٢٨١ هـ - ٨٩٤ م عن سن تناهز المائة سنة قضى منها زهاء اربعين سنة في الولاية .

مجاعة ووباء ! ...

اشتد القحط بالناس وعمت المجاعة جميع بلاد المغرب والاندلس من سنة ٢٥٣ الى ٢٦٥ هـ (٨٦٧ - ٨٧٨ م ثم اعقب ذلك وباء وموت مئات سنة ٢٨٥ هـ - ٨٩٨ م وقد عم ذلك بلاد مصر والحجاز ايضاً .

ظهور الدعوة الشيعية بالجزائر

ظهرت هذه الدعوة الشيعية بالجزائر لاول مرة في وادي الرمل (سوق حمار) بنواحي قسنطينة ومرماجنة (ما بين مجانة وسبيبة) وكان ظهورها على يدي رجلين كلاهما جاء من الشرق سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م موفداً من طرف جعفر الصادق لبث الدعاية ضد الخلافة العباسية القائمة يومئذ ببغداد ، وخلافة الامويين بالاندلس والمغرب ، ونشر مبادىء الشيعة التي ترمي الى

اقامة الخلافة الاسلامية في آل البيت ، فقاما بهذه الاوساط المغربية يعملان على تنفيذ خطتهما الى وفاتها فخلفهما من بعد ابو عبدالله الشيعي بكتامة ، وهو الذي قضى على مملكة الاغالبة شرقاً وبني رستم غرباً .

الامام أبو حاتم

هو يوسف بن أبي اليقظان جاءته البيعة اثر وفاة والده سنة ٢٨١ هـ - ٨٩٤ م وهو متغيب بجيشه في حماية القوافل فعاد الى العاصمة مسرعاً لتحمل اعباء المملكة وكان رجلا وسيماً حيياً كريم السجايا والاخلاق مدرباً على ادارة شؤون الدولة وتنظيم شأن الحكومة ، وبعد سنة من ولايته خرج عليه عمه يعقوب بن افلح وكان يكره الاباضية مع شذوذ فيه وجمع حوله طائفة من أهل تيهرت ومشيختها فأقصاهم الامام عن العاصمة ثم عادوا فاقتحموها عليه وأثاروا بها فتنتهم ؛ ويومئذ خرج أبو حاتم عن عاصمته فاجتمع اليه انصاره فزحف بهم الى العاصمة وضرب عليها الحصار مشدداً عليها الخناق الى ان اضطر اهلها الى طلب الكف عنهم والمهادنة ، فكف عنهم الامام على ان يسلموا اليه رؤساءهم وكباراءهم ، فأبوا ، وحينئذ عادت الحرب الى ما كانت عليه من قبل وبايعوا عمه يعقوب بن افلح .

الامام يعقوب بن افلح

بويع وهو بأرض زواغة غربي طرابلس ، فأسرع من حينه الى العاصمة تيهرت فقاتل بها أبا حاتم ودامت الحال على ذلك مدة أربع سنوات الى ان سعى ذوو الوجاهة والفضل في الصلح بين الطرفين فانتشر السلم بالمملكة أربعة أشهر . وفي اثنائها عمل أبو حاتم على استمالة القلوب اليه واكتساب مودة القوم فمالت اليه الرعية وانقلبت على عمه يعقوب فخلعته ، فذهب حينئذ الى حيث كان بجهات طرابلس ، وطال به أجله الى ان شاهد سقوط تيهرت بيد الشيعة العبيدين ، فارتحل اثرها الى بني وارجلان

– وارقلة – وهنالك عرضت عليه البيعة فأبى لما علمه من ضعف الرستميين أمام الشيعة وقال يومئذ كلمته المشهورة التي أرسلها مثلاً : لا يستتر الجمل بالغنم ! ... ومات هنالك .

عودة أبي حاتم

تصدى ابو حاتم في هذه المرة الى قمع الفتن وتسكين الثوار ورفع شأن العلماء على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم والعناية باصلاح البلاد ونشر العدل والامن بين الناس ، فجاءته وفود الخطباء والشعراء قائمة بين يديه تعدد اياديه وتنشر مناقبه ، واخيراً ائتمر عليه منافسوه من بني عمه واخوته فقتلوه غيلة سنة ٢٩٤ هـ – ٩٠٦ م وقيل بعد سنتين من هذا التاريخ ؟ ... وفر حينئذ ابو سليمان بن يعقوب بن عم ابن حاتم الى ورجلان ، وبايعوا اخاه اليقظان .

الامام اليقظان

هو ابن اليقظان محمد تولى الامامة وايام دولته ذاهبة والحكومة مضطربة ، فعاش مهدد الجانب مختل النظام ولم تطل ايامه حتى دخل عليه ابو عبد الله الشيعي فقتله في خاصته وجماعة من اهل بيته في شوال سنة ٢٩٦ هـ = جوان ٩٠٩ م وذلك بايعاز ومؤامرة من وجوه الرعية .

المذاهب والعقائد

كان اهل المغرب العربي في صدر الاسلام يسيرون في عقائدهم وعباداتهم حسبما يرشد اليه الكتاب والسنة وما ورد في ذلك من الآثار عن السلف الصالح من غير انتماء الى اهل مذهب او طائفة او فرقة او نحلة الى ان قدم عليه جماعة من المشرق ممن تشبعوا بآراء اهل العراق فكانوا يرون راي ابي حنيفة واصحابه مثل عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي واسد بن الفرات قاضي افريقية فنشروا مذهب الكوفيين بافريقية وهكذا

الى ان تولى سحنون بن سعد القضاء فنشر مذهب مالك ؛ وكان الخوارج يومئذ بمن وفدوا على المغرب مختفين فنشروا هم كذلك عقائدهم ومذاهبهم من نكارية وصفرية واباضية الخ ... وكان ابن رستم مؤسس هذه الدولة على مذهب الاباضية [1] فوضع قواعد دولته على اسس مذهبه الخارجي وكان مع ذلك هو وجميع من خلفه على عرش تيهرت متسامحاً مع جميع اهل المذاهب الاخرى من اهل الرأي وغيرهم ، فقد كانت المناظرات والمباحثات العلمية تعقد بين ايدي الائمة للنظر والجدل في مسائل الاعتقاد وغيرها وذلك بصدر رحب . قال ابن الصغير الملكي مؤرخ هذه الدولة ... ومن اتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه الطف مناظرة ، وكذلك من اتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك [2] ... ورغم ذلك فانه وقع شيء من التنازع المذهبي بين النكارية والاباضية على عهد الامام عبد الوهاب وهو في حقيقة امره نزاع سياسي لا ديني سببه التهالك على الراسة من اصحاب المقاصد والمنافع الشخصية وهو الذي كان سبباً في فتح باب الطعن في الامام والانكار

---

(١) راجع هامش صفحة ١٧٨ عن هذا الجزء .

(٢) كان اكبر معول فقهاء الاباضية على مدونة ابن غانم وهي بربرية اللسان ثم مزجوا فقههم بالعربية ولا تزيد مسائل الخلاف بين الاباضية وغيرهم من المسلمين أهل السنة عن بضع مسائل اجتهادية ؛ أهمها مسألة الصفات فغير الاباضية يقولون انها غير الذات المقدسة وانها قديمة بقدمه عز وجل ، والاباضية يقولون بانها عين الذات . ومسألة رؤية الباري سبحانه فغير الاباضية يثبتونها كما يليق بجلاله ، وهم ينكرونها . ومسألة القرآن فغير الاباضية ينكرون خلقه ، وهم يقولون بانه مخلوق محدث . ومسألة الايمان فهو عند الاباضية لا يتم الا بالعمل ، وعند غيرهم انما هو مجرد اعتقاد يصحبه النطق . ومسألة الخلود في النار فغير الاباضية لا يقولون بخلود العصاة المؤمنين ، اما عندهم فخلدون . ومسألة الكفر فانه لا يطلق عند الاشاعرة الا على من كفر بالله او اشرك ، وعند الاباضية يطلق ايضاً على المنافق وعلى كل من كفر بالنعمة . ومسألة الشفاعة فلا ينالها عند الاباضية اصحاب الكبائر ، اما عند غيرهم فنعم . الخ ... وهناك مسائل اخرى لا تختلف كثيراً عما هو موجود ومعروف كذلك بين الاشاعرة والماتريديه من الخلافات اللفظية والاجتهادية ؛ كما ان هنالك ايضاً مسائل خلافية في الفروع الفقهية هي من قبيل ما هو مستفيض وشائع بين سائر المذاهب الاسلامية ؛ ولكل وجهة ، ولكل مجتهد أجر .

عليه ، وقد ادى ذلك الى وقائع دامية ، وهكذا حب الرئاسة مهما دخل شيئاً الا وافسده .

الثقافة والحضارة والعمران

ليست هنالك دولة من الدول الاسلامية الجزائرية كانت تداني حضارة هذه الدولة فيما بلغته من الرقي والازدهار المادي والادبي سوى حضارة الدولة الحادية التي تلألأت أنوارها بالقلعة وبجاية كما سنحدثك عنها فيما يأتي ؛ فلقد بلغت تيهرت يومئذ شأواً عظيماً من المدنية والعمران ومن توفر أسباب الحضارة والرفاهية حتى انها كانت تشبه وتقارن بقرطبة وبغداد ودمشق من عواصم الشرق اللامعة ، حتى انها كانت تدعى بعراق المغرب وكان بها من القصور العالية والمنازل الرفيعة والحصون الحصينة والعمارات والمساجد والمنتزهات ما يشبه منشآت هذه البلاد ، وسكن بها من أهل الكوفة والبصرة والقيروان والاندلس وبلاد العجم وغيرهم من أرباب الصناعات والحرف والفنون الجميلة عدد وافر ، وكان فيمن وفد على الجزائر يومئذ من أكابر أعيان المشرق : عبد الرحمن الداخل – صقر قريش – فلقد حل بها مستجيراً ببلاط ائمة تيهرت وملوكها الرستميين ، وتقلب بين قبائل البربر هناك الى ان استقر عند قوم من زناتة قبل انتقاله الى الاندلس[1] .

ولا ننسَ ان امه بربرية نفزية من قبيلة نفزاوة . وقد كان بالجزائر من العلماء والادباء ما يحق لها ان تفتخر بهم يومئذ على البلاد مثل : أبي الفضل احمد التاهرتي ، ومشاهير بيت آل الطبني زيادة الله ، وسعيد بن واشكل التاهرتي ، وبكر بن حماد الشاعر وغيرهم ... ويكفينا في الاستدلال على ذلك نبوغ امثال يهوذا ابن قريش التاهرتي – في القرن الرابع الهجري – فانه كان متضلعاً في كل من اللغات العربية والعبرانية

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٢ وج ٤ ص ٢٨ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٩ م .

والآرامية والفارسية والبربرية ، وحاول المقاربة بين بعضها ، وهو الواضع لاساس النحو التنظيري ، وله في ذلك كتاب موجود بمكتبة اوكسفورد من بلاد الانكليز هو من انفس ما كتب في الموضوع . وقد كان ائمة هذه الدولة ورؤساؤها يعقدون مجالس العلم والتعليم يعلمون الناس ويلقون عليهم بأنفسهم دروساً عامة بالمساجد في فنون من العلم مختلفة ؛ وفيهم من يقول الشعر ايضاً ؛ فمن ذلك قول الامام افلح في العلم :

العلم ابقى لاهـــل العلم آثارا يريك اشخاصهم روحـــاً وابكارا
حي وان مات ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك اوطارا
وذو حيـــاة على جهل ومنقصة كميت قد ثوى في الرمس اعصارا
لله عصبة اهـــل العلم ان لهم فضلًا على الناس غيابـاً وحضارا

وهي قصيدة طويلة تنيف على الاربعين بيتاً وكلها على هذا المنوال في مدح العلم وبيان فضله ومزايا العلماء ... ولهؤلاء الائمة والولاة عناية شديدة بجمع الكتب النادرة وجلبها من اي مكان كانت فتكونت لهم بذلك خزانة دار الامارة المشهورة بمكتبة قصبة المعصومة وكان فيها من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب ما يؤسف لفقده اليوم ! ... ولقد فقدت هذه الخزانة العامرة في حوادث الاحتلال الفاطمي ، ويقال عنها انها كانت تشتمل على ثلاثمائة الف مجلد ؟ ...

وبينما الحال على ما وصفنا في الجزائر ازدهاراً اذ كان شارلمان امبراطور فرنسا الاكبر – في القرن الثاني الهجري ، والثامن الميلادي – يحاول ان يتعلم ويتحبب الى الآداب تحبباً ساذجاً كما يحب غير المتعلمين ان يروا احياناً السطور المكتوبة ، وكانت تشبه آداب عصره ادب صبيان المدارس وتمارينهم اليوم ، بل لم يكن في غاليا – فرنسا – شيء يشبه الادب ، ولقد فقد منها على عهد شارلمان وبعده بزمن طويل كل اهتمام بشيء يقال فيه الثقافة العامة .

اما عن الحياة الاقتصادية من فلاحة وتجارة وحركة الصادرات والواردات فان مملكة تيهرت كانت تعد احدى محطات العالم الاقتصادية الكبرى

فهي واسعة الاخذ والعطاء فكانت الحبوب والازهار بأنواعها تزرع بأرض الجزائر والاسواق ملأى بمختلف البضائع والمصنوعات ، وكانت طرق القوافل معبدة متصلة بصحراء افريقية وبلاد السودان شرقاً وغرباً ، قال البكري : « وفيها – اي تيهرت – جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً ومشماً ويسمى بالفارس ، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج ... قال : وبتيهرت أسواق عامرة وحمامات كثيرة ، يسمي منها اثني عشر حماماً ، وحواليها من البربر امم كثيرة ، ومدهم الذي يكتالون به خمسة اقفزة ونصف قرطبية ، وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فانه قنطار عدل ، ورطل اللحم عندهم خمسة ارطال . ويغرق المقدسي في وصفها بأوصاف الحسن والكمال الى ان يقول فيها : هي بلد كبير كثير الخير ... هي بلخ المغرب ... »[1] . كما ان السفن تغدو وتروح بين بر العدوة ومرامي الجزائر مشحونة بشتى أصناف السلع ... ولقد خصت أخبار تيهرت بالتدوين ، فأفردها بالتأليف أبو عبدالله محمد بن يوسف التاريخي الاندلسي المشهور بالوراق في كتاب خاص لا ندري أين هو اليوم ؟ ! ...

انهيار الدولة الرستمية

ان اكبر عامل في سقوط هذه الدولة هو اختلاف الكلمة بين الحكومة والشعب وما انتشر عن ذلك يومئذ من الفتن والاضطرابات التي اضعفت الدولة امام رعيتها فتضعضعت بفقد جندها الحامي . واخذت احزاب الامة يومئذ في حبك المؤامرات ضد الحكومة فقتل الامام ابو حاتم ؛ وقامت « دوسرا » بنت اليقظان – الامام نفسه – تشارك في حملة ابي عبدالله الشيعي للقضاء على الدولة وقتل الامام ! ... وكانت الدعوة الشيعية يومئذ قد اطبقت البلاد وذاع خبر انتصارها على الدولة الاغلبية المجاورة فخرج

---

(١) المسالك والممالك للبكري ص ٦٦ – ٦٩ ط الجزائر ١٨٥٧م ، واحسن التقاسيم للمقدسي ص ٢٢ ط الجزائر ١٩٥٠ م .

الامام اليقظان مستسلماً للعبيديين فقضوا عليه وعلى دولته سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٩ م فكان ذلك كله من عوامل تيسير الاستيلاء الشيعي على البلاد فسقطت بيد العبيديين من غير قتال ولا حرب .

تأسيس بلاد مزاب

كان لسقوط هذه الدولة وقع عظيم في نفوس اولى الغيرة الوطنية والحماس الديني فهاجروا تيهرت الى الجنوب فمنهم من هاجر الى الجنوب الغربي ، ومنهم من هاجر مع الامام يعقوب الى نواحي وادي مينة فأسسوا مدينة الكريمة ، ودخلوا مدينة بنى وجلان - وارقلة - وهناك على بعد اربعة عشر كيلومتراً جنوباً اخذوا في تأسيس عاصمتهم الجميلة « سدراتة » المعروفة عند البربر بأسدراتن ذات المدنية العظيمة ، فأنشأوا بها قصورهم البديعة والمنازل الرفيعة واقاموا بها البساتين والمزارع والمنشآت الضخمة ونشروا فيها من الرفاهية والحضارة ما اعجب منه العلماء اليوم . ولقد شرع الباحثون من علماء الآثار والحفريات منذ ربع سنة ١٩٥١ م في الكشف عن هذه المدينة التي غطتها الرمال وتراكمت عليها الكثبان ؛ فعثروا في بحوثهم الحفرية على آثار جليله قيمة من مبان عجيبة ونقوش مزخرفة وخطوط كوفية واشكال هندسية واوان متنوعة ذات اهمية كبرى في تاريخ الجزائر الحافل ولا يزال البحث وأعمال الحفر والتنقيب مستمرة حول هذه المدينة التي يبلغ طولها اكثر من كيلوميترين ، وعرضها نحو كيلوميتر واحد : فهي حقاً احدى ذخائر وكنوز الفن الجزائري باتم معناه ؛ وبالمتحف الجزائري اليوم بعض تحف ثمينة وقطع نفيسة عثر عليها بهذه المدينة فهي موضوعة هناك معروضة للجمهور ، آية ناطقة بعبقرية الجزائري وتقدم الفن الاسلامي بالجزائر منذ اكثر من ألف سنة ؛ قال الشريف الادريسي عن مدينة « وارقلان » - وارقلة - هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار اغنياء يتجولون في بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة - هكارة ؟ - فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلدهم - عملة مسكوكة - باسم بلدهم ، وهم وهبية اباضية .

وبعد ما اظهر القوم هنالك نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي هابهم اهل

من آثار مدينة سدراته في القرن الرابع الهجري



من آثار مدينة — سدراته — : (بركة)

من آثار المدنية الجزائرية في القرن الرابع الهجري — بمدينة سدراته —

•

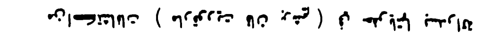
وارقلة وتوجسوا منهم خيفة وخشوا منهم المنافسة والمزاحمة ؛ فأجلوهم عنها وحل محلهم الزنوج . فخرج الاباضية منها يومئذ الى جبال بنى مصاب ، اومزاب بالشمال الغربي من وارقلة وجنوب مدينة الأغواط فسكنوا اولاً الخيام ثم اخذوا في تأسيس المدن والقرى ، فكان اول ما اسسوا هنالك مدينة العطف اختطها رئيسهم خليفة بن آبغور سنة ٤٠٢ هـ – ١٠١١م . وفي سنة ٤٣٧ هـ – ١٠٤٥م تأسست مدينة بونورة ، ثم العاصمة غرداية سنة ٤٧٧ هـ – ١٠٨٤ اسسها ثلاثة من زعماء الاباضية : سليمان بن يحيي وعيسى بن علوان ، وابو جمعة ، واصبحت هذه المدينة مركزاً لتلك القصور الاباضية السبعة التي انشئت بعدها : كبني يسقن ، ومليكة ، واخيراً القرارة وبريان . ومن الاباضيين من توجه بعد الجلاء من تيهرت وسدراته الى البلاد الطرابلسية والتونسية فهم فيها الى الآن .

وذكر ابن خلدون بلاد « مزاب » هذه ورسم اسمها بصورة صاد وسطها زاي كرسم أهل المصحف لحروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف ، فان النطق بصاد فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي ودل ذلك على التوسط بين الحرفين ، قال وهو اسم للقوم الذين اختطوا هذه البلاد ونزلوها ، و (بنو مصاب) من البربر وهم فخذ من بطن بادين بن محمد من ولد زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا (من قبيل زناتة) المتشعبين الى شعوب كثيرة منهم بنو عبد الواد وبنو مرين وبنو توجين وبنو مصاب وبنو زردال ، يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد ، وفي محمد هذا يجتمع بادين وبنو راشد ، وراشد هذا هو أخو بادين ... قال وسكانها – أي بلاد مصاب – لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فمين يضاف اليهم من شعوب زناتة ، وان كانت شهرتها مختصة بمصاب ، وحالها في المباني والاغراس وتفرق الجماعة بتفرق الرئاسة شبيهة بحال بلاد بني ريغة والزاب [1] .

---

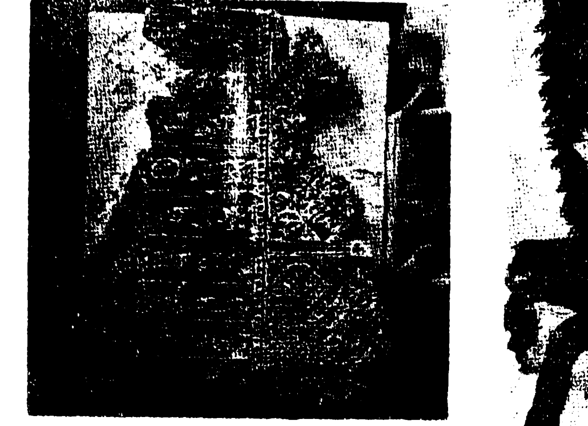
(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧ ط بولاق ١٣٧٤ هـ ، وتاريخه ج ٧ ص ٥٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

من اكتشافات (ماركوريت فان برشم) في حفرياتنا بسدراتة





اطلال دار عربية بسدراتة اكتشفت سنة ١٩٥١





تفاصيل من الزخارف الجصية اكتشفت بسدراتة سنة ١٩٥٣

كما يسكن بتلك النواحي ايضاً غير هؤلاء قوم من صنهاجة ولماية وبني فاتن وغيرهم .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان ممن حافظ التاريخ على اسمائهم من ولاة هذا العصر وزعمائه : محمد بن مسالة امير هوارة المستبد بتيهرت ايام ابي بكر بن افلح وكان يسكن مدينة الجبل ، ومحمد بن عرفة التيهرتي مفوض حكومة ابي بكر ، ويزيد بن فندين مناهض بني رستم ، وشيخ المدينة ابو مسعود ، وعبد الرحمن بن صواب النفوسي امير بيت المال ، ومحكم الهواري الاورامي قاضي تيهرت على عهد الامام افلح ، ومثله القاضيان : ابو عبدالله محمد بن ابي الشيخ وشعيب بن مدمان ؛ ومزور بن عمران وزير الامام عبد الوهاب ، ووزكار وابرهيم بن مسكين رئيسا الشرطة على عهد الامام ابي حاتم . وابو سهل الفارسي من احفاد الامام افلح تولى خطة الترجمة بدواوين الحكومة على عهد الامامين : افلح وابي حاتم ، وله تآليف كثيرة باللغة البربرية ودواوين شعرية وكان افصح اهل زمانه بها .

ائمة الدولة الرستمية

	تاريخ التولية
الامام عبد الرحمن بن رستم	١٦٠ هـ - ٧٧٦ م
الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن	١٧١ هـ — ٧٨٧ م
الامام افلح بن عبد الوهاب	١٩٠ هـ — ٨٠٥ م
الامام ابو بكر بن افلح	٢٤٠ هـ — ٨٥٤ م
الامام ابو اليقظان بن افلح	٢٤١ هـ — ٨٥٥ م
الامام ابو حاتم بن ابي اليقظان	٢٨١ هـ — ٨٩٤ م
الامام يعقوب بن افلح	٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م
الامام اليقظان بن ابي اليقظان	٢٩٤ هـ — ٩٠٦ م

من مشاهير الجزائر

بكر بن حماد

٢٠٠ ــ ٢٩٦ هـ

٨١٦ ــ ٩٠٨ م

ابو عبد الرحمن بكر بن حماد بن صهر او سهل ؟ ... بن ابي اسماعيل الزناتي التاهرتي هو من اشهر كبار علماء الجزائر وادبائها في هذا العصر ، ولد ونشأ بتيهرت حوالي سنة ٢٠٠ هـ - ٨١٦ م فاخذ العلم والادب عن علماء بلده ثم ارتحل الى القيروان فاخذ عن امثال صاحب المدونة سحنون بن سعد ، ودخل بغداد سنة ٢١٧ هـ - ٨٣٢ م فاخذ عن ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر ، ولقي من الادباء امثال ابي تمام صاحب ديوان الحماسة ، ودعبل الخزاعي ، وعلي بن الجهم ، ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وابن الاعرابي ، والرياشي وابي حاتم السجستاني وغيرهم من فطاحل الادب العربي وشيوخ المشرق وعلمائه وكانت له مع هؤلاء مساجلات ومطارحات ادبية شعرية ونثرية ؛ واتصل بخلفاء الدولة العباسية وبملوك بلده تيهرت ، وحصلت له جوائز وصلات من الملوك والامراء ؛ قال عنه البكري انه : كان ثقة مأموناً حافظاً للحديث ؛ وقال ابن عذاري : كان عالماً بالحديث وتمييز الرجال وشاعراً مفلقاً . تصدر الشيخ بجامع القيروان لاملاء الادب والعلم سنة ٢٧٤ هـ -

٨٨٧ م فارتحل اليه الكثير من اهل الاندلس للاخذ عنه والتخرج على يده ، وكان منهم قاسم بن اصبغ البياني ؛ وقد وقعت له مع هذا قصة حوار ادبي دار بين الشيخ وتلميذه ، وتدل هذه القصة على تواضع الشيخ وتجافيه عن مقاعد الكبر ورجوعه الى الصواب ، قال القرطبي :

« وذكر ابو محمد قاسم بن اصبغ قال : لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان فاخذت على بكر بن حماد حديث مسدد ، ثم رحلت الى بغداد ولقيت الناس ، فلما انصرفت عدت اليه لتمام حديث مسدد ، فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قدم عليه قوم من مضر مجتابي النمار ، فقال : انما هو مجتابي الثمار ، فقلت انما هو مجتابي النمار ، هكذا قرأته على كل من قرات عليه بالاندلس والعراق ، فقال لي . بدخولك العراق تعرضنا وتفخر علينا ! ... او نحو هذا . ثم قال لي : قم بنا الى ذلك الشيخ — لشيخ كان بالمسجد — فان له بمثل هذا علماً ، فقمنا اليه فسألناه عن ذلك فقال : انما هو مجتابي النمار ، كما قلت : وهم قوم كانوا يلبسون الثياب ، جيوبهم امامهم ، والنمار جمع نمرة . فقال بكر بن حماد واخذ بانفه : رغم انفي للحق ، رغم انفي للحق ، وانصرف [1] .

وكان مجلس ابن حماد حافلاً بطلبة العلم على اختلاف مذاهبهم ؛ كانت عودته الى بلده تيهرت سنه ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م ثم كانت وفاته بقلعة ابن حمة شمال مدينة تيهرت وذلك في شوال سنة ٢٩٦ هـ — جوان ٩٠٩ م اي في نفس السنة التي سقطت فيها الجزائر الرستمية بيد العبيدين ؛ ومن شعره قوله لما عاد من العراق معتذراً للامام ابي حاتم :

ومؤنسة لي بالعراق تركتها وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي [2] قبلها « عزيز علينا ان نراك تسير »

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٨٧ ط القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م .

(٢) ابو نواس الشاعر العباسي المشهور .

فقلت جفاني يوسف بن محمد فطال علي الليل وهو قصير
ابا حاتم ما كان ما كان بغضة ولكن اتت بعد الامور امور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم فداريتهم ، والدائرات تدور

وله في جميع اغراض الشعر قصائد طويلة وقطع رائعة هي متفرقة في كتب الادب والتاريخ ومنها قوله في وصف طقس مدينة تاهرت الشديدة البرد شتاء :

ما أخشى البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت كأنها تنشر من تخت
فنحن في بحر بلا لجة كفرحة الزمن بالسبت



جدول تاريخي

١٦٠ ـ ٤٠٢ هـ

٧٧٦ ـ ١٠١١ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٤٨ هـ = ٧٦٥ م	انشاء مدينة تاهرت – تيهرت .
١٦٠ هـ = ٧٧٦ م	مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة بتاهرت .
١٧١ هـ = ٧٨٨ م	توثيق العلائق بين الحكومة الرستمية والاغالبة وولاية الامام عبد الوهاب .
١٧٣ هـ = ٧٨٩ م	مقاومة الدولة لقبيلة زناتة الثائرة .
٢٣٩ هـ = ٨٥٣ م	تخريب مدينة العباسية واحتراقها على يد الامام افلح .
٢٤١ هـ = ٨٥٥ م	امتناع تاهرت عن ابي اليقظان .
٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م	ابتداء ذيوع الدعوة الشيعية بالجزائر والمغرب الاقصى .
٢٨٢ هـ = ٨٩٤ م	الخلاف بين ابي حاتم وعمه يعقوب .
٢٨٥ هـ = ٨٩٨ م	انتشار المجاعة والوباء .
٢٩٤ هـ = ٩٠٦ م	اغتيال ابي حاتم وولاية اليقظان
٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م	سقوط الدولة الرستمية وقتل اليقظان .
٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م	تأسيس مدينة سدراتة وبلدة الكريمة بالجنوب الجزائري .
٤٠٢ هـ = ١٠١١ م	تأسيس بلاد مصاب – مزاب .

الدّولة الأدريسيّة

١٧٢ ـ ٣١١ هـ

٧٨٨ ـ ٩٢٣ م

نشأتها

خرج ادريس الاكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه من الشرق لما يئس من نجاح مطلب الطالبيين هنالك ونجا بنفسه من اضطهاد العباسيين الى المغرب ، وقد علم يومئذ ضعف سلطانهم به وانحراف اهله عنهم فقصده ونزل منه بمدينة « وليلى » بالمغرب الاقصى ، فصادف تعطش المغاربة الى تأسيس دولة اسلامية مستقلة عن المشرق كما فعل اهل الاندلس من قبل ، وكانوا من قبل يبحثون عن زعيم لهم ليكونوا حوله الوحدة المغربية ؛ وكان العلويون ـ ومنهم ادريس هذا ـ يرون احقيتهم في الخلافة دون العباسيين ، وذلك لانعقاد الامامة الشرعية لهم قبل اولئك [1] ويومئذ انتهز ادريس هذه الفرصة واباح بسره حول تأسيس الدولة الجديدة واظهر بالمغرب دعوة العلويين الشيعية الزيدية [2]

---

(١) بويع محمد بن عبد الله ـ النفس الزكية ـ بالخلافة في المدينة ، وهو اخو ادريس الأكبر وكان فيمن حضر البيعة يومئذ وبايعه ابو جعفر المنصور العباسي وأخوه السفاح ثم نكث المنصور بيعته وقتله سنة ١٤٥ هـ ـ ٧٦٢ م

(٢) لا يزال يوجد اتباع هذه الدعوة باليمن الى اليوم ، وهم ينتسبون في دعوتهم الى زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ؛ خرج زيد على هشام بن عبد الملك بن مروان فقتله الخليفة وصلبه ١٢١ هـ ـ ٧٣٩ م

فبايعته حكومة المغرب البربرية غرة ربيع الاول ١٧٢هـ – اوط ٧٨٨ م وكان على راس هذه الحكومة يومئذ اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي المعتزلى ، واطاعته معها القبائل البربرية المجاورة وخلعت طاعة العباسيين ، ويومئذ قضى ادريس على ما بقي هنالك متفرقاً بالبلاد من عقائد المجوسية واليهودية والنصرانية ومذاهب الاعتزال ووحد كلمة المغاربة حول الدولة العلوية الجديدة .

نظامها الحكومي

لا تختلف هذه الدولة في نظامها الاداري وشكلها السياسي عن نظم بقية الدول الاسلامية المعاصرة عامة ؛ سوى انها غير مركزية ، وهي جناية سياسية كانت عليها وبالا ؛ وكان أئمة هذه الدولة يرون انفسهم احق بامارة المؤمنين من غيرهم لسبق انعقادها لهم قبل سواهم من العباسيين كما ذكرنا .

قال ابن خرداذبة : وليس يسلم عليه – يعنى الامام الادريسي بالخلافة ، وانما يقال « السلام عليك يا ابن رسول الله »[1] . والامام هو صاحب السكة واللواء[2] والدعاء على المنبر ؛ واقامته كانت بفاس وهناك ولاة وامراء وعمال منتشرون في انحاء المملكة ولهم فيها نوع استقلال .

الجزائر الادريسية

وبعد ما اطمأن المولى ادريس على المغرب الاقصى واذعنت له قبائله زحف في جموع مطغرة وغيرهم على المغرب الاوسط – الجزائر – لفتح الطريق الى المشرق وتوسيع مملكته المغربية ، فنزل على محمد بن خزر بن صولات المغراوي

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٠ ط الجزائر ١٩٤٩ م

(٢) كانت راية هذه الدولة بيضاء عكس المسودة من بني العباس ، وظلت كذلك الى عهد الدولة الصنهاجية فاتخذتها هذه من حرير ووشتها بالذهب ؛ واشتهر العلويون وهم الطالبيون عموما باسم المبيضة لاتخاذهم البياض شعارهم في لباسهم وراياتهم مخالفة للعباسيين اعدائهم في اتخاذ شعارهم – السواد – وذلك حزنا منهم على شهدائهم من بني هاشم ولعنا على بني امية في قتالهم

امير تلمسان فبايعه محمد في رجب سنة ١٧٢ هـ - ديسمبر ٧٨٨ م واسلم له تدبير شؤون ولايته الجزائرية بدون محاربة ولا قتال ، ودانت له القبائل المجاورة هنالك من بني يفرن ومغراوة وجميع امهات قبائل المغربين الاقصى والأوسط وقد كان لهذه المبايعة اثر خطير في فصل الشمال الافريقي عن الخلافة العباسية وفي ظهور تلك القبيلة العتيدة زناتة على مسرح تاريخ هذا الشمال وخاصة الجزائر .

حدود الجزائر الادريسية

واذا نظرنا الى حدود الجزائر الادريسية وجدناها لا تتعدى من جهة الشمال الشرقي مدينة وهران ونهر شلف ؛ ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر الى جبال مديونة قبلي فاس ؛ ولك ان تقول انها تمتد على الساحل من الريف غرباً الى ارض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقاً ، ثم تعود بناحية تنس غرباً وجنوب شلف الى مليانة وتنتهي بمتيجة .

امارة تلمسان

مكث ادريس الاول بتلمسان نحو السبعة اشهر وفيها كان تأسيس مسجده الجامع ونقش على صفح منبره هذه العبارة : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما امر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن المثني بن علي رضي الله عنهم وذلك في صفر ١٧٤ هـ. ولم يبق من اثر لهذا المسجد اليوم الا اطلال من مأذنته بأكادير [١] - تلمسان القديمة - ثم عاد بعد ذلك ادريس الى عاصمته « وليلي » المعروفة اليوم بقصر فرعون [٢] وترك

---

(١) كلمة سامية استعملها الفينيقيون والعبرانيون بمعنى « الجدار » وهي من لغة البربر بمعنى الحصى والانبار وهو المكان الذي يجمع وينفد فيه الزرع والحبوب .

(٢) هي اليوم خراب واطلال قائمة على ربوة متصلة بجبل زهرون من جهة وادي خومان ، تعرف في الخرائط باسم (Volubilis) تبعد عن الضريح الادريسي بنحو ثلاث كيلومترا وعن مدينة فاس بخمسين كيلومترا غرباً .

ابن العلاء والياً على تلمسان . وفي هذه السنة اتخذ ادريس السكة وضرب عملته بمدينة ترغة ، وفي فاتح سنة ١٩٩ ﻫ – ٨١٤ م احدثت طائفة الصفرية وقبائل نفزة ثورات بتلمسان عجز العامل عن اخمادها ، وهو يومئذ محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل ، فزحف اليهم ادريس الثاني من عاصمته الجديدة – فاس – فأقمع الثائرين وقضى على الفتنة ومكث هنالك بتلمسان ثلاث سنوات رسم فيها حدود مملكته وعقد فيها اتفاقية مع جيرانه الاغالبة على ان يكون نهر شلف هو الحد الفاصل بين المملكتين وتعاهدوا على السلم والموادعة . وأمر ادريس يومئذ بترميم ما بلي من المسجد الجامع الذي اشاده والده واصلح منبره ، وجدد العهد لابن عمه محمد على ولاية تلمسان ثم عاد الى فاس ؛ وبقي محمد هذا على ولايته مقيماً بعين الحوت الى وفاته بجبل وهران ، فخلفه يومئذ ابناؤه وحفدته . واستمرت هذه الولاية فيهم الى ان سقطت بيد موسى بن ابي العافية المكناسي عامل الشيعة سنة ٣١٩ ﻫ – ٩٣١ م ويومئذ خرج منها عاملها الادريسي الحسن بن ابي العيش وهو من اعقاب سليمان بن عبد الله الكامل ملتجئاً الى جزيرة ارشقول ؛ وانتشر الادارسة يومئذ بالمغرب العربي كله واعقبوا فيه ، ومنهم من استقل ببعض المدن الجزائرية ، فحكم بعضهم ارشقول ، وهي على خمسة عشر ميلاً شمال تلمسان ، ومنهم من سكن تنس ، ومنهم بترنانا على ثمانية اميال من ندرومة ، ومنهم بغليزان ومدكرة بنواحي مليانة ومنهم من حل بسوق ابراهيم بنواحي شهبونة والسرسو حيث مصب نهر اسلى في شلف وغيرها . وهي آخر المدن التي بايديهم وكل من هذه الاماكن والجهات كان مستقلاً بيد هؤلاء الادارسة لا ارتباط لهم مع امامة فاس الا في الدعاء على المنابر والسكة .

امارة متيجة

كانت لبني محمد بن سليمان العلوي ممالك متفرقة بالمغرب ، ومنها بالجزائر امارة متيجة هذه ، وهي ارض فسيحة كلها سهل واسع يمتد من العلمة شرقاً الى مارانكو غرباً ويحدها من جهة الشمال مدينة الجزائر ،

وجنوباً جبل بني صالح وبني ميسرة ، و « متيجة » اسم قاعدة هذه الامارة القديم ويقال لها ايضاً « قزرونة » ولعلها نفس المكان المدعو اليوم خزرونة قرب مدينة البليدة باميال . كانت هذه الولاية تحت ادارة وتصرف محمد بن جعفر عم ادريس الاول ؛ ومن نسله ابو فريك الكافر المسماة به ناحية بوفاريك الخصبة الشهيرة بسهل متيجة قرب البليدة ، فهو من ولد جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذكر ابن حزم ان نسله بمتيجة .

امارة هـــاز

هاز اسم مدينة قرب المسيلة بنواحي عين بوسيف يسكنها بنو يرناتن أو يرنيان من زناتة وهي عاصمة البلاد التي بين البويرة وجبال جرجرة الى قصر البخاري ونواحي زاغز الشرقي ، وتشمل سهل حمزة الفسيح المنسوب الى حمزة بن الحسن بن سليمان الطالبي العلوي مؤسس مدينة البويرة ، وبه ابناؤه اصحاب هذه الديار ، ومن الاماكن والبلاد المشهورة بهذه الامارة مدينة عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى ؛ وكان خراب هذه الامارة على يد زيري بن مناد الصنهاجي حين أخذ بمبادىء الدعوة العبيدية ـ الفاطمية ـ ثم أجلب عليها بعد ذلك جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي فقضى عليها .

متنبىء تلمسان ؟ ! ...

وفي هذا العهد ٢٣٧ هـ ـ ٨٥١ م ظهر بنواحي تلمسان رجل كان مؤذناً باحد المساجد هناك ولم يذكرنا لنا التاريخ اسمه ؟ .. فادعى النبوءة واخذ يفسر القرآن الكريم على غير وجهه ويحمله من المعاني ما يتبرأ منه الاسلام والعربية ، ونهى الناس عن خصال الفطرة قائلاً : لا تغيير لخلق الله ! ... فاجتمع عليه من الاوغاد من يصح فيهم قول القائل : انعق بما شئت تجد انصاراً ! ولما شعر بعزم الشرطة على القبض عليه ذهب الى مرسى

هنين فركب من هناك الى الاندلس فراراً من امير تلمسان ، وهناك في الاندلس فعل مثل ذلك بحيث اخذ في نشر دعوته فاجتمع عليه الانذال والاوباش فقبض عليه الامير فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه .

اختطاط مدينتي تنس ووهران

كثيراً ما كان البحارة الاندلسيون يرتادون السواحل الجزائرية والاماكن المنيعة منها امناً من الزوابع والاضطرابات البحرية ، وللتجارة ايضاً . وكان مما اعتادوا النزول به ساحل تنس ووهران ، وخاصة في الشتاء فانهم كانوا يقصدون ساحل تنس خاصة ، ولم يكن بذلك المكان يومئذ سوى قلعة فقط . وفي ذات يوم اجتمع عليهم سكان هذه الناحية ورغبوا منهم اتخاذ هذا المكان سوقاً لتجارتهم وسمحوا لهم باقامة ما شاؤوا من البنيان في تلك البقعة ، ووعدوهم بالعون والمساعدة وحسن الجوار والعشرة ؛ فلبى هؤلاء الاندلسيون هذه الرغبة واجابوهم الى ذلك فكان يومئذ تأسيس مدينة تنس سنة ٢٦٢ هـ — ٨٧٥ م على يد جماعة من الاندلسيين منهم ابو عائشة والصقر وصهيب والكركرني ... وسكن بها على الاخص اهل البيرة وتدمير من بلاد الساحل الاندلسي ؛ واصحاب تنس يومئذ هم ابناء ابرهيم بن محمد الحسيني ، وما كاد يتم اختطاط المدينة حتى اقبل على تعميرها ايضاً سكان سوق ابراهيم في اربعمائة بيت ، فاوسع لهم اهلها واشركوهم في اموالهم وتعاونوا جميعاً على انشاء المدينة واشادة بنيانها ؛ فأصبحت اذ ذاك عاصمة من عواصم القطر الجزائري ومركزاً علمياً ثقافياً اشتهر بها جماعة من العلماء منهم ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي مفتي مدينة الزهراء بالاندلس ... ثم خربتها الفيضانات وسيول المياه الدافقة سنة نيف وعشرين وستماية .

اما وهران فانها اسست كذلك على يد جماعة من الاندلسيين كانوا تجاراً ينتجعون مرفىء المدينة الاثرية « ايفري » بمعنى الكهوف ، بمشاركة نفزة وبني مسقن ويقال لهم مسرقين وكلاهما من قبيلة زداجة الزناتية ، وبذلك المكان تأسست مدينة وهران سنة ٢٩٠هـ — ٩٠٣ م . ومن هؤلاء الاندلسيين الذين شاركوا في هذا العمل العمراني الجليل : محمد بن ابي عون

ومحمد بن عبدوس في آخرين من بحارة الاندلس فاستوطنها هؤلاء سبع سنين ثم نشب الخلاف بينهم فخربت المدينة واضرمت فيها النيران ثم انشئت من جديد كما ستقف عليه في مكانه ؛ ويذكر المشرفي في بهجة الناظر : « ان الصحيح في تأسيس هذه المدينة انما يرجع الى ما يعرف عن خزر بن حفص بن صولات المغراوي فهو الذي انشأ مدينة وهران وبناها على سيف البحر الرومي كما امره بذلك امراؤه الامويون بالاندلس حيث كان يرجع اليهم بالولاء » . واشتهر من علماء وهران غير واحد ، فمنهم عبد الرحمن بن عبد الله الوهراني شيخ الحافظين الاندلسيين ابن عبد البر وابن حزم ...

المذاهب والعقائد

ما كان لهذا المغرب ان يتحد في عقيدته ومذهبه الا في عصر هذه الدولة الادريسية ؛ فانه بمجرد ما اطمأن ادريس الاول لتدعيم اركان دولته وتوطيد دعائم ملكه نهض للقضاء على ما كان بالمغرب من مختلف العقائد والاديان فقضى على بقايا اليهودية والنصرانية والمجوسية وناهض الخوارج والمعتزلة وجمع الناس على عقيدة السلف ودعاهم الى الاقتصار على مذهب الامام مالك وجاءهم بالموطأ فنشره بينهم ، ويقال ان أول من جاء بالموطأ الى المغرب هو علي بن زياد التونسي المتوفى سنة ١٨٣ هـ — ٧٩٩ م وان روايته للموطأ مشهورة بين الموطآت توجد منها قطعة صالحة بمكتبة القيروان العتيقة [١] وكان ادريس يقول نحن احق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه ، وذلك لرواية الامام في الموطأ عن والده عبد الله الكامل ، ولما كان يراه مالك ايضاً ويفتي به من خلع الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور وصحة البيعة لمحمد النفس الزكية اخي ادريس ؛ وقد لحق مالكاً في ذلك من المحنة والاذى ما لحقه [٢] ! ... فانتشر لذلك

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٠٠ ط تونس ١٩٦٣ م .

(٢) راجع الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٨٢ ط القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م وابن خلدون ج ٤ ص ٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

يومئذ المذهب المالكي بالمغربين الاقصى والاوسط كما نشره سحنون بالمغرب الادنى – تونس – فعمت المالكية المغرب الكبير مع ما في ذلك ايضاً من عقائد الزيدية والمذهب الشيعي .

الثقافة والحضارة والعمران

كان عهد الادارسة بالمغرب عهد عمارة وتأسيس وذلك ما تمتاز به الحضارة الادريسية ، فانهم كثيراً ما انشأوا مدناً مزدهرة ومبان فخمة وخاصة بالمغرب الاقصى اعظمها عاصمة فاس وسبتة ... اما في الجزائر فلم يكن لهم بها كبير اثر بسبب بعدها عن مقر الامارة ودار الملك ؛ وقد شاهدنا كيف تأسست مدينة تنس ووهران على يد الاندلسيين واكادير بتلمسان على يد ادريس الاول والبويرة على يد حمزة بن سليمان العلوي ، كما ان ابا العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان العلوي اسس مدينة جراوة سنة ٢٥٩ ﻫ – ٨٧٣ م وهي على مرحلة من وادي ملوية الى ناحية تلمسان ؛ وقد دعيت بهذا الاسم لكثرة من سكن بها يومئذ من اهل قبيلة جراوة ، وهي منعدمة اليوم ويذكر اليعقوبي مدينة تلمسان فيقول : « عليها سور حجارة وخلفه سور آخر من حجارة ايضاً ، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة »[1] . كما يمتاز هذا العصر – في اوله – بانتشار الرخاء وخفض العيش وكثرة الخصب حتى بيع وسق القمح بدرهمين وثلاثة دراهم ووسق الشعير بنصف ذلك ، والكبش بدرهم ونصف ، والبقرة باربعة دراهم ، وخمسة وعشرون رطلًا من العسل بدرهم واحد ، واما الفواكه والخضر والبقول والقطنية فلا سوم لها بحيث لا تباع ولا تشرى وليأخذ منها من شاء ما شاء ، ولقد دام هذا الرخاء واليسر عشرات السنين الى توالي ايام القحط والاوبئة الفتاكة ٢٥٣ – ٢٦٥ ﻫ ٨٦٧ – ٨٧٨ م فتغيرت الاحوال حينئذ وارتفعت الاسعار الى حد الشطط .

اما عن الحياة الثقافية والحركة العلمية فلا نعلم عنها يومئذ الا هذه

---

(١) كتاب البلدان ص ١٧ ط ليدن ١٨٦٠ م .

المؤسسة العلمية الضخمة التي احدثت بفاس : جامعة القرويين ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م التي هي اقدم الجامعات - بعد جامعة الزيتونة بتونس [1] - فكثر وفود العلماء عليها من كل ناحية وصوب ؛ وخاصة من اهل القيروان والاندلس .

اما عن الجزائر فقد حدثنا التاريخ عن عدة شخصيات لامعة جزائرية كان يشار لها بالبنان امثال الفضل بن سلمة البجاني وابي بكر بن يحيى الوهراني وغيرهما من مشاهير علماء الجزائر في التاريخ .

انهيار الجزائر الادريسية

اول ما يلاحظه طالب التاريخ في سقوط هذه الدولة هو انقسامها اولاً على نفسها ، فانه لما توفي ادريس الثاني وتولى مكانه ولده محمد قسم بلاد المغرب بين ابنائه واخوته وبني عمه وهم كثيرون ، فاقطعهم البلاد وجعل منهم في كل بلدة او ناحية اميراً مستقلاً لا يشاركه الامام الا في الدعاء له على المنبر فقط ! ... فكان هنالك من خرج عن طاعة الامام وبايع الامويين كأهل تيهرت وسجلماسة وذلك رغبة او طمعاً في نيل رتبة منهم او رهبة لقرب بلاده من ولايتهم . وهكذا تقطعت اوصال الحكومة الادريسية وتبعثرت وحدتها فتمرد الامراء والعمال وانحاز كل الى عمله ؛ وقد اكتنف الدولة يومئذ مطامع دولتين عظيمتين : الدولة الاموية بالاندلس ودولة العبيديين الفاطمية بتونس . ثم ان الحكومة نفسها لم تكن لتعتني بالشعب المغربي العناية اللازمة التي تتطلبها الظروف المكتنفة بها من حيث السياسة الخارجية ؛ مع شراسة اخلاق البربر ووضعيتهم الشاذة ؛ بل تركتهم على فطرتهم وطبيعتهم الفوضوية ينهضون مع كل ناعق ويتبعون كل ناعر ، حتى اذا صاح بهم داعي الشيعة العبيدي فسقطت فاس عاصمة الدولة بيده بسرعة ثم انتهت بالقبض على آخر

(١) تظافرت الروايات على ان المؤسس لهذا الجامع هو الامير عبد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ وتم تأسيسه سنة ١٤١ هـ (٧٣٢ - ٧٥٨ م) واما جامع القرويين فالفضل عائد في تأسيسه لامرأة بربرية من هوارة كانت تسمى بام البنين فاطمة بنت محمد الفهري .

ملوكها الامام الحسن الحجام[1] سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م وتأخرت قليلاً بعدها امارات الجزائر الى ان جاء دورها فسقطت سقوط اوراق الخريف الواحدة تلو الاخرى ؛ فأولها سقوطاً جراوة وكانت تحت الحسن بن ابي العيش عميد بني محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل فتغلب عليها موسى بن ابي العافية عامل العبيديين سنة ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م فانتقل اهلها يومئذ الى جزائر ملوية ومنها الى مدينة ارشقول ؛ فتعقبهم ابن ابي العافية واخلى منهم البلاد واستولى على جميع ملكهم سنة ٣١٩ هـ — ٩٣١ م ، ثم رفض موسى التشيع واتصل بعبد الرحمن الناصر بالاندلس ودعا الى الخلافة الاموية . ثم كان سقوط ولاية تنس التي كان يرأسها علي بن يحي فانتصر عليه زيري بن مناد الصنهاجي حليف العبيديين سنة ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م فلحق يومئذ علي بالخير بن خزر المغراوي صاحب وهران مستنصراً به وبعث بولديه الى الناصر الاموي بالاندلس ، ثم عاد زاحفاً على تنس فلم يظفر بها فكان ذلك آخر العهد بالدولة الادريسية بهذه الديار وقد عمرت بالجزائر مائة وسبعين سنة . اما في اقصى المغرب حيث كان مركز خلافتها فقد تقدم انهيارها عن امارات الجزائر باحدى وثلاثين سنة ، ولقد نهض بعض الادارسة بعد ذلك يحاولون اعادة مجدهم فلم ينجحوا .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان محمد بن خزر المغراوي هو صاحب تلمسان قبل ولاية هذه الدولة على المغرب ، ولما احتلها ادريس الاول ولى عليها رجلاً يعرف بابن العلاء ، ثم كانت من اقطاعات سليمان بن عبد الله اخي ادريس ثم خلفه عليها ابنه محمد ، ثم احد اخوان ابناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد الزناتي . ولما تولى الخلافة محمد بن ادريس الثاني جعل المغربين الاوسط والاقصى اوزاعاً بين اخوته واقاربه فكانت تلمسان واعمالها لاخيه حمزة ، ثم تولاها ابو العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان

---

(١) كان ينعت بذلك لشجاعته وطعنه لاعدائه في المحاجم .

وتوارثها عنه ابناؤه من بعده الى زمن ظهور بني عبيد. وكان على امارة متيجة بنو جعفر بن حسن عم ادريس الاول ومنهم ابو فريك الكافر، وعلى تيهرت الحسن بن محمد بن سليمان، وعلى امارة هاز ابناء الحسن بن سليمان، وعلى مدينة مدكرة بعيد متيجة محمد بن سليمان ثم ولده، وعلى سوق ابراهيم، عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان؛ وعلى مدينة انمالتة قبل وادي ملوية غرباً: محمد بن علي بن سليمان؛ وكان على مدينة ارشقول على ضفة نهر التافنا عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان الى وفاته سنة ٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م فتولاها بعده ابنه ابراهيم المعروف بالارشقول ثم يحي بن ابراهيم، ثم اخوه ادريس بن ابراهيم الى ظهور الشيعة عليه سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م وتولى قضاءها يومئذ عيسى بن جنون، وكان على مدينة جراوة - على ستة اميال من البحر وعلى مرحلة من ملوية الى ناحية تلمسان - ادريس بن ابراهيم ثم ولده الحسن. وكان للحسن هذا ولد يدعى بعبد الله الترناني لولايته على ترنانا وهي على مرحلة من تلمسان، وكانت ولاية مازونة وتنس ومستغانم لابراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده ثم ليحيي بن محمد ثم لعلي بن يحيي الى ان تغلب عليه زيري بن مناد سنة ٣٤٢ هـ - ٩٥٣ م الى الجبر بن محمد بن خزر. وجاز ابناه حمزة ويحيي الى الناصر بالاندلس فتلقاهما رحباً وتكرمة ورجع منهما يحيي الى طلب تنس فلم يظفر بها - وهكذا اقتسم الطالبيون المغرب الاوسط بينهم كما فعلوا ايضاً بالمغرب الاقصى.

قال ابن خلدون: وسليمان بن محمد بن ابراهيم من رؤساء المغرب الاوسط وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وبطوش بن حناتش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جداً وكان لهم بها ممالك وقد بطل جميعها ولم يبقَ منهم بها رئيس بنواحي بجاية، وحمل بني حمزة هؤلاء جوهر الى القيروان وبقيت منهم بقايا في الجبال والاطراق معروفون هناك عند البربر [١].

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ.

أئمة الدولة الادريسية وخلفاؤها

تاريخ التولية

ادريس الاول بن عبد الله الكامل (٤ رمضان – ٥ فيفري) ١٧٢ هـ – ٧٨٩ م
ادريس الثاني بن ادريس الاول (فاتح جمادى الثانية – ١٣ سبتمبر) ١٧٧ هـ – ٧٩٣ م
محمد بن ادريس الثاني (ربيع الاول – ماي) ٢١٣هـ – ٨٢٨ م
علي الاول بن محمد (ربيع الثاني – مارس) ٢٢١هـ – ٨٣٦ م
يحيي الاول بن محمد (رجب – جانفي) ٢٣٤هـ – ٨٤٩ م
يحيي الثاني بن يحيي الاول » »
علي الثاني بن عمر » »
يحيي الثالث بن القاسم » »
يحيي الرابع بن ادريس ٢٩٢هـ – ٩٠٤ م
الحسن بن محمد بن القاسم الحجام ٣١٠هـ – ٩٢٢ م
موسى بن ابي العافية (مغتصب) ٣١٣ هـ – ٩٢٦ م
القاسم كنون بن ابراهيم بن محمد
ابو العيش احمد بن كنون ٣٣٧ هـ – ٩٤٨ م
الحسن بن كنون ٣٤٣ هـ – ٩٥٤ م

من مشاهير الجزائر

الفضل بن سلمة البجائي

٣١٩هـ ـ ٩٣١م

الحافظ الحجة والفقيه الضليع الفضل بن سلمة بن جرير الجهني البجائي اخذ عن مشيخة بلده ثم ارتحل الى افريقية فلقي بها ابن مجلون والمغامي احمد بن سليمان ويحيى بن عمر ولازم منهم العالم حماسا ومن في طبقته من العلماء فذاع صيته يومئذ ونبه ذكره ، وارتحل اليه الناس للتلقي عنه فتخرج على يديه جم غفير من ذوي المكانة العلمية والتحقيق العلمي الدقيق ، منهم ولده ابو سلمة واحمد بن سعيد بن حزم وسعيد بن عثمان ومحمد بن عبد الملك الخولاني واحمد بن خالد ، وابو العرب ومحمد بن النجار في آخرين من اهل الاندلس والقيروان ، وله من التآليف : مختصر المدونة والواضحة والموازية ، وله كتاب جمع فيه مسائل الموازية والمستخرجة . توفي رحمه الله سنة ٣١٩هـ ـ ٩٣١م

ابو بكر يحيى الوهراني

٤٣٠هـ ـ ١٠٣٩م

المحدث الكبير ابو بكر بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن يحيى القريشي الجمحي الوهراني ، روى عن الفتية ابي محمد عبد الله بن ابراهيم الاصيلي وابي عمر الاشبيلي وعباس بن اصبغ وابن العطار وابي نصر النحوي وآخرين ... وعنه تخرج ابو حفص عمر بن الحسن الهوزني وابو محمد بن خزرج وقال في شيخه الوهراني : كان شيخنا هذا متصرفاً في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم ، وكان علم الحديث اغلب عليه ، توفي حدود سنة ثلاثين او احدى وثلاثين واربعمائة هجرية ـ ١٠٣٩ م .

جدول تاريخي

١٧٢ _ ٣٧٥ هـ

٧٨٩ _ ٩٨٥ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٧٢ هـ = ٧٨٩ م	تأسيس الدولة الادريسية ومبايعة ادريس الاول بالامامة (٤ رمضان ـ ٥ فيفري) .
١٧٣ هـ = ٧٩٠ م	اذعان تلمسان للادراسة (رجب ـ ديسمبر) .
١٧٤ هـ = ٧٩٠ م	تأسيس المسجد الجامع بأكادير ـ تلمسان ـ (صفر ـ جوان)
١٩٢ هـ = ٨٠٧ م	تأسيس مدينة فاس .
١٩٩ هـ = ٨١٤ م	قضاء ادريس الثاني على ثورة الصفرية وتفزة بتلمسان .
٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م	تأسيس جامعة القرويين بفاس (فاتح رمضان ـ ٣٠ نوفمبر)
٢٥٩ هـ = ٨٧٣ م	تأسيس مدينة جراوة قرب تلمسان ـ لا وجود لها اليوم .
٢٦٢ هـ = ٨٧٥ م	تأسيس مدينة تنس .
٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م	تأسيس مدينة وهران .
٣١٧ هـ = ٩٢٩ م	انتصار ابن ابي العافية على امارات الادارسة بالجزائر والمغرب الاقصى .
٣١٩ هـ = ٩٣١ م	سقوط ولاية تلمسان بيد الشيعة العبيديين .
٣٤٢ هـ = ٩٥٣ م	قضاء زيري بن مناد ـ عامل صنهاجة وحليف العبيديين ـ على امارة تنس .
٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م	نهاية عصر الادراسة بالمغرب الاقصى .

الدّولة الأغلبيّة

١٨٤ ــ ٢٩٦ ﻫ

٨٠٠ ــ ٩٠٩ م

نشأتها

كانت ولاية افريقية الشمالية بأواخر القرن الثاني الهجري تحت امرة محمد بن مقاتل العكي – رضيع هرون الرشيد – فهو الذي كان يومئذ اميراً بالقيروان وبيده زمام هذه الولاية العربية بافريقية وكان لسوء سلوكه مع الرعية وحيفه واستبداده وجوره ان كرهه الناس وثاروا ضده سنة ١٨٣ ﻫ – ٧٩٩ م ومعهم يومئذ عامل تونس تمام بن تميم ، فانهزم ابن مقاتل وحاول الفرار من الثائرين الى دار الامارة بالقيروان ، فحال الناس بينه وبينها فعرج يومئذ على مدينة طبنة عاصمة الزاب الجزائري مستنجداً بعاملها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي فأخذ بيده العامل وخرج معه الى قمع هؤلاء الناقمين فهزمهم وكسر من شوكتهم ، وعاد الامير منتصراً الى مركزه بالقيروان ، ولكن الرعية بقيت على كراهيتها له وعملت على خلعه بمداخلة ابراهيم بن الاغلب وحثه على توليه الامارة ؛ فكاتب ابراهيم الخليفة في ذلك ملتزماً له بدفع اربعين الف دينار سنوياً الى دار الخلافة ببغداد واسقاط ما كانت تتقاضاه هذه الامارة من النفقات : (مائة الف دينار) من خزينة الدولة العباسية لتنفق بمصالح افريقية وان يتولى ابراهيم قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق منها في مصالح الدولة بالمغرب

ما يشاء ولا يكون مطالاً لهم اللافة العباسية الا بما تعهد به للخزينة وهذا ما يسمى بتضمين الخراج او تقبيله . فاستشار يومئذ الخليفة رجال السلك السيامي في ذلك فاستصوبه اهل الرأي منهم واشاروا عليه بقبوله نظراً لثقل كاهل الدولة العباسية الناشئة بولاياتها المترامية الاطراف من الهند والصين شرقاً الى المغرب الاقصى وبلاد الاندلس غرباً ؛ ودفعاً للدعوة العلوية التي اقامها لنفسه المولى ادريس بن عبد الله بالمغرب ؛ وحينئذ اصدر هرون الرشيد امره في اواسط جمادى الثانية ١٨٤ هـ – جوان ٨٠٠ م بعزل محمد بن مقاتل العكي عن ولاية افريقية وتولية ابراهيم بن الاغلب عليها وجعلها وراثية في عقبه ومنحه شبه استقلال داخلي ؛ وهذا ما يسمى في اصطلاح الادارة ونظام الحكم العباسي بأمره الترفيض او الاستكفاء وهي الامارة العامة . وهو يرمي بذلك الى تمكين المغرب من الدفاع عن حوزة الخلافة العباسية امام الدولتين الناشئتين بالمغرب : دولة العلويين – الادريسية – القائمة يومئذ بالمغرب الاقصى ، ودولة الامويين بالاندلس ، ومن هنا ابتدأ استقلال افريقية الذاتي ، فكانت بذلك ولاية المغرب هي اول من استقل بالحكم من الولايات العباسية في العالم الاسلامي يومئذ وكان مما ساعد الاغالبة على الاقدام على هذه الخطة هو بعد موقع البلاد عن دار الخلافة العباسية ومساندة البربر لهم على ذلك في اول الامر .

نظامها الحكومي

الحكومة الاغلبية حرة في داخليتها تابعة اسماً للخلافة العباسية في ظاهرها يدير امورها اميرها او الملك [1] المقيم بالقيروان فهو صاحب النفوذ الاعلى على جميع المملكة الممتدة من طرابلس الى الحضنة والزاب الجزائري ؛ ويعاضده في ذلك وزيراه فهما المتصرفان في انواع مصالح الدولة الاربعة : البحرية ، والحربية ، والمالية ، والبريد ، ولكل من هذه النواحي الاربع

---

(١) كان لقب الملك شائعاً عند ولاة الأطراف والعمال بالدولة العباسية . راجع ابن خلدون ج ١ ص ٦٢ ط القاهرة ١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦ م .

رئيس مفوض مسؤول عن ادارة كل واحدة منها ولكل ادارة كتاب ، وفوق ذلك كله منصب الحجابة ، فالحاجب عندهم بمنزلة مدير التشريفات اليوم ، واما الجند فأنه يشتمل على اربعة فيالق ، وكل فيلق منها مختص بطبقة او صنف من الناس ؛ وهم ما بين عرب وعجم وبربر وعبيد سود ، والكل مأجور ، وهم ينقسمون حسب اعمالهم الى ثلاثة اقسام : الحرس الملكي ، والجيش البري والجيش البحري ، وسلاحهم جميعاً السيوف والرماح والحراب والاقواس والدروع والدرق وما كان مستعملاً كذلك يومئذ من بعض الآلات وادوات الحرب مثل المنجنيق والكبش والدبابة الخ ... ويرجع امر الجيش كله الى تصرف مصلحة الجيش العامة وقيادة الحرب العليا ؛ وللحكومة الاغلبية اسطول ضخم عتيد توصلت به الى الاستيلاء على سواحل مملكة فرنسا وايطاليا وجزائر كورسيكا وسردانيا وصقلية ، وهو يشتمل على عدة قطع فيها اشكال وانواع من هيآت السفن البحرية ؛ من اغربة وشواني وطردات وحراقات الخ ... قال ابن خلدون : وكان ولاة افريقية من الاغالبة ومن قبلهم ايضاً يرددون عساكر المسلمين واساطيلهم من العدوة حتى غلبوا — الافرنج — على الجزر البحرية ونازلوهم في بسائط عدوتهم [١] . قال ابن حمديس الصقلي السرقوسي يمدح ابا يحيى الحسن بن علي بن يحيى :

انشأت شواني طائرة	وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها	في شم شواهقها قننا
ترمي ببروج ان ظهرت	لعـدو مخرقة بطنا
وبنفط ابيض تحسبه	ماء وبه تذكي السكنا
ضمن التوفيق لها ظفرا	من هلك عداتك ما ضمنا

ولقد خلد تاريخ الاسطول الاغلبي ذكراً حسنا وصفحة ماجدة في تاريخ البحرية العربية الافريقية مما يبعث المغربي على المفاخرة والمباهاة به . ومنذ يومئذ اصبحت دولة الغرب الاسلامي دولة بحرية .

---

(١) العبر ج ٤ ص ٢٠٠ — ٢٠٥ و ج ٦ ص ٢٩٠ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

واما القضاء فانه كان اولاً من خصوصيات الخليفة فهو الذي يبعث برسم ولاية القضاء لمن يستحقه من صدور العلماء وأئمة الفقه والتشريع ، وللقاضي التفويض في اصدار احكامه في جميع الحوادث والقضايا التي من شأنها ان ترفع الى القضاة من احكام الدماء او غيرها من المعاملات ، وله ان ينيب عنه من يتولى الحسبة والشرطة وغيرها من المناصب التي تعينه على فصل النوازل والقضايا اليومية التي تجري بالقرى والاسواق . ولهذه الدولة عملتها الخاصة وسكتها المضروبة باسم ملوكها ، ومصدرها الخراج والجباية ، ولها علاقات ودية وتجارية مع دول اوروبا المجاورة لها .

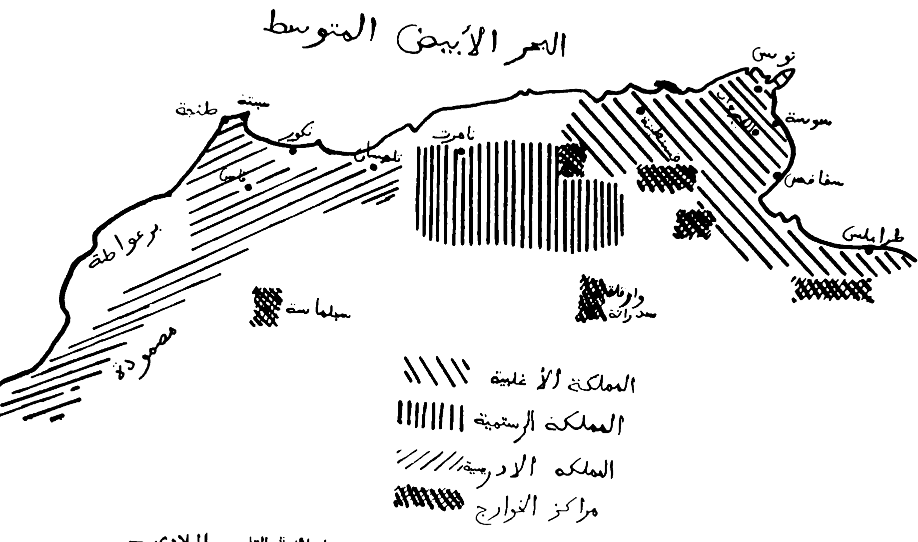
وفيما يرجع الى مبلغ جباية هذه البلاد فالمنقول عن قائمة ابن خلدون انه كان يبلغ على عهد الخليفة المأمون الى ١٣٠٠٠٠٠٠ درهماً و ١٢٠ بساطاً ، وخراج الفدان الواحد كان يبلغ ١٨ ديناراً ؛ ولا يستبعد ان يستمر الاغالبة على تسديد هذا المبلغ الى ايام المأمون ، ذلك لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون المغرب او بالاحرى افريقية من مملكتهم أيام الاغالبة وكانوا يعينون الولاة عليهم من بغداد باعتبار ان الاغالبة تحت هؤلاء الولاة [1] .

حدود الجزائر الاغلبية

كان المغرب العربي منذ عهد الفتح الاسلامي الى انتصاب هذه الدولة منقسماً الى خمسة اعمال : طرابلس ونواحيها الى حدود برقة ؛ وقسطيلة وهي بلاد الجريد اليوم وعاصمتها مدينة توزر ؛ وتونس وما حولها من شمال القطر التونسي ؛ وبلاد السوس او المغرب الاقصى وعاصمته يومئذ مدينة طنجة ؛ والخامس من هذه الاعمال هو بلاد الزاب الجزائري وقاعدته مدينة طبنة – شرقي الحضنة – وتارة بسكرة ويمتد الى جنوب عمالة قسنطينة ؛ وكانت الحدود الاغلبية بهذا القسم تمتد من سكيكدة شرقاً الى وطن زواوة غرباً ، ومن ميلة وسطيف شمالاً الى شط الجريد جنوباً ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨ ط بولاق ١٢٧٤ ﻫ – تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٥ – ٩٠ ط القاهرة ١٩٥٨ م .



المغرب العربي في القرن الثاني والثالث الهجري — اوائل التاسع الميلادي —
(نقل وتعريب غالب الجيلالي ابن المؤلف عن تاريخ افريقية الشمالية لاندري جوليان)

ويصح ان نقول هي عمالة قسنطينة بحدودها المعروفة اليوم مع شيء قليل من التغيير ، وذكر اليعقوبي مدينة اربة فقال هي آخر مدن الزاب بما يلي المغرب في آخر عمل بني الاغلب ، ولم يتجاوزها المسودة . يعني بني العباس . ولكل من هذه الاعمال عامل يتصرف في دائرته الخاصة به تحت سلطة دار الامارة العليا بالقيروان . والباقي من ارض الجزائر موزع بين دولة الرستميين شرقاً ودولة الادراسة غرباً . وقدرت مساحة القطر الجزائري يومئذ بـ ١٨٤٥٠٠ ميلاً .

اهم الاحداث الجزائرية

ليس هنالك ما يهم ذكره في تاريخ الجزائر في هذا العصر سوى بعض الوقائع والاضطرابات التي حدثت بالزاب ، واغلبها يرجع الى نفور الشعب الجزائري من سوء معاملة السلطة الحاكمة المتمثل في ظلم بعض ولاتها وجورهم . وقد قام بعملية القمع والزجر يومئذ ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب فقضى على اهل الزاب قاطبة كبيراً وصغيراً وحملهم على العجل – عربات النقل – فألقاهم في الحفر سنة ٢٦٨ هـ – ٧٨١ م كما اوقع ايضاً بأهل بلد بلزمة – على مسافة ٢٧ كيلو متراً في الشمال الغربي من مدينة باتنة – سنة ٢٨٠ هـ – ٨٩٣ م . وقام بمثل ذلك ابو العباس ابن ابراهيم الاغلبي سنة ٢٨٦ هـ – ٨٩٩ م فاوقع بني بلطيط ببسكرة فقاتلهم وشردهم في البلاد ؛ ثم كان منه بعض اصلاح لما جرته هذه الوقائع من التخريب والتدمير . وعاد ابو عبد الله الاغلبي بأمر والده ابراهيم بن احمد الى اهل الزاب فحمل عليهم في جيش عظيم سنة ٢٨٨ هـ – ٩٠١ م . ثم كان استيلاء محمد بن خزر الزناتي وتغلبه على الزاب سنة ٣١٩ هـ – ٩٣١ م فسقطت بسكرة بيده . وذلك كله يعود الى انزعاج الاهالي من جور الحكومة وشططها في المغرم وتأبيها عن طبقات الشعب المغربي . ويمكن ان يلاحظ كذلك ما حدث يومئذ ٢٥٣ – ٢٦٥ هـ (٨٦٧ – ٨٧٨ م) من القحط والجدب الشديد الذي عم المغرب والاندلس وما

اعقبه ايضاً من المجاعة الكبرى التي حملت الناس على اكل بعضهم بعضاً ؟ ! ...
فاذا استحضرنا كل ذلك علمنا اسباب الاضطراب الواقع يومئذ بالجزائر ايام بني الاغلب .

ظهور ابي عبد الله الشيعي

لقد كان جميع ما تقدم ذكره من الظروف القاسية التي احاطت بالشعب الجزائري وما كان من تعسف بعض امراء بني الاغلب فرصة سانحة لظهور دعاة الشيعة في الجزائر وانتشار مبادىء دعوتهم بها ، والتبشير بقرب انهيار ملك الاغالبة وظهور المهدي المنتظر وقيام حكومة عادلة تحت طاعته وامره ، فكان ظهور هذه الدعوة الشيعية اولاً ببوادي الرمل (سوق حمار) بنواحي قسنطينة ، ومرماجنة – ما بين مجانة وسبيبة – سنة ٢٧٩ هـ – ٨٩٢ م ، ثم كان ظهور داعي الدعاة الاكبر ومعتمد المهدي العبيدي بهذه البلاد ابي عبد الله الشيعي الصنعاني ، فظهر بارض فرجيوة من بلاد كتامة [١] منتصف شهر ربيع الاول سنة ٢٨٠ هـ – اوائل جوان ٨٩٣ م ، وقد سبق له التعرف ببعض رؤساء هذه القبيلة العتيدة في الحج ، فنزل عليهم ضيفاً مكرماً واخذ في نشر دعوته بينهم عشر سنين الى ان افتضح امره للامير ابراهيم الاغلبي الاصغر ، فبعث الى عامله على الزاب موسى بن العباس يستطلعه خبر ابي عبد الله الشيعي ، فهون هذا عليه الامر واجابه بان الرجل بعيد عن مظان التهم ! ؟ ...
وانه رجل دين وتقشف لا غير ، فلم يقنع الامير الاغلبي بجواب عامله ولم يطمئن لتعليله هذا فبعث من يكفيه مؤونة الشيعي بمخالطته والاتصال به حتى يقف على حقيقة امره بنفسه فكان الامر كذلك ، وبعد ما اتضح امر الشيعي وانكشف حاله خاطبه الامير بواسطة رسوله هذا قائلا

---

(١) هي من أشهر القبائل الجزائرية الكبرى ، تسكن الفحوص والسهول والجبال فيا بين قسنطينة وبجاية ، يوجد منها بعض البطون بجبال اوراس ، وهي من اشد القبائل بأساً واطولها باعاً في الملك ؛ ولها افخاذ وبطون منتشرة بالمغرب الاوسط .

له : ما حملك على التعرض لسخطي والوثوب على ملكي وافساد رعيتي والخروج علي ؟ ... فان كنت تبغي عرضاً من عرض الدنيا فانك تجده عندي ، وان كان قصدك غير ذلك فلقد علمت عواقب من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك . وانما اردت الاعذار اليك ، وهذا اول كلامي لك وآخره فانظر في يومك لغدك ! ... فاجاب الشيعي رسول الامير بقوله : قد قلت فاسمع وبلغت فابلغ ، اما ما ذكرت من التهديد فما انا ممن يروع بالايعاد ؛ واما تخويفك اياي برجال دولتك ابناء حطام الدنيا فاني في انصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا تروعهم كثرة انصار الظالمين مع قول الله عز وجل (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) واما اطماعه لي في دنياه فلست من اهل الطمع فيما عنده ، انما بعثت رسولاً لامر حُمَّ وقرب وانجاز وعد من الله سبق والله لا يخلف الميعاد ، هذا جواب ما جئت به . وما كاد ينتشر تصريح الشيعي هذا بين الاوساط الاغلبية حتى تآمروا على قتله والفتك بـــه لولا ان فرقتهم السياسة ، فخلص يومئذ داعي الشيعة الى غرضه ونجح ...

محـــاربة الشيعي

وبعد ما تحقق الاغالبة الخطر في جانب هذا الداعي الشيعي الكبير وادركوا ان ملكهم مهدد بالزوال عزموا على مقاتلته . فخرج اليه ابو عبد الله الاحول بن الامير الاغلبي سنة ٢٨٩ هـ — ٩٠٢ م فنازله بنواحي طبنة ، على نحو اربع كيلومترات من شمال بريكة ، وكان النصر بينهما سجالاً ...

زحف الشيعي على عمالة قسنطينة

وفي نفس التاريخ غزا ابراهيم الاصغر جزيرة صقلية وخلف ابنه ابا العباس وصياً على العرش واوصاه بمراقبة موقف الشيعة من المملكة والدفاع عن الحوزة وكان من المقدر ان توفي الامير الاغلبي في غزوته هذه سنة

٢٨٩ هـ - ٩٠٢ م ، ودفن بصقلية . فخلفه ولده ابو العباس على امارة افريقية ، فسكن الشيعة يومئذ الى ان تهيأت لهم الفرصة باشتغال الامير ابي العباس بولده ابي مضر والي صقلية حيث انكر عليه والده اشياء فعزله وادخله السجن سنة ٢٩٠ هـ - ٩٠٣ م ، فاغتاظ لذلك ابو مضر وعمل الحيلة للتخلص من السجن والقضاء على والده فقتله وجلس على عرش الاغالبة بالقيروان ليلة الاربعاء ٢٩ شعبان ٢٩٠ هـ - فاتح جوليت ٩٠٣ م واعمل السيف في جميع من كان مظنة الخروج عليه من اهله واقاربه وبني عمه ويومئذ اندفعت الشيعة لاختلاس الفرصة من بين هذه الظروف والزوابع الحرجة القائمة يومئذ في بيت الملك فزحف ابو عبد الله الشيعي على بلاد كنامة فاحتلها ودخل ميلة وباغاية وسطيف وبلغت جيوشه الى مجانة فاصبحت جميعها تحت طاعته وامره .

منازلة كتامة

استمرت الوقائع والحروب بين جموع الشيعة والاغالبة بنواحي كينونة ؟ ... وكان النصر فيها للشيعة ، ويومئذ حشد زيادة الله الثالث جموعه وفيالقه وجمعهم كلهم تحت قيادة حاجبه أبي المقارع ومعه شبيب القمودي وخفاجة العبسي يعاضدانه وخرجت الكتائب سنة ٢٩٣ هـ - ٩٠٥ م ، لمقاتلة كتامة المهالئة يومئذ للعدو فكانت هنالك وقائع حربية هائلة قتل فيها عدد عظيم من الطرفين وكان ذلك مقدمة لانهيار قوى الاغالبة وضعفها بالمغربين : الجزائر وتونس .

المذاهب والعقائد

لا يخفى ما كان لقاضي قضاة الخلافة العباسية ابي يوسف صاحب ابي حنيفة من نفوذ الكلمة والسطوة والمشورة عند خلفاء بغداد والمقام السامي الذي كان يحتله بين رجال البلاط العباسي وخاصة الخليفة الرشيد نفسه المسيطر على جميع الولايات الاسلامية يومئذ ، وما الامارة الاغلبية الا

صنيعته ، فكان من الطبيعي ان تأخذ هذه الامارة بتقاليد دار الخلافة فتقلدها فيما تدين به من المذاهب والعقائد وخاصة في تشريع الاحكام والقوانين التي يجري عليها نظام الحكم في البلاد ؛ فكانت الدولة الاغلبية بذلك حنفية ؛ ثم انه لا يخفى كذلك ما كان يتمتع به تلامذة المدرسة المالكية من الجاه والحرمة والتقدير عند الشعب خاصة ، مثل أبي القاسم الزواوي تلميذ الامام مالك ، وأسد بن الفرات وسحنون بن سعد ، وما قام به ادريس بن عبدالله الكامل بالمغرب الاقصى من نشر المذهب المالكي وأخذ الامة المغربية به ، وما كان كذلك ليحي الليثي من الحضوة والسلطان لدى خلفاء بني أمية بالاندلس الخ ... فكل ذلك كان عاملاً قوياً في نشر المذهب المالكي . بالمغرب ، فاجتمع يومئذ بالمغرب المذهبان الحنفي والمالكي وقد عرف الناس مع ذلك مذهب الشافعي وداود ولكنه بقلة ، وفي ذلك يقول عياض في مقدمة كتابه المدارك :

واما افريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين الى ان دخل علي بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدهم اسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يفشوا الى ان جاء سحنون فغلب في ايامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الاقطار الى وقتنا هذا (٤٧٦ - ٥٤٤ هـ) وكان بالقيروان قوم قلة في القديم اخذوا بمذهب الشافعي ، ودخلها شيء من مذهب داود (الظاهري) ولكن الغالب عليها اذ ذاك مذهب المدينة والكوفة . وروى ابن البزاز الكردي في تاريخه بسنده عن عبدالله بن عبيدالله قال : رأيت أبي يناظر في المسجد الحرام رجلاً غريباً في المسائل الدقاق وحوله جماعة ، فقال له ابي من أين أنت ؟ ... قال : من طنجة أقصى بلاد المغرب ليس وراءه اسلام ، من مكة على رأس الف وخمسمائة فرسخ أو أكثر ، قال : وكيف وقعت هذه الدقائق عندكم ؟ ... قال : وقعت عندنا كتب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ؛ وقد تذكر عندنا أقاويل الامام مالك والاوزاعي ،

وفتوانا على رأي أبي حنيفة[1] وطالما شاهدنا الخلاف قائماً بين اتباع المذهبين المالكي والحنفي وكثيراً ما تفاقم الخلاف والجدل بين الحاكم والمحكوم حتى بالغ الولاة في البطش بمخالفيهم الى حد القتل في بعض الاحيان ، ولكن المالكية تصلبوا في التمسك بموقفهم الى النهاية . ولقد استمر مذهب أهل العراق سائداً بالمغرب بجانب المذهب المالكي الى أواخر القرن الثالث الهجري حيث أفل نجمه الى العهد التركي في القرن العاشر الهجري فأخذ به بعض أهل الحواضر الجزائرية أي حيث يغلب وجود الاتراك .

وكانت العقائد ومباحث أصول الدين بعيدة عن الآراء الفلسفية والمذاهب الاعتزالية فالايمان البسيط الواضح عندهم كاف في صحة عقيدة المسلم ، وكيف يستطيع أهل الجدل الديني التظاهر بعقيدتهم أو المناظرة في علم الكلام في دولة منع قاضي قضاتها الصلاة خلف المتكلمين الذين يجادلون في الصفات ؟ ! ...

الثقافة والحضارة والعمران

يمتاز عصر الاغالبة هذا بكثرة عقد الرحلات في طلب العلم . وكتب التراجم حافلة بذكر اسماء العلماء من أهل المغرب الذين أخذوا علمهم عن مالك وابن القاسم ومحمد بن الحسن وسفيان بن عيينه واضرابهم من ائمة المشرق ؛ وشاع يومئذ بين الناس التعليم العام والخاص في المساجد والكتاتيب وغيرها وعلى الخصوص علم الفقه والتشريع ، ولقد خصص الخليفة المنصور (الجزائر) ببعثة من الفقهاء فجاءت الى هنا واستقرت بمدينة مرمى الخرز — القالة — وكان مما انيط بهذه البعثة علاوة على ما عهد اليها من نشر الاحكام الشرعية بين الناس انها تتولى جباية أموال الزكاة ، وما فعل ذلك المنصور الا خدمة للدين ، وذلك لعلمه بشدة حاجة الناس اليه

---

(١) مناقب الامام الاعظم لابن البزاز الكردي ج ٢ ص ١٠٥ ط حيدر آباد الدكن ١٣٢١ هـ .

يومئذ حيث انهم لا يزالون حديثو عهد بنظام الاسلام وقوانينه التشريعية . فكثير من الجزائريين اشتهروا بالتفوق الادبي وحازوا عــلى الرئاسة في العلم ببلدهم وفي غيرها كذلك ، مثل محمد بن حسين الطبني واسحاق الملشوني وأحمد بن علي الباغائي وأبي القاسم يوسف البكري وأبي الفضل عطية الطبني وهو القائل :

قالوا التحى وانكسفت شمسه ومــا دروا عذر عذاريه
مرآة خديه جلاهــا الصبى فــلاح فيهــا في صدغيــه

كما انتشرت يومئذ بالمغرب علوم الحكمة والفلسفة والطب على يد العـالم الحكيم ابي يعقوب اسحاق بن عمران البغدادي فقد استدعاه الامير زيادة الله الثالث لمعالجته حين اصيب بمرض اعجز الاطباء علاجه ، فجاء هذا الى القيروان ومعه ابو الحسن بن حاتم ؛ وكان ابو يعقوب هذا ماهراً حاذقاً في صناعة تأليف الادوية المركبة والبسيطة بصيراً بتفرقة العلل واسع الاطلاع عــلى علوم الفلسفة جيد القريحة ، فاستوطن القيروان سنة ٢٩٣ هـ - ٩٠٥ م وبها الف كتبه ونشر علمه وعنه اخذ المغاربة الطب والفلسفة ؛ ولا ننس كذلك فضل علي بن نافع الملقب بزرياب وما جاء به من علم وادب وفن الى بلاد المغرب ايام مكثه بالقيروان في طريقه الى الاندلس ؛ وكان مما زان هذا العصر ايضاً نبوغ احمد بن الجزار صاحب كتاب « زاد المسافر » الجامع للمعلومات الطبية المتعارفة في وقته واليه يرجع الفضل في انتشار هذه العلوم بأوروبا ابان القرون الوسطى كما اعترف بذلك كبار دكاترة الغرب انفسهم . وتعتبر اعمال هؤلاء جميعاً النواة الاولى لتأسيس دار الحكمة في القيروان .

وذكر ابن جلجل في طبقات الاطباء : انه لم يكن في الاندلس لغاية عهد اميرها عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٧ - ٢٣٨ هـ) الا اطباء نصارى يعتمدون في علمهم ودراستهم على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له الابريشم ومعناه المجموع او الجامع .

ثم يذكر ابن جلجل عهد الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ - ٢٧٣ ه) والامير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ ه) فيقول : انه برع بعض الاطباء على عهد هذين الاميرين ولكن لم تعرف لهم مؤلفات ، اما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ ه) فظهر بعض الاطباء الذين بدأوا بتأليف الكتب [١] ...

واذا كان شأن الطب والاطباء المسلمين يومئذ هكذا بالاندلس والدولة الاموية قائمة هنـــاك مستكملة لقواعد الخلافة والملك ، صحيحة الدعائم ، والحضارة الاسلامية آخذة في الاندفاع نحو التقدم والرقي ، فكيف يكون حال المغرب العربي وهو كما علمت احدث عهداً بالحضارة الاسلامية والثقافة العربية بالنسبة الى الاندلس ؟ ... فلا شك انه كان متخلفاً ، ولا ننس ان اقليم الاندلس هو مما كان يعد مع الاقطار المغربية .

ويرجع الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه (دراسات عن العصر العباسي الاول) ان يكون مصدر قصة الساعة المهداة من طرف الخليفة هارون الرشيد الى شرلمان هو ان نفراً من تجار المغرب ارادوا ان تكون لهم حظوة عند ملك فرنسا لتيسير اعمالهم التجارية فزعموا انهم رسل الخليفة وحملوا اليه الهدايا ومنها هذه الساعة الدقاقة [٢] ? ...

ثم ان هذه الدولة عرفت كيف تستثمر خلاصة حضارات من تقدمها من الدول العظيمة الكبرى التي حكمت هذه البلاد مثل دولة الفنيقيين والرومان ، فانها انتفعت بما احدثه هؤلاء من سبل وجهازات للري ، واستفادت كذلك بما جاء به الاعاجم من صناعات النسج والطرز وبما خلفه الكنعانيون من اساليب التجارة في البر والبحر والزراعة وغيرها من

---

(١) طبقات الاطباء والحكماء لابن جلجل الاندلسي ص ٩٢ ط القاهرة ١٩٥٥ م .

(٢) راجـــع هامش تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢١٦ وج ٥ ص ١٧٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

صناعة البناء[1] فأحدثت المساجد والاسوار والقصور والمنائر[2] قال ابن خلدون : ولما توفي ابو العباس محمد ابن ابي عقال سنة اثنتين وسبعين ولي مكانه ابنه ابو ابراهيم احمد فأحسن السيرة واكثر العطاء للجند وكان مولعاً بالعمارة فبنى بافريقية نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد ... وذكر ابا الغرانيق محمد فقال عنه : انه بنى حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشرة يوماً من برقة الى جهة المغرب وهي الآن معروفة[3] . وتمهدت الطرق وعبدت السبل

---

(١) جاء في كتاب التاريخ العام للعالمين : لافيس ورامبو ، ان انكلترا الانكلوساكسونية في القرن السابع الميلادي الى ما بعد العاشر كانت فقيرة في ارضها منقطعة الصلة بغير بلادها ، سمجة وحشية تبني البيوت بحجر غير نحيت وتشيدها من تراب مدقوق وتجعلها في وطأ من الارض ... ولم يكن الناس احسن مسكناً وامناً من الحيوانات ، وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة . وقد اعترف المنصفون من علماء اوروبا بان كل ما كان بعد ذلك من اشراق وفن وجمال في حضارة اوروبا ورقيها المادي والادبي انما كان مطلعه شمال افريقية في عهدها العربي الاسلامي وذلك لان المدنية الغربية تكونت بعد فتح العرب للاندلس وجنوب فرنسا وصقلية وسواحل ايطاليا وسائر جزر البحر الابيض المتوسط ، وكل هذه الفتوحات ما عدا جزيرة قبرص صدرت عن شمال افريقية كما تشهد لهم بذلك آثارهم الباقية بعضها الى اليوم .

(٢) هي مواقيد بنيت على رؤوس الجبال العالية بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ، ويقال لها ايضاً القباب والمناور او المناظير ، يقام فيها حراس يستعملون المرايا لارسال العلائم بالنهار عندما يرون حدوث شيء مهم بجهتهم ؛ ويوقدون النيران بالليل ، وهكذا يفعل الذين يلونهم ثم الذين يلونهم الى ان يصل الخبر الى المدينة او الثغر او المسلحة في زمن قليل فقد كانت الرسائل تصل من سبتة الى الاسكندرية بواسطتها في مدة اقل من اربع ساعات ، وقد كان بالمغرب يومئذ نحو العشرة آلاف منار ، وكلها كانت مبنية بالحجارة والكلس وعليها ابواب من حديد ولم تكن هذه المنائر معروفة عند المسلمين الا في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية من قبل . قال ابن خلدون في سياق حديثه عن ولاية ابراهيم — الاصغر — ابن احمد ... وبناء الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في سواحل سبتة للنذير بالعدو فيصل ايقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة ، وبناء سورة سوسة ... وفي سنة احدى وثمانين انتقل الى سكنى تونس واتخذ بها القصور (ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠١ .

واسست المدن مثل العباسية بالجزائر قرب تاهرت ٢٢٧ ﻫ - ٨٤١ م ، احرقها افلح بن عبد الوهاب ابن رستم وكتب بذلك يتقرب لصاحب الاندلس فبعث اليه هذا بِمائة الف درهم[١] كما اسست هذه الدولة وغيرها بولاية تونس وكان السفر مأموناً والاميال معلمة ممسوحة ؛ فان طول المسافة من القيروان الى السوس الادنى على المحيط الاطلسي يبلغ الفين ومائة وخمسين ميلاً ، وكان على طول مسافة الساحل المغربي حصون ومحارس ومخافر لجند الحماية ، وكانت الصناعات مثل الحدادة والنجارة والنقش والحياكة والتعدين منتشرة في انحاء المملكة فانهم كانوا يستخرجون من معادن مجانة ومناجم بونة وغيرهما انواع الحديد والرصاص والفضة والكحل ، ومن مرسى الخرز - القالة - انواع اللؤلؤ والمرجان ونشطت الحركة التجارية في الموانئ فكانت متصلة بالعواصم الاوروباوية مما لم يتفق لغير هذه الدولة ممن حكم هذه البلاد من قبل وقد ذكرنا فيما سبق مبلغ بلغ خراج الفدان[٢] الواحد على عهد ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً ، وكان مبلغ خراج ارض افريقية وجبايتها في اوائل القرن الثالث ١٣،٠٠٠،٠٠٠ درهماً و ١٢٠ بساطاً وكل ذلك يدلنا على سعة ثروة البلاد ورفاهيتها .

وقال علي بن الفتح المعروف بالمطوق : أهدى زيادة الله بن عبد الله بن الاغلب صاحب المغرب الى المكتفي بالله في سنة احدى وتسعين ومائتين (٩٠٣ م) هدايا لها قدر جليل ، فيها مائة خادم ، ومائة جارية ومائة فرس ، ومائتا لبد مغربية وتركش (الكنانة او الجعبة يوضع فيها النستناب) وطيب وزرافة وبقر وحشية ومائة الف دينار كل دينار عشرة دنانير ؛ قال وقرأت ديناراً من تلك الدنانير فاذا عليه مكتوب في الجانب الاول :

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠ .

(٢) مساحة من الارض تقدر بـ ٤٢٠٠ متراً مربعاً .

يا سائراً نحو الخليفة قل له ان قد كفاك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيف الله من دون الخليفة سله

وفي الجانب الآخر :

ما ان يرى لك بالخلاف منافق الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فالله قد أعماه عن طرق الهدى وأضله

قال وكان تحت هذه الابيات احرف لم اقف عليها .

وحين هرب زيادة الله بن الاغلب من القيروان حين دخلها ابو عبد الله داعية المهدي فر سنة ست وتسعين ومائتين (٩٠٩ م) متوجهاً الى مصر خرج معه بالف خادم دفع الى كل واحد منهم الف دينار سوى ما كان في خزائنه من الاموال والجواهر والاثاث المحمول والمتروك ، وضل عنده من ماله ثلاثون حملا دنانير خالفته الى ناحية تونس ، وانتهبت من امواله امثال ما خرج معه [١] .

انهيار الدولة الاغلبية

ان أهم ما أضر بهذه الدولة وكان سبباً مباشراً في سقوطها هو معاملتها القاسية للشعب وأخذها له بالعنف والتضييق عليه في ضرب المغارم والاتاوات الباهضة واثارة مشاعره بالعصبية العربية والتعصب المذهبي مع اتخاذ الجند المأجور الذي لا يتحرك إلا عن طمع وجشع فلا حمية دينية تبعثه ولا حفيظة أو حماسة وطنية تجرؤه انما هو أجير ، ومتى اجارك أجير ؟ ... ويلاحظ على الدولة في قصر نفوذها واكتفائها في حكم المغرب الاوسط ببسط يدها على قسم من نوميديا الشرقية فقط ؛ مع سوء سلوكها مع أهل الزاب وبلزمة من ايقاعها بهم واهلاكهم سنة ٢٨٠ هـ - ٨٩٣ م كل ذلك مما زاد في نفور الرعية وهيجان كتامة والتغالي في تصلبها وتمسكها بالدعوة

---

(١) الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ص ٣٧ - ٢٢٦ ط الكويت ١٩٥٩ م .

الشيعية ؛ ويشرح لنا العالم الانكليزي (نيلكسون) أسباب هذا التدهور الذي لحق دولة الاغالبة بالمغرب ونجاح الدعوة الشيعية وانتصارها عليها هناك بما كانت عليها دولة العباسيين المهيمنة على العالم الاسلامي من الضعف الذي لحقها في جميع أقطار البلاد الاسلامية التي زال عنها نفوذ بغداد الفعلي ، وبما كان عليه البربر واشتهروا به من حب القتال وما تعودوه من شظف العيش وما فطروا عليه من عدم اخلاد للنظام ، كانوا متأهبين للمخاطرة بأرواحهم اذا ما عرض لهم باعث يحرك في نفوسهم ما جبلوا عليه من اقدام على المخاطرة وركوب متن الاهوال ، زد على ذلك ان عمل الشراهة الذي فطر البربر على ارضائه وما انطوت عليه أخلاقهم من حمق وخشونة - كل ذلك جعلهم أسلس قياداً الى أبي عبدالله الشيعي فتمكن من الوصول الى أغراضه من اثار حميتهم واعجابهم بآل علي والمهدي[1].
ثم كان القضاء المبرم الذي قضى به زيادة الله الثالث على دولته بالدمار وهو الموقف الشنيع الذي وقفه تجاه والده وغالب رجال البيت الاغلبي من القضاء عليهم باراقة دمهم جميعاً ظلماً وعدواناً وكأنه في ذلك كان مقتدياً بسلفه ابراهيم بن أحمد الاغلبي ، أضف الى ذلك وهتكه لحرمات الملك بتهتكه في الخلاعة والانهماك في الشهوات حينما كان الشيعة يتقدمون سراعاً في مواقفهم الحربية منتصرين على خصومهم ، فكان هذا كله فرصة لابي عبدالله الشيعي لاذاعته في القوم فكرة التحرر والاستقلال عن الدولة العباسية وانتظار المهدي المنتظر وبثه فيهم مذهب الاسماعيلية فتغلغلت فيهم عقائد الشيعة وتجمع الناس حول الداعي أبي عبدالله وكانت هنالك حروب خرج لها زيادة الله الثالث في ثمانين الف مقاتل ، فالتقى الجمعان بنواحي الاربس - قرية بنواحي الكاف بتونس - وهنالك دارت بينهم رحى الحرب فكانت هذه الوقعة هي المعركة الفاصلة في مستقبل البلاد فانهزم الاغالبة فيها شر هزيمة وخرج زيادة الله هارباً من رقادة[2] مصحوباً بأهله

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم ص ٤٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) مدينة أسسها ابراهيم الاصغر سنة ٢٦٤ هـ - ٨٧٧ م تبعد عن القيروان بثمانية اميال جنوباً وهي اليوم اطلال .

وذويه ليلة الاثنين ٢٦ جمادي الثانية ٢٩٦ هـ - مارس ٩٠٩ م ، وذهب بعدها الى بيت المقدس وسقطت مملكة الاغالبة بما فيها - الجزائر - بيد الشيعة . فكانت مدة حكمهم ١١١ سنة وثلاثة اشهر .

ولاة الجزائر وزعماؤها

لم تكن سلطة الاغالبة في الوطن الجزائري لتتعدى حدود عمالة قسنطينة كما ذكرنا ، وكانت عاصمة الجزائر الاغلبية يومئذ هي مدينة طبنة على نحو اربع كيلو مترات شمال بريكة وقد تولاها لهذا العهد الاغلب بن تميم ، ثم المخارق بن غفار الطائي ، ثم المهلب بن يزيد من آل المهلب بن ابي صفرة ثم ابراهيم بن الاغلب ثم عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزارمرد ، وكان من ولاتها ايضاً منصور الترمذي فانتقض يوماً على زيادة الله الاول وسار الى تونس فملكها سنة ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م ؛ ولما فتح الشيعة طبنة كان بها يومئذ امير مسالة : الفتح بن يحيى فقتله الشيعي ؛ وكان على بلد ميلة رجل من بني سليم يقال له موسى بن العباس بن عبد الصمد فقتله الشيعي ايضاً وولى مكانه ماكون بن ضبارة ؛ وكانت ولاية سطيف لبني اسد بن خزيمة وآخرهم علي بن جعفر بن عسكوجة واخوه ابو حبيب ، وكانت ولاية بلزمة في بني تميم ومواليهم وكانت ولاية المسيلة وميلة لموسى بن العياش فقتله الشيعي في غزوه لهاته المدينة . وكان من امراء كتامة لهذا العهد عروبة بن يوسف ؛ وعلى باغاية هرون الطبني ؛ وكان على الزاب سالم بن غلبون فقتله الاغالبة مع ولده ازهر بسبب ثورتها عليهم سنة ٢٣٣ هـ - ٨٤٧ م . وكان من ولاة الزاب ايضاً احمد بن سوادة المتوفي سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م .

وذكر بعض مؤرخي المغرب ان مناد بن منقوش والد زيري عاهل صنهاجة ، امتلك جانباً من افريقية والمغرب الاوسط - الجزائر - مقيماً لدعوة بني العباس وراجعاً الى امر الاغالبة .

امراء الدولة الاغلبية

		تاريخ التولية
ابراهيم بن الاغلب	جمادى الثانية ـ جوان	١٨٤ هـ = ٨٠٠ م
ابو العباس عبد الله الاول	صفر ـ اكتوبر	١٩٧ هـ = ٨١٢ م
زيادة الله الاول	ذو الحجة ـ جوان	٢٠١ هـ = ٨١٧ م
ابو عقال الاغلب	١٤ رجب ـ ١١ جوان	٢٢٣ هـ = ٨٣٨ م
ابو العباس محمد الاول	٢٢ ربيع الثاني ـ ١٨ فيفري	٢٢٦ هـ = ٨٤١ م
ابو ابراهيم احمد	٢ محرم ـ ١١ ماي	٢٤٢ هـ = ٨٥٦ م
زيادة الله الثاني	١٣ ذي الحجة ـ ٢٨ ديسمبر	٢٤٩ هـ = ٨٦٣ م
ابو الغرانيق محمد الثاني	٢٠ ذي القعدة ـ ٢٣ ديسمبر	٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م
ابراهيم الاصغر	٦ جمادى الاولى ـ ١٦ فيفري	٢٦١ هـ = ٨٧٥ م
ابو العباس عبد الله الثاني	شعبان ـ جوليط	٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م
زيادة الله الثالث	رمضان ـ جوليط	٢٩٠ هـ = ٩٠٢ م

من مشاهير الجزائر

اسحاق الملشوني

أواسط القرن الثالث الهجري
(اواسط التاسع الميلادي)

هو شيخ امراء بني الاغلب ونديم بلاطهم اسحاق بن ابي عبد الله عبد الملك الملشوني نسبة الى ملشون قرية من قرى بسكرة قرب تهودة وهي يومئذ حاضرة العلم ؛ كان اسحاق هذا عالماً ثقة مؤرخاً ثبتاً ذا دراية ومعرفة واسعة بفن التاريخ والمحاضرات ، كان يحمل عنه وعن ابيه العلم ، اخذ عن والده وعن مشائخ بلده ، كما جالس الامام سحنون بالقيروان واخذ كل منهما عن صاحبه قال ابو العرب كان ابو القاسم بن شبلون الفقيه رضي الله عنه يروي فيما كان يرويه ان سحنون بن سعد دخل على محمد بن الاغلب الامير اول يوم من شهر رمضان فألفى الامير خالياً ، فقال له : اراك ايها الامير خالياً ، فقال نعم ، انفردنا في هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل ، فقال سحنون : فأين انت ايها الامير من اسحاق الملشوني يحدثك بأخبار الامم السالفة والاعوام الماضية ؛ فأمر محمد بن الاغلب باحضاره ، فكان يحضر عند محمد بن الاغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان ؛ قال ابو العرب : وسمعت بعض المشائخ ممن يروي البريء من الاخبار يحدث عن اسحاق بن عبد الملك الملشوني انه قال : لم يدخل افريقية نبي قط ، واول من

دخلها بالايمان بعض حواريي عيسى بن مريم عليه السلام [1] فأين زعم القائلين بوجود قبر النبي خالد بن سنان بالقطر الجزائري ودفنه حيث الضريح المنسوب اليه المشهور قرب بسكرة ؟ ...

نعم روى ابو العرب في طبقاته والمالكي في رياضه كلاهما عن قاضي افريقية الثقة عبد الرحمن بن زياد بن انعم المتوفي سنة ١٦١ هـ - ٧٧٧ م . انه قال : كنت امشي وانا غلام مع عمي بقرطاجنة فاذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية : « انا عبد الله بن الاراشي رسول رسول الله صالح بعثني الى اهل هذه القرية ادعوهم الى الله ، اتيتهم ضحى ، قتلوني ظلماً حسيبهم الله » وقيل ان شعيبا هو الذي بعث عبد الله ابن الاراشي . والاراش فخذ من بليّ [2] ولم نعثر على اي رواية صحيحة تثبت لنا صحة نسبة القبر الى خالد بن سنان العبسي [3] .

محمد بن حسين الطبني
٣٩٤ هـ ـ ١٠٠٤ م

الاديب الكبير والشاعر المفلق ابو عبد الله محمد بن حسين بن محمد الطبني نسبة الى طبنة عاصمة الزاب الجزائري ولد بها سنة ثلاثمائة او ٣٠٣ هـ ؟ ... وصفه ابن بشكوال بسعة العلم والتبحر في الادب وقال : انه لم يصل الى الاندلس اشعر منه ، وكان اتصاله بالاندلس سنة ٣٢٥ هـ وكانت وفاته منسلخ شهر ذي الحجة سنة ٣٩٤ هـ - اكتوبر ١٠٠٤ م وشاهد جنازته المظفر عبد الملك بن ابي عامر في اهل دولته وصلى عليه ابن فطيس رحمهم الله جميعاً .

---

(١) طبقات علماء افريقية ص ٨ ط باريس ١٩١٥ م .

(٢) طبقات علماء افريقية ص ٧ ط باريس ١٩١٥ م ورياض النفوس ص ٥ ط القاهرة ١٩٥١ م .

(٣) راجع ص ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ من كتابنا هذا .

جدول تاريخي

١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ

٨٠٠ ـ ٩٠٩ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٨٤ هـ = ٨٠٠ م	تأسيس الدولة الاغلبية (جمادي الثانية – جوان)
٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م	استيلاء منصور الترمذي ـ والى طبة – على تونس
٢٢٧ هـ = ٨٤١ م	انشاء مدينة العباسية ـ قرب تيهرت ـ قضى عليها الرستميون
٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م	اشتداد ازمة القحط بالمغرب العربي كله ، وقد دام سنوات
٢٦٨ هـ = ٨٨١ م	فتك ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب بأهل الزاب .
٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م	ظهور الدعوة الشيعية بنواحي قسنطينة .
٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م	ظهور ابي عبد الله الشيعي بأرض فرجيوة من بلاد كتامة
٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م	مقاتلة الحكومة لبني بلطيط ببسكرة .
٢٨٨ هـ = ٩٠١ م	مقاتلة اهل الزاب .
٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م	منازلة الدولة لابي عبد الله الشيعي بنواحي طبنه .
٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م	سقوط بلاد كتامة وميلة وباغاية وسطيف ومجانة بيد الداعية الشيعي .
٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م	انتقام الدولة من كتامة .
٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م	انهيار الدولة الاغلبية ووقوعها بيد الشيعة (٢٦ جمادي الاولى مارس) .

الدّولة العبيديّة «الفاطميّة»

٢٩٦ ـ ٣٦١ هـ

٩٠٩ ـ ٩٧٢ م

نشأتها

تنتسب هذه الدولة ـ حسب اسمها ـ الى عبيد الله المهدي الشيعي مؤسس الخلافة العبيدية بالمغرب ، وجد الخلفاء الفاطميين [١] بالمشرق ؛ فهو عبيد الله ابن احمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ؛ على ما في هذا النسب من جدل وخلاف ؟ ! ... ولد عبيد الله بالسلمية من بلاد الشام وقيل ببغداد سنة ٢٦٠ هـ ـ ٨٧٣ م ؛ وبنى خطته السياسية على فكرة القول بالامام المهدي المنتظر وما يحيط بها من غموض وخفاء ، وكثيراً ما استعملت هذه الفكرة في انشاء دول وعصبيات سياسية لترويج دعوتها والقضاء على غيرها ؛ وهي فكرة شيعية محضة .

والشيعة لقب اصطلاحي خاص باحدى الفرق الاسلامية التي ترتكز في دعوتها السياسية والاجتماعية والدينية ايضاً على تفضيل آل البيت ولا سيا منهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقالوا بتقدمه على غيره من

(١) تسموا بذلك تعريضاً بالعباسيين ؛ فقد يقول هؤلاء انهم ابناء العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لا يتطاولون الى الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبوة ذاته ، وليس هو كالانتماء الى الاعمام ...

الصحابة ؛ وانه الوصي على الخلافة وانها مستمرة في عقبه الى النهاية ، وان الخلفاء من نسله معصومون الخ ... وكان من فرق الشيعة المشهورة طائفة الاسماعيلية الملقبة بالباطنية ذات البدع الشنيعة في الاسلام ، القائلة بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، مع انه مات قبل والده ! ... وذلك توصلاً منهم الى انتقالها في عقبه المتحدر منه عبيد الله المهدي مؤسس هذه الدولة ؛ ولا تزال طائفة الاسماعيلية هذه قائمة الى اليوم في بلاد العجم والهند والشام يرأسها اليوم « آغاخان » الزعيم الديني الهندي المشهور .

في الوقت الذي كان عبيد الله المهدي مضطهداً من طرف العباسيين بالمشرق مختفياً عن اعين الناس مطارداً ؛ كان داعيته الاكبر ابو عبد الله الصنعاني الشيعي بالمغرب يعمل على توطيد الدعوة الشيعية وتركيز الخلافة وتهيئتها لسيده المهدي ؛ فمكث ببني كتامة بجبل أوراس عشر سنين ولما اطمأن بنجاحه في الدعوة بعث الى عبيد الله يستقدمه – وهو يومئذ مختفياً بمصر فخرج المهدي مع ولده ابي القاسم وابي العباس احمد اخ الصنعاني فارتحلوا جميعاً في زي التجار وجاؤوا الى المغرب فاختفوا بطرابلس فمكث بها ابو العباس وارتحل عنها المهدي وولده الى قسنطينة ثم الى سجلماسة – تافيلالت – وهناك وقعا معاً في قبضة صاحبها اليسع بن ميمون المنتصر من بني مدرار عامل بني العباس ؛ وسريعاً ما اتصل الخبر بالصنعاني فاستقدم اخاه من طرابلس فخلفه على ولاية رقادة وخرج يجر وراءه جيشاً اضطرب له المغرب الاوسط ، فقضى على دولة بني رستم وامتلك تاهرت وانتحى بجيشه ناحية المغرب الاقصى فاستولى في طريقه على عدة مراكز وتابع سيره الى سجلماسه فشن عليها الغارة وقضى على عاملها اليسع من بني مدرار وخلص الى المهدي وولده فانقذهما من الاسر ورجع بهما الى رقادة ، فدخلها المهدي راكباً على فرس ورد وعليه ثوب خز ادكن وعمامة مثله منتعلاً نعلاً عربية وخلفه ولده ابو القاسم مرتدياً ثوب خز خلوقي وعمامة مثله وتحته فرس اشقر ؛ متقدماً امامهما الصنعاني على فرس كميت وعليه ثوب توتي ، وظاهرة كتان وعمامة ومنديل اسكندراني وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه والناس بين

يديه يسلمون وهو يقول : هذا مولاكم حتى انزله المخيم برقادة ، وهناك كانت البيعة له بأمير المؤمنين وذلك يوم الجمعة ٢١ ربيع الثاني ٢٩٧ هـ — ٩ جانفي ٩١٠ م فأشبه في ذلك سلفه عبد الرحمن الداخل ، غير ان المهدي يمتاز عن صاحبه بانه كان بذلك اول من اعلن مزاحمة الخليفة العباسي في لقبه ؛ والواقع ان عبيد الله الشيعي لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في (رقادة) حتى كان قد زال ملك بني الأغلب من افريقية ، وملك بني مدرار من سجلماسة ، وملك بني رستم من تاهرت . ولقد اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف ايضاً باليقضة واصالة الرأي والعلم مع سعة الحيلة ورباطة الجأش وشدة الحزم فأعانته صفاته الخلقية هذه وما اعتمده في دعوته من الوسائل الدبلوماسية التي لم يسبق اليها سابق ولم يهتد اليها احد قبله على انشاء دولته التي اقامها بين اكثر من ست دول اسلامية وغيرها كلها تحاربها وتخشى عاقبتها .

نظامها الحكومي

قامت هذه الدولة الشيعية على كاهل فن التخذيل او كما يسمى في العصر الحديث « الطابور الخامس » فكانت لذلك اعظم واجل رتبة بها هي وظيفة داعي الدعاة ، لا يفضلها الا مقام قاضي القضاة او الخليفة نفسة الذي يعتقدون فيه العصمة ، ولم يكن لهذه الدولة في أول أمرها بالمغرب وزراء الا بعد انتقالها الى مصر في عهد الخليفة العزيز بالله ، وهناك خطة صاحب المظلة [1] يختار لها فارس يحاذي الملك في سيره من حيث كانت الشمس ، ولا يعلم احد من الملوك اتخذ هذه المظلة المكللة قبل بني عبيد ، وفي ذلك يقول ابن هانيء الاندلسي من قصيدة يمدح بها الخليفة المعز العبيدي :

---

(١) وصفها القلقشندي في حجه (ج ٤ ص ٧ — ٨) بانها قبة من حرير اصفر مزركش بالذهب ، على اعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في العيدين .

وعلى امير المؤمنين غمامة نشأت تضلل تاجه تضليلاً
نهضت بمثل الدرع ضوعف نسجه وجرت عليه عسجداً محلولاً

وفي القصر منشؤون وكتاب لا يقل مرتب احدهم عن ثلاثين ديناراً لكل شهر ولرئيسهم مائة وخمسون ديناراً ، ولجلب الخراج والجباية والمغرم وقبض الزكاة موظفون آخرون . والنظر في الجرائم والجنح واقامة الحدود راجع الى صاحب الشرطة ، ووظيفة الحسبة مندرجة تحت رعاية القاضي فهو الذي يولي عليها من شاء . وللعمل بالبلاد اناس هم غالباً من سكان البلاد الوطنيين واكثر الجند متجمع من قبيلة كتامة الشديدة البأس ، وكان ابو عبد الله الصنعاني اذ اراد ان يركب للحرب نادى مناديه : يا خليل الله اركبوا ، وكتب على افخاذ الخيل « الملك لله » وعلى السلاح « عدة الله » وعلى الراية البيضاء « سيهزم الجمع ويولون الادبار » ? وقد يكون على الويتهم احياناً أهلة من ذهب في كل منها صورة سبع ، وكان منقوشاً على خاتمه الذي يختم به السجلات « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » . وللاسطول العبيدي ميزانية ضخمة من خراج الاقطاعات الموقوفة عليه ولرؤساء المراكب مرتبات تبلغ العشرين ديناراً في كل شهر ؛ قال ابن خلدون : وكان لكل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر امر جريه بالريح او بالمجاذيف وامر ارسائه في مرفئه ، فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله ، وانجاد عساكره ومواليه ، وجعلهم لنظر امير واحد من اعلى طبقات اهل مملكته ، يرجعون اليه كلهم ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة[1] وتمتاز هذه الدولة العربية الناشئة بالمغرب بالمحافظة على عاطفة الاهالي سكان البلاد الاصليين فأشركتهم في الادارة باسنادها مشيخة النواحي وادارة البريد وحماية الفرسان اليهم ؛ ثم كان لهم التقدم في المناصب والرتب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

على غيرهم اثر الفتح الفاطمي بالمشرق . فقد رأيت كيف كان تاسيس هذه الدولة بالمغرب امراً مشتركاً بين العرب والبربر كما كان الشأن في انشاء الخلافة العباسية بالمشرق بين العرب والفرس . وللدولة بعد ذلك عملتها وسكتها المضروبة باسمها منقوش فيها « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق اعداء الله » وهي مستقلة استقلالاً تاماً لا يسيطر عليها فيه احد ، وبقيام هذه الدولة في المغرب كان في العالم الاسلامي يومئذ ثلاث خلافات : خلافة العباسيين ببغداد ، وخلافة الامويين بالاندلس ، ثم هذه الخلافة العبيدية بالمغرب .

حدود الجزائر العبيدية

لأول مرة في تاريخ المغرب العربي اتحدت افريقية الشمالية تحت لواء دولة اسلامية واحدة ، وقد كان بالوطن الجزائري يومئذ اربع ولايات : ولاية المسيلة وهي تشتمل على مواطن زناتة بالزاب والحضنة ومواطن عجيسة ما بين سطيف وقلعة بني حماد ؛ وولاية باغاية المشتملة على وطن كتامة من نواحي عنابة وقالمة الى نواحي سطيف وجيجل ، وولاية اشير المحتوية على مواطن صنهاجة وما يجاورها من زواوة وزناتة ، وولاية تاهرت المشتملة على مواطن مغراوة ما بين مليانة ومازونة ، ويفرن وغالب زناتة .

فتح عمالة الجزائر الشرقية

كان ابتداء ظهور الدعوة الشيعية بالجزائر حوالي سنة ٢٧٩هـ – ٨٩٢م ، بواسطة الدعاة المنبثين في الاقطار المرسلين الى المغرب من طرف جعفر الصادق ، وكان ظهورهم اول مرة بناحية قسنطينة – سوق حمار – ما بين ارض مجانة وسبيبة ثم ظهر بكتامة [1] ابو عبد الله الصنعاني ؛ المنتصر بقبائل

---

(١) اعلى الجبال الواقعة ما بين مدينة القل وبجاية الى مجانة

لهيصة وغسمان المتحالفة معه ضد كل مماكس له في دعوته ، وهكذا استمر ابو عبد الله بذكائه وعزمه النادر في استمالة القوم اليه بدعوى التحرير من ربقة السلطة الاغلبية والانتصار للدين حتى امتلك قلوبهم واكتسب مودتهم فاجتمعوا عليه وكثر عددهم حوله فأخذ حينئذ في تأسيس مدينة بـ « ايكجان » قرب Chevreul الحالية بنواحي « فج مزالة » فجمع بها انصاره وسماها « دار الهجرة » ، ومنها زحف الى ميلة ففتحها سنة ٢٩٠ هـ - ٩٠٢ م . وجرت بينه وبين الاحول اخ ابي العباس الاغلبي حروب طاحنة ووقائع شديدة بنواحي سطيف وبلزمة انتصر فيها الاحول اولا ثم دارت الدائرة عليه فتغلب الشيعي وفتح طبنة عاصمة الزاب - على نحو اربع كيلومترات شمال بريكة - واحتلها صلحا في آخر ذي الحجة سنة ٢٩٣ هـ - اكتوبر ٩٠٦ م تظاهر امام اهلها بالتقشف والتعصب للكتاب والسنة وانتهاج مناهج العدل والاستقامة فتمسك به القوم ورغبوا في توليه عليهم ؛ وفي شعبان سنة ٢٩٤ هـ - ماي ٩٠٧ م خرج الشيعي من طبنة في جموعة فاستولى على بلزمة وباغاية ومنها توجه الى مسكيانة وتبسة ، وهناك جاءته الوفود من اهالي مدينه سطيف مستأمنة على نفسها فأمنها بعد ما هدم المدينة ، ثم استولى بجنوده واتباعه على تيجس ومرماجنة وقسنطينة ومجانة وسائر بلاد الجزائر ونواحيها الشرقية ، ومنها اندفع الى ناحية تونس وقفصة وكان معه يومئذ ما ينيف على مائتي الف جندي ؛ وهنالك التقى بجيش الاغالبة الذي كان يبلغ نصف العدد المذكور وكانت المعارك بينهم بالاربس فانتصر عليهم الصنعاني بجيوشه واحتل القيروان في اواخر جمادى الثانية ٢٩٦ هـ - مارس ٩٠٩ م وتقدم في رجب - افريل الى رقادة دار ملك الاغالبة فتبوأها ، فكان ذلك آخر العهد بدولة بني الاغلب .

فتح عمالة الجزائر الغربية

بعد ان ظفرت الدولة العبيدية بالمملكة الشرقية من الجزائر الى تونس حولت انظارها الى امتلاك الجهة الغربية ؛ فجهزت لها جيشاً عتيداً بقيادة

عروبة بن يوسف الكتامي فاحتل مملكة الرستميين وقضى على امامة الخوارج بها لتناقض الفكرتين فيها ، وجعلت ولاية العاصمة تاهرت الى ابي حميد دواس بن صولات اللهيصى والسيد الصغير ابراهيم بن محمد المعروف بالهواري وفي سنة ٢٩٧ ﻫ - ٩٠٩ م هجم محمد بن خزر الزناتي امير مغراوة في قبيلة على تيهرت فهزمه واليها ابو حميدة وامره في قومه بحصن ابن بخاتة - المعروف بتاهرت القديمة - ثم اجهز عليهم ونجا ابن خزر بنفسه ، وفي سنة ٢٩٨ ﻫ - ٩١٠ م نهض التاهرتيون ضد عامل الشيعة العبيدي فخرج منها العامل ملتجئاً الى حصن ابن بخاتة واسند اهلها رآستهم الى امير مغراوة محمد بن خزر الزناتي فنزل هذا المدينة وتغلب على ارباضها : ثم جاءت الحملة الشيعية في شهر صفر ٢٩٩ ﻫ - سبتمبر ٩١١ م فاقتحمت مدينة تيهرت قهراً ونصبت على رأسها مصالة بن حبوس المكنامي ، واستمرت هذه الولاية في عقبه الى سنة ٣١٤ ﻫ - ٩٢٦ م حيث عاد اليها ابن خزر السالف الذكر وهاجمها مراراً فلم ينجح ، وقد التهبت النيران في تيهرت سنة ٣٠٥ ﻫ - ٩١٧ م فأحرقت اسواقها . وفي سنة ٣١٥ ﻫ - ٩٢٧ م تقدم ابو القاسم بن عبيد الله المهدي متوغلاً في اعمال تيهرت ففتح يومئذ بلاد هوارة ومزاتة ومطماطة .

وفي ذي الحجة سنة ٢٩٧ ﻫ - اوط ٩١٠ م اوعز الخليفة عبيد الله المهدي الى ابي حميد اللهيصي عامل تيهرت بحصار مدينة وهران ومقاتلة اهلها من بني مسقن الزناتين ان هم امتنعوا عن الاستسلام ، فحوصرت وهران ومنع اهلها الماء فخرج منها بنو مسقن ليلاً وتركوا اموالهم الى النهب وخربت وهران فاضرمت فيها النيران وفر عنها يومئذ مؤسسوها الاندلسيون ، محمد بن ابي عون ومحمد بن عبدوس في جماعة ... ثم ردهم اليها ابو حميد وشرعوا في تجديد المدينة في شعبان - افريل ٢٩٨ ﻫ - ٩١٠ م فعادت ابهج مما كانت عليه من قبل وتولى عليها يومئذ محمد بن ابي عون الاندلسي فتقدم بها العمران والرقي الى منتصف جمادي الثانية سنة ٣٤٣ ﻫ - اكتوبر ٩٥٤ م . حيث كانت بها الوقعة المشهورة بين يعلي بن محمد بن صالح اليفرني وبين زداجة وبني مسقن - كلهم من

زناتة ومواطنهم بازاء وهران - فاحتل يعلي المدينة وعمل على خرابها والعيث والفساد فيها واوقد فيها النيران فعادت وهران الى ما كانت عليه من التدمير والخراب واخذ يعلي في نقل اهلها الى موطنه الزناتي ، وكانت الغاية من هذه الوقعة مقاومة الشيعة لا غير وبقيت وهران على ذلك مدة سنوات ثم تراجع الناس اليها وبنيت من جديد . وفي سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م تحرك محمد بن ابي العافية عامل العبيديين على المغرب الاقصى فجاء في جموع كثيرة فاحتل ولاية تلمسان ووهران وتنس وشرشال وقطع يومئذ دعوة الادارسة من المغرب الاوسط ؛ فخرج حينئذ اعقاب محمد بن سليمان من سائر اعمال تلمسان واخذوا بدعوة الامويين بالاندلس واجازوا اليهم ثم كان بعد ذلك من الفتن والثورات بهذا الوطن ما اخرجه مراراً عن طاعة العبيديين وادخله في طاعة الامويين تحت تصرف يعلي الافريني عامل الناصر الاموي بالمغرب ، وبقي الامر على ذلك يتأرجح بين الطائفتين ما بين مد وجزر الى ان تجرد لها القائد جوهر الصقلي سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م فاخضع جميع هذه النواحي الجزائرية نهائياً الى سلطة الدولة العبيدية وأضافها الى اعماله بالمغرب الاقصى . ثم منحتها الحكومة الى حليفها حاكم مدينة اشير مؤسسها زيري بن مناد الصنهاجي .

مؤامرة تنس

يقال ان ابا العباس احمد المعروف بالمخطوم اخ ابي عبد الله الصنعاني ندم على ما صدر منه ومن اخيه في خدمة الدولة الشيعية وتوطيد الملك وتمهيده لبني عبيد ، فكان مما رواه التاريخ عنه انه أمر لاخيه ذات يوم فقال له : تكون انت صاحب البلاد والمستقل بامورها وتسلمها الى غيرك وتبقى من جملة الاتباع ؟ ! ... فكان هذ مما حمس ابا عبد الله على ان يفرض شخصيته على الحكومة وعلى اضمار الغدر بعبيد الله المهدي وفي يوم الجمعة ١٧ ذي الحجة ٢٩٧ هـ - اوط ٩١٠ م تم تدبير المؤامرة

بمدينة تنس ضد الخليفة ؛ وبيتوا على قتل المهدي فكان هناك من نمى الخبر الى الخليفة فاحترس اولاً من المتآمرين متربصاً بهم الدوائر الى ان حان الوقت فدس لابي عبد الله واخيه من قتلهما صبراً ، وذلك وقت الزوال من يوم الثلاثاء منتصف جمادي الاولى سنة ٢٩٨ هـ - ١٩ فيفري ٩١١ م وكان المباشر لقتل ابي عبد الله هو عروبة بن يوسف من وجوه كتامة ؛ ومعه اخوه حباسة ، وقيل معه جبر بن غاسب الميلي ؛ يقال انه لما حمل عروبة على الداعية الصنعاني واراد قتله ، قال له لا تفعل يا بني ! ... فأجابه هذا : ان الذي امرتنا بطاعته امرنا بقتلك . وقتل معهما جماعة من شيوخ كتامة ممن تمالؤوا على ذلك ، واظهر الخليفة الرضى عن غيرهم ممن ظن فيهم الظنون وكانوا عنده من المشبوهين ، فجعل يفرقهم في المناصب النائية وكأنه يفعل ذلك تكرماً منه ومجازاة لهم وانهم محل نفسه وهو في الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة .

مناهضة الشيعة بالجزائر

اشتد غضب كتامة على الخليفة حين اوقع ببعض الذوات من رؤسائهم - الذين شاركوا في المؤامرة - فأزمعوا على الانتقام واصروا على الخلاف فكثرت الحوادث والوقائع والحروب ضد الشيعة ؛ وفي سنة ٢٩٩ هـ - ٩١١ م اقتطع الزاب عن العبيديين فقويت شوكة اعدائهم به ؛ فنهض اليهم يومئذ ابو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي فأخضعهم واحتل مدينة قسنطينة واعمالها ؛ وفي سنة ٣١٥ - ٩٢٧ م غزت قبيلة زناتة بلاد كتامة بدعوى مناهضة الشيعة المحتلين لتلك البلاد ، فكانت الحرب بينهم شديدة انهزمت فيها زناتة ، فانتهزها يومئذ الامويون فرصة فمدوا ايديهم للاخذ بضبع زناتة فبايعهم رئيساً يومئذ محمد بن خزر سنة ٣١٦ هـ - ٩٢٨ م واذعن للخلافة الاموية وحمل على ناحية التل فاستولى على مدينة وهران وتنس وشلف ثم اخفق في الاخير .

مقتل عامل اوراس

لقد بالغ ابو معلوم فلحون الكتامي عامل اوراس في مطالبة رعيته بدفع المبالغ الباهضة من المغرم وكلفها من الكلف ما لا تطيقه ، فأظهرت له الرعية الطاعة والامتثال متربصة به حتى ظن انه نجح في خطته واطمأن فانقض عليه يوماً اهل الجبل فقتلوه ومن معه من الحامية والجند ٣١٠ ه - ٩٢٢ م ؛ فكانت هذه الحادثة من متممات حوادث مناهضة الشيعة بالجزائر .

مقتل عامل تاهرت

كثيراً ما خرجت ولاية تاهرت عن طاعة العبيديين ، وتولاها رؤساء زناتة تلك القبيلة التي لم تكن لتذعن لهذه الدولة الشيعية طيلة ولايتها على المغرب ؛ وكثيراً ما نشأت بينهما حروب دامية ، منها هذه الحروب التي خرج فيها مصالة ابن حبوس عامل تاهرت مهاجماً لقبيلة زناتة المنشقة ، وقد استولى في طريقه على النواحي ؛ وفيها كان حتفه يوم الجمعة ٣٠ شعبان سنة ٣١٢ ه - ١٩ جانفي ٩٢٥ م وانهزم يومئذ حزب الشيعة ، ولم تكد تنقطع الوقائع بين زناتة والشيعة ومن والاها من قبائل صنهاجة وكتامة مدة نحو خمسين سنة .

انشاء مدينة المسيلة

بعدما انتهى الخليفة ابو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي من جولته في انحاء الوطن للقضاء على الثورات القائمة ضده تقدم يومئذ لبلاد مطماطة وهوارة ونواحي تاهرت ففتحها نهائياً واوغل في التخوم الى ما وراءها فكسر من شوكة المعارضين هنالك ، وفي منصرفه الى قاعدته مر في طريقه على وادي سهر فأعجب بهذا المكان الذي كان يسكنه يومئذ بنو ملكان من بطون هوارة ، فأمر بنقلهم الى فحج القيروان ، واخذ رمحه فاختط به في ذلك المكان مدينة المسيلة وهو راكب على فرسه ؛ وقد كان ذلك اليوم الاحد ٩ صفر سنة ٣١٥ ه - ابريل ٩٢٧ م وعهد بالقيام على بنائها

والوقوف على تحصينها وتحسينها الى احد قادته المشهورين ابي الحسن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسي [1] وجعلها سداً منيعاً بينه وبين عادية زناتة ، ولما تم بناؤها نسبها الخليفة الى نفسه ودعاها باسمه « المحمدية » ونقلت ادارة الزاب اليها من طبنة ، فأصبحت المسيلة - المحمدية - هي عاصمة الزاب يومئذ وبلغت من الحضارة والعمران الغاية القصوى ، فقد كان بها من القصور والمنشآت المعمارية من حمامات ومنتزهات ومساجد الخ ... ما يحق للجزائر ان تفخر به على غيرها في ذلك العصر ؛ وقصدها يومئذ العلماء والادباء فجاؤوها من كل جهة وصوب وجعلت ولايتها لمؤسسها علي بن حمدون الى ان هلك في حرب ابوب بن يزيد الخارجي سنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م فخلفه عليها ابنه جعفر ممدوح ابن هاني ، وبقي في ولايته الى ان نافسته صنهاجة ونشأت الحرب بينهما فقتل فيها زيري بن مناد الصنهاجي وذهب فيها ضحية عثرة فرسه ، فقام ابنه بلكين منتقماً لوالده وظهر على جعفر فخرج منها حينئذ يوم ١٨ رمضان ٣٦٠ هـ - ١٥ جوليط ٩٧١ م . وذهب الى قرطبة فكان هو واخوه يحيي في جانب المنصور بن ابي عامر على اعدائه وقتل جعفر هنالك وفر يحيي الى مصر ، فأضاف المعز العبيدي ولاية المسيلة يومئذ الى بلكين الصنهاجي فعمت ولايته حينئذ كلا من اعمال الجزائر الثلاثة : المسيلة وتاهرت واشير .

انشاء مدينة اشير

هي مدينة بالجنوب الشرقي من البرواقية قرب « ثلاثاء الدوائر » لا تزال اطلالها باقية الى اليوم عند الكاف الاخضر على المنحدر الجنوبي الشرقي لجبال تيطرى وهي تبعد بنحو ٢٥٠٠ متراً الى الشمال الغربي من (بنية) او منزل (بنت السلطان) وهي المدينة التي اقيمت مكان أشير ، وقد تهدمت هذه كذلك ايضاً . انشأها زيري بن مناد رئيس

---

(١) هو الذي خرب مدينة أدنة - على مرحلة شرقي المسيلة - وامر باسقاطها عند رجوع ميسور الفتى من المغرب سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٥ م .

صنهاجة واميرها سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٦ م وجعلها مركزاً حربياً لمغاورة بلاد زناتة الممتنعة عن طاعة العبيديين المغيرة على ثغورهم ، جلب اليها البنائين والصناع من المسيلة وطبنة فاحكموا وضعها واشادوا بناءها حتى قيل انه ليس في هذه الاقطار احصن ولا احسن منها ولا احكم ؛ ووصف يحيى ابن خلدون الحصن الذي بناه زيري ابن مناد الصنهاجي على جبل تيطرى حيث كانت توجد مدينة اشير فقال : معقل تيطرى المشهور الحصانة الآخذ من الصحراء والتل المزاحم بمناكبه السحاب ؛ ... ووصف صاحب العبر هذا الجبل او المكان الذي اقيمت عليه مدينة اشير فقال ... الذي كانت فيه المدينة الكبيرة ... وذكرها صاحب الاستبصار فقال : ليس في تلك الاقطار احسن منها[1]. وبعد ان رأى الخليفة المنصور شدة نكاية مؤسسها في العدو - ابي يزيد - بقلعة كتامة واخلاصه في نصرة الدولة وصله بتحف وهدايا نفسية وعقد له على قومه وعلى تيهرت واعمالها واذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة اشير فاستبحر بها العمران وقصدها العلماء والتجار من القاصية وكانت بها سوق تباع فيها كل لطيفة وظريفة ، وضرب بها العبيديون عملتهم ، ثم جاء بلكين ولد المؤسس فابتنى سورها سنة ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م وبقيت المدينة حرماً آمناً الى ما بعد سنة ٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م حيث خربها يوسف بن حماد الصنهاجي ، ثم تراجع اليها الناس بعد سنة خمس وخمسين واربعمائة - ١٠٦٣ م فعادت الى ما كانت عليه .

ثورة ابي يزيد الخارجي

كان ابو يزيد هذا رجلاً مشهوراً بالتقشف يركب الحمار ويلبس الخشن من الصوف متسماً بالسنة آخذاً نفسه بالحسبة يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويعلم الصبيان القرآن ويؤدبهم ، واسمه ابو يزيد مخلد بن كيداد

---

(١) بغية الرواد ج ٢ ص ١٨٥ ط الجزائر ١٣٢٢ هـ والعبر ج ٦ ص ٦٤ ط بولاق ١٢٨٤ هـ والاستبصار ص ٥٨ - ٥٩ ط فينا ١٨٥٢ هـ.

المشتهر بصاحب الحمار ومذهبه النكارية من فرق الخوارج ، متعصباً لمذهبه وهو من أهل جبل اوراس ففي سنة ٣٣٢ هـ – ٩٤٣ م بايعه اهل الجبل على الثورة في وجه الشيعة وتلقب بشيخ المؤمنين وعمره يومئذ ستون سنة فخرج معه الكثير من خوارج زناتة ومشيخة المالكية أيضاً وكلهم يدعو الى مبايعة الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي صاحب قرطبة ، وذلك توصلاً منهم الى نبذ الدعوة الشيعية وتحرير البلاد من سلطة بني عبيد ، فخرج ابو يزيد من اوراس على رأس هذه الجموع ناشراً ألويته الصفر فاحتل من بلاد الجزائر مدينة تبسة ومجانة وبجاية وغالب مدن القطر الجزائري الشرقية وحاصر قسنطينة وبلغ في سيره الى القيروان ثم الى تونس فاحتلها وحاصر المهدية دار ملك العبيديين ثمانية عشر شهراً حتى كاد الخليفة المنصور العبيدي – وهو يومئذ بها – ان يغتم وييأس لولا انه عمل الحيلة في التخلص بنفسه منها وذهب الى بسكرة ثم الى مقره من بلاد الزاب الجزائري ، ومن هناك كاتب رئيس صنهاجة زيري بن مناد مستنجداً به على أبي يزيد وأهدى اليه في ذلك أموالاً كثيرة وحللاً وتحفاً نفيسة كما استعان أيضاً بصاحب المسيلة علي بن حمدون ، فلبى كل منهما دعوة المنصور وخرجت الجحافل فأحاطت بأبي يزيد – وهو يومئذ محاصر للمهدية – فأفرج عنها في صفر سنة ٣٣٤ هـ – سبطمبر ٩٤٥ م وفي اثناء ذلك نهض شاب بجبل اوراس متزعماً حركة اخرى ضد الشيعة أيضاً فقبض عليه صاحب المسيلة وجاء به مصفداً الى الامير فأمر بحمله معه وصلبه اينما حل وارتحل فكان يظهره للناس مصلوباً ارهاباً لهم وضل ابو زيد يتنقل في العواصم والبلاد الجزائرية والخليفة المنصور في اثره الى ان بلغ باغاية فامتنع عنه أهلها ومنعوه من الدخول اليها فضرب عليها الحصار ونزل المنصور يومئذ بطبنة وفي تلك الاثناء فسدت سيرة أبي يزيد وساء سلوكه فاختلفت عليه زناتة وانقلبت ضده ، فجاءت رسل محمد بن خزر الزناتي أمير مغراوة الى الخليفة تستأمن للقبيلة فأمنهم الخليفة مشترطاً عليهم تسليم أبي يزيد ، فانطلقوا جميعاً خلفه وكانت له معهم وقائع وايام مشهورة بأسمائها في التاريخ كوقعة يوم الرؤوس بفحص باتنة ، ووقعة

الحريق بجبل كياتة – قلعة بني حماد – حيث أحاط العبيديون بالقلعة ، وبعد حرب ضروس قبض الخصوم على أبي زيد مثخناً بالجراح بجبل معديد أو المعاضيد كما هو معروف به اليوم بشمال الحضنة في المحرم ٣٣٦ هـ – جوليت ٩٤٧ م فأمر الخليفة باسعافه فغلب عليه نزف الدم فمات يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم ؛ فمثل الخصماء بجثته وعبثوا بها ... ويومئذ نهض أبناء أبي يزيد الثلاثة : الفضل وأيوب ويزيد في قومهم منادين باستمرار الثورة على العبيديين والمطالبة بدم أبيهم فانتشبت الحرب من جديد وتقدم الفضل على رأس جيوشه فحاصر طبنة وبسكرة وباغاية وكاد لهيب الفتنة يعم الاوراس لولا ان قتل الفضل غدراً في شهر ذي القعدة من سنته – ماي ، جوان – وقتل أخوه أيوب بعده ٣٤١ هـ – ٩٥٢ م وزحف بعدهما يزيد الى باغاية فانهزم عنها ولم يخمد أوار الثورة بأوراس الى ان جهز لها الخليفة رئيس صنهاجة بلكين بن زيري الصنهاجي فقضى على الثائرين هنالك وانتهت يومئذ حركات الخوارج بالمغرب ، واسندت ولاية باغاية الى قيصر الصقلي مولى المعز العبيدي وبقي في منصبه هذا الى ان ظهر منه ما استوجب قتله فقتله سيده سنة ٣٤٩ هـ – ٩٦٠ م .

اصطدام الدعوة الشيعية بالاموية في الجزائر

كان المغرب العربي في اوائل القرن الرابع الهجري محط انظار الدعاة السياسيين من الامويين والشيعة ، يزدحمون عليه ويتسابقون بينهم في مد ايديهم اليه ؛ فانه بعد ما تمكن العبيديون من دولة الادارسة والاغالبة بالمغرب وبلغت دولتهم الى شواطي المحيط وسبتة واخذت تهدد الاندلس ، وكان الثوار في الاندلس يومئذ يفاوضون العبيديين ويتآمرون معهم على الدعوة لهم ؛ أسرع عبد الرحمن الناصر الخليفة الاموي الى دفع هذا الخطر عن دولته فنزل بساحل افريقية وفتح مليلة سنة ٣١٤ هـ – ٩٢٤ م وبث دعاته هنالك فاخترقوا المغرب الى بلاد الجزائر فلباهم صاحب ارشقول –

فرضة تلمسان وهي على مسافة عشرين ميلًا منها - وهو يومئذ ادريس بن ابراهيم ، واقتفى اثره في ذلك الحسن بن ابي العيش صاحب جرواة ، وموسى بن ابي العافية صاحب المغرب الاقصى ، ومحمد بن خزر المغراوي عاهل زناتة ، فنشبت يومئذ حروب بين الشيعة ودعاة الاموية في هذه الامارات المذكورة فانهزم فيها هؤلاء وخضعوا للشيعة ؛ ثم عادت زناتة الى الدعوة الاموية لما كان للامويين عليها من الولاء من عهد هجرة أميرها صولات بن وزمار الى الخليفة عثمان بن عفان بالمدينة المنورة ، فاتحد أميرها الخير بن خزر وحميد بن يصل على رفض دعوة العبيديين فحوصرت يومئذ تيهرت واحتلت وهران وأقيمت بها دعوة الامويين سنة ٣٣٣ هـ - ٩٤٥ م واخذت البيعة للخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله صاحب قرطبة ، وكان العبيديون يومئذ في شغل عن هذا مهتمين بحروب أبي يزيد الخارجي ، وبعدما قضوا عليها عمدوا الى القضاء على الدعوة الاموية القائمة بالمغرب ، فخرج المنصور بنفسه سنة ٣٣٦ هـ - ٩٤٧ م ونزل بسوق حمزة - قرب البويرة من عمالة الجزائر - ومعه زيري الصنهاجي في جموعه وهناك أخذ الخليفة في حشد الجنود وجمع العساكر مندفعاً نحو تيهرت ، فأخرج حميد عنها وعقد المنصور عليها ليعلى بن محمد اليفرني كما انه عقد لزيري بن مناد الصنهاجي على قومه وسائر بلاد صنهاجة .

وفي سنة ٣٤١ هـ - ٩٥٢ م أعاد الناس الدعوة الى الامويين بالمغرب الاوسط ، فقدم على الناصر الاموي بقرطبة في ذلك قاضي وهران أحمد بن أبي عون في وجوه أهل البلد وأعيان الوطن ، فتجهز لهم جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي وخرج لقتالهم سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م فاعترضه يعلى بن محمد اليفرني في جيوش عظيمة على مقربة من تيهرت ، وكانت هنالك مقتلة شديدة بين الطائفتين ، فعمد يومئذ جوهر الى بذل الاموال وتوزيعها بين رؤساء كتامة على ان يفتكوا بيعلى ويعفوا اثره . فجاؤوه برأسه وهزم يومئذ بنو يفرن قوم يعلى وانتصر العبيديون ثم كانت فترة قصيرة سكنت فيها الجزائر الى ان غزا ابن خزر الزناتي مدينة

باغاية سنة ٣٥٨هـ - ٩٦٨م وأعلن عصيان الشيعة ، ودعا للناصر الاموي أيضاً وامتدت الفتنة الى الزاب وواد ريغ ووارقلة - بالقاف المعقودة - ويومئذ خرج المعز الفاطمي لقتالهم جميعاً فشتت جموعهم وأعاد الدعوة للشيعة ، وفر ابن خزر مختفياً حيث لم يظهر له اثر ، فاجتهد المعز في القبض عليه فلم ينجح ، ويومئذ انتدب له بلكين الصنهاجي وأوغل في البلاد باحثاً عنه أيضاً بالسهول والنجاد مقتفياً اثره فلم يظفر به ، وبعد مضي سنة من الحادثة أقبل ابن خزر بنفسه فدخل على الخليفة المعز بدار الخلافة « المنصورية » (ربيع الثاني ٣٥٩هـ - فيفرى ٩٧٠م) ، مستأمناً على نفسه فأمنه وعفا عنه وأبقاه هنالك حتى قضى بالقيروان وقد أناف على مئة سنة ؛ ويومئذ تلاشت أطماع الامويين في المغرب .

حروب صنهاجة وزناتة

ولما هلك محمد بن خزر الزناتي خلفه على رئاسة القبيلة ولده الخير متمسكاً بدعوة الامويين الى وفاته ، ثم قام بعده ولده محمد مستمسكاً بحزب والده السياسي ، وكان متجبراً عاتياً ، فاثار العبيديون عليه قبيلة صنهاجة الموالية لهم وكان على رأسها بلكين بن زيري فنشبت الحرب القبيلتين سنة ٣٦٠هـ - ٩٧٠م وكاد ان يؤسر فيها رئيس زناتة لولا انه عرف كيف ينجو بنفسه من ذل الاسر فانتحر ، وقتل يومئذ سبعة عشر اميراً من صنهاجة . ثم نهض الخير بن محمد الزناتي فقام مكان والده المنتحر متزعماً قبيلة زناتة فقاتل صنهاجة حتى وقع اميرها زيري عن فرسه فصرع ؛ ولقد استمرت المناوشات بين هاتين القبيلتين نحو نصف قرن ، وكلها كانت ناشئة عما تكنه زناتة في نفسها من اثر الحرمان مما كانت ترجوه من خلفاء الشيعة من الرئاسة والتزعم على المغرب الاوسط المعروفة به وقد فاز بذلك خصماؤها الصنهاجيون وكتامة .

انشاء مدينة أفكان

هي على نحو الخمسة والعشرين كيلومتراً بالجنوب الغربي من معسكر

المعروف مكانها اليوم باسم أفكان بتشديد الكاف ، من مواطن جبل بني راشد وهو احد جبال درن المعروف بالاطلس ، وقاعدته مدينة الراشدية - معسكر - كان مركز هذه المدينة اولاً سوقاً لزناتة ؛ فمدنها رئيسها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني واسس بهذا المكان مدينة عظيمة سنة ٣٣٨ هـ - ٩٤٩ م واتخذها مركزاً لرئاسته فارتحل اليها الناس يومئذ من تيهرت ووهران ومعسكر وغيرها من بلاد الجزائر فانتشر بها العمران واسس بها مسجداً جامعاً وارحاء وحمامات الخ ... ثم كان خرابها على يد القائد العبيدي جوهر الصقلي في حوادث ثورات زناتة على الشيعة سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م .

قال الادريسي وأفكان هذه مدينة كانت لها ارحاء وحمات وقصور وفواكه كثيرة وكان عليها سور تراب لكنه الآن تهدم وبقي أثره ، وواديها يشقها نصفين ويمضي منها الى تاهرت [١] .

مهاجمة الاندلسيين للجزائر

لقد علمنا مما تقدم مبلغ الخلاف والنزاع الذي كان ناشئاً عن تنافس الشيعة والامويين بالمغرب ، ويومئذ أمر المعز اسطوله الرابض بصقلية ان يهجم ويغزو سواحل الاندلس ؛ فخرج الاسطول سنة ٣٤٤ هـ - ٩٥٥ م غازياً سواحل المرية فعاث فيها وغنم وسبى ثم عاد الى مقره ، ويومئذ خرج الاسطول الاموي منتقماً لدولته فحل بسواحل افريقية فأخفق ، ثم عاد فكرر الهجوم في سبعين مركباً وحل بمرسى الخرز - القالة - شرقي بونة فأحرقها وكانت بها يومئذ مصانع السفن وأساطيل الدولة .

حركات الاسطول

لم يسمح التاريخ - في هذا العصر الذي نؤرخه - لاي دولة مطلقاً

---

(١) نزهة المشتاق ص ٨٢ - ٨٣ ط ليدن ١٨٦٤ م وابن حوقل ج ١ ص ٨٩ ط ليدن ١٩٣٨ م .

ان تفتخر بالتفوق البحري بهذا البحر المتوسط والانفراد بالسيادة العالمية فيه غير هذه الدولة المغربية الاسلامية ، فقد كان سلطانها به مرهوباً وجانبها مرموقاً ما بين بوغاز طارق الى بيروت فجميع مدنه الساحلية ومراسيه وجزره المنقطعة مثل كورسيكا وسردانية وصقلية الخ ... كلها كانت بيد هؤلاء العبيديين الذين عنوا كثيراً بتقدم الحركة البحرية وصناعة السفن ، فقد بلغ عدد ربابنة البحر في هذه الدولة الى خمسة آلاف ربان[1] وكانت مدينة بونة - عنابة - ومرسى الخرز - القالة - بالجزائر كلاهما مركزاً هاماً لصنع المراكب البحرية ، ومقراً عاماً للاسطول الذي بلغ المائتي مركب علاوة على مرفإ المهدية بتونس الذي كان يسع مائة سفين ، فمن هذه الامكنة كانت تصدر البعثات البحرية لغزو بلاد الروم وفتح ما ولاها من بلاد ضفاف البحر الابيض المتوسط ، كما انها كانت تغدو وتروح كذلك فيه مواخر للتجارة واستخراج معادنه وكنوزه من صدف وخرز وودع ومرجان وفصوص الحجارة الخ ... ولعظم صولة العرب البحرية وشدة شكيمتهم به انحاز الافرنج بمراكبهم يومئذ الى الجانب الشمالي الشرقي منه فتراهم لا يعدونه أبداً فلم يكن لاوروبا سلطان على هذا البحر خلال القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - اذ كان لا بد لمن يريد منهم قضاء مأرب فيه ان يخطب ود العرب كما فعلت نابولي وغيتة وأمالفي[2] قال ابن خلدون :

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر - الابيض المتوسط - من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج . وكان

---

(١) رئيس الملاحين .

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٦٦ ط القاهرة ١٩٥١ م .

أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية الى جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة ... والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم ... وانحازت امم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد بفريسته ، وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تظهر للنصرانية فيه الواح[1] فاسمع الآن الى قول شاهد عيان وهو شاعر الدولة أبو القاسم بن هاني يصف اسطول المعز بقصيدة تدل على مقدار ما وصلت اليه قوة هذه الدولة البحرية العظيمة :

اما والجواري المنشآت التي سرت	لقد ظاهرتها عدّة وعديد
قباب كما تزجى القباب على المها	ولكنْ من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يرون كتائب	مسومة تحدو بها وجنود
اطال لها ان الملائك خلفها	فمن وقفت خلف الصفوف ردود
وان الرياح الذاريات كتائب	وان النجوم الطالعات سعود
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها	تنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره	له بارقات جمة ورعود
مواخر في طامي العباب كأنه	بعزمك بأس او لكفك جود
انافت به اعلامها وسمالها	بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى شاهق وهو كوكب	وليس من الصفّاح وهو صلود
من الراسيات الشم لولا انتقالها	فمنها قنان شمخ وربود
من الطير الا انهن جوارح	فليس لها الا النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى	فليس لها يوم اللقاء خمود

---

(١) المقدمة ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

اذا زفرت غيظاً ترامت بمارج | كما شبّ من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق | وافواههن الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كأنها | دماء تلاقتها ملاحف سود
يشب لآل الجاثليق سعيرها | وما هي من آل الطريد بعيد
تعانق موج البحر حتى كأنه | سليط له فيه الذبال عتيد
ترى الماء فيه وهو قان خضابه | كما باشرت درع الحلوق جلود
وغير المذاكي نجرها غير انها | مسومة تحت الفوارس قود
فليس لها الا الرياح اعنة | وليس لها الا الحباب كديد
ترى كل فود للتليل كما انثبت | سوالف غيد اعرضت وخدود
رحيبة مد الباع وهي نتيجة | بغير شوى ، عذراء وهي ولود
تكبرن عن نقع يثار كأنها | موال وجرد الصافنات عبيد
لها من شفوف العبقري ملابس | مفوفة فيها النضار جسيد
كما اشتملت فوق الارائك خرد | او التفعت فوق المنابر صيد
لبوس تكف الموج وهو عطامط | وتدرأ بأس اليم وهو شديد
فمنه دروع فوقها وجواشن | ومنها خفاتين لها وبرود

ويقول Adam Mez مؤرخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ان في سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيدالله المهدي الفاطمي ان تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوة ، وان تنهبها ، وان تفعل مثل هذا بمدينة بيزا في عامي ١٠١١ - ١٠١٤ م مع ان اسطول الفاطميين كان في ذلك الحين اقل كفاية من اسطول الشام ... وكانت مراكب العرب تقطع البحر الابيض عرضاً في سنة وثلاثين يوماً من مبدئه في الغرب الى آخره حيث انطاكية (١) .

المذاهب والعقائد

نشأت دولة العبيديين بالمغرب ونشأ معها فيه مذهب التشيع بعقائده

---

(١) جغرافية الادريسي طبعة دوزي ص ٢١٤ .

وقواعده ، وهو مذهب آل البيت النبوي المطهر كمذهب جعفر الصادق وزيد بن حسن واسماعيل بن جعفر الصادق سابع الائمة الاثني عشر ؛ وان اشهر فرق الشيعة اثنان : الامامية والزيدية ، ولكل منهما طوائف وفروع ؛ منها مذهب الاسماعيلية المتفرع عن الامامية وهو مذهب الدولة الرسمي ؛ غير انه مدخول بعقائد الروافض المقتبسة من الماجوسية والمانوية والمزدكية والدهرية ؛ وفي المذهب كثير من الافكار الشرقية التي حلت مكان الافكار الاسلامية المحضة ؛ بل يرى بعضهم ان الاصل في عقائد الشيعة الباطنية انها منبعثة عن مبدإ سياسي محض وما هو الا امتداد لما بيته خصماء الاسلام من الكيد له المندرج تحت الصراع القائم يومئذ بين الموالي والعرب . ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم بل تراهم يأخذون بمذهب اهل الاعتزال في ذلك .

كان اول من نشر الافكار الشيعية بالجزائر منيب بن سليمان المكناسي نزل بأعمال تيهرت ونواحي وانشريس فنشرها هنالك بين العامة ، ثم جاء بعده السفياني والحلواني [1] فنشرها ايضاً ما بين اهالي مرماجة من بلاد مجانة وسوق حمار بنواحي قسنطينة ، وهكذا استمرت الدعوة الشيعية في سيرها سراً حتى جاء ابو عبد الله الصنعاني فأفشاها بهذه الاوطان ثم تعين الاخذ بها ايام ابي عبيد الله المهدي ، قال ابن خلدون : وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن اقوالهم وهي كلها أصول واهية . وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح فلم نعرف شيئاً من مذهبهم ولا نرى كتبهم ولا أثر لشيء منها الا في مواطنهم ، فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة بالمغرب والمشرق واليمن والخوارج

---

(١) ذكر ابن الأثير والمقريزي ان ابا عبد الله جعفر الصادق - الامام السادس - بعث بهذين الداعيين الى المغرب سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٣ م وقال لهما : ان المغرب ارض بور لم تحرث قط فاذهبا فاحرثاها حتى يجيء صاحب البذر . والفترة التي بين دخول هذين الداعيين بلاد المغرب ودخول ابي عبد الله الشيعي الى هذه البلاد : ١٤٣ سنة .

كذلك ولكل منهم كتب وتاليف وآراء في الفقه غريبة [1] وكان مما احدثه الصنعاني هذا ان قطع صلاة التراويح في شهر رمضان وامر بصيام يومين قبله ، وقنت في صلاة الجمعة وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة ، واسقط من اذان صلاة الصبح : « الصلاة خير من النوم » وزاد « حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر » وكان نص الاذان طول مدة بني عبيد بعد التكبير والتشهدين : « حي على الصلاة وحي على الفلاح » مرتين « حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر » مرتين مرتين « لا اله الا الله » مرة . ثم يقول : المؤذن احياك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ؛ جامع شمل الاسلام والمسلمين ؛ واعز بسلطانك جانب الموحدين ؛ واباد بسيوفك كافة الملحدين ؛ وصلى الله عليك وعلى آبائك الطاهرين ؛ وابنائك الاكرمين ؛ صلاة دائمة الى يوم الدين ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين [2] ومن فقه الشيعة انهم لا يقنتون الا في الركعة الثانية من صلاة الجمعة ، ولا يجيزون القصر في الصلاة للمسافر الا لمن كان قاصداً الحرمين الشريفين او الى الكوفة وكربلاء ، والخمر عندهم طاهر ، وهم لا يحتمون طهارة مكان الصلاة ما دامت النجاسة لا تعلق لها بالثوب وشهر رمضان هو دائماً وابداً عندهم شهر كامل ولا يتوقف الافطار والصوم على الرؤية والزكاة عندهم لا تجب في أموال التجار بل يدفع التاجر الشيعي خمس ايراده الى الامام ، ونكاح المتعة عندهم مباح ، وليس عندهم في المواريث عول ولا تعصيب ، وخلصوا من العول بادخال النقص على بعض اصحاب الفروض فالقرابة عندهم مقدمون على العصبة ولعلهم بذلك يريدون تقديم فاطمة على العباس رضي الله عنهما ، ولا يرث الجد عند وجود ابن الابن فالاجداد والاخوة والاخوات عندهم في الدرجة الثانية بعد الابناء ، فالبنت اذا انفردت وليس معها احد من الابوين فانها تحوز المال كله نصفه بالفرض ونصفه بالرد ، وبذلك لا يشارك

---

(١) المقدمة ص ٢١٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

(٢) اخبار ملوك بني عبيد الله لابن حماد ص ١٥ — ١٦ ط الجزائر ١٣٤٦ هـ .

فاطمة عليها السلام احد في ميراثها من ابيها صلى الله عليه وسلم ، ولا يرث مع أم احد من الاخوة والاخوات ، ومع قولهم بان قاعدة الميراث عندهم هي تقديم الاقربة فانهم يقدمون ابن العم الشقيق على العم للأب مع ان العم اقرب من ابن العم . وهم لا يقولون بالقياس فاصبح لهم بذلك فقه يتفق ويختلف مع فقه اهل السنة وجميع شرائع القرآن لها عندهم معنيان ظاهر وباطن ، والعارف هو الذي يطلع على المعنى الباطن ويتخلص من الظاهر ، وكثيراً ما عقدت مجالس المناظرة والمساجلة بين شيوخ المذهب المالكي مذهب البلاد القديم ، وبين رؤساء وزعماء المذهب الشيعي الجديد وكانت هنالك المساجلات والمجادلات بين فقهاء المذهبين طالما افحم فيها فقهاء الشيعة بالحجة وقاطع البرهان ، وجرت هنالك محن ورزايا لمشيخة المالكية وعظمت فيها الحوادث والوقائع استشهد فيها عدد عظيم من العلماء والعباد ، ولم ينج احد من اهل المذاهب الاخرى يومئذ الا الحنفة لموافقتهم للشيعة في مسألة التفصيل فكان فيهم القضاة والرآسة [1] ولا تزال من هذه الفئة طائفة من الناس منبثة في انحاء بلاد الهند في كشمير وبومباي وجزيرة سرنديب - سيلان - وبالافغان والباكستان الغربي واليمن وشرقي افريقية وسوريا . وعددهم ينيف على مليونين نسمة ، ورئيسهم الحالي هو الامير كريم خان بن الامير علي خان النجل الاكبر لزعيمهم الروحي المشهور « آغاخان » المتوفي سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م ويعد الامير كريم اليوم هو الامام الثاني والاربعون من أئمتهم وهو يحمل لقب جده « آغاخان » .

والملاحظ ان مذهب الشيعة لم ينتشر هنا بارض المغرب على طريق الارغام او العنف والاكراه كلا ، وانما اعتنقه من اعتنقه عن طواعية وموافقة وذلك ما نستنتجه من حديث اربين الاخوين زعيمي الشيعة بالمغرب : ابي عبد الله واخيه العباس ، قال النويري « انه لما وصل ابو العباس الشيعي الى ارض المغرب اراد ان ينفي عن القيروان من يخالف

---

(١) مقدمة كتاب المدارك ص ٢١ ط باليرمو ١٩١٠ م .

مذهبه ، فقال له اخوه ابو عبد الله : ان دولتنا دولة حجة وبيان وليست بدولة قهر واستطالة فاترك الناس على مذاهبهم » .

واذن فليس بعجيب اذا لم نرَ البربر يتعمقون في دراسة المذهب الاسماعيلي وتفهم تعاليمه التي تحتاج الى اعمال فكر وروية ودراسة فلسفية عميقة ، وعذرهم في ذلك واضح اذ هم قوم سذج وليس لهم في ذلك الوقت من الاستعداد الكافي لفهم مذهب الشيعة الاسماعيلي بدرجاته المختلفة والمتدرجة في الصعوبة ما كان لغيرهم من اتباع هذا المذهب بفارس ومصر ، وانما كان اعتناق البربر لاول وهلة لهذا المذهب هو بباعث العداء لاغالبة الذين طالما اضطهدوهم وضيقوا عليهم الخناق ومن هناك لم يكن ما يساعد على رسوخ هذا المذهب في نفوس البربر مما أدى به الى الزوال من بلاد المغرب حيث لم يبق له الآن بقية أثر[1] وبقي المذهب الملكي راكداً بهذه الديار نحو نصف قرن حتى كانت مناهضة الرافضية على عهد باديس عاهل صنهاجة ؛ فبعثه من مرقده وبقي اهالي هوارة من بني كملان ومكناسة وسكان مدينة باغاية وفحصها من قبائل مزاتة وضريسة من قلاع جبل اوراس على مذهب الاباضية .

الثقافة والحضارة والعمران

لم تطل اقامة الدولة العبيدية بهذه البلاد حتى تتمكن من بسط حضارتها بهذا الاقطار ، ومع ذلك فقد نهجت في سيرها نهج الدول المثقفة التي تسعى لتوطيد ملكها وتثبيت حكمها باساليب الحكمة والعدل وهي في ذلك تنافس دولة العباسيين بالمشرق والامويين بالمغرب . ويبدو ان الدولة العبيدية عملت على نشر الثقافة الاسلامية وخدمة العلم بمختلف الالسن

---

(١) نهاية الارب للنويري ج ٦ ورقة ٢١ مخطوط بدار الكتب المصرية وتاريخ الولة الفاطمية للدكتور حسن ابرهيم ص ٤٩ – ٥١ – ٥٢ ط القاهرة ١٩٥٨ م وتاريخ التشريع الاسلامي للخضري ص ٣٤٠ ط القاهرة ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م وتاريخ التربية الاسلامية للدكتور احمد شلبي ط بيروت ١٩٥٤ م .

واللغات ، فقد احتفظ لنا التاريخ بوثيقة ملكية يصرح فيها الخليفة المعز بأن دعاته منتشرون في الاقاليم يدعون الى الدولة ويبشرون بأبابها وينشرون علمها وينذرون بأسها بتصاريف اللغات واختلاف الالسن [1] وهو نفسه كان يحسن لغات جميع الامم التي تتصل بالخلافة العبيدية كالبربرية والرومية والايطالية والنوبية علاوة على توسعه في علوم العربية . ومما يدلنا على انتشار الروح العلمية يومئذ كثرة حلق الجدل والبحث بين علماء الشيعة ومعارضيهم من اهل المذاهب الاخرى فكان ذلك اول عهد المغرب بالفلسفة ومباحثها الممتزجة بعقائد الشيعة ، وانشاء المصانع الحربية لصنع السلاح والاساطيل كمصنع بونة والمهدية ، وصناعة تعدين الحديد التي كانت من اشهر خصوصيات افريقية الشمالية ومصنع الزجاج الصافي وتفاصيل الصوف بطرة (اوطرا) من بلاد نفزاوة ؛ ويدل على ذلك نسج ذلك البساط العجيب الذي امر بصنعه المعز من حرير ازرق ملون مطعم بالذهب فيه صورة الاقاليم والبحار والانهار والجبال والطرق وفيه صورة الحرمين الشريفين مكتوبة اسماؤها عليها وفيه هذه العبارة التالية : « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ . وكانت النفقة عليه اثنين وعشرين الف ديناراً » ، وهذا نهاية التفوق الصناعي في فن الزخرفة ، ويوم ان توجه المعز للرحيل الى الديار المصرية حمل معه من بلاد المغرب والاندلس صناع التصاوير وكل نوابغ الفنون الجميلية وكان فيهم رجال من القبيلة الجزائرية الكبرى (كتامة) يسمون المزوقين كانوا يزوقون الجدران بألوان متعددة من الاصباغ ، اذا نطرت اليها من ناحية كانت صورة تغاير الحقيقة وكذلك اذا نظرت اليها من ناحية اخرى ، وكان اول من افاد بمواهبهم زوجته السيدة « تغريد » فانها شيدت لنفسها مسجداً جميلًا بالقارفة واستأجرتهم للعمل فيه وكان رئيس الجماعة رجلًا يعرف باسم « الكتامي » صنع صورة ليوسف عليه السلام وهو في الجب عريان والجب كله اسود ، فكانت هذه الصورة اول أثر للتصوير الفاطمي في صدر الاسلام قرأنا عنه ولكننا مع كثير من الاسف فقدنا أثره . ومما

---

(١) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٥٨ .

اثبته التاريخ ايضاً لهذا الخليفة العبيدي من ابتكار واختراع ، انه هو الذي امر بصنع قلم الحبر Stylographe على هذا الشكل ، والوضع المعروف به اليوم : فلقد ورد في كتاب الخصائص والمسامرات قال عند كلامه عن الامام المعز مخترع هذا القلم وقد وصف صنعته قال : ثم مرت بضعة ايام حتى جاء الصانع يحمل قلماً من ذهب فأودعه المداد وكتب به وزاد شيء من المداد عن مقدار الحاجة فأمر باصلاحه فاذا هو يقلب باليد ويميل الى كل ناحية ثم اذا رفعه عن الكتاب امسك المداد فرأيت صنعة عجيبة لم اكن احلم اني أرى مثلها . وتقدمت اقتصاديات البلاد تقدماً باهراً ، فقد بلغ ثمن بيع وقر جمل من التمر بدرهمين ، وكانت القوافل تخترق الصحراء تحمل التمر في الغالب وتعود بسبائك الذهب وسبي العبيد اذ كان شمال افريقية في القرن الرابع مثل مصر وجنوب جزيرة العرب من اكبر اسواق الرقيق الاسود كما ان صناعة تجفيف السمك والتجارة فيه كانت رائجة بالمغرب ايضاً ، مثل استخراج المرجان بمرسى الخرز وسبتة ؛ فقد كان يعمل في ذلك ما يزيد على الخمسين قارباً ، وفي كل قارب نحو العشرين عاملاً ، وكان اكثر ما يحمل الى بلاد غانة والسودان ، كما انتشرت خدمة القطن ايضاً فكانت بذلك ثروة البلاد واسعة ، قال ابن حوقل انه دخل القيروان من مال المغرب سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م فوق سبع مائة الف دينار وهذا من اعظم ما يسجل في تاريخ دخل الدول في القديم . وكان من آثار الدولة المعمارية بالجزائر مـــدينة المسيلة واشير وبونة الحديثة (٣٥٠ هـ - ٩٦١ م) ودار الهجرة - المندرسة الآن - وهي ذات حضارة ومدنية عجيبة ، بله ما اقامته في الاقطار الشقيقة مثل طرابلس وتونس والمغرب الاقصى من المنشئات والمؤسسات المتنوعة الكثيرة .

ويحدثنا اهل الجغرافية ومؤرخو القرن الرابع بانه لم يكن في المغرب من الفواحش وتعاطي الامور المنكرة والفسق مثل ما هو موجود اذ ذاك بالمشرق[1] ؛ وكان الزواج بينهم مقصورا على الواحدة ولم يفش التعدد

---

(١) ابن حوقل ج ١ ط ليدن ١٩٣٨ م .

امتثالا وطاعة للخليفة المعز ، فانه خاطب جماعة من شيوخ كتامة قائلا لهم يوماً : « واقبلوا بعد الاعمال على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فينغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا ابدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة[1] .

ومن مبرات الفاطميين بالمغرب ما حكاه ابو جعفر الجزار عن احداث سنة ٣٤٠ هـ ٩٥١ م ، قال انه في هذه السنة امر الخليفة المنصور اسماعيل بن القائم بامر الله الفاطمي ان يكتب له اولاد القواد ووجوه رجاله من كتامة والعبيد والجند وضعفاء الناس من اهل القيروان وغيرها ، ليختنوا ويحسن اليهم بالكسى والصلات فبلغوا اكثر من عشرة آلاف ، فابتدأ في ختانهم ، وعمل ولائم واطعم خاصة الناس وعامتهم ، واعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد الى مائة درهم واقل من ذلك ، فكان يختن في كل يوم من خمسمائة الى الف وثلاثمائة ، فاقام على هذا سبعة عشر يوما ، قال ابو جعفر الجزار : فسمعت من يقول من اهل الخدمة انه احصى ما انفق في هذا الختان فكان مائتي الف دينار ، وحدث في البلد عند ذلك من الانفاق واللهو ما لم ير مثله[2] .

وفي سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٣ م قام حفيده المعز لدين الله بأعظم من ذلك يوم اعذار بنيه الامراء : عبد الله ونزارو عقيل اذ كاتب عماله وولاته من لدى برقة وعمالها الى اقاصي سجلماسة وحدودها وما بين ذلك وما حوته مملكته الى جزيرة صقلية وما ولاها من حضر وبدو وبحر وبر وسهل وجبل بطهور من وجد من اولاد سائر الخلق غير مطهر حرهم وعبدهم وابيضهم واسودهم ودينهم وشرفهم وملّيهم وذميهم الذين حوتهم المملكة لمدة شهر واحد ، وتوعد على كراهية ذلك ، وامرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسواتهم وما يصلح احوالهم من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغير

---

(١) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٥٢

(٢) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥١

ذلك بمقدار رتبهم واحوالهم ، وكان من جملة المنفق في ذلك ما حمل الى جزيرة صقلية وحدها من المال سوى الخلع والثياب خمسون حملا من الدنانير والحمل عشرة الاف دينار — ومثل ذلك الى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على اهل عمله ، وكان المعز ربما طهر في اليوم الواحد من ايام الشهر بجزيرته اثني عشر الف صبي وفوقها ودونها . كان وزن خرق الاكياس المفرغة فيما انفق في هذا الاعذار ماية وسبعين قنطاراً بالبغدادي[1] .

فتح مصر وانتقال الخلافة الفاطمية اليها

طالما رأينا نشوب الخلاف واحتدام اوار النزاع بين الحكومة العبيدية الشيعية وبين الرعية السنية ، وطالما اختلفت وجهة النظر بين الراعي والرعية وتباينت الافكار بينهما ، وكانت هنالك مواقف حرجة ادت الى المقاطعة والنفور بين الطرفين فكان ولا بد للدولة من التفكير والبحث عن بلاد اخرى تبث فيها دعوتها ؛ فحول الخليفة الفاطمي يومئذ نظره الى غير المغرب وعزم على الانتقال الى المشرق والقضاء على الخلافة العباسية هنالك وقد حاولت الدولة ذلك مرتين من قبل فلم تنجح فكان من المصادفة هذه المرة اضطراب الحال بمصر لوفاة صاحبها كافور الاخشيدي وقد كان الدعاة بها من قبل يعملون على تمهيد الفتح الفاطمي فكانت المراسلة والمكاتبة بينهم وبين المعز دائمة دائبة وكانوا مما يرمزون به في مكاتبتهم للخليفة بالمغرب قولهم ؛ « اذا زال الحجر الاسود ملكت الدنيا » وهم يعنون بذلك كافوراً لسواده ؛ وقد كان من مقاصد الخليفة العبيدي واغراضه السياسية التوصل الى الانتفاع بثراء البلاد المصرية الواسع حيث كانت اسواقها مستودعاً عاماً لتجارة اوربا مع الهند وبلاد العرب قبل اكتشاف ممر رأس الرجاء الصالح فكانت جميع سلع اسواق الشرق تمر مضطرة من طريق الاسكندرية الى الغرب[2] . فلما توفي كافور واضطربت المملكة

---

(١) الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ص ١٢٤ ط الكويت ١٩٥٩ م .

(٢) تاريخ حضارة العرب ص ٢٧٨ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

المصرية بما وقع فيها من الغلاء والوباء انتهز المعز الفرصة وامر قائده جوهر بن عبد الله الصقلي بغزو المشرق على ان تكون البداءة بمصر ، فخرج القائد من رقادة يوم السبت ١٤ ربيع الاول ٣٥٨ هـ - ٧ فيفري ٩٦٩ م ومعه من الجند اكثر من مائة الف فارس ، ومن الاموال ما يزيد على الف ومائتي صندوق يحتوي على نحو ثلاثة وعشرين مليون ديناراً ؛ وهو مبلغ عظيم يدلنا على سعة مداخيل ميزانية الدولة وما تجمع لديها من الثروة الطائلة باشتطاطها في جمع المال ؛ وكان معه كذلك من السلاح والخيل والعدد الجم الكثير ؛ وما كان يبلغ خبر تجهيز جيش الفتح هذا الى مصر حتى تفرق عنها اهلها وتركوها نهباً للغالب ، فاحتلها جوهر يوم الثلاثاء ١٨ شعبان - ٨ جوليط من نفس التاريخ ، وخطب فيها يوم الجمعة ٢٠ منه - ١٠ جوليط باسم مولاه وسيده المعز لدين الله ، ثم اختط مدينة القاهرة المعزية وبعث ببشارة الفتح الى الخليفة بالمغرب فسر لها سروراً بليغاً ، وعزز البعثة يومئذ ببعوث اخرى فتحت الشام واحتلت الرملة ودمشق . وبعد رسوخ قدم الخلافة الشيعية بمصر والشام والحجاز وانتظام احوال الدولة بها انتقل اليها المعز فخرج من عاصمته المنصورية - صبرة - في ابهة الملك وعظمة السلطان يوم الاثنين ٢٢ شوال ٣٦١ هـ - اوط ٩٧٢ م فنزل اولاً جزيرة سردانية ريثما التحقت به الجموع التي صحبته الى المشرق ، وبها عقد العهد لبلكين الصنهاجي على ولاية المغرب العربي ، ثم اخذ يتنقل ويطوف بالبلاد فيقيم اياماً في بعضها ثم يجد السير الى ان عبر النيل ودخل القاهرة يوم الثلاثاء ٥ رمضان ٣٦٢ هـ ٩ جوان ٩٧٣ م .

وكان فيما استصحبه معه المعز من الذخائر والاموال الى القاهرة الفا جمل من ابل زناته جاءه بها بلكين بن زيري عاهل صنهاجة فحمل عليها جميع ما كان له بالقصور من الذخائر والاموال وسبك الدنانير على شكل الطواحين جعل على كل جمل قطعتين في وسط كل قطعة نقباً تجمع به القطعة الى الاخرى فاستعظم ذلك الجند والرعية وصاروا يقفون في الطريق لرؤية بيت المال المحمول ، وكان فيما نقله الخليفة الفاطمي معه الى القاهرة ،

يومئذ توابيت آبائه واجداده فدفنهم في قصره[1] .

شدة شكيمة كتامة واباؤها للضيم

كان لشريف الطبع الذي جبل عليه أهل كتامة كما جبل عليه بقية البربر كافة من إبائهم للضيم وعلو الهمة وعزة النفس انه لما اخذ المعز الفاطمي في تجهيز جوهر بالعساكر لفتح الديار المصرية وتهيأ للمسير اليها بعث صاحب سره « خفيف الصقلي » الى شيوخ كتامة يقول لهم : « يا اخواننا قد رأينا ان ننفذ رجالاً الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها عليهم في بلادهم ، فاذا احتجنا اليهم انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغت ذلك : قل لمولانا والله لا فعلنا هذا ابداً ... كيف تؤدي كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة وقد أعزها الله قديماً بالاسلام وحديثاً معكم بالايمان ، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب ? ... فعاد خفيف الى المعز بذلك فأمر باحضار جماعة كتامة فدخلوا عليه وهو راكب فرسه فقال لهم : ما هذا الجواب الذي صدر عنكم ? ... فقالوا : هذا جواب جماعتنا ، ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا . فقام المعز في ركابه وقال : بارك الله فيكم فهكذا اريد ان تكونوا ، وانما اردت ان اختبركم فانظر كيف انتم بعدي اذا سرنا عنكم الى مصر هل تقبلون هذا وتفعلونه وتدخلون تحته بمن يرومه منكم ؛ والآن سررتموني بارك الله فيكم[2] .

وقد انقرض اهل هذا القبيل – كتامة – ولم يبق كما قال الادريسي –

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٥ ج ٢ ص ١٣٤ ط بولاق ١٢٩٩ هـ – اتعاظ الحنفاء للمقريزي ص ١٤٤ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨ م – تاريخ الاسحاقي ص ١١١ ط القاهرة ١٣١٠ هـ

(٢) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٥٢ ط بولاق ١٨٧٠ هـ واتعاظ الحنفاء ص ١٤٠ ط مصر ١٩٤٨ م .

أواسط القرن السادس الهجري – الا نحو اربعة آلاف رجل وكانوا من قبل ذلك عدداً كثيراً وقبائل وشعوباً [1] .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان القطر الجزائري يومئذ مجزءاً الى اربع ولايات ؛ ولاية المسيلة ، وباغاية ، وأشير ، وتيهرت ؛ فأما ولاية المسيلة فانها كانت لعلي بن حمدوي المعروف بابن الاندلسية الى ان انتقل ولده جعفر الى الاندلس سنة ٣٦٠ هـ – ٩٧١ م . فأضافها يومئذ المعز الى بني زيري رؤساء صنهاجة ؛ واما ولاية باغاية فقد تولاها كنون وعروبة بن يوسف الكتامي المقتول في ثورة ٣٠٢ هـ – ٩١٤ م وأبو معلوم فلحون الكتامي المقتول سنة ٣١٠ هـ – ٩٢٢ م وقيصر الصقلي المقتول ايضاً سنة ٣٤٩ هـ – ٩٦٠ م . واما ولاية اشير فانها كانت في بني زيري الصنهاجيين الى نهاية ايامهم . اما ولاية تيهرت فقد تولاها على عهد الفواطم جماعة ، عرفنا منهم أبا حميد دواس اللهيصي ولاه عليها أبو عبدالله الصنعاني حين توجه منها الى سجلماسة سنة ٢٩٦ هـ – ٩٠٨ م ومات أبو حميد قتيلًا مصروفاً عنها ، ثم تولاها مصالة بن حبوس المكنامي سنة ٢٩٩ هـ – ٩١١ م الى ان قتله محمد بن خزر الزناتي في شعبان سنة ٣١٢ هـ – نوفمبر ٩٢٤ م فوليها بعد اخوه يصل بن حبوس الى ان توفي سنة ٣١٩ هـ – ٩٣١ م . فوليها يومئذ أبو مالك بن يغمراسن [2] بن أبي شحمة – بضم الشين وسكون الحاء وفتحها – اللهيصي الى ان ناهضه اهل البلاد فخرج منها مطروداً سنة ٣٢٣ هـ – ٩٣٥ م . وولوا عليهم أبا القاسم الاحدب بن مصالة بن حبوس فحاربهم ميسور الخصي عند منصرفه من المغرب سنة ٣٢٤ هـ – ٩٣٦ م فظفر بالبلاد وقتل أبا القاسم وولى عليها داود بن ابراهيم العجيسي فأقام بها داود الى ان اخرجه منها حميد بن يصل في جمادى الثانية سنة ٣٣٣ هـ –

---

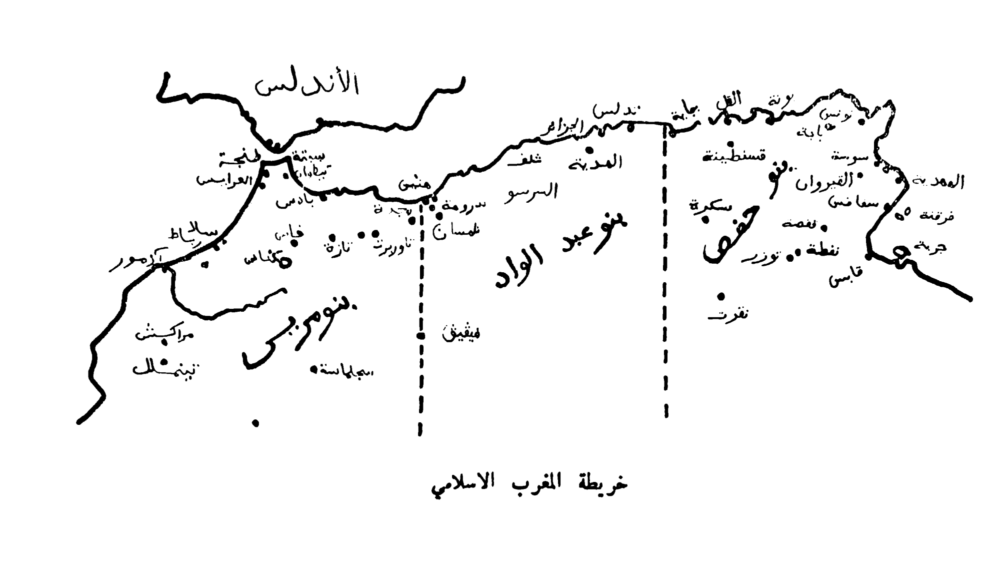
(١) نزهة المشتاق ص ٩٩ ط ليدن ١٨٦٤ م .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الياء والغين وكسرها ، ولفتح السين وكسرها .

جانفي ٩٤٥ م . وأقام بها الدعوة الاموية الى ان اقتحم عليه المدينة الخليفة اسماعيل المنصور سنة ٣٣٦ هـ - ٩٤٧ م وعقد لميسور عليها ؛ فخرج منها حميد الى الاندلس ، وسار ميسور في الرعية بالظلم والجور فنهضت الرعية في وجهه وأضرمت البلاد عليه ناراً واستدعت محمد بن خزر الزناتي مفوضة اليه أمر المدينة ، فكر محمد بقومه على تيهرت ومعه ولده الخير وأظهر الانتصار لميسور حتى وقع بين يديه فغدر به وأسره واحتلت زناتة المدينة ؛ ثم اضطرب أمر هذه الولاية فتغلب عليها يعلى بن محمد اليفرني الزناتي ودعا فيها الى الاموية ورفض التشيع ، الى ان كانت حملة جوهر الصقلي الكبرى سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م فزحف على المغرب العربي كله واحتل تيهرت وقتل يعلى وأسندت رئاسة هذه الولاية الى زيري الصنهاجي ؛ ويذكر لنا التاريخ ان رئاسة مدينة الجزائر يومئذ كانت لحمزة بن ابراهيم ، وعمالة بسكرة لزيدان الخصي ، وقيادة الجيش لموسى بن محمد الكتامي ورئاسة البحر ليعقوب الكتامي ، وكان من ولاة ميلة ماكنون بن ضبارة ولاه عليها أبو عبدالله الصنعاني ، ورئاسة قبيلة يفرن لمحمد بن صالح المقتول على يد عبدالله بن بكار اليفرني ، ولم يكن هذا الرئيس اليفرني خاضعاً لدعوة العبيديين .

الخلفاء العبيديون بالمغرب

	تاريخ التولية
عبيد الله المهدي	٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م
ابو القاسم محمد بن عبيد الله (القائم بأمر الله)	٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م
الطاهر اسماعيل المنصور بن القائم	٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م
ابو تميم معد المعز لدين الله بن المنصور	٣٤١ هـ = ٩٥٢ م



خريطة المغرب الاسلامي

من مشاهير الجزائر

جعفر بن علي

٣٦٤ ﻫ = ٩٧٤ م

ابو علي جعفر بن علي بن احمد بن حمدون المعروف بابن الاندلسي صاحب المسيلة وامير الزاب ؛ قال ابن خلكان : كان سمحاً كثير العطاء مؤثراً لاهل العلم ؛ تولى امارة المسيلة بعد وفاة والده سنة ٣٣٤ ﻫ — ٩٤٥ م . في وقعة ايوب بن ابي يزيد الخارجي . قال ابن حماد : ووصلت هذه المدينة — المسيلة — من العمارة والحضارة ، وملك علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى الى الغاية القصوى والامد الاقصى ؛ وقال البكري في وصف المسيلة : وللمدينة اسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر .

ولما تمكن زيري بن مناد الصنهاجي من ولاية اشير وامارة صنهاجة زاحم جعفراً في خدمة الدولة ونافسه في التقرب من الخليفة العبيدي وسما به في الرتب وتاخمه في العمالة ، وكان للدولة صاغية اليه والى ابنه بلكين فاخذا يرميان جعفراً بالميل الى زناتة حتى اوغرا عليه صدر المعز بن المنصور ، فلما اعتزم الخليفة على الرحيل الى مصر اشيع عنه انه مستخلف بلكين ، فعظم على جعفر ان يبقى تحت ولاية منافسه ، ثم ان المعز ارسل اليه احد مواليه يستقدمه ويطمعه في خلافته ، فقويت

استرابته وغادر المسيلة في اوليائه بني برزال ، ولحق بزناتة سنة ٣٦٠ هـ — ٩٧٠ م فجهز المعز زيري صاحب صنهاجة اثره فكانت حرب صرع فيها زيري واحتز رأسه فذهب به وفد من وجوه زناتة يرأسهم يحيي بن علي اخو جعفر ؛ الى المستنصر الاموي بالاندلس فقام يومئذ بلكين مقام والده فقاتل زناتة وثأر لابيه منها واستظهر على جعفر ، فلحق جعفر بأخيه يحيي وبقيا هنالك مرموقين بعين التجلة والاحترام الى ان حدث في السياسة الاندلسية ما دعا المنصور بن ابي عامر الى الاستعانة بجعفر وشيعته بني برزال من زناتة على مزاحميه من رجال الدولة ، فلما قضى عليهم خشي جعفراً ايضاً فقتله سنة ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م وفر يحيي الى مصر فنزل علي العزيز بن المعز الى ان مات [١] ولقد ام جعفراً بالمسيلة الشاعر العظيم ابو القاسم محمد بن هانيء فمدحه بقصائد بليغة منها قوله :

المدنفان من البرية كلها　　جسمي وطرف بابلي احور

والمشرقات النيرات ثلاثة　　الشمس والقمر المنير وجعفر

وقوله من اخرى :

ابني العوالي السمهرية والموا　　ضي المشرفية والعديد الاكثر

من منكم الملك المطاع كأنه　　تحت السوابغ تبع في حمير

قال ابن معصوم : يحكى انه انشد هذه القصيدة وممدوحه راكب في جيشه ، فلما بلغ ذينك البيتين ترجل العسكر كله ، ولم يبق احد راكباً سوى الممدوح . فلم يعلم سؤال كان جوابه نزول عسكر جرار غيره .

ويقول في مقطوعة له اخرى في مدح جعفر ايضاً :

ألا ايها الوادي المقدس بالندى　　واهل الندى قلبي اليك مشوق

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٤ وابن خلكان ج ١ ص ١٤٠ وتاريخ المبلى ج ٢ ص ٩٦ واخبار ملوك بني عبيد ص ١٣ .

ويا ايها القصر المنيف قبابه   على الزاب[1] لا يسدد اليك طريق
ويا ملك الزاب الرفيع عماده   بقيت لجمع المجد وهو تزيق
على ملك الزاب السلام مردداً   وريحان مسك بالسلام فتيق

جعفر بن فلاح الكتامي

٣٦٠ هـ ـ ٩٧١ م

القائد الجزائري العظيم رئيس اركان حروب العبيديين وفتوحاتهم بالمشرق ابو علي جعفر بن فلاح الكتامي نسبة الى كتامة تلك القبيلة العتيدة الكبرى بالجزائر التي قامت على سواعدها الدعوة الشيعية بالمغرب ؛ اشتهر جعفر بقوة البأس وشدة الشكيمة والبطولة في الحرب ، ولما اجمع الخليفة المعز على فتح المشرق بعث به مع القائد جوهر على رأس الجيش الفاتح ، فذهبا معاً الى مصر وفتحاها وتولى جعفر وحده فتح بلاد الشام فدخل الرملة عنوة في ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ ـ اكتوبر ٩٦٩ م . وقضى على حكومة ابن طغج ، واحتل ايضاً طبرية ثم قصد عاصمة الامويين ـ دمشق ـ فاحتلها في شهر المحرم سنة ٣٥٩ هـ ـ نوفمبر ٩٦٩ م وحدث بها يومئذ اضطراب وفتن من اهلها فأقمهم صاحب الشرطة ثم سعى اهلها في الصلح فصالحهم جعفر واستقام له الملك بها ، وبعدها نزل الى الدكة فوق نهر يزيد بظاهر دمشق فابتنى بها قصره العجيب

---

(١) قال السلفي سمعت الأمم المنورقي يقول : الزاب الكبير منه بسكرة وتوزر وقسنطينة وطولة ونفصة ونفزاوة ونفطة وبادس ، قال والزاب ايضاً كورة صغيرة يقال لها ريغ ، وهي كلمة بربرية معناها السبخة والنسبة اليها ريغى ، والزاب ايضاً كورة عظيمة ونهر جرار بارض المغرب على البر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواسطة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها (انظر معجم البلدان ج ٤ ص ٩٠٣ ط لبيزيج ١٨٦٧ م) : وازى ان تسمية هذا الموطن بالزاب يعود الى اسم قصبته او قد عاصمته في القديم « زابى » وهي مدينة الميسلة ـ المحمدية ـ .

ومكث هنالك الى ان زحف القرامطة على الشام تحت راية رئيسهم الحسن بن احمد القرمطي المعروف بالاعصم ، فخرج اليهم جعفر وهو يومئذ عليل فانتصر عليهم ، ثم وقع تخاذل في جيش جعفر فظفر بهم القرمطي وقتل جعفر في جماعة من اصحابه يوم الخميس ٦ ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ - ٣١ اوط ٩٧١ م . قال ابن خلكان : وكان جعفر رئيساً جليل القدر ممدوحاً وفيه يقول ابو القاسم محمد بن هانيء الاندلسي الشاعر المشهور .

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني بأحسن مما قد رأى بصري

وكان فيما تولى امارة دمشق بعده من الجزائريين : ابناءه الثلاثة سلمان وعلي وابرهيم ، وكذلك القائد غوصلت المعروف بطزملت او طمزان البربري الاسود .

كما اشتهر من اهل مدينة الجزائر في هذا العصر ابو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الفرج الجزائري المصري ، يروى عن ابن قديد ، توفي في ذي القعدة سنة ٣٦٨ هـ - جوان ٩٧٩ م .

جـدول تاريخي

٢٩٦ ـ ٣٦١ هـ

٩٠٩ ـ ٩٧٢ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وابرز الاحداث
٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م	تأسيس الدولة العبيدية .
٢٩٧ هـ = ٩١٠ م	مبايعة عبيدالله المهدي بالخلافة .
٢٩٨ هـ = ٩١٠ م	هيجان الشعب الجزائري ضد الشيعة وقتل الداعية الصنعاني .
٢٩٩ هـ = ٩١١ م	الحملة الشيعية الكبرى على المغرب الاوسط .
٣١٠ هـ = ٩٢٢ م	مقتل ابي معلوم فلحون عامل اوراس .
٣١٢ هـ = ٩٢٤ م	مقتل مصالة بن حبوس عامل تيهرت .
٣١٤ هـ = ٩٢٦ م	ابتداء ظهور الدعوة الاموية بالمغرب العربي .
٣١٥ هـ = ٩٢٧ م	انشاء مدينة المسيلة .
٣٢٤ هـ = ٩٣٦ م	انشاء مدينة آشير .
٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م	القضاء على ثورة ابي يزيد الخارجي صاحب الحمار .
٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م	انشاء مدينة افكان .
٣٤٥ هـ = ٩٥٦ م	هجوم اسطول الامويين بالاندلس على مرمى الخرز ـ القالة ـ وطبرقة .
٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م	اعادة ظهور الدعوة الاموية بالجزائر وفتح البلاد المصرية .
٣٦١ هـ = ٩٧٢ م	انتقال الخلافة الشيعية الى مصر .

الدَّولة الزيريَّة «الصّنهاجيَّة»

٣٦١ ـ ٤٠٥ هـ

٩٧٢ ـ ١٠١٤ م

نشأتها

تنتسب هذه الدولة الجزائرية لحماً ودماً الى عاهل صنهاجة وزعيمها الاكبر زيري بن مناد الصنهاجي منشىء مدينة اشير بجبل تبطري – شرقي قصر البخاري – او البوغاري نسبة الى بوغار اسم لذلك المكان .

وصنهاجة – بضم الصاد وكسرها – علم يطلق على وطن وقبيلة ، اما الوطن فهو قطعة من ارض الجزائر ما بين زواوة شرقاً وزناتة غرباً ، ويمتد على الساحل البحري من مدينة الجزائر الى تنس ، يحده وطن الحضنة والمسيلة والمدية ومليانة . واما القبيلة فانها راجعة بنسبها الى جذمين : قار وحزمار ابني صنهاج . من قبائل البرانس ، وهي ذات بطون وافخاذ منتشرة بكامل هذا الشمال الافريقي فلا يكاد يخلو منها مكان . وعدها الهمداني صاحب الاكليل وغيره من المحققين فخذاً من قبائل حمير العربية ، وليس لها في البربرية سوى النسبة العرفية .

كانت هذه القبيلة مرغمة على الخضوع للخلافة العباسية والاذعان للامارة الاغلبية ، وذلك لكونها علوية بالولاء . فلما استتب الامر لدولة بني عبيد العلوية بهذه البلاد انقلبت على العباسيين فكانت بجانب الفاطميين ، فاستعان

بها هؤلاء على محاربة اعدائهم زناتة احلاف الامويين ومواليهم ، فكانت هنالك حروب واهوال عظيمة بين هذين القبيلتين وكلها ترجع الى هذا الاختلاف السياسي في المبدإ والتزاحم على الرئاسة ايضاً ، وقد ألمعنا فيما تقدم الى ما كان من حوادث الشيعة والامويين بالمغرب ، وما كان ازيري الصنهاجي من اليد البيضاء في القضاء على ثورة ابي يزيد الخارجي سنة ٣٣٥ هـ - ٩٤٦ م وموقفه في فتح المغرب الاقصى سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م ومقاومة كل ناهض ضد بني عبيد الخ ... فأحرزت صنهاجة بذلك مقاماً رفيعاً ومكاناً سامياً لدى الدولة الفاطمية وعلا شأن رؤساءها عند الخلفاء فبالغ هؤلاء الملوك والخلفاء في اكرام رؤساء صنهاجة وتقديرهم ؛ واطلق الخليفة يد زيري في قومه وعلى كل مكان تغلب عليه او احتله بأي صفة كانت ، وولاه امر تاهرت وباغاية فأمنت دولة العبيديين يومئذ من اخطار سكان هذه النواحي من بني يفرن الزناتيين ؛ فملك زيري يومئذ البلاد وضرب العملة باسمه .

ولما عزم المعز بن المنصور العبيدي على الانتقال الى مصر دعا جعفر بن علي بن حمدون امير ولاية المسيلة والزاب ليعهد اليه بأمر افريقية ، فاستراب جعفر من ذلك لما علمه من سعاية منافسة زيرى الصنهاجي لدى البلاط الفاطمي وامتنع ، فأكد المعز دعوته هذه بارسال بعض مواليه الى جعفر ، فخشي جعفر مغبتها وخرج عن ولايته معتصماً بمغراوة وقام هنالك مع الخير بن محمد الزناتي بالدعوة الاموية ؛ فنشبت الحرب حينئذ بين زناتة وصنهاجة ، وفيها كان مقتل زيري الصنهاجي عرضاً [1] في رمضان ٣٦٠ هـ - جوان ٩٧٠ م وذلك بعد ما تملك بهذه الديار ستاً وعشرين سنة ويومئذ علم الخليفة الفاطمي انه لا احق ولا اجدر بالولاية من هذه القبيلة الصنهاجية المتفانية في نصرة الدولة الشيعية وتوطيد اركان ملكها بالمغرب ؛ فكان لها من الجزاء مثل ما كان لانصار الخلافة العباسية من الفرس حينما ظاهروهم على قهر اعدائهم الامويين .

---

(١) احتزت مغراوة رأسة وبعثت به الى الحاكم المستنصر الاموي بالاندلس ؛ ولما تغلب زلوي ابن زيري الصنهاجي على قرطبة سنة ٤١٠ هـ - ١٠١٩ م نقل رأس والده من هنالك الى الجزائر فضمه الى الجسد فدفنه معه .

كيف استخلف بلكين على المغرب

قال المقريزي : ولما عزم المعز على المسير الى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب فوقع اختياره على ابي محمد جعفر ابن علي امير المسيلة فاستدعاه وامرّ اليه انه يريد استخلافه بالمغرب ، فقال جعفر : « تترك معي أحد اولادك واخوتك جالساً في القصر وانا ادبر ولا تسألني عن شيء من الاموال لأن ما اجبيه يكون بازاء ما انفقه ، واذا اردت امراً فعلته ولم انتظر ورود امرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي » .

فغضب المعز وقال : « يا جعفر عزلتني عن ملكي ، وأردت ان تجعل لي فيه شريكاً في امري ، واستبددت بالاعمال والاموال دوني ، قم فقد اخطأت حظك وما اصبت رشدك » فخرج جعفر .

ثم استدعى بعده بلكين بن زيري الصنهاجي وقال له : « تأهب لخلافة المغرب » فاكبر ذلك بلكين وقال له : « يا مولانا انت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وانا صنهاجي بربري ? « قتلتني يا مولانا بلا سيف ولا رمح » فلم يزل به حتى اجاب وقال : « يا مولانا بشريطة ان تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره والخبر لمن تثق به ، وتجعلني انا قائماً بين ايديهم فمن استعصى عليهم أمروني به حتى اعمل فيه ما يجب ، ويكون الأمر لهم وانا خادم بين يديك » فحسن هذا عند المعز وشكره ، فلما انصرف قال له عم ابيه ابو طالب احمد ابن عبيد الله المهدي : « يا مولانا اوتثق بهذا القول من يوسف وانه يفي بما ذكره ? ... فقال المعز : « يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ? واعلم يا عم ان الامر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه أمر يوسف ، فاذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا اولا احسن واجود عند ذوي العقول وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره [1] .

---

(١) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ ط بولاق ١٢٧٠ هـ واتعاظ الحنفاء ص ١٤٨ — ١٣٣ ط القاهرة ١٣٦٧ — ١٩٤٨ م .

ويومئذ اصطفت الدولة العبيدية آل زيري وعهدت بالامارة والوصاية على المغرب العربي لبلكين بن زيري مستثنية طرابلس وقبيلة كتامة الموالية .

وفي ذلك يقول ابن خلكان والمقريزي معه ايضاً : « وخرج المعز من المغرب - يوم الاثنين لثمانٍ بقينَ من شوال سنة احدى وستين وثلاثمائة وخرج من المنصورية ومعن بلكين - واسمه يوسف - الى سردانية من بلاد افريقية فسلم اليه افريقية والمغرب يوم الاربعاء لتسعٍ بقين من ذي الحجة وامر سائر الناس له بالسمع والطاعة وفوض اليه امور البلاد ما خلا جزيرة صقلية فانه ترك امرها للحسن بن علي بن ابي الحسين ، وطرابلس واعمالها ، وقال له : ان نسيت ما اوصيناك به فلا تنسى ثلاثه اشياء ، اياك ان ترفع الجباية عن اهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ولا تولّ احداً من اخوتك وبني عمك فانهم يرون انهم احق بهذا الأمر منك ، وافعل مع اهل الحضر خيرا ، وفارقه [1] .

قال ابن ابي الضياف : وهذه الوصية منه معقولة المعنى لان اهل البوادي لولا الجباية ما عمروا ارضاً ولا سعوا في تكسب لما في طباعهم من الدعة ، وارزاقهم في ظل رماحهم وليلجئهم بذلك الى الابنية من القرى والمدن ، وهو انما اوصاه بعدم المسامحة في الجباية التي هي من الاموال لا بالظلم والاخذ الوبيل ، واما البربر فان سيوفهم لم تزل بادية البغي والقتل لكثرة قبائلهم وعصائبهم والشر يدفع بمثله اذا اعياك غيره فالقتل انفي للقتل ، واما تقديم اخوته وبنيه فقد ذكر سببه . واما وصايته بالمدن فلتكثر في الوجود [2] .

حدود الجزائر الزيرية

كان بالجزائر على عهد الفاطميين اربع ولايات : اشير ، وتاهرت ، والمسيلة ،

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٥ - ج ٢ ص ١٣٤ ط بولاق ١٢٩٩ ﻫ واتعاظ الحنفاء ص ١٤٤ ط القاهرة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ م .

(٢) اتحاف اهل الزمان ١ ص ١٣٦ ط تونس ١٩٦٣ م

وباغاية ؛ وفي ايام الدولة الزيرية هذه ضمت الولايات الاربع الى بعضها فأضيفت اعمال باغاية والقسم الشمالي من ولاية المسيلة الى اشير ، وجعل القسم الجنوبي من ولاية المسيلة الى تاهرت ، فأصبحت الجزائر ذات ولايتين عظيمتين ، هما ولاية تاهرت واشير .

الامير بلكين بن زيري

تولى الامارة على افريقية الشمالية بعهد من الخليفة المعز الفاطمي يوم الاربعاء ٢٢ ذي الحجة ٣٦١ هـ - ٤ اكتوبر ٩٧٢ م ولقبه بسيف الدولة وكناه بأبي الفتوح وسماه بيوسف وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الاعمال وأمر الناس بالسمع والطاعة له وأوصاه بأمور كثيرة مؤكداً عليه في المحافظة عليها وخاصة منها أمور أربعة قائلًا له : ان نسيت ما أوصيتك به فلا تنسَ أوبعة أشياء : اياك ان ترفع الجباية عن أهل البادية ، والسيف عن البربر ، ولا تولِّ أحداً من اخوتك وبني عمك ، فانهم يرون انهم أحق بهذا الامر منك ، وافعل مع أهل الحاضرة خيراً . ولعل الشيعة كانت شائعة بين أهل الحضر خلافاً لاهل البادية ؟

كان بلكين في أول أمره والياً على مدينة الجزائر ايام امارة والده زيري على صنهاجة ؛ ثم خلفه في امارته هذه قبل ان يتولى ولاية افريقية ، واشتهر يومئذ فيها بالثبات ومضاء العزم والشجاعة النادرة مع حدة الذهن وتوقد القريحة ؛ ولقد استطاع هو وحده ان يحقق تدريجياً وحدة الشمال الافريقي على نحو لم يوفق اليه حكام المغرب العربي قبله ؛ فضرب العملة باسمه وبعث بالعمال والجباة الى الآفاق واستعد للطوارىء ؛ وبجلوس بلكين على عرش افريقية انتهى عهد العرب بالملك والدولة بهذا المغرب الاسلامي واستقل البربر بأمر وطنهم تحت لواء الاسلام تتداوله قبائلهم طائفة بعد اخرى وجيلًا بعد جيل تارة يدعون الى الامويين خلفاء الاندلس وتارة الى بنى هاشم العباسيين الى ان استقلوا بالدعوة لانفسهم الى زمن الاتراك بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب .

مناجزة صاحب المسيلة

كان من الطبيعي ان يستمر جعفر بن علي صاحب ولاية المسيلة والزاب على عصيانه للشيعة وعلى مقاومة مزاحميه الصنهاجيين ، فكانت يومئذ حركة بلكين الى المغرب الاوسط وهي اول حركاته الى الجزائر بعد الامارة فقضى على قبيلة مغراوة الزناتية التي كانت ملجأ لخصمه جعفر صاحب المسيلة وشتت شمل المحاربين فاستأصل شأفتهم وفتح معاقل بلاد زناتة وسبى الذراري والاموال ؛ فانهزم جعفر وكسرت شوكته ففر الى الاندلس يوم ١٨ رمضان ٣٦٠ ه – ١٥ جوليط ٩٧١ م والمعز الفاطمي لا زال يومئذ بالمغرب ، وتقدم بلكين يخوض غمار البلاد الجزائرية شرقاً وغرباً الى ان بلغ سجلماسة – تافيلالت – فأخضعها واوغل في بلاد المغرب الاقصى الى ان بلغ حصن تيطوان وهو في ذلك لا يعترضه حصن او اي معترض كان الا وحطمه ؛ وهو الذي قضى من قبل على حركة محمد بن الحسن بن خزر المغراوي في قيامه ضد الشيعة وافضى به الى الانتحار .

زحف بلكين الى المغرب الاوسط

كان الداعي الاول الى خروج بلكين وزحفه على الجزائر هذه المرة ٣٦٣ ه – ٩٧٤ م هو عصيان اهل باغاية وتمردهم على عاملهم وانتصارهم عليه وشاركهم في ذلك ايضاً اهل شرقي جبل اوراس تمرداً على السلطة القائمة مع الشيعة ، ثم انتشرت الفوضى والاضطرابات فعمت القطر الجزائري فكانت هنالك ثورة بتاهرت خرج منها العامل مطروداً ، واخرى بأعمال تلمسان حيث نزلت عليها زناتة الاموية مناهضة للشيعة ، فخف يومئذ بلكين الى منازلة هؤلاء الثوار وحاصر تلمسان وقضى على حركة زناتة بها ونقل اهلها الى اشير ، وانتصر على تيهرت ايضاً فبطش بأهلها وخرب المدينة ، ويومئذ اسرع اليه بالطاعة الثائرون من اهل شرقي جبل اوراس وباغاية وجاؤوه مستأمنين خاضعين فأمنهم وعفا عنهم

واجلاهم عن بلادهم بعد ما خربها وهدم سورها ، فذهب الكثير منهم ملتجئاً الى المغرب الاقصى معتصماً بجباله وصحاريه ، ويومئذ عمل بلكين على تغيير حدود المناطق والولايات الجزائرية فحذف ولاية المسيلة بالكلية واضاف ناحيتها الجنوبية الى تيهرت وضم ناحيتها الشمالية الى اشير : وجعلها ولايتين اثنتين : ولاية بآشير واخرى بتاهرت .

اجلاء زناتة ووفاة بلكين

اعاد بلكين زحفه على زناتة سنة ٣٦٩ هـ - ٩٨٠ م فقضى عليها وابعدها عن المغرب الاوسط فأقفره منها واحلها ما بين ملوية وطنجة وتقدم بزحفه الى سجلماسة فاحتلها واستولى على مدينة فاس ، وبينما هو سائر في فتوحاته بالمغرب الاقصى اذ جاءه كتاب من الخليفة الفاطمي ينهاه عن التقدم والسير في طريق الفتح بأقصى المغرب فرجع ، وفي اثناء ذلك تغلب خزرون بن فلفول المغراوي الزناتي على سجلماسة فعاد اليها بلكين سنة ٣٧٣ هـ - ٩٨٤ م فهزمه واسره واستعاد سجلماسة الى طاعته ، وفي طريقه الى اشير ادركه حمامه فمات بمكان يقال له واركلان او - واركش ؟ - بين تلمسان وسجلماسة ، وذلك يوم الاحد ٢٢ ذي الحجة ٢٧ ماي من هذه السنة .

الامير المنصور بن بلكين

كان المنصور يوم وفاة والده مقيماً بدار ولايته : اشير وقد عهد اليه والده بالامارة بعده فبويع بها يوم وفاة والده سنة ٣٧٣ هـ - ٩٨٤ م فوفدت اليه العمال بهداياهم ، فأجزل اكرامهم ، وخرج لبيعته العلماء والقضاة والاعيان من القيروان فوصلوا اليه بأشير وهو خارج البلد ، فبايعوه واكرم نزلهم ، وفي اليوم الثاني احتفل لملاقاتهم في ديوانه ، واظهر من شارات الملك وفخامته ما اعجبوا به وقال لهم : يعز عليّ تعبكم في هذا الزمان مع ان سروري باجتماعكم عندي ، فاجتماعي بكم احب اليّ من الدنيا » .

وامر لهم بعشرة آلاف دينار وزعت عليهم [1] . وكان المنصور رجلا شجاعاً عادلاً ذكياً جواداً حازماً صارماً في الحق عطوفاً شفوقاً بالرعية عفيفاً عن الدماء سائراً سنن ابيه ، واليك نتفاً من خطاب العرش يوم تولى الامارة على المغرب فيها اجمال لخطته السياسية وبرنامجه الحكومي فقال : ان ابي وجدي كانا يأخذان الناس بالسيف قهراً ، وانا لا آخذ احداً الا بالاحسان ، ولا اشكر على هذا الملك الا الله تعالى ، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لاني ورثته عن آبائي واجدادي وورثوه عن آبائهم واجدادهم حمير [2] . وقال يوم ان انكر عليه اعيان دولته مصاهرته وعقده لاحد ابنائه على بنت سعيد بن خزون سيد زناتة — المعادية — : كان ابي وجدي يستتبعان زناتة بالسيف ، اما انا فمن رماني برمح رميته بكيس حتى تكون مودته طبعاً واختياراً ! ... على هذه الاسس السياسية الرشيدة بنى المنصور قواعد ملكه وقاد امته الى المجد ، فكان يعامل جميع رؤساء القبائل والعشائر بكل مكرمة واحسان ، ويحادثهم بحديث كله لطف وود واخاء متناسياً كل سخيمة وحقد . وكانت اقامة المنصور تارة بالمنصورية — هي مدينة صبرة القريبة من القيروان — وتارة بأشير ، فتراه متنقلا بينهما متصلا بجميع المملكة ، وله سكة باسمه تضرب بها العملة مثل ابيه من قبل .

ثورة ابي الفهم الكتامي

لقد كان لقبيلة كتامة كما علمت يد في اشادة ملك الفاطميين بالمغرب وكان مما اجازهم به العبيديون على ذلك ان رفعوا عنهم يد الامارة الصنهاجية واوصوها بهم خيراً ؛ فكانت كتامة مستقلة عن دولة صنهاجة لا طاعة لهذه عليها : غير ان ذلك لم يكن في نظر كتامة كافياً في مكافاتها عما قامت به تجاه العبيديين في دور التكوين ؛ بل كانت ترجو ان تكون

---

(١) ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٣٢ ط تونس ١٩٦٣ م .

(٢) راجع نسب الاسرة الزيرية في وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢١ .

خليفتها على المغرب لما تراه هي في نفسها من الجدارة والاستحقاق والتقدم على غيرها في هذا الامر ؛ فلما رأت ذلك كله بيد صنهاجة نهضت بقيادة ابي الفهم حسن بن نصر الكتامي الخراساني واظهرت العداوة والبغضاء لصنهاجة ؛ وخرج ابو الفهم للقتال فضرب سكته ونشر بنوده وجمع حوله من الجند والعسكر ما كثر به جمعه ، فاستأذن الامير المنصور في قتال كتامة بكتاب وجهه الى الخليفة الفاطمي بمصر ، فجاءه الجواب بواسطة رجلين بعث بهما الخليفة الى المنصور ؛ يأمره بعدم التعرض لكتامة حيث لا سلطان له عليها ثم اراد الرجلان الالتحاق بكتامة حسب مأموريتهما فسجنهما المنصور وحال بينهما وبين كتامة .

القضاء على شوكة كتامة

يبدو من جواب الخليفة للمنصور حول قبيل كتامة ان الدولة الفاطمية كانت مستشعرة عظمة صنهاجة وانها كانت تخشى استفحال امرها وتضخم سلطانها فتركت بجانبها قبيلة كتامة مستقلة عنها استعداداً للطوارىء فهي من نوع سياسة التفرقة التي ساد بها اليوم الغرب على الشرق ، وما يدرينا ان ثورة كتامة كانت بتآلؤ وايعاز من الشرق ؟ ... والا فما معنى اعتراض الخلافة الفاطمية على المنصور في محاربة هؤلاء ؟ ... وما معنى محاولة الرجلين المبعوثين من الشرق الى المنصور الاتصال بكتامة ؟ ... ولكن ذلك كله لم يحل بين المنصور وبين ما بينه من عزيمة في مقاتلة هذه القبيلة المحاربة ، فنزل بالشمال الغربي من قسنطينة محاصراً مدينة ميلة في شوال سنة ٣٧٨ هـ — جانفي ٩٨٩ م ونشر هنالك أعلامه الكبيرة الموشاة وقرع بها الطبول إيذاناً بمحاربة كتامة ، فخرج اليه العجائز والصبيان متضرعين باكين متوسلين اليه في ترك الحرب والبقاء عليهم فرثى لحالهم وبكى لذلك المنظر الحزين ورجع عن ميلة بعد تخريب أسوارها ونقل أهلها الى باغاية شرقي اوراس ، وفي طريق هؤلاء الى باغاية لقيهم ماكسن بن زيري الصنهاجي — عم المنصور — فجردهم مما كان معهم من المال والنشب .

ثم جعل المنصور لا يمر في طريقه على مدينة او قرية من بلاد كتامة الا ويأمر بتحطيمها ، حتى بلغ الى مدينة سطيف وهي يومئذ مركز عز كتامة فحصل بينه وبين ابي الفهم قتال عنيف انهزم فيه ابو الفهم وفر الى جبل هنالك يعصمه من الموت او القتل ، فكان مثل ولد نوح في ذلك ! ... فأدركه المنصور فقتله فاستكانت يومئذ كتامة لصنهاجة واذعنت لطاعتها واحدث المنصور اذ ذاك منصب خليفة عنه بميلة وآخر بسطيف واذن بالافراج عن مبعوثي الخليفة فلحقا بالبلاط الفاطمي وحدثا هنالك بما رأيا من جراءة المنصور وانتصاراته فجاءت الهدايا من القصر الى المنصور توددا وتقديرا لمركزه السياسي الذي احرزه بشجاعته واقدامه .

ثورة ابي البهار بتاهرت

ما كادت تنتهي حوادث كتامة حتى ظهرت علائم الخلاف والشقاق من والى تيهرت ابي البهار بن زيري الصنهاجي عم المنصور ؛ فغلب على وهران وشلف وكثير من بلاد الزاب فبرز اليه المنصور سنة ٣٧٩ هـ - ٩٨٩ م ففر ابو البهار من تيهرت واختفى بالمغرب الاقصى ، ودخل عسكر المنصور المدينة فأكثر بها النهب والقتل يومئذ ثم خرج منها بأمر من الامير وامن المنصور اهل تيهرت على انفسهم ونصب عليها اخاه يطوفت وانتقل منها الى قاعدته الجزائرية « اشير » فعقد لاخيه حماد عليها ثم عاد الى المنصورية . وفي سنة ٣٨٣ هـ - ٩٩٢ م ظهر ابو البهار بالقيروان بعد اختفائه بالمغرب فوفد على المنصور معاتباً فعفا عنه واكرمه وانزله احسن منزل ثم اعاده الى ولايته على تيهرت .

اقامة الدعوة الاموية بالجزائر

كان لسقوط مدينة فاس بيد زيري بن عطية من بني خزر المغراويين سنة ٣٧٧ هـ - ٩٨٧ م اثر ظاهر في انتشار الدعوة الاموية بالمغرب من جديد وتسربها الى الجزائر وكان يومئذ على ولاية تاهرت ابو البهار عم المنصور

فرفض دعوة العبيديين ودعا الى الخلافة الاموية القائمة يومئذ بالاندلس وخالف على ابن اخيه للمرة الثانية وتغلب على مدينة تلمسان ووهران وشلف وجبال وانشريس وشرشال وكثير من بلاد الزاب وغيرها من النواحي الشرقية بالجزائر ايضاً وبعث ببيعته الى المؤيد الاموي وحاجبه المنصور بن ابي عامر بالاندلس ، فكتب اليه هذا بالعهد على ما بيده من البلاد مع هدايا وخلع واربعين الف دينار ، فقبض ابو البهار ذلك ومكث يدعو الى الاموية مدة شهرين ثم خلعهم وعاد الى العبيديين ، فغضب لذلك المنصور بن ابي عامر فكتب بعهده على بلاد المغرب الى زيري بن عطية وامره بمقاتلة المخالفين ؛ فبرز ابن عطية في عدد لا يحصى من قبائل زناتة وغيرهما متوجهاً من فاس الى قتال والى تاهرت ، فخرج يومئذ ابو البهار من ولايته ملتحقاً بابن اخيه الامير المنصور الصنهاجي ، فاحتل زيري المغراوي مدينة تلمسان واستولى على جميع اعمال ابي البهار بالجزائر ؛ ثم كانت هنالك مقاومة لدعوة زيري الاموية من قبل بعض الولاة الصنهاجيين فسكنت ريحه هنيهة ، وأخيراً تحرك زيري للقضاء على هؤلاء المخالفين فتم له النصر على القطر الجزائري سنة ٣٨١ هـ – ٩٩١ م وأقام به دعوة الامويين الى وفاته سنة ٣٩١ هـ – ١٠٠٠ م فانحاشت الدعوة اذ ذاك الى المغرب الاقصى .

انشاء مدينة وجدة

ولما تمكن زيري بن عطية المغراوي الزناتي من ملك المغربين الاوسط والاقصى وصفا له الجو وخلا عن المنازع والمزاحم رغب في تأسيس عاصمة له تكون واسطة عقد مملكته ، فاختار موقع مدينة وجدة ، واخذ في تأسيس المدينة وشرع في بنائها في شهر رجب سنة ٣٨٤ – اوط ٩٩٤ م فشيد سورها وقصبتها وركب أبوابها وانتقل اليها بأهله وحشمه وحمل اليها جميع امواله وذخائره وجعلها عاصمة الامارة الزناتية التابعة للخلافة الاموية بقرطبة ، ثم آلت هذه الامارة بعده الى ابناء عمومته ، وكان آخر الامراء فيهم معنصر بن المعز المغراوي الذي قتله المرابطون

وقضوا على امارته سنة ٤٦٢ هـ - ١٠٦٩ م ثم وقع تجديد هذه المدينة بامر السلطان ابن يعقوب يوسف المرين سنة ٦٩٧ هـ - ١٢٩٨ م .

استئصال كتامة

كأن كتامة لم تكتف بما تلقته من النكبات في حوادث ابي الفهم الماضية ، فتمردت هذه المرة عن دفع الجباية وامتنعت من الرضوخ للدولة ، فقامت خلف رجل ينتسب للقائم العبيدي اسمه ابو الفرج فضرب السكة باسمه واتخذ البنود والطبول وجرت بينه وبين عاملي المنصور الصنهاجي على ميلة وسطيف حوادث كبرى وحروب عظيمة هي اشد واعظم من وقائع ابي الفهم السالفة ، فبرز لها يومئذ المنصور سنة ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م فظفر بابي الفرج فقتله وشحن جميع ارض كتامة وبلادها بالجند والحامية وبث العساكر في الثكنات بجميع النواحي والجهات حتى لا يستطيع احد منهم ان ينهض او يتحرك ، وبعث بالولاة والعمال الى سائر الاعمال فقضى بذلك على كتامة .

الامير باديس بن المنصور

توفي المنصور يوم الخميس ٣ ربيع الاول ٣٨٦هـ - ٢٦ مارس ٩٩٦ م فبويع ولده باديس الذي كان حائزاً على سجل ولاية عهد ابيه من العزيز الفاطمي منذ سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م ، وبعد مبايعته بالامارة اتصل بموافقة الحاكم الفاطمي في السنة التالية ولقبه بنصير الدولة ، وكان مولد باديس بمدينة اشير - بالجزائر - ليلة الاحد ١٣ ربيع الاول ٣٧٤ - ١٤ اوط ٩٨٤ ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازم الرأي شديد البأس ، وكان يعتم بالحمرة وفيه يقول الشاعر :

تجلو عمامته الحمراء غرته كانه قمر في حمرة الشفق

رئاسة ولاية الجزائر

كان اول ما قام به باديس من الاعمال الادارية ان خالف وصية المعز العبيدي لجده بلكين حين قال له : لا تولّ احداً من اخوتك وبنيك لانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك وقد كان الامر كما قال كما سنشرحه لك فيما يلي ، فعقد لعمه حماد بن بلكين على جميع ولاية الجزائر الشرقية واقطعه مقاطعة آشير وامده بالخيل والسلاح وعدد الحرب اتقاء لطوارىء القبيلة المعادية زناتة ، وجعل ولاية تاهرت وجميع ارض الجزائر الغربية لعمه ايضاً يطوفت بن بلكين ويحمل كل منهما لقب نائب باديس ، وكثيراً ما كان الاخوان يطوفت وحماد وعمهما ابو البهار يتداولون عمل اشير .

فوز الامويين بالجزائر

حاولت قبيلة زناتة افتكاك بعض الاعمال الجزائرية من يد صنهاجة فاظهرت الخلاف على باديس ، وعملت على مناهضته ، فانتهزها يومئذ زيري ابن عطية فرصة ودعا لمبايعة المؤيد الاموي بالاندلس فبايعته زناتة ، فزحف يومئذ زيري بجموعه على ولايتي تلمسان وتيهرت فاستولى عليهما سنة ٣٨١ ﻫ – ٩٩١ م فنهض اليه باديس من مركزه ومر في طريقه بطبنة فاستجاش بصاحبها فلفول بن عم زيري بن عطية المغراوي فامتنع وانقلب على باديس ؛ واندلع لهيب الثورة يومئذ ضد صنهاجة وامتد شررها من طبنة الى تيجس من أعمال قسنطينة وحاصر فلفول مدينة باغاية سنة ٣٨٩ ﻫ – ٩٩٩ م . واحتلها ثم انهزم عنها فلحقته جنود صنهاجة وطاردته من مرماجنة أيضاً فلحق بالجبال ، وهنالك اتصل فلفول بخصوم باديس ومزاحميه من آل زيري الصنهاجي فنزلوا تبسة فحمل عليهم باديس وأجلاهم عنها . ويومئذ حدثت وحشته بين الامير زيري بن عطية الزناتي وبين الوزير المنصور بن أبي عامر حاجب الخلافة الاموية بالاندلس فأعلن الوزير الحرب على عدوه الزناتي وكان ميدانها المغرب الاقصى واندلع لهيبها الى المغرب الاوسط فسقطت أعمال تاهرت وتلمسان بيد الحاجب الاموي .

خيبة زناتة في حملتها على تيهرت

هاجمت هذه القبيلة على اعمال تيهرت سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٨ م ، وكادت ان تنتصر عليها فكتب عاملها يطوفت بن المنصور الى باديس مستمداً ومستنصراً ، فجهز اليه الامير جيشاً عرمرماً وجعله تحت قيادة كاتبه محمد بن أبي العرب وخرج القوم من دار الامارة في منتصف صفر - فيفري - من هذه السنة قاصدين تيهرت ، فمروا في طريقهم على آشير مستعينين بجندية حماد بن بلكين فانضم اليهم حماد بجنوده والتحق الجميع بعسكر يطوفت وزحف الجيش الصنهاجي من هنالك نحو أماكن العدو فالتقى الفريقان غرة جمادى الاولى - ٢٠ افريل - بوادي ميناس - على مرحلتين من مدينة تاهرت - فانتصرت زناتة وانهزمت جنود صنهاجة الى آشير تاركة خلفها جميع معداتها الحربية وأموالها نهباً للعدو ، واحتلت زناتة معظم العواصم الجزائرية فنزلت تيهرت ، وتلمسان ، وشلف ، وتنس ، والمسيلة ، وجملة من بلاد الزاب ، وحاصرت آشير أيضاً ؛ وكان السبب في خذلان صنهاجة هذه المرة كراهية الجيش الحمادي لاميره لقلة عطائه وحدة أخلاقه الشرسة .

وطار خبر هذه الهزيمة الشنعاء الى باديس فسخط لذلك وحمل بنفسه على مراكز العدو بتيهرت ، ففرت أمامه زناتة الى باغاية وطبنة ، واختلفت عليه من هنالك ، فتعقبها باديس بجنوده ودحرها في وقائع وحروب طاحنة .

عصيان ماكسن وزاوي

هما أخوان من أبناء زيري بن مناد الصنهاجي حاولا الخروج عن طاعة باديس وأظهرا الخلاف والمعصية في جملة أعمامه الذين لم يتح لهم التمتع بالحكم والرئاسة ؛ فعقد باديس لعمه الداهية حماد على اخضاعهم سنة ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م . فقتل ماكسن وانحصر أخوه زاوي بجبل شنوه بناحية شرشال مستأمناً فيمن كان معه من الاتباع فاشترط عليهم حماد الجلاء عن بلاد الجزائر ، فخرج زاوي يومئذ في فئته وأبناء أخيه الى

الاندلس سنة ٣٩١ هـ - ١٠٠١ م ملتحقاً بالمنصور بن أبي عامر فأكرم المنصور وفادتهم ، ثم كان لهم بعد ذلك شأن وملك هنالك .

انبعاث الدعوة الاموية بالجزائر

كنا ألمعنا الى سقوط ولايتي تلمسان وتيهرت بيد زيري بن عطية المغراوي الزناتي القائم بدعوة الامويين بالمغرب سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م . ثم بيد المنصور بن أبي عامر الحاجب الاندلسي سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٩ م . واستمرت هذه القطعة من الجزائر تحت ادارة المنصور هذا الى ان عهد بها وبعمل سجلماسة الى المعز بن زيري بن عطية سنة ٣٩٣ هـ - ١٠٠٣ م فاستبد هذا بالمغرب الاقصى وجعل على ولايتي تلمسان وتيهرت ولده يعلى سنة ٣٩٦ هـ - ١٠٠٦ م فجدد بها الدعوة الى الخلافة الاموية ، وأورثها بنيه ، ولم يزل بعد ذلك بنو يعلى في حرب مع بني حماد الى ان تغلب عليهم أخيراً المرابطون فأجلوهم عن هذه الامارة سنة ٤٧٣ هـ - ١٠٨٠ م .

قهر زناتة

استمرت زناتة على تمردها ضد السلطة الحاكمة فاضطرب لذلك حبل النظام بالمغرب الاوسط وقلق منه باديس ، فأوعز الى عمه حماد بالقضاء على حركة زناتة واخماد ثوراتها المتحددة ، فاقتحم حماد هذه الفرصة السانحة ليحقق أغراضه في الملك والرئاسة فاشترط على الامير انه ان نجح في زحفه على زناتة ان يوليه المغرب الاوسط ، وان له جميع ما يملكه في غزوته هذه من البلاد ، وان تكون له الحرية في اختيار مكان اقامته بالبلاد ، فوافقه باديس على ذلك ؛ فغزا حماد يومئذ زناتة سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م فظفر بهم واستأصل شأفتهم بحيث لم يظهر لهم بعد ذلك أي أثر في الحرب مع حماد . وما كانت ثورات زناتة في حقيقة أمرها إلا عن ضغينة وحقد لحقها من خيبتها ، اذ لم يكن لها في هذه الدولة من الحكم والرئاسة نصيب .

انشاء قلعة بني حماد

اندفع حماد بعد انتصاره على زناتة يتجول في انحاء الجزائر ثملاً بنخوة الظهور والغلبة على خصومه وهو في ذلك يرتاد مكاناً حصيناً يتخذه مركزاً لسلطانه ويحتاط فيه لنفسه ، فوفق الى جبل منيع مطل على بحيرة الحضنة يعرف بجبل كياتة المسمى بجبل معديد وهو المعروف اليوم باسم « المعاضيد » وهو على نحو ٣١ كيلومتراً جنوب برج بوعريريج وعلى نحو ٢٠ كيلومتراً بالشمال الشرقي من مدينة المسيلة تحيط به سهول وبأعلاه حصن « تاقربوست » المعروف في القديم باسم قلعة أبي طويل على نحو ١٥ كيلومتراً شرقي برج الغدير ؛ وهناك شرع حماد سنة ٣٩٨ هـ — ١٠٠٧ م في وضع قلعته وتأسيس عاصمته التي قدر لها ان تكون حيناً من الدهر عاصمة القطر الجزائري ؛ وقد تم تمصيرها في عامين ، ثم أحاطها بسور من الحجارة سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م يبلغ ارتفاعه متراً واحداً ويمتد حول جبل كياتة على استدارة سبعة أميال ، وأقام حماد بها ملكاً يتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال مقراً بالولاء لابن أخيه باديس بن المنصور بالقيروان والمهدية .

يقول الادريسي في وصف هذه القلعة انها من أكبر البلاد قطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساكن ، وأعمها فواكه وخصباً ، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة ؛ وكانت مقصد التجار ومحط رحالهم يأتون اليها من العراق والحجاز والشام ومصر الخ ... وأهلها في غاية الذكاء والفطنة ولهم في ذلك نوادر وأقاصيص عجيبة يرويها أهل الجغرافية والتاريخ [١] .

وفيما يعود الى أسباب خراب أمثال هذه المدينة وغيرها من العواصم والمدن التي اضمحلت وعفت وتلاشت آثارها من الوجود يقول ابن خلدون :

« ان المدن والعواصم المشيدة من طرف الدولة انما تبقى بعد ذهاب

---

(١) راجع المسالك والممالك للبكري ص ١٨٤ ونزهة المشتاق ص ٨٦ ط ليدن ١٨٦٤ .

نشئها اذا كانت لتلك المدن من الضواحي والقرى والجبال والبسائط المجاورة لها ما يمدها بالعمران فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة الذاهبة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق ... واما اذا لم تكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً او ان يبد عز ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها[1] .

بداية الخلاف بين حماد وباديس

استقر حماد بن بلكين بعاصمته الجديدة - القلعة - وصار يتنقل بينها وبين آشير يوماً هنا ويوماً هناك ، وأصبح حسب تفويض الامير صاحب النفوذ المطلق بالجزائر وأرض الزاب أيضاً وركدت ريح زناتة وتبدد شملها ؛ واشتهر ذكر حماد فطار بالبلاد صيته وعظم شأنه وكثر دخله ؛ ويومئذ عملت عوامل الحسد وحسائك الحقد والضغينة في صدور أعدائه فأخذوا في السعاية والوشاية به الى باديس وذكروا له أشياء كرهها الامير من حماد وخشي على ضياع نفوذه واستفحال أمر عمه حماد ، وبقي باديس يلتمس الفرصة ليطلع بنفسه على عمه حول الامارة والملك ؛ ففي شهر ذي الحجة ٤٠٧ هـ - ماي ١٠١٧ م جاء العهد من الخليفة الحاكم الفاطمي بولاية المعز بن باديس امارة افريقية بعد والده ، فبادر باديس الى امر حماد بالتنازل عن ولاية عمل قسنطينة وتيجس - على نحو تسعين كيلومتراً بالجنوب الشرقي من قسنطينة - للمعز ولي عهد امارة صنهاجة ، فامتعض حماد لهذا الامر وامتنع وأصر على بقائه في ولايته وجاهر برفض التشيع وقتل الروافض ؛ فنشأت عن ذلك عداوة ووحشة بين القصر وحماد .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

نشوب الحرب بين حماد وباديس

ولما اتضح لباديس موقف عمه العدائي تجاه ملكه والدعوة الشيعية جهز له جيشاً وامر عليه كبير قادته هاشم بن جعفر واهب به الى ناحية الجزائر فخرجت الكتائب من القيروان فلقيها حماد بمدينة الكاف ومعه ثلاثون الف مقاتل فانهزم جيش هاشم وتقدم حماد الى تونس وباجة فاحتلها واثار أهلها ضد الشيعة ، ويومئذ زحف اليه باديس فهزمه ونكص حماد على عقبه ملتجئاً نحو آشير فتنكر له اهلها ففر الى ناحية شلف فلحقه باديس وقد امتلك في طريقه مدينة المسيلة وآشير وبلغ الى سهل السرسو فانضم اليه هناك جميع اعداء حماد وخصومه الناقمين عليه ، فاشتد ساعد باديس بأولئك فأجاز بهم وادي شلف وقضى على قوات حماد الكامنة هنالك في اوائل جمادي الاولى سنة ٤٠٧ هـ – اكتوبر ١٠١٦ م ، فانهزم حماد من مجانة الى شلف وهرب الى القلعة فتخلى عنه اصحابه وذهبوا الى الامير ، واشتغل القوم يومئذ باستفادة ما خلفه حماد وراءه من الغنائم والاموال والاثقال مما لا يحصى عداً ! ... ثم احاط الجميع بقلعة حماد فحاصروها وكادوا ان يظفروا به لولا ان فاجأهم موت باديس بالمسيلة يوم الثلاثاء ٣٠ ذي العقدة ٤٠٧ هـ – ٣٠ افريل ١٠١٧ م فرأسوا عليهم اخاه كرامة وجعلوه كقائد اعلى يرجعون اليه في تسيير هذه المعركة وكتموا موت الامير ، فحمل يومئذ كرامة على حماد في سبعة آلاف مقاتل وانفق في ذلك اموالاً طائلة ، واستعد حماد لمقاومته في الف وخمسمائة فارس فهزمه الى القيروان ومعه جثمان باديس فدفن بها وبويع لولده المعز .

الامير المعز بن باديس

سير اليه الخليفة الفاطمي تشريفاً وسجلاً لقبه فيه بشرف الدولة ، وكانت توليته الامارة يوم ٢١ ذي الحجة سنة ٤٠٧ هـ – ٢١ ماي ١٠١٧ م وسنه يومئذ ثمان سنوات واربعة اشهر ، فكفلته عمته ام ملال الى ان

بلغ سن الرشد فاشتهر بالتدين والعلم ورقة القلب والتعفف عن سفك الدماء الا ما كان في حق وكان يجيد الشعر ويحسن الالحان الموسيقية والعزف على آلة الغناء وله خبرة ودراية بالاحجار الكريمة محباً لاهل العلم والادب ومحط آمالهم ، فكان عصره اضخم واترف ملك عرفه البربر بافريقية ، فهو ثالث ملوك هذه الدولة الذين ضربت السكة بأسمائهم ، واول من اتخذ المهدية قاعدة لملكه الى ان استولى عليها الصقليون سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م . ولم تطل مدة احد من اهل بيته في الولاية والملك كمدته ، اذ كان فيها من اكرم اهل بيته فهو أحقهم باسم المؤسس الحقيقي لدولتهم ، اذ هو اول من اعلن انفصال المغرب عن العبيديين وخلع طاعتهم ولما بعث اليه المستنصر الفاطمي بالقاهرة يتهدده ويتوعده أجاب الرسول بقوله : قل لأميرك ان لنا ملك افريقية قبل ان يكون للعبيديين ذكر ! ... وكانت وفاته بالمهدية سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٣ م ودفن برباط المنستير وكانت ولايته تسعاً واربعين سنة .

استمرار الحرب بين حماد والمعز بن باديس

استمر كرامة بن المنصور محافظاً على عرش اخيه باديس حتى تمت المبايعة لابنه المعز ، ويومئذ تخلى كرامة عن العرش لابن اخيه وصالح حماداً على اموال قبضها والتحق بالبلاط الصنهاجي ؛ فأسرع حماد يومئذ الى تبوئة مكانه بالمغرب الاوسط ودخل المسيلة وآشير واستعد فيهما للقتال ، وخرج لحصار باغاية فأجلاه عنها جيش المعز وهزمه يوم ٢٢ صفر ٤٠٨ هـ - ٢١ جوليط ١٠١٧ م فسر لذلك اهل باغاية وبعثوا بهدايا وتحف نفيسة الى المعز كان من بينها عبيد وثلاثمائة وخمسة وثلاثون برذونا مسرجة بالسروج المحلات الخ ... ثم بعد مضي شهر من وقعة باغاية كانت هنالك وقعة ثانية هي اشد واعظم من الاولى انهزم فيها حماد ؛ كذلك وتفرق عنه الجند واسر اخوه ابراهيم بما معه من العتاد ونجا حماد بنفسه ، ثم سار جند المعز الى مدينة سطيف وقصر الطير وقفل بعدها الى حضرته .

الصلح والموادعة

ولما استبان لحماد عجزه عن مداومة الحرب بعث الى المعز مستسلماً طالباً للامان فقبل منه ذلك مشترطاً عليه ارتهان ولده القائد ؛ وبعد ما استوثق حماد على ابنه بواسطة اخيه ابراهيم بعث به الى المعز ومعه هدايا نفيسة فاقتبله الامير في منتصف شعبان ٤٠٨ هـ - جانفيي ١٠١٨ واكرمه وغمره باحسانه وامضى له ما ارتضاه والده من الصلح واقطعه مدينة المسيلة وطبنة ومرمى الدجاج وسوق حمزة - برج حمزة قرب البويرة - وزواوة ومقرة واستقل والده حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب واشير وتاهرت وبما سيفتحه من غيرها من بلاد الجزائر ، فكأن ذلك كان ترشيحاً من المعز لانشاء دولة بني حماد ثم عاد القائد بعد ذلك الى والده في رمضان من سنته يحمل معه صكوك السلم والاقطاع ؛

ثم كانت هنالك حوادث زناتة بالزاب فنهض اليها الجند الصنهاجي فأخمدهما سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٨ م بعد ما قتل فيها عدداً وافراً من الناس واحتل جميع قلاع الزاب . ثم في سنة ٤٣٢ هـ - ١٠٤١ م حدثت وحشة بين عاهل صنهاجة وحماد ، فزحف المعز الى القلعة الحمادية فحاصرها مدة سنتين ثم اقلع عنها وعاد الى حاضرته ؛ فلم يختلفا بعد ذلك ؛ ويومئذ تمحض ملك الجزائر للاسرة الحمادية واستمرت الولاية فيهم زهاء قرن ونصف كما سنفصله في تاريخ دولتهم ؛ ومنذ ذلك الحين انقسمت المملكة الزيرية الصنهاجية بالمغرب الى قسمين : مملكة شرقية وقاعدتها القيراون ثم المهدية حكم فيها ابناء المعز الى ان قضى عليهم النورمان سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م . ومملكة غربية كانت لبني حماد وقاعدتها القلعة ثم بجاية الى ان سقطت بيد الموحدين سنة ٥٤٧ هـ - ١١٥٣ م كما سنذكره .

المذاهب والعقائد

كان المغرب العربي في اول عهده بالاسلام سائراً في تدينه على مذهب السلف الصالح وعقائد اهل السنة والجماعة ؛ الى ان كانت حوادث فتنة

الجمل وصفين بالمشرق فنشأت عنها احزاب وطوائف سياسية مختلفة تسربت الى المغرب فتطورت العقائد معها الى احساس سياسي وتفرقت الامة في عقائدها واتجاهها الديني الى مذاهب وطرق شتى فحدثت يومئذ مذاهب الاعتزال والخارجية واختلفت الآراء في اصول الاعتقاد ؛ وسلك الناس في عباداتهم ومعاملاتهم هذا المسلك ايضاً ، فاختلفوا الى مذاهب شتى ؛ وكان اظهر المذاهب الاسلامية يومئذ بالمغرب مذهب ابي حنيفة ومالك كما المعنا الى ذلك فيما تقدم .

وفي عهد بني عبيد الفاطميين حاولت هذه الدولة نشر مذهب الشيعة الاسماعيلي بعقائده وعباداته بين الشعب الافريقي كله ، ومحو مذاهب اهل السنة ، فكان هنالك من اخذ به ، ومنهم من رفضه ؛ وكان فقهاء المالكية على الخصوص في محنة عظيمة مع هؤلاء الروافض من الشيعة الى سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٧ م . حيث اختلف حماد بن بلكين على باديس وفسدت ذات البين بينهما فأعلن حماد برفض عقائد الروافض والغاء مذهب الشيعة والتمسك بمذهب اهل السنة ؛ فانقطعت بذلك دعوتهم بالجزائر ؛ واستمرت المعارضة المالكية تعمل في الشعب المغربي حتى تغلغل فيه الوعي السني فانتهز المعز بن باديس هذا الموقف ليتخذ منه سبيلاً الى اعلان انفصاله ايضاً عن دولة الفاطميين واستقلاله بالمغرب العربي ، فانتحل يومئذ مذهب اهل السنة وحمل الناس على مذهب الامام مالك ومنعهم من تعدد المذاهب ، فجمع الفقهاء للمناظرة بين يديه ، وكان فيهم المالكية والحنفية ، فسألهم عن موطن ابي حنيفة ، فقيل له الكوفة ، فقال ومالك ؟ ... فقالوا المدينة ، فقال عالم اهل المدينة يكفينا وامر باخراج اصحاب ابي حنيفة ، وقال لا احب ان يكون في عملي مذهبان . ولم يقتصر البلاء على مذهب الشيعة فقط ، بل شمل مذهب الاحناف السنيين الذين كانوا يظلونهم برعايتهم ، وانتقل المغرب الى مذهب مالك الذي لا يزال عليه الى اليوم . واعلن المعز يومئذ انفصاله السياسي عن الفاطميين ، ولعن مذهب الروافض ، وابطل شعائرهم وقطع الخطبة باسمهم ودعا للخلافة العباسية ببغداد تثبيتاً لملكه ، فحظى منها بالتقليد والخلع فنشر الرايات السود وهدم دار الاسماعيلية وذلك

حدود سنة ٤٣٥ هـ – ١٠٤٣ م ويجعل ذلك ابن ابي الضياف سنة ٤٣١ هـ – ١٠٣٩ م فاندفع الناس حينئذ لمقاتلة الشيعة واضطهادهم ابرح قتال واشد اضطهاد ؛ فكانت هذه الحركة الدينية الفقهية بالمغرب العربي حركة قوية نشيطة اكثر ما خدمت فقه الامام مالك واستقلال البلاد .

ويحدثنا المقدسي في كتابه الجغرافي الجليل « احسن التقاسيم » ط ليدن ١٨٧٧ م الذي وضعه سنة ٣٧٥ هـ – ٩٨٥ م بعدما جال في هذه الاوطان المغربية واتصل بأهلها ، فقال « ان اهل المغرب لا يكادون يعرفون الا كتاب الله وموطأ مالك ؛ ... وانهم لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله ، انما هو ابو حنيفة ومالك ؛ قال « وكنت يوماً اذاكر بعضهم في مسألة ؛ فذكرت قول الشافعي ، فقال : اسكت من هو الشافعي ؟ انما كان بحران ابو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب ، افنتركهما ونشتغل بالساقية ؟ ... قال ورأيت اصحاب مالك رحمه الله يبغضون الشافعي ، قالوا اخذ العلم عن مالك ثم خالفه ؛ وما رايت فريقين احسن اتفاقاً واقل تعصباً منهم ... وسألت بعضهم : كيف وقع مذهب ابي حنيفة اليكم ولم يكن على سابلتكم ؟ ... قالوا : لما قدم عبد الله بن وهب من عند مالك وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف اسد بن عبد الله ان يدرس عليه لجلالته وكبر سنه ، فرحل الى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا ، فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع الى ابن وهب فقد اودعته علمي ، وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على اسد ، ثم سأل هل يعرف لمالك نظير ؟ ... فدل على محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، فرحل اليه ، واقبل محمد عليه اقبالاً لم يقبله على احد لما رأى منه من فهم وحرص ، فلما رأى محمد انه قد بلغ مراده سيبه الى المغرب ، فلما دخله اختلف اليه الفتيان ورأوا فروعاً حيرتهم ، ودقائق اعجبتهم ، ومسائل ما طنت على اذن ابن وهب ففشا مذهب ابي حنيفة بالمغرب .

وفيما يرجع الى رواية القرآن الكريم وقراءاته بالمغرب فانه كان يتلى بقراءة الامام حمزة بن حبيب ، الى ان رحل ابن خيرون الاندلسي الى

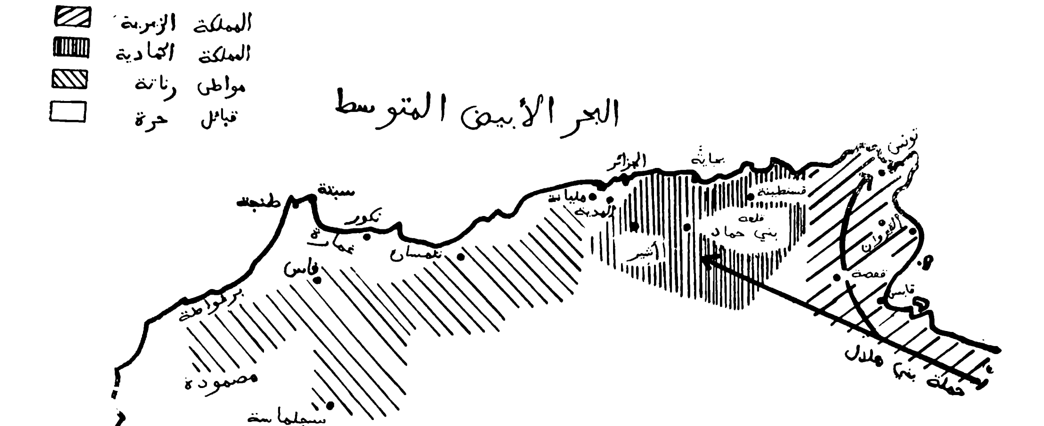
المشرق في صدر المائة الرابعة فعاد برواية قالون وورش عن نافع فانتشرت هذه القراءة ايضاً بين الناس بعد ان كان لا يقرأ بها الا الخواص .

الزحف الهلالي

تأثر الخليفة الفاطمي كثيراً لهذا الحادث الخطير وهذا الانقلاب الديني السياسي العظيم الذي وقع بافريقية ، فعظم عليه خروج المغرب عن الامبراطورية الفاطمية وانقراض دعوة الشيعة به ، فكتب المستنصر بالله العبيدي الى المعز بن باديس كتابا يتهدده فيه ويقول : هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء ؟ ... فأجابه المعز قائلًا ؛ ان آبائي واجدادي كانوا ملوك المغرب قبل ان يملكه اسلافك ، ولهم عليهم من الخدم اعظم من التقديم ولو اخروهم لتقدموا بأسيافهم .

ويومئذ دبرت مكيدة الحملة الهلالية باشارة من اليازوري وزير المستنصر حيث كان واغر الصدر على المعز ، وكان هؤلاء الاعراب من بني هلال وبني سليم ورياح وزعبة قد اضروا بالديار المصرية واصبحوا خطراً على الدولة هناك ففتح لهم الخليفة باب الهجرة الى المغرب ورغبهم فيه بأنواع من المرغبات وعقد لرؤساهم ورجالاتهم على امصار البلاد المغربية وثغورها وقلدهم كثيراً من الاعمال والولايات انتقاماً من دولة صنهاجة الزيرية المشاقة ؛ واذن لهؤلاء الاعراب في الانتقال الى هذا الشمال الافريقي ؛ وقال لهم : قد اعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي ذلك العبد الآبق فلا تفترقون ؛ وترك تحقيق ذلك الى سيوفهم ورماحهم .

خرجت الحملة الهلالية الاولى من الديار المصرية سنة ٤٤٢ هـ - ١٠٥١ م في نحو الاربعمائة الف شخص ، واذ ذاك كتب اليازوري الى المعز (... اما بعد فقد ارسلنا اليك خيولاً ، وحملنا عليها رجالاً فحولاً ليقضي الله امراً كان مفعولاً) ونزل هؤلاء الاعراب بافريقية فانتشروا ببرقة ونواحي قابس وتونس ؛ فأكثروا فيها الفساد والنهب وتكررت الوقائع بينهم وبين



المغرب الاسلامي في اواسط القرن الرابع عشر الى اواسط السادس الهجري – اواسط الحادي عشر الميلادي –

الاهالي والدولة وتعددت النكبات فتخلى لهم المعز عن القيروان الى المهدية فتعقبوه اليها ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

وان ابن باديس لا حزم فارس لعمري ولكن ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنـــا هزمت له ثلاثين ألفاً ، ان ذا لنكال

وكان الملتحم بالجزائر في نواحي جبل راشد ومصاب والزاب الشرقي وفيه قتل القائد ابو سعدى خليفة الزناتي الفتري وزير بني خزر بتلمسان ؛ وكان من جملة المقلدين في هذه الحملة من طرف الفاطميين : الحسن بن سرحان فانه جاء برسم ولاية قسنطينة فاحتلها وقد شهدت البلاد في هذه الآونة من البلايا والاهوال والحروب الاليمة ما يشيب لها الاطفال ! ... وعجز عن المقاومة كل من صنهاجة وزناتة وامراء تلمسان من بني خزر وامراء القلعة من بني حماد وفاز هؤلاء الزاحفون من الاعراب الهلاليين بامتلاك اعظم الجهات بافريقية ، وذلك بسلوكهم سبيل التفرقة بين اهلها واعانة بعضهم على بعض بشتى الوسائل وكان الربح دائماً في الجانب العربي . انظر الخريطة . فكان لبني سليم نواحي المغرب الشرقية ، ولبني هلال النواحي الغربية ، ولقد احدث هذا الغزو الهلالي انقلاباً عظيماً في البلاد من حيث الاقتصاد والسياسية والاجتماع .

فكان دخول بني هلال الى المغرب الاسلامي من الحوادث الفاصلة في تاريخه فقد قضوا على دولة بني زيري الصنهاجيين في تونس وعلى دولة ابناء عمومتهم بني حماد في المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ وانقطعت نتيجة لغارتهم هذه الصلات السياسية بين المغرب وبين المشرق ، واتجه المغرب بعد ذلك وجهة خاصة منفصلاً عن بقية المجموعة الاسلامية مما كان له أسوأ الاثر على مصير المغرب والاندلس ـ ايضاً ـ في اواخر العصور الوسطى [١] .

---

(١) راجع هامش تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٣ ط القاهرة ١٩٥٨ م

أهم المواطن الهلالية بالجزائر

كل ما في هذا الوطن من عرب هذه الحملة يرجع نسبهم الى اصول اربعة ، بني هلال ، بني سليم ، زغبة ، رياح ؛ وكانت مواطنهم الاصلية بالحجاز غربي نجد حول مكة والمدينة وبسائط الطائف الى جبل زغوان وبأرض تيماء من نجد والبحرين واليمن . وكان انتقالهم لمصر ايام ولاية عبيد الله بن الحبحاب عليها ، ثم انحاز الكثير منهم الى القرامطة ايام ظهورهم وتغلبهم على بلاد الشام ومصر في القرن الثالث الهجري ؛ ثم بعد الفتح الشيعي للبلاد المصرية اسكنهم الخليفة العزيز بلاد الصعيد وانزلهم بالعدوة الشرقية تجاه بحر القلزم – البحر الاحمر – فأقاموا هنالك يعيشون على البداوة والخشونة . ويجرون على طبيعتهم في السلب والنهب فحصلت منهم اضرار كثيرة بالبلاد الى سنة ٤٤٢ هـ – ١٠٥١ م فانتقلوا من بلاد النيل الى المغرب فسكنوه وتفرعت عنهم فروع كثيرة وبطون عديدة انتشرت بأنحاء الشمال الافريقي وامتزجت بأهله امتزاج الماء بالماء حتى كدت لا تفرق اليوم بين العربي والهجين .

فمنهم بعمالة الجزائر : قبائل الثعالبة والمعقل وهم بسهول متيجة ؛ وعبيد وعمراوة حول بلاد جرجرة ؛ واولاد ماضي وسليمان حول مدينة سور الغزلان ؛ وجندل والعطاف حول جنوب مليانة ونواحي المدية ، واولاد نائل في نواحي الصحراء ، وزغبة بين مصاب وجبل راشد .

وبعمالة وهران : بنو عامر وهم ما بين مدينتي وهران وتلمسان ، والغرابة هم بتلك النواحي ايضاً ، والمجاهر قرب مستغانم ، وصهيب قرب الاصنام ، والجعافرة واولاد خالد واولاد الشريف ما بين الساحل وفرندة وسعيدة .

وبعمالة قسنطينة : المخادمة واولاد جلال ، واولاد سعيد في الهضاب العليا والصحراء ومنهم عتبة بنواحي بجاية ، ورياح بنواحي قسنطينة والمسيلة والزاب الخ ... ولقد حصلت لهؤلاء العرب رئاسة وزعامة بهذه الاوطان فاندمجوا فيها واصبحوا يدافعون عنها دفاع الاسد عن العرين .

رفاهة البلاط الصنهاجي وثراء الجزائر

لا ادل على الحقائق التاريخية ولا اثبت للحجة من ذكر الحوادث والوقائع مجردة يستنتج منها الباحث والمطلع عليها بنفسه الحكم على العصر الذي جرت فيه تلك الحوادث ؛ وها نحن نقدم له اسناداً صحيحة واقعية كبرهان قاطع يوضح لنا مبلغ ما وصلت اليه هذه الدولة الزيرية من الرفاهية والبذخ وما بلغت اليه الرعية من الثراء والغنى .

قال صاحب البيان المغرب في سياق الحديث عن وقائع حماد ضد باديس سنة ٤٠٧ هـ – ١٠١٦ م : ان الناس اخذوا من غنائم حماد وامواله ما لا يحصى عدداً وكثرة ، ووجد رقعتان فيهما ان الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون الف دينار وسبعمائة ، ومن الورق الف الف وخمسمائة درهم ، ومن الامتعة خمسون صندوقاً ، غير ما كان في بيت حماد وخزائنه .

قال ابو اسحاق وجد رجل بين يديه بغل يسوقه ، ففتشه بعض الوصفان بين ايدينا ، فوجد في حشو برذعته وصوفها ثمانية آلاف دينار ، ومثل هذا ما لا يحصى كثرة وذكروا ان اعشار بعض اعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين او ثمانية الف قفيز [1] وان مداخيل مدينة بونة عنابة – عشرون الف دينار غير جباية بيت المال [2] واهدى المنصور بن بلكين الى الخليفة نزار العبيدي بمصر هدية قيمتها الف الف دينار .

وفي سنة ٤١٥ هـ – ١٠٢٤ م وقف شرف الدولة المعز بن باديس لمدينة صندل والى بسكرة فعرضت عليه ، فاذا هي ثلاثمائة حصان ، ومائة فرس انثى ، وبغلات منها عشرون بالسروج المحلاة وعبيد ومائة حمل من المال ، فخلع عليه وجدد له الولاية على بسكرة ، وبلغت عطية عامل باغاية مائة حمل من المال ، واعطى باديس الى فلفول بن مسعود الزناتي صاحب طبنة ثلاثين حملاً من المال وثمانين تختاً من الثياب وعشرة

(١) هو ما يعادل ١٢ صاعاً ويكاد يعادل ما يزيد قليلاً على ١/٤ ٦٤ رطلاً من القمح .

(٢) البكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

بنود مذهبة ، ومراكب بالسروج المحلاة وكانت منحة المعز بن باديس للمنتصر بن خزرون الزناتي مائة الف دينار . ولما ذكر ابن خلدون رفاهية بلاط الصنهاجيين قال : انهم كانوا اذا أجازوا الوفد من امراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال أحمالاً والكساء تخوتاً مملوءة والمحلات جنائب عديدة [1] ... وقد لا يخلو كلام ابن خلدون هذا من مبالغة ؟ ...

وجرت بين المعز بن باديس والظاهر لإعزاز دين الله مهادات جليلة وكان فيما اهداه المعز الى الظاهر سنة عشرين وأربعمائة (١٠٣٩ م) : ثلاثة أرؤس من جياد الخيل الثمينة ، منها كميت بسرج ذهب صياغة المغرب ، وزن ذهبه قنطار ، وأشقر سرجه لؤلؤ ، وأدهم سرجه فضة بياض وزن مائة قنطار ، وثلاثة آلاف منازعفران ، وخمسون درقة موكبية مغشاة بديباج ، وألف وخمسمائة ثوب من الوان الخز المغربي الملبس ، واربعمائة غفارة من رفيع الطالقان ، ومن الرماح الزان ما لا يعد كثرة ، ومن الصناديق والاقفاص المملوءة سيوفاً ، وغيرها مثل ذلك ، ومن الثياب الصقلي والثياب السوسي والفرخات والعمائم الصقلي عدة الوف ، وعشرون جارية لم يرَ أحسن قدوداً ووجوهاً وألواناً وأجساماً منهن ، ومعهن جارية تفوقهن مفردة حسناً وكمالاً ، وعلى نهودهن حقاق فضة ، واثنا عشر صقلبياً بيض صبيان حسان الوجوه والقدود ، وعشرون خادماً من ملاح السودان صباناً ، وفي جملة الهدية ألف قنطار شمعاً . وجلس الظاهر لاقتبال رسول المعز على السرير الكبير المذهب وقرىء كتابه وعرضت عليه هديته ، وقد كان ذلك في يوم الاحد لثمان خلون من شهر شوال (٤٣٠ هـ - ١٠٣٩ م) . ولقد انفذ اليه الظاهر كذلك هدية فيها من غرائب الطرف والتحف النفيسة ما لا يحد ...

وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة (١٠٣٢ م) أهداه المعز أيضاً أربعة سباع أعظم ما يكون منها وأهولها ، وعشرين كلباً سلوقية ، وعدة نمور ، وشمعاً كثيراً ، ومتاعاً جماً من ثياب خز وسوسي وصقلي ،

---

(١) المقدمة صفحة ٩٧ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

وزعفران ، وعبيد من خدم بيض وسود ورقيق رائع وغير ذلك ؛ كما انه أهدى كذلك الى المستنصر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٥ م) هدية جليلة قومت بأربعين الف دينار ، من جملتها ورقة مكللة بالجوهر كانت للمهدي بالله بالمغرب[١] .

ويا ما اروع يوم زواج ام العلو بنت باديس بعبدالله بن حماد وما اجمل الايوان ايام ذلك العرس وما ابهى موكب زفاف العروس ! فانه لما كان يوم الاربعاء غرة شعبان ٤١٥ هـ ٨ اكتوبر ١٠٢٤ م زين الايوان المعظم للسيدة الجليلة ام العلو ، ودخل الناس خاصة وعامة فنظروا من صنوف الجواهر والاسلاك والامتعة النفيسة واواني الذهب والفضة ما لم يعمل مثله ولا سمع لاحد من الملوك قبله ، قال ابو اسحاق الرقيق : فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه ، وابهتهم عظيم ما شاهدوه ، وحمل المهر في عشرة احمال على عشرة بغال ، وعلى كل حمل جارية حسناء ، وجملته مائة الف دينار عينا ؛ وذكر بعض الحذاق من التجار انه قوم ما هو لها فكان ما يزيد على الف الف دينار ، ولم ير مثل هذا لامرأة قبلها بافريقية .

وزفت العروس يوم الخميس ومضى بين يديها عبيد اخيها شرف الدولة المعز ، وابيها نصير الدولة باديس ، وجدها عدة العزيز بالله ، ووجوه رجال الدولة ، فكان يوماً سارت الركبان بمحاسن آثاره وعجبت الناس لعجائب اخباره ؛ وقل مثل ذلك في مآتمهم ايضاً فانها كانت لا تقل عن افراحهم في مظاهر الابهة والبذل .

فانه لما توفيت زوجة نصير الدولة باديس سنة ٤١١ هـ ١٠٢٠ م جهزت فيما لم يذكر ان ملكاً من ملوك الارض جهز في مثله الا ما كان من ملوك الفراعنة بمصر ! ... فقد روى المؤرخون عن من حضر الجنازة ان قيمة جهاز التكفين بلغت مائة الف دينار ، من غير التابوت الذي

---

(١) الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ص ٦٨ ـ ٧٣ – ٧٦ ط الكويت ١٩٥٩ م .

جعلت فيه فهو من عود هندي مرصع بالجواهر وصفائح الذهب وقدر مبلغ قيمة مساميره الذهبية بألفي دينار ، وجعل عليه عشرون سبحة من نفيس الجوهر ، وذبحت مائة بقرة وخمسون ناقة ، والف شاة ، وفرق على الناس عشرة آلاف دينار ! .

هذه صورة مصغرة لبلاط ملك دولة صنهاجة وما كان عليه حال الناس يومئذ من اليسر والبذخ والرفاهية سقناه كتصديق لقول ابن خلدون عن ملك هذه الدولة : كان ملكهم اضخم ملك عرف للبربر في افريقية واترفه وابذخه .

الثقافة والحضارة والعمران

من القواعد المقررة لمعرفة حيوية المجتمع وحركته الصناعية والاقتصادية ، النظر الى منشآته ومؤسساته العمرانية ، فاننا اذا نظرنا الى ذلك في هذا العصر وجدنا حركة البناء والتعمير مطردة في تاريخ هذه الدولة ، اذ ما كان انشاء مدينة آشير ٣٢٤ هـ - ٩٣٦ م الا على يد زيري بن مناد رأس الاسرة المالكة ، وقد كان فيها من الدور والقصور والمنازل والحمامات والمساجد ما حمل الكثير من السادة والاعيان والعلماء والادباء على الانتقال اليها فاستبحر عمرانها وضربت السكة بها ، وكذلك مدينة القلعة المشهورة التي وصفها صاحب « الاستبصار » بقوله « ولبني حماد بالقلعة : مبان عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر فوضع في وسطه صهريج عظيم - يبلغ طوله ٦٧ متراً ، تلعب فيه الزوارق يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد ، وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة وفيها آثار للأوائل عجيبة [1] . ويحدثنا ابن خلدون عن العمران والحضارة بالقلعة فيقول : « وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة » وشيد - حماد من بنيانها واستكثر فيها من

---

(١) الاستبصار ص ٥٦ ط فينا ١٨٥٢ م .

المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارة واتسمت بالتمدن ، ورحل اليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق اسواق المعارف والحرف والصنائع بها[1] وقد مر بك قريباً ما حكاه الادريس عن هذه المدينة الحافلة . وكذلك مدينتا المدية ومليانة فانما كانتا بفضل بلكين بن زيري فانه هو الذي انشأهما بأمر والده سنة ٣٥٥ ﻫ - ٩٦٦ م وعاصمة الجزائر كذلك سنة ٣٦٢ ﻫ - ٩٧٣ م . وان لم تكن هذه المدينة مجهولة من قبل اذ هي مشهورة في الماضي باسم (جزائر بني مزغني) المقامة على انقاض (ايكوسيوم) العتيقة ولكن تمصيرها كان على يد هذا الملك ، قال ابن خلدون : « وهذه المدن مليانة والمدية والجزائر - لهذا العهد من اعظم مدى المغرب الاوسط » وضبط لنا ابن خلدون اسم المدية فقال : هو بفتح اللام والميم وتشديد الياء وهاء النسب قال وهو حصن يسمى بأهله وهم بطن من بطون صنهاجة . وهذا من غير ما اشادته الدولة ببلاد تونس وغيرها من اسباب الحضارة والعمران . ويذكر ان من بقايا آثار هذه الدولة بالجزائر ذلك الباب الخشبي الموجود الى الآن بضريح سيدى عقبة بجوز بسكرة ، اما مهنة الزراعة والفلاحة فانها رائجة يومئذ بسبب التعامل التجاري الذي كان يجري مع الخارج فعم الرخاء وايسر الناس ، وبلغ دخل الدولة من موارد التجارة فقط نحو الستة ملايين فرنكاً ذهباً سنوياً ، وعن اقتصاديات البلاد وحركة الانتاج الزراعي والصناعي وتربية الماشية فاليك قصته كما يرويها لنا شاهد عيان معاصر لهذه الدولة التي نؤرخها وقد وطئت اقدامه هذه الارض على عهد عاهل صنهاجة « بلكين بن زيري » ، ذلك هو الرحالة الجغرافي الكبير ابن حوقل ، فأنصت اليه في حديثه عن مدينة الجزائر قال ... « وجزائر بني موغناي مدينة عليها سور علي سيف البحر ايضاً وفيها اسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة واكثر اموالهم المواشي من

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ .

البقر والغنم سائمة في الجبال ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يجهز ويجلب الى القيروان وغيرها ».

ويذكر لنا مدينة وهران فيقول : « فيها من جميع الفواكه وفي حاضرتها دهقنة وحذق وفيهم حمية مع الغريب وهي فرضة الاندلس اليها ترد السلاع ومنها يحملون الغلال .

وينتقل بنا الى مدينة بونة ويذكر لنا عن اسواقها فيقول عنها : انها حسنة وان تجارتها مقصودة وارباحها متوسطة وفيها خصب ورخص موصوف وفواكه وبساتين قريبة واكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في أكثر اوقاتها كما لا قدر له ، وبها معادن حديد كثيرة الغزير الكثير ويزرع بها الكتان ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة ، ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع وبها من العسل والخير والميراث ما تؤيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها ، واكثر سوائمهم البقر ولهم اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير وقل من بها تفوته الخيل السائمة للنتاج » ونحن نعلم ان اكثر التجار بها هم من بلاد الاندلس .

وها نحن في مرسى الخرز ، ودائماً في الاستماع الى ابن حوقل ، فهو يحدثنا الآن عن النشاط الاقتصادي البحري في هذا الميناء قائلاً : « فيه معدن المرجان ... ولا اعرف في شيء من البحار له نظيراً في الجودة ... وللتجار بها اموال كثيرة من اقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان وشراءه ، ويعمل بها في اكثر الاوقات في اثارة المرجان الخمسون قارباً ، وما زاد على ذلك بما في القارب العشرون رجلاً الى ما زاد ونقص ».

ويتابع ابن حوقل حديثه عن اهم مراسي الجزائر فينقلنا معه الى مرسى الدجاج قائلاً : « وبها من رخص الاسعار ايضاً في الفواكه والمآكل والمطاعم والقمح والشعير والالبان والمواشي ما يعرف غيرهم ممن يجاورهم ، وبها من الاشجار والتمر والتين خاصة العظيم الجسم ما يحمل منه الى البلاد النائية

عنه ... » ويذكر مدينة « برشك » فيقول : « ان بها فواكه حسنة غزيزة وسفرجل معنق كالقرع الصغار وهو طريف واعناب والغالب على اهلها البربر ولها بادية يشتارون العسل من الشجر والاجباح لكثرة النحل بالبلد واكثر أموالهم الماشية ولهم من الزرع والحنطة والشعير مـــا يزيد عن حاجاتهم » ...

ثم بعد ما ينتهي ابن حوقل من وصف مدينة « تنس » ووضعها الجغرافي ويبين لنا شكلها وهندستها ينطلق بنا الى أسواقها ويقول « ... وهي اكبر المدن التي يتعدى اليها الاندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بتاجرهم وينهضون منها الى ما سواها » ... وبها فواكه حسنة وهي من الخصب في جميع الوجوه الرفهة بأمر مستفاض وبها من الفواكه والسفرجل المعنق ما لا أزال احكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته كما يحدثنا عن المناجم ببلدة مجانة وما احتوت عليه من الخيرات فيقول : « وبها معادن حديد وفضة ومنها الحجارة المجلوبة للمطاحن بجميع المغرب ... وهي كثيرة الزعفران والزرع ، ولهم وادٍ غزير الماء يزرعون عليه واسواق صالحة » .

وينتقل بنا الى الحديث عن مدينة المسيلة ويذكر لنا من تاريخ انشائها وانها مما استحدثه علي بن الاندلسي كما مرت بنا الاشارة الى ذلك . ويصف لنا تدفق مياه واديها « سهر » ويتعرض لمنتوجاتها الزراعية وتربية المواشي بها ثم يقول : ولهم عليه – وادي سهر – كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفائتهم وحاجتهم ، ولهم من السفرجل المعنق ما يحمل القيروان واصله من تنس ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير وتكثر عندهم المواشي من الدواب والانعام والبقر ... » ويلاحظ على سير النشاط التجاري بمدينة تهرت بعد ان يفرق لنا بين تاهرت القديمة وتاهرت الجديدة يفيدنا بأن التجارة في المدينة الجديدة هي اكثر رواجاً من اختها القديمة ويقول : ولهم بها مياه كثيرة تدخل على اكثر دورهم واشجار وبساتين وحمامات وخانات وهي احد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات » . ويذكر مدينة « نقاوس »

بانها مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة ازلية ولها مياه كثيرة وأجنة عظيمة وبها جميع الفواكه كاللوز والجوز والكروم وزرعهم غزير كثير .

ويجمل لنا ابن حوقل القول عن كل صادرات المغرب الاسلامي وما يحمل منه الى المشرق فيقول : « واما ما يجهز من المغرب الى المشرق فالمولدات الحسان الروقة كالتي استولدهن بنو العباس وغيرهم واكابر رجالهم وولدن غير سلطان عظيم ، كسلامة البربرية ام ابي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وقراطيس ام ابي جعفر هارون الواثق ابن المعتصم ، وقتول ام أبي منصو محمد القاهر بن المعتصم وغير من ذكرت من ملوك المشرق وامرائه . والغلمان الروقة الروم والعنبر والحرير والاكسية الصوف الرفيعة والدنية الى جباب الصوف وما يعمل منه ، والانطاع الحديد والرصاص والزئبق والخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من ارض الصقالبة على الاندلس ولهم الخيل النفيسة من البوازين والبغال الفرة والابل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص .

فاما اسعارهم على تنائي مدنهم وديارهم فعلى غاية الرخص في الاطعمة والاغذية والاشربة واللحمان والادهان ولهم من جيد الفواكه والتمور والارطاب وسائر الاغذية . وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة « ابل العرب » .

ويتعرض ابن حوقل لثروة البلاد المالية فيدرس احوالها عن كثب ويفيدنا بنتيجة درسه للاموال بالجزائر على عهده فيقول مثلاً عن مدينة تنس « ان لسلطانها وجوه من الاموال كثيرة الخراج والجوالي والصدقات والاعشار ، ومراصد على المتاجر الداخلة اليها والخارجة والصادرة والواردة ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها اموالهم جسيمة غزيرة) وعن اهل المسيلة يقول : « وعليهم صدقات وخراج يسير » .

واطال النفس قليلاً في كلامه عن النشاط المالي بالنسبة الى مدينة سجلماسة فقال : « واهلها قوم سرات مياسير ، يباينون اهل المغرب في

المنظر والمخبر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال المروءة وسماحة ورجاحة ، وابنيتها كأبنية الكوفة الى أبواب رفيعة على قصور مشيدة عالية ... وسكانها اهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق فهم واولادهم وتجارتهم دائرة ومفرداتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة الى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قل ما يدانيها التجار بلاد الاسلام سعة حال ، ولقد رأيت صكاً كتب بدين على محمد بن ابي سعدون من تجار « اودغشت » وشهد عليه العدول باثنين وأربعين الف دينار ... قال : وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبهاً ولا نظيراً ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت ولم يزل المعتز ايام ولايتها وهو اميرها يجتبيها من قوافل خارجة الى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة على ما يباع ويشترى من ابل وغنم وبقر الى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي افريقية وفاس والاندلس والسوس والاغمات الى غير ذلك مما على دار الضرب والسكة زهاء اربع مائة الف دينار يختص بها وبعملها ، وقد ذكرت ان ارتفاع المغرب من اوله الى اخره من ثمان مائة الف دينار الى ما زاد على ذلك يسير ... قال وسائر ارباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال [١] واستمر الحال على ذلك الى ايام الزحف الهلالي حيث اشتدت الازمة بالناس ولحقهم من الضرر كثير .

وأشهر الحرف يومئذ كانت صناعة استخراج المرجان من بحر بونة ومرسى الخرز - القالة - فكان العمل في ذلك لا ينقطع ليل نهار والتجارة فيه رائجة وبالاخص ما كان يصدر منه الى الهند والصين ، كما اشتهرت يومئذ صناعة الاسلحة والادوات الحربية ، فقد كانت المصانع المغربية تنتج منها في المدة القريبة ما يعجز عنه غيرها في الزمن المديد .

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ج ١ ص ٦١ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٩١ - ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ ط ليدن ١٩٣٨ م والبكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

وبما يدلك على انتشار الحرف والصناعات وانطلاق أيدي الناس فيها سرعة ضرب السكة وسهولة أمرها على كل قائم بدعوة أو ثائر على الحكومة ؛ فقد كان لابي الفهم الكتامي الثائر عملة مضروبة باسمه ؛ ولابي الفرج الثائر بميلة وسطيف كذلك ، وللخير بن محمد بن خزر المغراوي أيضاً ، وليد وابن يعلى اليفرني الخ ... فكل ذلك يدلنا على فشو الصناعات والفنون ، ويكفينا في تصور مبلغ المستوى الثقافي وانتشار العلم والادب يومئذ ، اجتماع مائة شاعر على باب المعز بن باديس ونبوغ أمثال الحكيم ابن عمرون الوهراني وابن رشيق المسيلي والداودي التلمساني الخ ...

ومن ضمن الشعراء المائة الذين كانوا يترددون على القصر ، الشاعر أبو إسحاق الرقيق القائل في وقائع شلف – بالجزائر :

لم أنس يوماً بشلف راع منظره　وقد تضايق فيه ملتقى الحدق
والخيل تعبر بالهامات خائضة　من سافح الدم مجرى قانىء الفلق
والبيض في ظلمات النقع بارقة　مثل النجوم تهاوت في دجى الغسق
وقد بدا معلما باديس مشتهرا　كالشمس في الجو لا يخفى على الحدق
وان راحته لو فاض نائلها　وبأسها في الورى اشفوا على الغرق
تجلو عمامته الحمراء غرته　كأنه قمر في حمرة الشفق
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له　أبو مناد تبدى ، مات من فرق

ولاة الجزائر وزعماؤها

كانت رئاسة قبيلة مغراوة الزناتية لبني يعلى بن محمد النفزي ، وتوارثها كذلك بنو عطية بن عبدالله بن خزر ، وبنو فلفول بن خزر ، الى ان انتصر عليهم بلكين الصنهاجي فأخرجهم من مواطنهم هذه الى سبتة ؛ واستعمل على حروبه بني ومانو وبني يلومي ، وهما من أشد القبائل الزناتية الجزائرية شوكة وأوفرها بطوناً ، وكان على ولاية تيهرت ايام المنصور بن بلكين أخوه أبو البهار ، وعلى آشير أخوه يطوفت وتولى

يطوفت أيضاً على ولاية تيهرت ثم ابنه أيوب ، وعقد المنصور لاخيه حماد على ولاية آشير والمسيلة ؛ وزاده المعز عمل طبنة والزاب وتاهرت وأطلق يده في جميع ما يمتلكه من البلاد ؛ وكان سعيد بن خزرون والياً على طبنة سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م ثم بعده ولده فلفول ، وابن أبي حلى كذلك كان والياً بطبنة ايام باديس ، وكانت رئاسة قبيلة توجين - بنواحي شلف - لعطية بن دلفين وبدر بن اغمان بن المعتز ، وكانت طبنة والمسيلة ومقرة ومرمى الدجاج وسوق حمزة وزواوة للقائد بن حماد ومتيجة للقائد يوسف بن أبي محمد ، وولاية باغاية وبسكرة لصندل ، واعمال الزاب لابي سعيد خليفة اليفرني . وكانت مشيخة بسكرة في بني رمان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة .



أمراء الدولة الزيرية ـ الصنهاجية

	تاريخ التولية
بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي	٣٦١ هـ = ٩٧١ م
أبو الفتح المنصور بن بلكين	٣٧٣ هـ = ٩٨٤ م
أبو مناد باديس بن المنصور	٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م
المعز بن باديس	٤٠٦ هـ = ١٠١٦ م

توفي المعز سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٣ م ودفن حيث مدفن آبائه برباط المنستير - تونس .

من مشاهير الجزائر

الحسن بن رشيق

٣٨٥ _ ٤٦٣ ﻫ

٩٩٥ _ ١٠٧١ م

أبو علي الحسن بن رشيق أحد أئمة الادب العربي ومفخرة من مفاخر الجزائر ، ولد بمدينة المسيلة[1] سنة ٣٨٥ ﻫ - ٩٩٥ م ونشأ بها متأدباً وتعلم صناعة الصياغة على والده وبرز في فنون الادب والفقه والحديث والتاريخ ، ولما بلغ احدى وعشرين سنة من عمره ارتحل من بلده للقاء الشيوخ بالقيروان فنزل بعاصمة الشمال الافريقي سنة ٤٠٦ ﻫ - ١٠١٥ م ولقي بها عميد علماء اللغة والادب الشيخ أبا عبدالله محمد بن جعفر القزاز ، وعبد الكريم النهشلي وغيرهما من العلماء ومشيخة القيروان فلازم مجالسهم حتى اشتهر فضله وذاع صيته في الاوساط العلمية والادبية فاختاره المعز يومئذ لبلاطه وقربه اليه فكان بصحبته الى وفاته ، فالتحق ابن رشيق يومئذ بولده الامير تميم ولم يزل مقرباً لديه الى ان كانت الحملة الهلالية فانتقل المترجم الى صقلية فسكن مدينة « مازرة » الى ان وافاه أجله بها سنة ٤٦٣ ﻫ - ١٠٧١ م تاركاً وراءه ثروة أدبية ضخمة وتراثاً علمياً عظيماً .

---

(١) وتسمى المحمدية نسبة الى مؤسسها ابن القاسم محمد بن عبيدالله المهدي الفاطمي ، راجع تاريخ انشائها فيما قدمناه من كلامنا في تاريخ دولة بني عبيد الفاطميين .

ومن أشهر مؤلفاته كتابه الجليل « العمدة » وهو يبحث في صناعة الشعر وفنونه ونقده وعيوبه فهو أجل كتاب وضع في هذا الفن ، قال ابن خلدون : ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصنعة وأعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . وهو مطبوع بالقاهرة في جزئين . وله كذلك كتاب « قراضبة الذهب في نقد اشعار العرب » وكتاب « الشذوذ » في اللغة و « انموذج الزمان في شعراء القيروان » و « ميزان العمل في تاريخ الدول » و « تاريخ القيروان » و « الروضة الموشية في شعراء المهدية » ورسالة « نجح الطلب » ورسالة « قطع الانفاس » ورسالة « رفع الاشكال » و « المساوي » في السرقات الشعرية ، وشرح موطأ الامام مالك وله ديوان شعر ورسائل اخرى عديدة ، قال الصلاح الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات : وقد وقعت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره في الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره في النقد ؛ ومن شعره قوله في مدح الشعر :

الشعر شيء حسن ... ليس به من حرج
أقل ما فيه ذها ... ب الهم عن نفسي الشجي
يحكم في لطافة ... حل عقود الحجج
كم نظرة حسنها ... في وجه عذر سمج
وحرقة بردها ... عن قلب صب منضج
ورحمة أوقعها ... في قلب قاس حرج
وشاعر مطرح ... مغلق باب الفرج
قربه لسانه ... من ملك متوج
فعلموا أولادكم ... عقار طب المهج

واليه رحمه الله يعزى ابتكار سبعة وثلاثين نوعاً من انواع في البديع والطول مكث ابن رشيق في بلاط ملوك صنهاجة بالقيروان اشتهر وعرف بين الادباء بالقيرواني والا فهو جزائري « مسيلي » ولادة ومنشأ .

أبو العباس أحمد الباغائي

٣٤٥ ـ ٤٠١ هـ

٩٥٦ ـ ١٠١١ م

هو أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله الربعي الباغائي المقرىء ، كان من أهل العلم والفهم والذكاء ، ذكره ياقوت الحموي في معجمه فقال : كان لا نظير له في علوم القرآن على مذهب مالك ، مولده بمدينة « باغاية » سنة ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م ودخل الاندلس سنة ٣٧٦ هـ - ٩٨٦ م وقدم للقراء بالمسجد الجامع بقرطبة واستأذنه المنصور محمد ابن أبي عامر لابنه عبد الرحمان ثم عتب عليه فأقصاه ثم رقاه المؤيد بالله هشام بن الحكم في دولته الثانية الى خطه الشورى بقرطبة مكان أبي عمر الاشبيلي الفقيه وارتحل الى المشرق فكان فيمن روى عنهم من علماء الامصار ؛ أبو الطيب بن غلبون وأبو بكر الادفوي روى عنهما بمصر .

وكانت وفاته رحمه الله لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٤٠١ هـ - ١٦ جوان ١٠١١ م .

ابن عمرون الوهراني

هو الحكيم الرياضي والعالم الثقة ابو محمد عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني احد شيوخ العلم والحكمة له رواية واسعة عن شيوخ افريقية كأبي محمد بن ابي زيد وغيره من كبار علماء عصره ، متضلعاً في علوم الحساب والطب نافذ البصر فيها ماهراً في المعالجة ومداواة ما استعصى من العلل والامراض سافر الى الاندلس في تجارة له سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م فسكن اشبيلية عام السيل الكبير ، حدث عنه ابن خزرج وقال انه قارب الثمانين في عمره وترجم له ابن بشكوال ولم يذكر تاريخ وفاته .

احمد الداودي

٤٠٢ هـ ـ ١٠١١ م

هو شيخ الاسلام وامام علماء الشريعة المجتهدين الشيخ ابو جعفر احمد بن نصر الداودي التلمساني ، اصله من مدينة المسيلة وقيل من بسكرة وسكن طرابلس الغرب طلباً للعلم ثم نزل تلمسان فاقام بها الى وفاته وبها الف كتابه الذي حاز به الفضل على غيره من جميع من تقدمه او تأخر عنه من علماء الاسلام ، الا وهو شرحه لصحيح الامام البخاري المسمى بالنصيحة ، فانه اول شرح وقع لهذا الكتاب الجليل اذ لم يسبقه غيره مطلقاً الى هذا الفضل ، وله كتب جليلة اخرى في الحديث والفقه كثيرة اهمها بعد شرحه على البخاري ، كتاب النامي شرح به موطأ مالك ، وكتاب الواعي في الفقه ، والايضاح في الرد على القدرية الخ ... وله من التلاميذ والمريدين كثير منهم ابو بكر بن محمد بن ابي زيد ؛ وعبد الملك البوني وغيرهما . توفي رحمه الله بتلمسان القديمة سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١ م ودفن شرقي باب العقبة ، وضريحه مشهور بها ، ويقول ابو راس المعسكري ان وفاته كانت في آخر القرن الرابع ، وذكره الشريف العلمي في نوازله وقال عنه انه توفي بتلمسان سنة ٤٤٢ هـ - ١٠٥٠ م ? ... وعده ابن فرحون من اهل الطبقة السابعة .

جدول تاريخي

٣٦١ ـ ٤٤٢ هـ = ٩٧٢ ـ ١٠٥١ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وابرز الاحداث
٣٦١ هـ = ٩٧٢ م	تولية الامير بلكين على المغرب العربي .
٣٦٣ هـ = ٩٧٤ م	زحف بلكين على المغرب الاوسط ـ الجزائر .
٣٦٩ هـ = ٩٨٠ م	القضاء على ثورة زناتة .
٣٧٣ هـ = ٩٨٤ م	وفاة بلكين وولاية ابنه المنصور .
٣٧٨ هـ = ٩٨٩ م	القضاء على ثورة أبي الفهم الكتامي وقتله .
٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م	خيبة أبي البهار في ثورته بتاهرت وولاية يطوفت عليها وحماد على آشير .
٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م	استئصال كتامة .
٣٨١ هـ = ٩٩١ م	انتصار زيري بن عطية على الجزائر وبثه للدعوة الاموية .
٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م	انشاء مدينة وجدة .
٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م	وفاة المنصور وولاية ولده باديس .
٣٨٩ هـ = ٩٩٩ م	سقوط أعمال تيهرت وتلمسان بيد الحاجب الاموي .
٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م	استئصال زناتة على يد حماد .
٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م	تأسيس مدينة القلعة الحمادية .
٤٠٧ هـ = ١٠١٧ م	اختلاف حماد على باديس ووفاة الامير وولاية ابنه المعز .
٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م	رد هجمات زناتة .
٤٣٢ هـ = ١٠٤١ م	حصار القلعة والافراج عنها ـ بعد سنتين ـ وانفصال مملكة الجزائر عن ولاية افريقية .
٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م	رفض الدعوة الشيعية والتمسك بمذهب الامام مالك .
٤٤٢ هـ = ١٠٥١ م	الزحف الهلالي .

الدّولة الحمّاديّة

٤٠٥ ـ ٥٤٧ هـ

١٠١٤ ـ ١١٥٣ م

نشأتها

هي ثاني دولة مسلمة جزائرية نظامية تأسست بهذه البلاد ، انشأها ذلك البطل الداهية مؤسس القلعة حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي ، فهي اخت دولة صنهاجة الشرقية غير انها كانت متقدمة عن اختها في الاستقلال ورفض التشيع والدعوة الى الخلافة العباسية ببغداد ، وذلك ما كان سبباً في نشوب ما تقدم ذكره من الحروب بين حماد وباديس ، ثم بين المعز وحماد ، كما علمته فيما ذكرناه من تاريخ دولة صنهاجة الزيرية ؛ وانتهى الامر باستقلال حماد بمملكة الجزائر سنة ٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م .

كان ابتداء ظهور شخصية حماد وتألقها في عالم الحكم وميدان السياسة منذ سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م حيث ولاه الامير باديس اعمال الجزائر الشرقية واقطعه مدينة آشير ونواحيها ومنحه لقب نائب الامير بتلك النواحي ، ولقد اظهر حماد في ولايته هذه مقدرة عظيمة في السياسة والبطولة الحربية وقيادة الجيش ، وخاصة ايام ثورة الاخوين ماكسن وزاوي سنة ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م . وفي قضائه على زناتة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م فطمحت نفسه يومئذ لانشاء مملكة جزائرية مستقلة ، فأنشأ القلعة سنة ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م واتم

تحصينها في عامين كما مر بيانه ومكث بها منازعاً لباديس في حكم الجزائر فاستحكم بينهما الشقاق الى ان اظهر حماد الانفصال عن دولة باديس ونقض البيعة سنة ٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م واعلن سلطته على الجزائر ؛ وانقسم يومئذ بنو زيري الى فرقتين : فرقة بني حماد بالقلعة وفرقة بني باديس بالقيروان فكانت هنالك حروب وخطوب بين عاهلي صنهاجة وكان النصر فيها سجالا ثم كانت الموادعة والصلح بينه وبين المعز فتسالما مدة اربع وعشرين سنة ، ثم تغير عليه المعز سنة ٤٣٢ هـ - ١٠٤٠ م فحاصره بالقلعة ثم عدل عنه وتركه لشأنه فتفرغ يومئذ حماد لاقامة دعائم ملكه واشادة سلطانه .

يقول لسان الدين بن الخطيب في وصف حماد هذا بانه كان نسيج وحده ، وفريد عصره ، وفحل قومه ، ملكاً كبيراً ، وشجاعاً ثبتاً ، وداهية حصيفاً ، وكان من اكمل الملوك ؛ قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل . وحدثوا عنه انه قال ما تداهى علي احد قط ولا خدعني الا امرأة وكعاء من البربر ! ... في قصة وقعت له حكاها البكري في مسالكه [١] .

كان مقر حماد تارة بالقلعة وتارة بآشير ، ويغلب عليه المكث بالقلعة وهكذا استمر في سلطانه الى ان وافاه اجله بالقلعة وقيل بمكان اخر يقال له « تازمرت » وذلك في شهر رجب ، سنة ٤١٩ هـ - ١٠٢٨ م وتولى مكانه ولده القائد .

نظامها الحكومي

شكلها السياسي ملكي وادارتها حرة مستقلة تحت اشراف رئيسها الاعلى الامير او الملك كما شئت فسمّه ، ولقد كان للمملكة عاصمتان ، القلعة اولاً ثم بجاية ، واعضاء الدولة يومئذ هم الوزراء والعمال المنبثون في اهم مراكز القطر الجزائري كقسنطينة وبونه - عنابة - والجزائر ، واشير ، والقلعة ،

---

(١) راجع المسالك والممالك ص ١٨٧ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

وجيجل ، ومرسى الدجاج – ما بين ازفون وبجاية – ونقاوس الخ ... ولادارة ارض الجنوب جماعة من المحنكين تتصرف فيها تحت رعاية الملك الحمادي ، وعاصمة الجنوب يومئذ مدينة بسكرة . اما الجيش فهو متجمع من جميع بلاد الجزائر ، ولقد بلغ عدد فرسان القلعة فقط ايام الناصر اثني عشرة الف فارس ، عدا المشاة . وللحكومة اسطول ضخم كله من صنع دار الصناعة ببجاية ، وخزينة الحكومة غنية بمواردها من المغنم والخراج وغير ذلك من الموارد الشرعية . وقد خصصت لها ادارة خاصة ، اما النقود فانها لم تكن مسكوكة باسم هذه الدولة الا في عصر الملك المنصور بن الناصر بن علناس ، ويرجع نظام القضاء عندهم غالباً الى مقتضى سير مذهب الامام مالك ، وكانت صلاة الامير في المسجد في مقصورة خاصة على سنة الملوك وشارة السلاطين .

حدود الجزائر الحمادية

هي لا تتعدى حدود عمالتي الجزائر وقسنطينة المعهودة اليوم تقريباً وتمتد في الجنوب الى بني وارجلان – وارقلة – ويذكر المراكشي ملك بني حماد فيقول : انهم كانوا يملكون من قسنطينة المغرب الى موضع يعرف بسيوسيرات بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل [1] ويقول ابن خلدون : ان حماد اقتطع ممالك الغرب لنفسه ما بين جبل أوراس الى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها ، واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري واستحدث ملكاً آخر قسيما للملك آل باديس [2] ويجاورها غرباً دولة المرابطين ومواطن زناتة ، وشرقاً مملكة بني زيري الصنهاجية .

وهكذا كانت بلاد الجزائر في مستهل القرن الخامس الهجري – اوائل الحادي عشر الميلادي – مقسمة كلها بين امراء البربر .

---

(١) المعجب للمراكشي ص ٢٥٧ ط ليدن ١٨٨١ م .

(٢) المقدمة ص ١٤٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

الامير القائد بن حماد

تولى مملكة الجزائر سنة ٤١٩ هـ - ١٠٢٨ م وكان مثل والده في الحصافة وحسن الرأي والتدبير ذا دراية بشؤون الادارة عظيم القدر محترماً في قومه استقام له الامر عندما اشتغل عنه المعز بن باديس بما دهمه من زحف الاعراب .

حملة الجنويز على بونة

اشتدت شوكة المسلمين على النصارى بسواحل هذا البحر وجزره ، فاتحدت يومئذ امم النصرانية مع الجنويز وسكان بيزة من الامة الطليانية ، وحملوا بتهور عنيف سنة ٤٢٥ هـ - ١٠٣٤ م على مركز الاسطول الاسلامي الجزائري ببونة فدمروا المرفأ وتركوا المدينة خراباً .

خيبة امير المغرب الاقصى في حملته على الجزائر

تحرك حمامة بن زيري المغراوي من مركز امارته بالمغرب الاقصى زاحفاً بجيوشه الجرارة الى الجزائر سنة ٤٣٠ هـ - ١٠٣٨ م فردته جيوش القائد بن حماد عن الحمى وظهرت عليه بحيلة حربية فاذعن حمامة يومئذ لبذل الطاعة والصلح .

رفض دعوة بني عبيد الشيعية

وبعد ان اطمأن القائد وزالت الوحشة وارتفعت الاحن التي كانت بينه وبين المعز ، عاد الملك سنة ٤٣٢ هـ - ١٠٤١ م الى رفض الدعوة الشيعية مقلداً في ذلك والده حماداً ودعا مثل ابيه الى الخلافة العباسية ، فنهض المعز الى مقاتلته فحاصره بالقلعة وأشير واطال حصاره سنتين ثم كانت هدنة .

وفي سنة ٤٣٩ هـ - ١٠٤٧ م تظاهر القائد باظهار الطاعة لبني عبيد فاكتسب بذلك مودة البلاط الفاطمي وحاز رضاء الخليفة عنه فأنعم عليه بلقب

شرف الدولة ، وكان القائد يريد بذلك تأكيد حريته واستقلال بلاده ، وان منزلته السياسية بالجزائر لا تقل رتبة عن المعز بافريقية ، ولما بلغ مبتغاه وحاز على مراده من عدوه ومنافسه انقلب على الفاطميين ونقض بيعتهم وعاد الى مبايعة الخلافة العباسية وبقي على ذلك الى وفاته في شهر رجب او ذي القعدة سنة ٤٤٦ هـ — اكتوبر ١٠٥٤ م فخلفه ولده محسن .

الامير محسن بن القائد

تسلم زمام الملك اثر وفاة والده سنة ٤٤٦ هـ — ١٠٥٤ م وكان شبيهاً به في اخلاقه وسجاياه ، غير انه كان شديداً قاسياً ، وكان فيما اوصاه به والده ان لا يخرج من القلعة ثلاث سنوات وان لا ينازع اعمامه في مناصبهم ، فخالف محسن ذلك كله ، فثار ضده عمه يوسف واستحكم الخلاف بينهما ونهضت الشحناء فقتل اربعة من عمومته ، ويومئذ ابتنى عمه يوسف قلعة بجبل منيع سماها الطيارة وزحف منها اواسط القرن الخامس الهجري فخرب مدينة آشير واستباح اموالها .

تزاحم آل حماد

حاول محسن الانتقام من عمه يوسف فجهز جيشاً لمقاتلته وجعله تحت امرة بلكين بن محمد بن حماد ، قاصداً به الغدر ايضاً فجعل في مؤازرته رجلين هما من سادة العرب موعزاً اليهما بقتله فتفطن بلكين للمكيدة فعمد الى الاحسان اليهما وغمرهما باكرامه وافاض عليهما من انواع البر والجود ما حول نظرهما اليه فعدلا عن الفكرة المبيتة واخبراه بما امرّ لهما الامير محسن فزادهما ذلك عنده شرفاً ورفعة ويومئذ تآمروا جميعاً على اغتيال الملك ورجعوا الى القلعة ولم يكن بها محسن ، ولما اتصل بخبر رجوع القوم ومعهم بلكين وكان يظن انه قد مات ؛ أخذ يسير الى القلعة فادركه بلكين وقتله في ربيع الثاني ٤٤٧ هـ — جوليط ١٠٥٥ م واحتل المدينة ليلاً ودعا فيها لنفسه فأذعن له القوم وبايعوه .

الامير بلكين بن محمد بن حماد

اشتهر بلكين هذا بالبطولة والشهامة والنجدة والفتوح ، وكان جريئاً سفاكاً للدماء ذا ارادة وعزيمة جبارة مؤثراً للعزلة والانفراد عن الناس مولعاً بالادلاج كثير الغارات ، وكان لا يخرج الا دارعاً ولكثرة غزواته ابغضته الرعية وانحرف عنه عمال بسكرة من آل رومان فنكل بهم وقتل أميرهم جعفراً سنة ٤٥٠ هـ – ١٠٥٨ م وعاقبهم عقوبة مؤلمة ، وجعل أمر بسكرة بعدهم لبني سندي من أهلها الى ان انقرضت دولتهم .

الزحف الى المغرب الاقصى

لقد اكثر بلكين من زحفه على المغرب الاقصى حتى استولى على عاصمته فاس في صفر ٤٥٤ هـ – فيفري ١٠٦٢ م وقاتل هنالك المصامدة وأخرج منها يوسف بن تاشفين منهزماً الى الصحراء واوغل بلكين في ديار المغرب .

اغتيال بلكين

بالغ بلكين في الغلظة والجفاء من قومه واخافة اقرانه واقاربه وغلا في الحذر منهم فقتل وسفك دماء الكثير ممن حامت حولهم الشكوك والظنون ، وكانت من بين هؤلاء القتلى زوجته « تاضميرت » ابنة عمه واخت الناصر بن علناس ، وكان قتله لها بتهمة انها مالأت على قتل اخيه مقاتل بن محمد فحقد عليه اخوها هذا واضمر الانتقام منه وكتم غيضه الى ان واتته الفرصة يوم ان عاد بلكين من غزو المغرب الاقصى سنة ٤٥٤ هـ – ١٠٦٢ م فدخل عليه الناصر في مجلس انسه وطربه في جماعة من صنهاجة فقتلوه يوم الخميس منتصف شعبان – ٢٤ اوط .

الامير الناصر بن علناس

هو من اشهر ملوك هذه الدولة واعظمهم شأناً واعلاهم كعباً واثبتهم قدماً في الملك ، كان جواداً كريماً وشجاعاً كمياً ، سفاكاً للدماء وفي ايامه

استفحل ملك بني حماد وشف على غيره من ممالك الشمال الافريقي ، كان اول ما تولى الملك مقيماً بالقلعة ، ثم استوخمها وكره المقام بها فابتنى لاقامته قصوراً شامخة خارج القلعة فسكن بها واحتفل بالمسجد الجامع فاشاده من جديد . قال ابن خلدون : وفي ايام الناصر هذا فاعتز آل حماد هؤلاء وعظم شأن ايامهم فبنى المباني العجيبة المونقة ، وشيد المدائن العظيمة ، وكان استفحال ملكهم وشفوفه على ملك بني باديس اخوانهم بالمهدية[1] .

القضاء على بني رومان ببسكرة

كانت ولاية بسكرة في آل رومان يتوارثونها بينهم تحت رعاية ونفوذ الحماديين فلما قتل بلكين بن محمد اعتلاهم التطاول على الناصر بن علناس فخرجوا عن طاعته فجهز اليهم الملك وزيره خلف بن حيدرة فقضى عليهم وعلى مناصريهم ممن آزرهم في هذه الثورة واسر رؤساءهم فحملهم معه الى القلعة فصلبوا فيها جميعاً ، ويومئذ انتقلت ولاية بسكرة من بني رومان الى اسرة عروس من بني سندي وبقيت هذه الامارة فيهم الى نهاية دولة بني حماد .

وقعة سبيبة والزحف الهلالي

لم يظهر لبني هلال اثر في الجزائر الى ان حالف الملك الناصر قبيلة الاثبج الهلالية سنة ٤٥٧ هـ – ١٠٦٥ م وخرج لامتلاك تونس فيومئذ تمالأ الحلفــــاء من الاثبج مع قومهم رياح وزغبة وزناتة ايضاً ضد الناصر ، وخرجت جيوش تميم بن المعز لرد الحملة الناصرية فكان هؤلاء جميعاً يداً واحدة على الناصر ، وكان اللقاء بفحص سبيبة غربي القيروان وعلى نحو الخمسين كيلومتراً جنوب الاربس فانهزم الناصر وقتل من جيشه اربعة وعشرون الفاً واستشهد اخوه القاسم ، فاضطر الى التقهقر والرجوع الى الجزائر ونجا الى قسنطينة فتبعه الهلاليون واقتحموا عليه المدينة فاستولوا

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٤ بولاق ١٣٨٤ هـ

عليها وعلى القلعة والمسيلة وطبنة وهم مع ذلك ينهبون ويخربون فتركوا البلاد بلاقع ! والديار خراباً ! ... ثم تلاحقت طوائف الاعراب باحلافهم الهلاليين الى الجزائر من طريق سبيبة ودخلوا تبسة وانتشروا في جنوب اوراس وقرى الزاب وسلكوا طريقهم ما بين الاطلسين التلي والصحراوي حتى انتهوا الى وادي الساحل وجبال البيبان وانحدر منهم آخرون من نواحي باجة فظهروا بنواحي القالة وبونة وقسنطينة الى القل وجبال بابور ويومئذ احيطت مدينة بونة الحديثة (هي على ثلاثة اميال من القديمة) بسور ؛ وكيفما كان الامر فان اضطرار بني هلال بالجزائر لم تبلغ مبلغها بتونس وطرابلس وذلك حيث ان الجزائر لم تكن مقصودة من الحملة بالذات .

اخفاق المنتصر الزناتي في هجومه على الجزائر

ما كادت تلتئم جراحات حوادث سبيبة والهجوم الهلالي على الجزائر حتى فاجأهـــا المنتصر او المستنصرين خزرون الزناتي بهجومه ايضاً فخرج بقومه من طرابلس الغرب وحمل على المسيلة واشير طمعاً في استرجاع ما كان لاجداده من الملك والسلطان بالحضنة فاجلاه الناصر يومئذ الى الصحراء ثم اعاد الزناتي هجومه على القلعة الحمادية واوغل بتلك النواحي فاكثر فيها الفساد ، فصالحه الناصر على تسليم مقاطعة الزاب وريغة لزناتة واوعز الى عامله على بسكرة عروس بن سندى باغتيال المنتصر فأقام العامل مأدبة في داره واستدعى اليها المنتصر وقتله بواسطة بعض الخدم عند انكبابه على الطعام وذهب برأسه الى الناصر فنصبه ببجاية ونصب الجثة بالقلعة سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٦٨ م وحمل الحماديون يومئذ على امارة زناتة فقضوا عليها وقتلوا رؤساءها واحتلوا مدينة بني وارجلان - وارقلة - وحطموها .

انشاء مدينة بجاية

تشاءم الملك الناصر كثيراً لحوادث الهلايين بتونس والجزائر وخاصة ما اصبحت عليه عواصم القطر الجزائري باعمال القلعة وقسنطينة من التدهور

والانهيار ، فكان كثير التفكير في انشاء مدينة حصينة لسلطانه ، وندم على ما فرط منه في محاربة ابن عمه تميم بن المعز الصنهاجي وهجومه على مملكته فسرعان ما اظهر رغبته في حقن الدماء وعقد المدنة . فجاء يومئذ سفير تميم ووزيره محمد بن البعبع الى القلعة لابرام وثيقة الصلح ، وكان مروره في طريقه الى القلعة على ضيعة صغيرة كانت لصنهاجة تدعى « بجاية » وهو اسم للقبيلة البربرية التي تسكنها وهي على مقربة من مدينة « صلداي الفينيقية » فاعجب بمركزها الطبيعي الجميل وموقعها الجغرافي الحربي المنيع ، فلما اتصل بالناصر اخبره بما رآه في طريقه من حسن موقع بجاية وحصانتها من هجوم العدو وانها صالحة لان تكون عاصمة ملك بني حماد نظراً لمناعتها واهمية خليجها الفسيح الذي يسع اسطولاً ضخماً ، فخرج الناصر حينئذ بنفسه الى هذه الناحية لتحقيق ما اشار به السفير فوجد فيها ضالته المنشودة فشرع في تأسيس العاصمة الحمادية الثانية « بجاية » بذلك المكان سنة ٤٦٠ هـ – ١٠٦٧ م ثم انتقل اليها في السنة بعدها وسماها « الناصرية » باسمه واسقط عن سكانها الجباية والخراج ، وانشأ بها دارين لصناعة المراكب والسفن واساطيل القتال واقام بها من العمارات والصناعات والفنون ما جعلها قبلة اهل الشرق والغرب .

ثورة عاملي المدية والشلف

كانت ولاية أعمال المدية وشلف على عهد الناصر لرئيسين من بني سنجاس فالمدية لابي الفتوح بن حنوش ، وشلف لمعنصر بن حماد فخرج الاول عن طاعة بني حماد فقتله الناصر وهجم الثاني على مدينة مليانة وقتل من بها من المشيخة والرؤساء من بني ورسيفان المغراويين ، فاستأذن يومئذ سكان مليانة في قتال معنصر فأذن لهم الناصر فقتلوه وبعثوا اليه برأسه وهو ببجاية فوضعه الى جنب المنتصر الزناتي .

امتداد المملكة الحمادية

كثر عيث الاعراب الهلاليين بنواحي تونس فاضطر أهلها الى الالتجاء

الى عاهل الدولة الحمادية بالقلعة الناصر بن علناس ، فوفد عليه سنة ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م وجوه أهل تونس وزعماؤها مذعنين اليه بالطاعة ومستغيثين به من هؤلاء الخرّاب ! ... فأقبل عليهم وأكرمهم وولى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان ، وسرعان ما جاهر هذا العامل بالعصيان والاستقلال عن دولة بني حماد ، فخرج الناصر الى ولاية تونس في حلفائه العرب سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٦٧ م فاحتل مدينة (الاربس) وقتل عاملها ابن مكرز وأمن أهلها ثم نزل بالقيروان فمكث بها سنة كاملة وأخيراً عاد الى الجزائر مخافة اضطراب حبل الرعية وفسادها عليه ، فتأسست حينئذ دولة بني خراسان بتونس ولم يكد يمضي على انشائها مدة قرن واحد حتى قضى عليها الموحدون .

مصاهرة عاهلي صنهاجة

بعدما أتم الناصر تأسيس عاصمته الجديدة « الناصرية » - بجاية - واستقر بها واطمأن على بلاده خطب الامير تميم بن المعز ملك المهدية في بنته بلارة توثيقاً لعرى المودة والصداقة بين المملكتين المتجاورتين وتأكيداً لروابط الاوشاج العائلية بين الامرتين ، فزوجها أبوها منه سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م وجعل الناصر لها ثلاثين الف دينار صداقاً ، فلم يقبل منها الامير الا ديناراً واحداً كمهر شرعي فقط ورد الباقي على الناصر ، وسار موكب العروس من المهدية الى بجاية في ابهة وبهجة تحف به الجنود والسادة والاشراف يحملون معهم جهاز العروس الفخم من حلى وحلل ... وكان اقتبال الموكب ببجاية اقتبالاً باهراً ، وانزلت العروس بقصرها الخاص الذي انشأه الناصر باسمها « قصر بلارة » .

خيبة عجيسة في تمردها

عجيسة اسم لقبيلة من بربر الجزائر تسكن ما بين سطيف والقلعة ؛ كانت تترقب مفترصة غفلة الملك لاعلان ثورتها ضد السلطة الحمادية ، حتى

سنح لها ذلك يوم خروج الناصر لتفقد مملكته ؛ فوثبت على القلعة برئاسة قائدها علي بن ركلان وكان الناصر يومئذ بالمسيلة ، فانبرى الى هؤلاء الثوار فدحرهم وقضي عليهم ؛ وانتحر رئيسهم ابن ركلان .

المرابطون في الجزائر

ما كان لدولة المرابطين ان تتجاوز وتصفح عن حملة الحماديين على المغرب الاقصى سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م وما كانت لتنسى كذلك انهزام حكومة فاس يومئذ الى الصحراء فبقيت تعمل في الخفاء على الانتقام وتستعد للهجوم حتى تيسر لها ذلك في سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٧٩ م فنهض القائد اللمتوني مزدلي بن بكلان على رأس عشرين الف مقاتل زاحفاً على المغرب الاوسط فبلغ تلمسان فعاث بنواحيها ثم عاد الى مركزه من المغرب الاقصى ولم تمض سنة بعد ذلك حتى فاجأ المرابطون مدينة تلمسان فأخرجوا منها أمراء بني خزر الزناتيين واستولوا عليها وضربوا بها العملة .

وفي سنة ٤٧٤ هـ - ١٠٨١ م زحف الامير يوسف بن تاشفين نحو الجزائر فابتنى محلته الشهيرة بتاقرارت في ضواحي تلمسان ليجمع فيها جنوده وعتاده ، ومنها توجه الى وهران ففتحها ثم الى تنس وجبال وانشريس وأعمال شلف متتبعاً مواطن زناتة حيثما كانوا حتى أتى على جميع أماكن مغراوة فبلغ الى جدران مدينة الجزائر ، ثم أحجم ورجع الى حضرته فدخل مراكش في ربيع الثاني ٤٧٥ هـ - سبطمبر ١٠٨٢ م فكان ملك المرابطين يومئذ بافريقية من مدينة الجزائر شرقاً الى طنجة غرباً الى آخر جبال السوس الاقصى والى جبال الذهب من بلاد السودان ، وانحازت يومئذ المملكة الحمادية بالجزائر الى الشرق .

وفاة الناصر بن علناس

كانت وفاة الناصر يوم الجمعة سابع جمادي الاول ٤٨١ هـ - فاتح شهر اوط ١٠٨٨ م وذلك بقصره خارج بجاية فحمل منه الى العاصمة

الحمادية فدفن بها بعد ان قضى نحو ربع قرن على رأس المملكة الجزائرية ، وكان عصره من ازهر ايام بني حماد .

الامير المنصور بن الناصر

نشأ المنصور عزيز النفس شهماً انوفاً ابياً ، محافظاً متسماً باوصاف الكمال ذا خصال شريفة اديباً كاتباً يقول الشعر ويرويه ، تولى عرش الجزائر بعد وفاة والده سنة ٤٨١ هـ - ١٠٨٨ م فساس الرعية بحكمة وحصافة ، واتم ما اختطه اسلافه من برامج العمل لخير الحكومة والشعب فاشاد المصانع والقصور واعتنى بالري والزراعة فاجرى المياه وامر بغرس البساتين والحقول ، وكان من آثاره بالقلعة قصر الملك وقصر المنار وقصر الكوكب وقصر السلام ؛ وبعد انتقاله الى بجاية سنة ٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م انشأ بها قصر اللؤلؤة وقصر اميون ، وشيد جامعها الأعظم وهو مع ذلك في نفسه يميل الى التقشف والزهد يخصف نعليه تارة بيده ويرقع ثيابه بنفسه واليه يعود الفضل في تمدن مملكة بني حماد .

تمرد عامل قسنطينة

كانت ولاية قسنطينة تحت ادارة بلباز عم المنصور ، فحدثته نفسه يوماً بانتقاض العهد وخفر الذمة ؛ فرماه المنصور بقائده ابي يكنى فقبض عليه ودفعه الى القلعة اسيراً وجلس هو مكانه وجعل اخاه ويغلان على ولاية بونة - عنابة .

دلس الاندلسية

كانت ولاية المرية بالاندلس للمعتصم بن صمادح - احد ملوك الطوائف - فلما بلغه استيلاء المرابطين على اشبيلية مات غماً وترك ولده معز الدولة بن صمادح والياً على المرية فاستولى عليها المرابطون ايضاً سنة ٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م ويومئذ ارتحل بن صمادح بأهله وماله من الاندلس ملتجئاً الى

الجزائر وذلك بعد ان اوفد احمد بن عبد العزيز بن عيشون الى المنصور يخطب اليه جواره ففسح له في البلاد وخيره في اقطارها فنزل على الملك المنصور بجباية ؛ فاقطعه احواز مدينة دلس فاصبحت هذه المدينة بعد ذلك بفضل عمل هذه الجالية الاندلسية مركزاً ثرياً ؛ فكان فيها كما يقول الادريسي : الديار والقصور والمنتزهات ؛ وبها من رخص الفواكه والاسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله ؛ كما يوجد بها الكثير من البقر والغنم ؛ وتباع جملتها بالاسعار اليسيرة ويخرج من ارضها الى كثير من الافاق .

ثورة أبي يكنى

هو ابو يكنى بن محسن بن القائد بن حماد احد قادة المنصور وقرباه تولى على قسنطينة بعد ظفره بعم المنصور بلباز الثائر ؛ فاستبد بالامر واعلن عصيانه سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م وبعث باخيه ويغلان عامل بونة الى تميم بن المعز امير المهدية يستجيشه في مقابلة تسليم ولاية بونة ؛ فاستجاب له تميم وبعث معه ولده ابا الفتوح واخذا معاً في استنصار المرابطين ومن حولهم من الاعراب ؛ وبينما هم جميعاً في تدبير غزو المنصور حتى فاجأتهم جيوشه فاحاطت بمدينة بونة واحدقت بها من جميع جهاتها طيلة سبعة اشهر ثم هاجمتها وقبضت على ابي الفتوح فاعتقلته بالقلعة ؛ وتقدمت الى حصار قسنطينة ففر امامها ابو يكنى الثائر مختفياً بقلعة في جبل آوراس ؛ مستخلفاً عنه صليصل بن الاحمر احد رؤساء قبيلة الاثبج العربية ؛ وسرعان ما نزل صليصل عن قسنطينة مذعناً للمنصور ثم داخله فلبى تمكينه منها على مال يبذله ففعل ، وواصله باموال ولم تزل الجنود الحادية في اثر ابي يكنى حتى ظفرت به في معقله فاقتحمته عليه وقتلته وجملت ولاية قسنطينة يومئذ للحسن بن العزيز .

سقوط آشير بيد المرابطين

لم تزل دولة المرابطين تترصد غرة من حكومة بني حماد لاستكمال

الفتح بالجزائر حتى سنحت لها فرصة اشتغالها بثورة ابي يكنى وتفرق جنودها في هذا المجال فاحتل المرابطون يومئذ مواطن صنهاجة الغربية بالجزائر وتحصنوا بها فاجلاهم عنها المنصور ، ثم عقدت المدنة والصلح بينه وبين يوسف بن تاشفين ؛

واعاد المرابطون بعد ذلك غزوهم للجزائر بقيادة محمد بن تينمار فردهم عنها عبد الله بن المنصور وكانت الوقائع حول مدينة الجزائر شديدة فحوصرت المدينة يومين ، ثم كان سقوط مدينة آشير بايديهم سنة ٤٩٥ هـ - ١١٠١ م فدمروها تدميراً وبقيت كذلك الى ان اعاد اشادتها بنو حماد .

انكسار شوكة المرابطين بتلمسان واخضاع العصاة

لم يكد يهدأ روع المنصور بما اوقع بمملكته المرابطون ، حتى خرج بنفسه لقتالهم في شوال سنة ٤٩٦ هـ - جوليط ١١٠٣ م وحمل عليهم حملة شعواء بتلمسان في عشرين الف مقاتل ، فكثر يومئذ عدد القتلى والجرحى وكسرت شوكة المرابطين فهزموا عن تلمسان الى تسالة ودخلها المنصور في جنده فعاث فيها جيشه وعظمت المحنة باهلها ، فخرجت يومئذ زوجة والي المرابطين مستعطفة المنصور ومستعتبة ، فتأثر الملك لمنظرها الحزين وانكبابها على قدميه ، فتجافى عنهم وابقى عليهم . وتم السلم بين المملكتين المتجاورتين ثم قفل المنصور عائداً الى عاصمته . فعرج على القلعة فنزل بها مثخناً في قتال زناتة بنواحي الزاب ؛ ثم انتقل الى وطن زواوة فناجز العصاة من بني عمران وبني تازروت واهل المنصورية وجمعة الصهريج والناظور . ثم لم يكن هناك من الاحداث بالجزائر ما يستحق الذكر الى وفاته سنة ٤٩٨ هـ - ١١٠٤ م .

الامير باديس بن المنصور

يكنى بابي معد ، تملك بعد وفاة والده في شهر ربيع الثاني ٤٩٨ هـ -

ديسمبر ١١٠٤ م ، واشتهر من بين ملوك هذه الدولة بشدة الشكيمة والبأس وسرعة الغضب والبطش وسفك الدماء ؛ ولم يصلنا عنه من الاعمال ما يستحق التدوين الا ما كان من قبيل التولية والعزل ، فانه اكثر من ذلك الى حد الاضطراب وعدم التثبت . فعزل اخاه العزيز عن ولاية الجزائر ونفاه الى جيجل وقتل وزير والده عبد الكريم بن سليمان ونكب بعامل بجاية ورمى ببعض الصالحين الى الاسود وتوعد امه بالقتل ! ... الى غير ذلك مما شاكل هذه الاعمال السوداء .

ولم تطل مدته ، اذ توفي من سنته في الثالث عشر من شهر ذي القعدة ٤٩٨ هـ ٢٧ اوط ١١٠٥ م . وتولى بعده اخوه العزيز الذي كان مغرباً بمدينة جيجل معزولاً عن ولاية الجزائر .

الامير العزيز بالله بن المنصور

كان يلقب بالميمون لولادته ليلة ولاية ابية المنصور ٨ جمادى الاولى ٤٨١ هـ ٢ اوط ١٠٨٨ م وبويع بالملك وهو في منفاه بجيجل آخر سنة ٤٩٨ هـ - ١١٠٥ وكان اول من بايعه هو قائد الاسطول الحمادي علي بن حمدون فتولى الملك يومئذ وسنه سبع عشرة سنة ، وكان حازماً ماهراً جميل الصورة عارفاً بتسيير الدول والممالك . وكان من دهائه ان تزوج من بيوتات خصمائه زناتة ومن بيت الملك بالمهدية ، فبنى ببنت ماخوخ الزناتي اولاً ، ثم ببدر الدجى بنت يحيي بن تميم ملك المهدية ، سنة ٥٠٩ هـ - ١١١٥ م فأمن لحينه ثورات زناتة المتوالية ، وعداوة دولة صنهاجة ، وكثيراً ما كان يكاتب ملوك عصره في الآفاق متودداً ، فانتشر الامن ببلاده وساد الهدوء بين الناس ، ومن فرط شغفه بالعلم انه كان يحضر بنفسه مجالس المناظرة بين العلماء .

وعلى عهد العزيز هذا كان مقدم مهدي الموحدين من الشرق الى بجاية آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر (٥١٢ هـ - ١١١٨ م) فسعى به بعض الاقوام عند العزيز وائتمروا به فلما شعر بذلك خرج الى بني (ورياكل)

من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فاجاروه ، ونزل عليهم بملالة واقام بها اشهراً يدرس العلم ويعقد مجالس الوعظ فاجتمع اليه الناس ومالت اليه القلوب وطلبه العزيز فمنعوه وقاتلوا دونه الى ان رحل عنهم الى المغرب ، وفي المعجب للمراكشي قال : ان صاحب بجاية هو الذي أمره بالخروج عنها حين خاف عاديته ، قال وبضيعة (ملالة) هذه مسجد يعرف به وهو باق الى اليوم (٦٢١ هـ - ١٢٢٤ م) ولا ادري ابُني على عهده او كان ذلك بعده [١] .

رد عادية الاعراب عن القلعة

اغار الاعراب الهلاليون بحلفائهم على القلعة الحمادية سنة ٥١٢ هـ - ١١١٨ م فاوقعوا باهلها واكتسحوا المدينة فاهلكوها فخرج الى محاربتهم يحيي ولد العزيز ومعه القائد علي بن حمدون فنكلا بالعدو ووثبا عليه فخضع ثم عادا الى بجاية وكان مما سجله التاريخ من حوادث هذه السنة انتشار الوباء والقحط الشديد بالمغرب فبلغ ربع الدقيق بتلمسان عشرين درهما .

تمرد والي تونس

كانت ولاية تونس خاضعة لدولة بني حماد يديرها ولاة من بني خراسان ، ففي سنة ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م هلك عبد العزيز الخراساني وتولى مكانه ولده احمد فاستمر على الطاعة للدولة الى اوائل القرن السادس الهجري فاظهر شارة الملك والسلطان وخرج عن مألوف سيرة الولاة الى رفاهية الملوك والسلاطين غير مبال بالسلطة الحمادية ، فنازله العزيز سنة ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م حتى عاد احمد الى الطاعة والخضوع ، ويومئذ تقدم الاسطول الحمادي الى جربة فاحتلها ثم بعد ذلك بسنة كانت وفاة العزيز ٥١٥ هـ - ١١٢١ م فخلفه ولده يحيي .

---

(١) المعجب ص ١٢٩ ط ليدن ١٨٨١ م وابن خلدون ج ٦ ص ١٧٦ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

الامير يحيي بن العزيز بالله

كان اول ما ضربت العملة في تاريخ هذه الدولة ان ضربت باسم هذا الملك سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م ولم يحدثها احد قبله تأدباً مع الخلفاء العبيديين وكان مضروباً على الوجه الواحد من الدينار الذي احثه العزيز الحمادي هذا ؛ ثلاثة اسطر ودائرة ، فالدئرة مكتوب فيها هذه الآية الكريمة : (واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) والاسطر : الشهادتان ، وبعدها يعتصم بحبل الله يحيي بن العزيز بالله الامير المنصور ، وعلى الوجه الاخر دائرة مكتوب فيها بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاثة وأربعين وخمسمائة وفي سطوره : الامام ابو عبد الله المتقي لامر الله امير المؤمنين العباسي [١] . وكان يحيي فصيحاً كاتباً اديباً رصيناً مغرماً بالصيد واللهو منهمكاً في شهواته . وبه تم عقد ملوك بني حماد وانتهت دولتهم وتقلص سلطانهم .

غزو المهدية

لقد اصبحت البلاد التونسية تتساقط وتهوي مثل الشهب بايدي النورمان [٢] الواحدة تلوى الاخرى ، فتحرك الامير يحيي للذب عن حوزة الاسلام والمسلمين والدفاع عن جيرانه وبنى عمه وجلدته فغزا البلاد بجيوش جرارة جعلها تحت قيادة ابن المهلب ، فحاصر المهدية سنة ٥٢٢ هـ - ١١٢٨ م ثم انصرف عنها من غير طائل .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٧ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

(٢) م امة الشمال الاوربي هاجوا اوروبا الوسطى في القرن التاسع الميلادي واستولوا على قسم من شمال فرانسا الغربي لا زال ينسب اليهم الى يومنا هذا « نورماندي » ثم استولوا على جنوب ايطاليا وصقلية على الاخص ، وغزوا فيما بين القرن الثالث والخامس الهجري سواحل بلاد المغرب ، واشهر ملوكهم رجار الثاني (روجي) فانه حمى الحضارة الاسلامية ورجالها بصقلية فازدهرت في ايامه أيما ازدهار .

الاستيلاء على تونس

كان لاعتداء النورمان واستيلائهم على اطراف المملكة التونسية تذمر عظيم لدى سكان تلك النواحي ومنهم الاعراب المهاجرون ، فاجتمع لذلك وفد من هؤلاء وجاء الى الامير يحيى بن العزيز يشكو اليه حالة البلاد مع النورمان وسوء سلوك الامير الحسن بن علي الصنهاجي ، راغباً في بسط نفوذ سلطان بني حماد على تونس ، ووعده بالمدد والمساعدة على ذلك ان هو فعل ، وقد جاء معه بابنائه كرهائن توكيداً منه والحاحاً في الطلب ؛ فصادف ذلك من يحيى هوى في نفسه فاستجاب للوفد وأمر بتعبئة الجيش من مشاة وفرسان فامر عليهم كبير قادته مطرف بن علي بن حمدون واوصاهم بالتعفف عن الدماء .

خرج الجيش الحمادي من بجاية حوالي سنة (٥٢٢ - ٢٩ هـ) ١١٢٩ - ٣٤ م فحاصر المهدية ثم نكص عنها الى تونس فاحتلها ، وجلس على عرشها كرامة بن المنصور - عم الامير يحيى - وحمل صاحبها احمد بن عبد العزيز الخراساني باهله وولده الى بجاية ، وبقي كرامة بتونس والياً تحت اشراف دولة بني حماد الى وفاته بها ، فخلفه عليها اخوه ابو الفتوح بن المنصور ثم حفيده محمد فلم تحمد سيرته فعزله يحيى وولى مكانه عمه معد بن المنصور فبقي بها الى الزحف النورماني سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م فخرج منها معد الى بجاية .

وقعة زويلة

اعاد الحماديون غزو المهدية سنة ٥٣٠ هـ - ١١٣٥ م فهاجموها براً وبحراً واقاموا حولها نيفاً وستين يوماً ، فردهم عنها الاعراب حلفاء صنهاجة وكان ميدان القتال بينهم بظاهر زويلة - من ارباض المهدية - فانتصرت يومئذ دولة صنهاجة واستولت على مركبين من الطرائد الحمادية بعد قتل رئيسها فانهزمت البقية الى الجزائر .

اعتداء النورمان على الجزائر

لقد احفظ النورمان ذلك الهجوم المتكرر من دولة بني حماد على ولايتي تونس والمهدية فانتقموا منها سنة ٥٣٧ هـ - ١١٤٢ م بغزو مدينة جيجل فانتهبوها وبالغوا في خرابها واحراق دورها ، وكان من بين ما افسده النورمان بها قصر النزهة الذي اشاده الملك يحيي بن العزيز فوق جبل عيوف مشرفاً على المدينة تجاه البحر ، ولم ينج يومئذ من القتل والتلف بهذه المدينة سوى من اعتصم بقمم الجبال او آوى الى مكان سحيق ، ومنذ ذلك الوقت هجرت المدينة وابتنى اهلها بلدة حصينة باعلى جبل هنالك يبعد عنها بنحو ميل ، فاذا كان زمن الشتاء سكنوا الساحل واذا كان زمن الصيف وقت سفر الاسطول النورماني نقلوا امتعتهم وجملة بضائعهم الى الحصن الاعلى البعيد عن البحر .

واعاد النورمان غزو الساحل الجزائري سنة ٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م فاحتلوا في هذه المرة جيجل وبرشك وشرشال وتنس .

انهزام ملك المهدية الى الجزائر

ولما احدق الخطر بامير المهدية الحسن بن علي وشعر بالهزيمة امام النورمان وايقن بسقوط مملكته في ايديهم ارتحل عنها ودخلها العدو يوم الاثنين ١٢ صفر ٥٤٣ هـ - ٣ جوليط - ١١٤٨ م ، فرغب الحسن يومئذ في الالتحاق باهله الى الجزائر ورغب في الاتصال بابن عمه يحيي بن العزيز ملك بجاية ريثما يستعد للانتقال الى مقابلة ملك الموحدين بالمغرب الاقصى وبعث ببنيه الثلاثة الى يحيي ببجاية يخبره بغرضه هذا ويستأذنه في النزول عليه ؛ وجاء ابناء الحسن الى بجاية ، فاقتبلهم الوزير ميمون بن حمدون بالنيابة عن الملك واذن لهم بذلك في كتاب سطره الوزير الى ابيهم يحثه فيه على الاعراض عن رأيه في مقابلة عبد المؤمن ملك الموحدين والاقتصار في نزوله على الجزائر فقط وذلك خشية ما ينشأ عن اجتماعه بخليفة الموحدين من تدبير حول المملكة الجزائرية .

ولما اقترب الحسن من ارض الجزائر ندب اليه السلطان وزيره ميمون لاقتباله فامتنع ، وحينئذ امر اخاه القائد بن العزيز بالاستعداد الى لقائه في مشيخة البلد واعيانها وامرهم بالعدول به عن بجاية الى مدينة الجزائر فكان الامر كذلك فنزل الحسن بهذه المدينة في المحرم سنة ٥٤٤ هـ — ماي ١١٤٩ م ، وكان منزله فيها دون مقامه حيث جعل تحت الرقابة مضيقاً عليه الخناق ممنوعاً من التصرف مطلقاً ، واجريت عليه جراية طفيفة ، واستمر الحسن في معتقله هذا ، ولا نقول في موطنه الى ان دالت دولة بني حماد وسقطت بيد الموحدين سنة ٥٤٧ هـ — ١٢٥٢ م .

المذاهب والعقائد

كان عصر الحماديين اظهر العصور الاسلامية في تاريخ حرية الاديان واحترام العقائد بالجزائر منذ الفتح الاسلامي الى القرن الرابع الهجري ، اذ في عهدهم تأسست اول كنيسة بالقلعة سنة ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م يديرها قسيس من رتبة اسقف Evêque ، وفي سنة ٥٠٨ هـ — ١١١٤ م تأسست كنيسة مريم العذراء بادارة القسيس عزون المعروف عند العامة باسم الخليفة ، وقد ابتنى دار سكناه بجانب الكنيسة .

وبلغ الحماديون في التسامح الديني الى انهم كانوا لا يعترضون على المطارنة وكبار رجال النصرانية في توظيف من شاؤوا من القساوسة بمملكة الجزائر ، ففي سنة ٤٦٩ هـ — ١٠٧٦ م قدم مطران قرطاجنة قسيساً اسمه « سيرفاند » ليتولى اسقفية كنيسة بونة ، فلم يعترض عليه الناصر بل صادق على تعيينه وحمله رسالة ودية الى البابا « قريقوار السابع » وأصحبه بطائفة من الامرى المسيحيين الذين ظفر بهم الناصر بمملكته فأعتقهم وأكد البابا في رسالته انه مهما ظفر بأسرى آخرين الا وسعى في تحريرهم ، وجاءت يومئذ بعثة من رجال الكهنوت من طرف البابا الى بجاية تردد آيات الشكر والثناء معترفة بفضل الناصر ومنته على المسيحية ونقل عن الاب « ميشون » انه قال : ان من المحزن للامم المسيحية

ان يكون التسامح الديني الذي هو أعظم ناموس المحبة بين الشعوب هو ما يجب ان يتعلمه المسيحيون عن المسلمين .

اما الرعية المسلمة فانها كانت على مذهب الامام مالك تدرس الموطأ والمدونة والتلقين لعبد الوهاب بن علي البغدادي ، وعقيدتها هي عقيدة أهل السنة والجماعة .

الا ما شذ يومئذ من سكان جبال بجاية من أهل كتامة فانهم على مذهب الشيعة يكرمون من مال الى مذهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم . كما ان أهل جبل اوراس وباغاية واحدى مدن « بنطيوس » كانوا على رأي الخوارج ويعرفون بالواصلية أباضية المذهب ، اما أهل تهودة بالجنوب الشرقي من مدينة بسكرة فهم يومئذ على ما ذهب اليه أهل العراق من الأحناف واما أهل بسكرة نفسها فيقول عنهم البكري : ان ببلدهم هذا علماً كثيراً وانهم على مذهب أهل المدينة [1] .

الثقافة والحضارة والعمران

ان من ينظر الى تاريخ الجزائر في ايام حكومة بني حماد يجده من احفل التواريخ ثقافة وحضارة وعمراناً .

فقد كانت المدارس والمعاهد العلمية والمساجد حافلة بدروس العلم والمجالس العلمية ، وكانت المنح والجوائز الدولية توزع على العباقرة وأرباب القرائح المبرزين في كل علم وفن ، على مثال ما تصنعه الدول الراقية المعاصرة اليوم ، فازدحم يومئذ على معاهدها الكثير من العلماء والحكماء والاطباء والشعراء وأهل الفنون الرياضية والهندسية ، وأم عواصمها الكثير من جلة علماء الاندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم رغبة منهم في الاطلاع على تبحر عمرانها والاستيقاء من حضارتها كما استفادت الجزائر

---

(١) انظر البكري ص ٥٢ — ٧٢ — ٧٣ — ٨٢ — ١٤٤ — ١٤٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

منهم بدورها علمهم وثقافتهم الشرقية اللامعة ولقد بلغ من اقبال الناس على العلم يومئذ انه كان يجتمع على المدرس الواحد ما ينيف على المائة طالب ، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره ، فترى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لامانة العلم ، قال شارل سنيوبس في كتابه تاريخ الحضارة Histoire de la civilisation : كان أهل بيزا الايطاليون ينزلون مدينة بجاية في الجزائر فتعلموا من مصانعها صنع الشمع ، ومنها نقلوه الى بلادهم والى اوروبا ، ولا يزال مسمى الشمع عندهم بوجي Bougie وهو اسم بجاية في نطقهم الافرنجي . وبها تعلم الرياضي والمهندس الايطالي العظيم « اليونارفيوتشي » المولود حوالي سنة ٥٧١ هـ – ١١٧٥ م العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر والمقابلة وأدخلها الى اوروبا [١] .

ولقد عرف علماء الجزائر يومئذ منزلة الاختصاص في العلم فكانوا يجتهدون في التخصص في العلوم والتبريز فيها ، ولقد بلغ عدد المفتين في زمن واحد ببجاية تسعين مفتياً كما اشتهر فيها ابن النباش البجائي بالعلوم الفلسفية والطبيعية والحكمة والطب ، وكان يجيد المعالجة وتركيب الادوية .

واعجب من ذلك ! ان هناك من العوام واشباههم من كان يحفظ عن ظهر قلب امهات كتب الفقه والحديث كصحيح البخاري وموطأ مالك ومدونة سحنون وتلقين عبد الوهاب البغدادي ... فنشط العلماء لهذا التشجيع واقبال العامة عليهم فاكثروا من الكتابة في مختلف انواع العلوم والفنون [٢] وبفضل هذه الحركة العلمية والنشاط الادبي تقلص ضل

---

(١) ان اول من ادخل هذه الارقام العربية Les Chiffres arabes الى اوروبا هو البابا سيلفيسترا الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣ م) تعلمها بجامع القرويين بفاس حيث تلقى معلوماته هناك .

(٢) يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : واذا رجعنا الى القرن التاسع والعاشر (اي هذا العصر الذي نؤرخه) يوم كانت المدنية الاسلامية زاهرة باهرة ، نرى ان المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد اوروبا كانت عبارة عن مجموعة ابراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بانهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون ! ... وطال عهد الجهالة في اوروبا وعم تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم الا في القرن الحادي عشر ، وبعبارة اصح في القرن الثاني عشر م (السادس الهجري) .



منبر الجامع الكبير بالجزائر

اللغة البربرية الى الجبال والوهاد وانتشرت العربية في العوصم الجزائرية بين جميع طبقات الشعب [1].

واذا نظرنا نحو الجزائر الفنية وجدناها كذلك غنية بجمال صناعاتها الفنية الرائعة وحسنها الرائق البهيج ، فلقد دلتنا النصوص التاريخية والآثار الحفرية على انتشار فن التصوير والتزويق والنحت والنقش على الجص الملون وعلى الخزف المطلي والزليج المزين بالصور والفسيفساء وصنع القوورات الزجاجية وشبهها من الاباريق البلارية وتطعيمها بالذهب وتزيينها بالخط العربي البارز الجميل ، ولا يخفى ما يتطلبه كل ذلك من الادوات والالآت المتقنة والمواد المختلفة والخيال الواسع والذوق المرهف ...

كان بالقلعة خاصة معامل لنسج الاكسية واللبابيد والسجاجيد المزخرفة ، والملابس الفاخرة ؛ فكانت عمامة الملك وحدها دون بقية لباسه تبلغ قيمتها الى ستمائة دينار فاذا وضعت على رأس صاحبها باتقان كانت كأنها تاج مذهب .

اجتهد حماد في تعمير القلعة واكثر فيها من انشاء المساجد والفنادق والاسواق ، فاستبحر بها العمران وارتحل اليها طلاب العلم وهواة الفن والتجارة من الثغور والبلاد القاصية ، واستوطنها ارباب الصنائع والحرف لنفاق اسواقهم بها ؛ فكانت الرحال تشد اليها من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب .

وفي بجاية من المصانع والمعامل كثير ، ففيها كان يصنع الاسطول وجميع المراكب البحرية ، وبها كان يصنع السلاح وعتاد الحرب واواني النحاس والذهب والفضة ...

وذكر صاحب (الاستبصار) مدينة بجاية فقال : وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون احسن منها بناء ولا

---

(١) راجع عنوان الدراية للغبريني ط الجزائر ١٣٣٨ هـ — ١٩١٠ م .

انزل موضعاً ، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والابواب المخرمة المنحنية والمجالس المقرضة المبنية حطانها بالرخام الابيض من اعلاها الى اسفلها قد نقشت أحسن نقش وانزلت بالذهب الأزورد وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة وانزلت بالذهب وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من احسن القصور منزهاً وجمالاً [1] .

وكانت تقدر مساحة مدينة بجاية على هذا العهد بـ (١٥٠ هكتار) اي ١٥٠٠٠٠ متراً مربعاً ، وهي مجزأة الى ٢١ حياً ، مشتملة على ٧٣ مسجداً وبواجهة الجامع الاعظم سبعة عشر قوساً او رواقا ، وفيها من السكان ما يبلغ ١٥٠٠٠٠ نسمة ، وفيها من البناءات الضخمة والاستحكامات العجيبة والقصور المزخرفة والدور المرونقة ما جعلها قدوة لمنشآت النورمان بصقلية وغيرها .

وكان من بين القصور التي احتفظ لنا التاريخ باسمها وصفاتها : قصر اللؤلؤة ببجاية وهو الذي يقول فيه ابن خلدون : كان من اعجب قصور الدنيا ! ... بني حوالي سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م وموقعه كان بحذاء القشلة والمستشفى العسكري اليوم - على قمة البريجة - وقصر الحكومة بالقلعة ، وقصر النزهة الذي بناه يحيى بن العزيز بأعلى جبل عيوف بجيجل اقيم تجاه البحر والمدينة ، حطمه روجي الثاني النورماندي سنة ٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م وقصر المنار بالقلعة لا تزال تظهر منه بقايا اطلال وخرائب جدران سوره وقصر أميون الذي بناه المنصور قريباً من ضريح سيدي التواتي ببجاية ، وقصر الكوكب بالقلعة حيث يوجد اليوم حصن « بارال » وقصر العروسين ، وقصر السلام بالقلعة وقصر الامراء وقصر بلارة زوجة الناصر ببجاية والرياض البديع غربي المدينة وهو الذي يقول في شأنه ابن خلدون « انه كان من آنق الرياض واحفلها » حطمه المرينيون سنة ٧٠١ هـ - ١٣٠١ م والرياض الرفيع شرقي المدينة ، وكلها كانت آية في الفن والجمال يتألق حسنها ويتلألأ نورها ، فاسمع الى ابن حمديس كيف يصف لنا قصر المنصور ببجاية فيقول :

---

(١) الاستبصار ص ٢١ ط فينا ١٨٥٢ م .

اعمر بقصر المُلكِ ناديك الذي	اضحى بمجدك بيته معمورا
قصرٌ لوَ انكَ قد كحلت بنوره	اعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه	فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسي « الصبيح » مع « المليح » بذكره	وسما ففاق خورنقاً وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه	ما كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الألى	رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا	لملوكهم شِبْهاً له ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين اريتنا	غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيّدوا اعمالهم	ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفّرت	حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه	حقر البدور فأطلعَ المنصورا
ابصرتُه فرأيت ابدع منظر	ثم انثنيت بناظري محسورا
فظننت اني حالم في جنة	لما رأيت المُلك فيه كبيرا
واذا الولائد فتّحت ابوابه	جعلتْ ترحب بالعفاة صريرا
عضّت على حلقاتهم ضراغمٌ	فغرت بها افواهها تكسيرا
فكأنها لبَدت لتهصِر عندها	من لم يكن بدخولها مأمورا
تجري الخواطر مطلقاتِ اعنةً	فيه فتكبوا عن مداه قصورا
بمرخّم الساحات تحسب انه	فُرشَ المها وتوشّح الكافورا
ومحصّبٍ بالدر تحسب تُربه	مسكاً تضوّع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه اذا انقضى	صبحاً على غسق الظلام منيرا

ثم شرع في وصف بركة القصر :

وضراغمٍ سكنت عرين رئاسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النضار جسومها	وأذاب من أفواهها البلورا
أسدٌ كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكّرتْ فتكاتها فكأنما	أقعت على ادبارها لتثورا
وتخالُها والشمس تجلو لونها	ناراً وألسُنَها اللواحِسَ نورا

فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نـــار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمـــائه درعـــاً فقدر سردها تقديراً

وشرع في وصف الاشجار :

وبديعة الثمرات تعبر نحوهـــا عيناي بحرَ عجائب مسجورا
شجَريَّـةٍ ذهبية نزعت الى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قـد صولجب أغصانها فكأنما قنصت لهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لِوُقّعٍ طيرها ان تستقل بنهضها وتطيرا
مـن كل واقعة ترى منقارها مـــاء كسلسال اللجين نميرا
خرسٌ تعد من الفصاح فان شدتْ جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصـن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موضع قطرها فـوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما جُعِلتْ لها زهر النجوم ثغورا

وهنا أخذ يصف القصر وأبوابه :

ومصفح الابواب تبراً نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضـــار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليـه غلائلا ورسية شمسٌ ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ابصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت بـــه صناعه أقلامها فـأرتـك كل طريـدة تصويرا
وكـأنمـــا للشمس فيـه ليقـة مشقوا بهـا التزويق والتشجيرا
وكـأنمـــا للازوَرْدِ مخـرَّمٌ بالخط في ورَقِ السماء سطورا
وكـأنمـــا وشّوا عليه مُلاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالكَ الارض الذي اضحى له ملكُ السماء على العُداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخـيرا
فعمّرتها وملكتَ كل رئاسة منهـــا ودمرت العـدا تدميرا

وهذه مقطوعة من قصيدة له اخرى نونية تحتوي على اثنتين وثلاثين بيتاً يصف فيها قصراً آخر من قصور المنصور بالناصرية — بجاية :

قصر يقصر وهو غير مقصر عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة تعشي العيون بشدة اللمعان
لا يرتقي الرافي الى شرفاته الا بمراج من اللحظان
عرج بأرض « الناصرية » كي ترى شرف المكان وقدرة الامكان
في جنة غناء فردوبسة محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجمر من نارنجها فكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر أحمر جعلت صوالجها من القضبان

قال ابن خلدون : فاتخذ المنصور — بجاية هذه معقلاً وصيرها داراً لملكه وجدد قصورها وشيد جامعها ، وكان المنصور هذا جماعة مولعاً بالبناء ، وهو الذي حضر ملك بني حماد وتأنق في اختطاط المباني والمصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرياض والبساتن ، فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر اميمون [1] .

ولا تزال الحفريات والبحوث الاركييولوجية تجري مجراها بواسطة علماء الآثار في كل من مدينة القلعة وبجاية وآشير وهي تطلعنا في كل مرة على تحف فنية جميلة دالة على مبلغ الرقي الصناعي والفني الذي بلغته الجزائر في ذلك العصر الزاهر وما كان لها من التقدم في العلم والمدنية التي شاركت بها في سير ركب الحضارة بهذا المغرب العربي الكبير بل وفي اوروبا ايضاً ولاسيما ببلاد ايطاليا وجزرها وصقلية ومرسيليا ، وفي متاحف الجزائر وباريس نماذج من ذلك [2] . وربما كان من بقايا هذه الدولة اليوم : الجامع الكبير بمدينة قسنطينة المنقوش تاريخه بداخل محرابه هكذا : « سنة ثلاثين وأربعمائة » ، ومنبر الجامع الكبير بعاصمة الجزائر .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٤ — ١٧٥ ط بولاق ١٢٨٤ ﻫ

(٢) راجع : — G. Marçais : Mannuel d'Art Musulman Ti P. 112 140 Paris 1926

وقد نقش عليه تاريخه بالخط الكوفي المشتبك هكذا « سنة تسعين وأربعمائة » . وقرأها مفتي الجزائر الشيخ سعيد قدوره المتوفي سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦ م هكذا « سنة سبع واربع مائة » ?

واغلب هذه القصور التي كانت في مناعة الحصون قضى عليها الاسبان ايام احتلالهم بجاية كما قضوا قبلها على تراث المسلمين ومجدهم التالد بالاندلس ! ...

الحركة الاقتصادية

لا يفوتنا هنا ذكر سعة نطاق الحركة الاقتصادية بالجزائر ، فان طرق القوافل بين اقطار الشمال الافريقي وارض السودان كانت لا تخلو من السابلة غادية رائحة حاملة لانواع البضائع والسلع ، كما ان السفن كانت تجري بانهار قسنطينة وودبانها وفي حوض هذا البحر الابيض المتوسط للمواصلات والتجارة .

ويحدثنا الادريسي عن الحياة الاقتصادية بالجزائر في هذا العصر فيقول : ومدينة بجاية في وقتنا هذا (٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م) مدينة المغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة والامتعة اليها براً وبحراً مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ، ولها بواد ومزارع لفلاحة انواع الاثمار والاشجار وغراسة القطن والكتان وبقية انواع المنتوجات الزراعية ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيراً والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابي لان الخشب في اوديتها وجبالها كثير موجود ، ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ؛ وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة كما هي كذلك بعنابة ؛ وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة [١] .

---

(١) نزهة المشتاق ص ٩٠ ط ليدن ١٨٦٤ م

ولقد عثر الاثريون من العلماء المعنيين بالحفر عن الآثار على بعض الاواني والقطع الخزفية المزخرفة الصينية الصنع وجدوها بالقلعة الحمادية ، وهذا ما يدل على سابق المعاملة في تبادل البضائع والاتصال التجاري الذي كان يجري بين الجزائر والاقطار النائية عنها كالصين . وهذه القطع موجود بعضها اليوم بمتحف « ستيفان غزال » بعاصمة الجزائر .

وكان لدول اوروبا البحرية معاهدات تجارية وقنصلية دقيقة مع بجاية ولهم بها مراكز وفنادق خاصة .

واذا ذكرنا بجاية فانما هي النسبة لكونها عاصمة المملكة يومئذ ، والا فان في القلعة وبونة وقسنطينة ووهران وتلمسان من الحركة الاقتصادية يومئذ ما يشابه الحياة في بجاية وان كانت هذه تفوقها ، فقد كان دخل مرسى الخرز - القالة - من تجارة بيع المرجان فقط عشرة آلاف دينار سنوياً ، وكان مستخلص بونة عشرين الف دينار سنوياً وقس على ذلك ...

انهيار الدولة الحمادية

ان اهم الاسباب الاساسية في سقوط هذه الدولة وانتهاء ايامها هو ما لحق بها من داء الهرم وضعف العصبية القومية وتضعضع الدعائم والقوى في حروبها الداخلية وما تكبدته الحكومة من الخسائر الباهضة في الاموال والانفس ايام الحملة الهلالية ؛ وما كان عليه الامير يحيي بن العزيز ايضاً من الانحلال في الاخلاق والانهماك في الشهوات والاشتغال باللهو عن الملك وتواكله وسخريته برجال دولته فان مباشرة تسيير دفة الدولة كانت بيد الوزير ميمون بن حمدون الذي كان الملك كثيراً ما يقبح افعاله ويسخر منه ويستنقصه ، فكان يدعوه الشيخ الكذاب وهو مع ذلك عمدته في الادارة ! ...

امتعض الوزير ميمون يوماً مما الحقه به الملك من الخسف والهوان وابت له نفسه الابية الصبر على المذمة والاحتقار ، فخشي من ضياع نفوذه والذهاب بمجده وسمعته ، وقد راعه ايضاً ما رأى من تهالك النورمان

واحتكاكهم على المغرب الاسلامي ، فبادر الى مكاتبة خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي في شأن التملك على الجزائر ، فطار لها الخليفة فرحاً وبدت له بذلك فرصة طالما هف اليها قلبه وارتقبها خاطره فخرج من مراكش متوجهاً نحو الجزائر سنة ٥٤٦ هـ - ١١٥١ م سالكاً في طريقه سبيل التضليل والتورية ، فاوهم الناس انه يريد الاندلس حتى نزل بغتة بخيله ورجاله بتخوم « سيوسيرات » المعروفة بفحص « سيق » وهي يومئذ حدود الجزائر الغربية ، وقد اخلاها الوزير ميمون من الجند والحامية فكانت الطريق الى الاستيلاء على مملكة بني حماد ممهدة معبدة .

اقتحم عبد المؤمن الحدود الجزائرية بدون عناء ولا مشقة حتى بلغ المدية واحتل الجزائر ففر عاملها القائد الى اخيه يحيى ملك بجاية ، واخذا معاً في الاستعداد لمقاومة غزاة الموحدين ، وما فتىء الملك الحادي يستعد للمقاومة حتى فاجأه عبد المؤمن بجيوشه على ابواب بجاية ، تاركاً مدينة الجزائر تحت امرة الحسن بن علي آخر ملوك صنهاجة بالمهدية ، وذلك ما خشيه ملك بجاية من قبل ... وكانت هنالك فتنة وهرج ومناوشات حربية وقف فيها الوزير ميمون بجانب الموحدين فانتصر الموحدون من غير قتال كبير ، وفتح لهم ابو عبد الله بن الوزير المذكور ابواب مدينة بجاية فاحتلوها بعد يومين من الوقعة فكان دخولهم اليها في ذي القعدة ٥٤٧ هـ - فيفري ١١٥٣ م .

فخرج حينئذ يحيى بن العزيز من بجاية فركب البحر منهزماً الى بونة فنزل على عاملها اخيه الحارث بن العزيز ، فاغلظ له هذا القول وانكر عليه تسليم العاصمة الحمادية ، فاعرض عنه يحيى وعدل متوجها الى قسنطينة فنزل على اخيه ايضاً الحسن بن العزيز فاحتفى به وادناه ونزل له عن هذه الولاية اكراماً وتعظيماً له .

واستمر عبد المؤمن في سيره زاحفاً فاحتل القلعة في وقعة عظيمة ضد الاعراب قتل فيها نحو الثمانية عشر الف نسمة من اهلها ؛ وكان فيمن قتل بها يومئذ عاملها جوشن بن العزيز اخو الامير يحيى ؛ ثم كان بعدها

حصار قسنطينة وتضييق الخناق عليها حتى اضطر يحيى الى النزول عن عرشه والاستسلام الى الموحدين وتقدم بنفسه الى الخليفة عبد المؤمن فبايعه مستأمناً على نفسه فأمنه واخذه معه الى المغرب الاقصى فانزله مع ابن عمه الحسن بن علي آخر ملوك صنهاجة بقصر بني عشرة في مدينة سلا. وقد حاز يحيى عند الخليفة مقاماً رفيعاً ورتبة ملحوظة، وبقي هنالك محترم الجانب الى وفاته سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م فدفن بمقابرها الجوفية - الجنوبية - مما يلي البحر. فكان هذا اخر العهد بملوك بني حماد.

واستمر الحارث بن العزيز اخو يحيى على رأس ولاية بونة غير ملتفت الى سلطة الموحدين على الجزائر مستنصراً بجيش النورمان الى سنة ٥٥١ هـ ١١٥٦ فسقطت هذه الولاية ايضاً بيد الموحدين وقتل الحارث صبراً وانتهت بذلك دولة بني حماد بالجزائر بعد ما اعمرت ١٤٢ سنة. وقد تيسر لها في هذه المدة اليسيرة من اسباب المدنية والحضارة والعلم ما لم يتيسر لغيرها من الدول في اكثر من هذا العدد من السنين. وتلك الايام نداولها بين الناس.

ولاة الجزائر وزعماؤها

تنقلت رآسة مملكة الجزائر الحمادية بين مدن ثلاث: آشير ثم القلعة ثم بجاية، فبها كان مستقر ملوك هذه الدولة وأمرائها من بني حماد الصنهاجيين وكان لهؤلاء من العمال والولاة ما هو منبث في كامل اهم عواصم القطر الجزائري ومدنه المختلفة كبونة وقسنطينة وبسكرة والجزائر الخ ...

فمن مشاهير رجال الحكم والوزارة في هذا العهد: خلف بن حيدرة وابو بكر بن ابي الفتوح؛ فسعت صنهاجة بخلف الى الناصر فقتله واستوزر مكانه احمد بن جعفر بن افلح، وكان عبد الكريم بن سليمان وزيراً للمنصور، وفي ايام يحيى انحازت الوزارة الى بني ميمون بن حمدون، وكان اخوة الناصر وابناؤه ولاة على اعمال قسنطينة والجزائر؛ فمنهم اخوه بلباز بقسنطينة كما تولاها ايضاً الامير سبع بن العزيز اخ يحيى؛

وكان عبد لله بن الناصر على الجزائر ومرسى الدجاج واخوه يوسف على آشير ، وكباب على مليانة وورومان على حمزة – نواحي قصر البخاري – كما تولاها ايضاً على عهد القائد بن حماد اخوه ريعلان ، وتولى خزر على نقاوس ، وكانت قيادة الجيش العامة على عهد حماد بن بلكين لعباد بن صادق وعبد الله بن سكر الصنهاجيين ، وكان على رأس قيادة الجيش المحارب للعرب من رياح وزغبة سنة ٤٥٧ هـ – ١٠٦٥ م القاسم بن علناس أخ الناصر ، ورئاسة بسكرة والزاب لبني رمان ومنهم الذين افلحوا في حد الحملة الهلالية عن البلاد ، وقد ضل هؤلاء على ولايتهم لبني حماد الى نهاية دولتهم ؛ جعفر بن ابي رمان ، وقد حاول جعفر هذا ان يستبد بالامر فدفع بأهل بسكرة الى الثورة في وجه بلكين بن محمد فقمعهم ، وانكسر جعفر وحزبه وفتحت بسكرة عنوة وادخل جعفر ومن معه من المتآمرين ضد السلطة الحاكمة سجن القلعة حيث قتل هناك ثم ادال منهم الناصر ببني سندي (او هندي) ؟ وكان على ولاية المدية ايام الناصر ابو الفتوح بن حنوش من بني سنجاس ، وعلى ولاية شلف معنصر بن حماد وكلاهما قتل في ثورته على الناصر كما اسلفناه ، وكانت امرة بني توجين لمناد بن عبد الله ثم انتقلت الى آل عطية بن دقلتن بن ابي بكر المنقوشي .

وجاء يحيى بن وطاس الى الناصر موفداً من طرف اهل قسنطينة لاعلان طاعتهم فعقد الملك ليوسف بن خلوف الصنهاجي على هذه الولاية ، وعقد المنصور لابي يكنى بن محسن بن القائد بن حماد على ولاية قسنطينة واذن له في غزو عمه بلباز ، فتمكن ابو يكنى من هذه الولاية واعلن سلطته عليها سنة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٥ م وجعل اخاه ويغلان والياً على بونة ، ثم حدث ما اضطر ابا يكنى الى الفرار من ولايتها فتولى مكانه صليصل بن الاحمر من رجالات اثبج ، ثم كانت ولايتها للحسن بن العزيز اخ الامير يحيى .

وكانت قيادة الجيش العليا ايام يحيى بن العزيز الى الفقيه مطرف بن علي بن حمدون وطاهر بن كباب وهو الذي بعث به يحيى بن العزيز صاحب

بجاية لمناصرة تاشفين بن علي امير المرابطين في حروب تلمسان فاوقع به وبجيوشه الموحدون . ومن ولاة يحيى وعماله على الجزائر اخوته ، فالقائد كان على مدينة الجزائر والحسن على قسنطينة والحارث على بونة وجوشن على القلعة ، ومن رؤساء بجاية ومشيختها محمد بن نزال الريغي ، وكانت رئاسة صنهاجة في بني حسن ورئاسة مقرة في بني ابي والبل .

ولما احتل المستنصر الزناتي المسيلة واشير صالحه الناصر واقطعه ولاية نواحي الزاب وريغة ثم قتله غدراً .

وكانت رئاسة مغراوة في بني ورسيفان المغراويين ورئاسة زناتة الى جهة المشرق بوادي ميناس ومرات وما اليها من أسافل شلف لبني ومانو وكانت الرئاسة فيهم لبيت بني ماخوخ منهم واصهر المنصور بن الناصر الحادي الى ماخوخ في اخته فزوجها اياه فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة .

واما رئاسة ناحية العدوة الغربية من وادي شلف بالجعبات والبطحاء وسيدو ومرات وجبل هوارة وبني راشد فانها كانت لبني يلومي وهم قوم من زناتة ايضاً ، وكلتا القبيلتين : بني ومانو وبني يلومي كانتا من اوفر بطون زناتة واشدهم شوكة ، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الاوسط - الجزائر وكان من عمال بجاية على عهد باديس بن المنصور سهام ، فنكل به الامير ، وكان على مدينة الجزائر العزيز فعزله باديس ونفاه الى جيجل ، وكانت امرة تلمسان ورئاستها في بني يعلي المغراوين .

اما تونس الحادية فانها كانت لكرامة عم الملك يحيى ، وبعد وفاته خلفه اخوه أبو الفتوح بن المنصور ، ثم بعده ابنه محمد فلم تحمد سيرته فعزل بعمه معد ابن المنصور ، كما تولى هذه الولاية للحماديين عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان .

ملوك الدولة الحمادية

	تاريخ التولية
حماد بن بلكين بن زيري	٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م
القائد بن حماد	٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م
محسن بن القائد	٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م
بلكين بن محمد بن حماد	٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م
الناصر بن علناس	٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م
المنصور بن الناصر	٤٨١ هـ = ١٠٨٩ م
باديس بن المنصور	٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م
العزيز بالله بن المنصور	٤٩٨ هـ = ١١٠٥ م
يحيي بن العزيز بالله	٥١٥ هـ = ١١٢١ م

أبو القاسم يوسف البسكري

٤٠٣ ـ ٤٦٥ هـ = ١٠١٢ ـ ١٠٧٢ م

هو العلامة الامام الرحالة المقرىء الشيخ أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل الهذلي المغربي البسكري ، ولد سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة ؛ أخذ العلم عن مشيخة بلده ثم ارتحل للطلب مستزيداً من العلم سنة خمس وعشرين فطوف بلاد الشرق والغرب فقرأ على المشائخ بأصبهان ، منهم الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله الاصبهاني وغيره ودخل بغداد فقرأ بها على القاضي أبي العلاء محمد بن علي بن يعقوب الواسطي وورد نيسبور سنة ثمان وخمسين فحضر دروس أبي القاسم القشيري في الاصول وأبي بكر بن منصور وغيرهما .

انصرف الشيخ الى التضلع والاختصاص في علوم اللغة والقراءات فخاض عبابها وتعمق في استخراج اسرارها ودقائقها وأكثر من الرحلة فيها حتى قال عنه امام القراء ابن الجزري : فلا أعلم أحداً في هذه الامة رحل في القراءات رحلته ، ولاقى من لقي من الشيوخ ، قال الامير بن ماكولا : كان أبو القاسم البسكري يدرس علم النحو ويفهم الكلام ، وكان مقدماً في علوم اللغة وعلل القراءات وله ترجيحات واختيارات وآراء فيها خاصة ، وكان الامام القشتري يراجعه في مسائل النحو والقراءات ويستفيد منه .

ذاع ذكر الشيخ على الافواه وقرع صيته الاسماع فاستدعاه الوزير نظام الملك سنة ثمان وخمسين وأربعمائة الى الاقراء بمدرسة نيسابور وقرره استاذاً فيها ، فمكث فيها الشيخ ناشراً علمه بها الى وفاته سنة خمس وستين وأربعمائة وقد عمي في آخر عمره رحمه الله .

وله من التآليف (كتاب الكامل في القراءات) الذي جاء فيها قوله :

فجملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستون شيخاً من آخر المغرب الى باب فرغانة يميناً وشمالاً جبلاً وبحراً ، ولو علمت احداً تقدم علي في هذه الطريقة في جميع بلاد الاسلام لقصدته : الى ان قال : والفت هذا الكتاب فجعلته جامعاً للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت به مصنفاتي كالوجيز والهادي ، وعلق ابن الجزري على هذا الكلام بقوله : كذا ترى همم السادات في الطلب !

أبو محمد عبد الله الاشيري

٥٦١ هـ ــ ١١٦٥ م

الامام المحدث الفقيه الاديب الشيخ ابو محمد عبدالله بن محمد الاشيري نسبة الى بلدة « آشير » بالجنوب الشرقي من مدينة البراوقية في سفح جبل تيطري من عمالة الجزائر .

كان رحمه الله امام اهل عصره في الفقه والحديث والادب ، انتقل الى الشام فسكن حلب الشهباء ففاق بها جميع علمائها كما قال ياقوت : امام اهل الحديث والفقه والادب بحلب خاصة وبالشام عامة ؛ يتسابق الناس الى الاخذ عنه والتشرف بالانتساب اليه ، ويتفاخر الوزراء والملوك بمجالسته والاسترشاد بعلمه وآرائه .

استدعاه الوزير ابو المظفر عون الدين يحيي بن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد الى بغداد وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي لاقراء الحديث وتدريس علومه بدار السلام ــ بغداد ــ فسيره الملك اليه محفوفاً بالاجلال والاكرام : فاقرأ هنالك كتاب « الافصاح عن شرح معاني الصحاح » بحضر الوزير مؤلف الكتاب نفسه ، وهو شرح يحتوي على تسعة عشر كتاباً شرح بها الوزير احاديث الصحيحين .

وقد جرت للشيخ مع الوزير منافرة فتقاطعا ثم ندم الوزير على موقفه هذا تجاه الشيخ فاعتذر اليه واغدق عليه بره واحسانه ، ثم سار الشيخ

من بغداد الى مكة ثم عاد الى الشام فمات رحمه الله ببقاع بعلبك سنة ٥٦١ هـ - ١١٦٥ م .

ابن الرمامة

٤٧٨ _ ٥٦٧ هـ = ١٠٨٥ _ ١١٧١ م

العلامة النظار والحكيم والفيلسوف الفقيه ابو عبد الله محمد بن علي المشهور بابن الرمامة ، ولد بعاصمة الجزائر الحمادية « قلعة بني حماد » في رجب سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م روى عن ابي الفضل بن النحوي بالقلعة وتفقه به ، وعن ابي محمد المقري ببجاية ، وابي اسحاق ابراهيم بن حماد ، وعن خاله ابي الحسن علي بن طاهر بن محشوة بمدينة الجزائر .

ارتحل الى الاندلس تاجراً وطالباً للعلم فلقي بقرطبة الفيلسوف الحكيم القاضي ابا الوليد ابن رشدو ابا محمد بن عتاب وابا بحر الاسدي ؛ وابا الوليد بن طريف فاخذ عنهم ، ثم انتقل الى المغرب فنزل مدينة فاس وتولى بها خطة القضاء سنة ٥٣٦ هـ - ١١٤٢ م وعكف هنالك على الدرس والنظر في الاحكام فاخذ الناس عنه ، وكان يميل الى مذهب الشافعية .

له من التآليف كتاب تسهيل المطلب في تحصيل المذهب وكتاب التقصي عن فوائد التقصي وكتاب التبيين في شرح التلقين الخ وبذل همته ووسعه في تحقيق كتاب البسيط للغزالي وتحرير نكته ومباحثه .

ومن اشهر من روى عنه واخذ عنه كتبه الحافظ ابو ذر الخشني وابو الحسن بن المفضل وابو القاسم بن بقي وغيرهم ، وكانت وفاته رحمه الله بمدينة فاس يوم الاثنين ١١ رجب سنة ٥٦٧ هـ - ١٠ مارس ١١٧٢ م .

كما اشتهر بالجزائر يومئذ العالم ابو زكريا يحيي بن علي - بكر - الوارقلي صاحب كتاب « تاريخ أئمة الاباضية » . المتوفي رحمه الله سنة ٤٧١ هـ - ١٠٧٨ م . ولعل كتابه هذا هو المشهور بكتاب السير وهو جزآن يوجد ببلاد مصاب بجنوب الجزائر وبجبل نفوسة من ارض طرابلس الغرب .

جدول تاريخي

٤٠٥ ـ ٥٤٧ هـ = ١٠١٤ ـ ١١٥٣ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وابرز الاحداث
٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م	تأسيس المملكة الحمادية .
٤١١ هـ = ١٠٢٠ م	اشتداد القحط وكثرة الفناء في الناس من تاهرت الى سجلماسة .
٤٢٥ هـ = ١٠٣٤ م	خراب بونة على يد الجنويز .
٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م	انهزام حمامة بن زيري المغراوي عن الجزائر .
٤٣٢ هـ = ١٠٤١ م	تلاعب القائد بالدعوة الشيعية .
٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م	تشعب آل حماد وانشقاقهم على أنفسهم واغتيال الملك محسن .
٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م	نكبة ولاة بسكرة من آل رومان على يد بلكين بن محمد .
٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م	اغتيال بلكين وولاية الناصر بن علناس ؛ والاستيلاء على فاس ، وولاية آل عروس بن سندي على بسكرة .
٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م	وقعة سبيبة والزحف الهلالي على الجزائر .
٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ م	خيبة المنتصر الزناتي في هجومه على الجزائر وقتله ، وفيها كان تأسيس مدينة بجاية وثورة أهالي المهدية وشلف وفتح الاربس والقيروان .

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م	تزوج الناصر ببلارة بنت تميم ملك المهدية .
٤٧٥ هـ = ١٠٨٢ م	فتح المرابطين لاعمال تلمسان ووهران واحواز مدينة الجزائر .
٤٨١ هـ = ١٠٨٨ م	وفاة الناصر بن علناس وولاية ولده المنصور .
٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م	انتقال عرش المنصور من قلعة بني حماد الى بجاية .
٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م	اقطاع مدينة دلس لمعز الدولة بن صمادح الاندلسي .
٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م	ثورة أبي يكنى بقسنطينة وقتله وسقوط آشير بيد المرابطين .
٤٩٦ هـ = ١١٠٣ م	فتك المنصور بالمرابطين وعقد الهدنة بين المملكتين .
٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م	وفاة المنصور وولاية ولديه باديس ثم العزيز .
٥١٢ هـ = ١١١٨ م	خيبة الاعراب في اغارتهم على القلعة .
٥١٤ هـ = ١١٢٠ م	اذعان تونس للسلطة الحمادية واحتلال جربة .
٥١٥ هـ = ١١٢١ م	وفاة العزيز وولاية ولده يحيي .
٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م	حصار المهدية واحتلال تونس .
٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م	وقعة زويلة وحصار المهدية (مرة ثانية) .
٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م	اعتداء النورمان على جيجل واستيلاؤهم عليها .
٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م	سك النقود الحمادية ببجاية والتجاء امير المهدية الحسن بن علي الى الجزائر بعد سقوط مملكته بيد النورمان .
٥٤٧ هـ = ١١٥٣ م	نهاية دولة بني حماد .
٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م	وفاة يحيي بن العزيز آخر ملوك الدولة الحمادية .

الدّولة المرابطيّة

٤٧٢ _ ٥٣٩ هـ

١٠٧٩ _ ١١٤٥ م

الرباط والمرابطة

الرباط لغة يطلق على الخمس الخيل فما فوقها وعلى المواضبة على الامر ، والمرابطة ملازمة ثغر العدو ، واصلحه ان يربط كل واحد من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . قال السهروردي في كتابه عوارف المعارف : « واصل الرباط ما تربط به الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع اهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد والمرابط يدفع عمن وراءه » .

ثم استعير الرباط الى مسكن العباد واهل الطرق الصوفية وقيل لمن يقيم بمثل هذه الربط المعدة للعبادة والطاعات مرابط لملازمة الرباط وانقطاعه فيه للعبادة وخدمة الدين فهو في ذلك المكان قائم بطاعة الله حابس نفسه عن مخالطة الناس يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد فاستحق اسم المرابط[1] .

وان كل من درس تاريخ المغرب الاسلامي في هذا العصر يعلم انه كان معرضا للغارات البحرية المفاجئة من القسطنطينية او صقلية وجنوبي ايطاليا وسردانية ، فاعتبره المسلمون لذلك ثغرا يعد الرباط فيه جهادا في سبيل الله

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٤٢٧ ط بولاق ١٢٧٠ هـ .

وقربة اليه ، فانشئت لذلك الرباطات والحصون بسواحل افريقية لحراسة المسلمين والتعبد لله رب العالمين ، ولقد نظم المقيمون فيها امور انفسهم تنظيماً حسناً مكنهم من القيام بواجباتهم كلها على وجه حسن ، واصبح الرباط مع الزمن نظاماً عسكرياً دينياً تحددت اصوله وقواعده شيئاً فشيئاً . وعلى هذا الاساس انشئت الرباطات والمحارس بكامل ساحل المغرب مثل رباط المنستير وسوسة وصفاقس وبنزرت وبونة وشرشال ومرسى مغيلة وارزاو ونكور ورباط الفتح الخ ...

ولقد بلغ من حماس اهل المغرب للرباط ان اصبح ذوو الحمية من اهل قبائل الصحراء يقبلون الى ساحل البحر للرباط وحراسة المسلمين ، ثم عمت هذه الحركة شيئاً فشيئاً حتى شغلت روح الرباط قبائل باسرها واخذ المتشوفون للجهاد من اهل قبائل الصحراء يرابطون على احواز الصحراء لحماية ما يليهم من بلاد الاسلام من اخطار من يليهم من الجنوب ، وقامت « الربط » على حدود بلاد السودان ، وصارت هذه « الربط » الصحراوية مراكز للغزو والتوسع ونشر الاسلام في السودان وبلاد افريقية الغربية ، وما زالت هذه الحركة تقوى وتشتد حتى قامت على اساسها دول ؛ اولها دولة المرابطين هذه ثم تلاها الموحدون والحفصيون كذلك والمرينيون [1] ...

وعلى ضوء ما قدمنا نستطيع ان نفهم وضعية الخوانق والزوايا الصوفية المنتشرة في مجاهل اطراف الشمال الافريقي وتخومه ، وما كان لهذه الزوايا او — الربط — من الاثر الجليل في خدمة الاسلام واهله خدمة سياسية واجتماعية ودينية ايضاً . ولا تزال بقايا اثار الاربطة القديمة التي انشئت منذ اواخر القرن الثاني للهجرة منتشرة على طول الساحل الشمالي الجزائري من مرسى القالة على الحدود التونسية شرقاً الى مرسى الغزوات على الحدود المغربية غرباً ، ومن اشهرها بالخط البحري رباط بونه او عنابة وبه ضريح أبي مروان البوني شارح موطأ مالك ثم رباط رجال الحمراء قرب عنابة ايضاً ويعرف عند الفرنسيين باسم « كاپ دي ڤارد Coqs de garde » ورباط بجاية

---

(١) انظر رياض النفوس ج ١ ص ٢٥ .

الخ ... كما توجد صفوف جبلية في الجبال وصفوف صحراوية في الصحاري مما جعل الجزائر رقعة شطرنج من الأربطة [1] . وبالجملة فان الدور الرئيسي الذي قام به اهل المغرب في التاريخ العام للاسلام هو دور رباط وحماية لجناحه الغربي كله .

نشأة الدولة

تنتمي هذه الدولة الى قبيلة لمتونة احدى فصائل القبيلة البربرية الكبرى صنهاجة . واشتهرت باسم دولة الملثمين ايضاً لاتخاذ قومها الخطام شعاراً تمتاز به ما بين مختلف الامم والقبائل البربرية المنتشرة بكامل هذا الشمال الافريقي ، وهم يتلثمون بعمائمهم وفي سبب اتخاذ ذلك اللثام خلاف بين المؤرخين [2] .

كان مستقر هذه القبيلة باعماق الصحراء فيما بين بلاد البربر والسودان – السينيغال – وكان دينها المجوسية الى ما بعد فتح الاندلس فاسلمت طوائف منها وبقي الآخرون الى ما بعد المائة الثالثة ، ثم ظهر فيهم عبدالله بن ياسين الجزولي الذي جاء به الامير يحيى بن ابراهيم الكدالي من سجلماسة فصار يعلمهم الدين الاسلامي ، واسس رباطه بوادي النيجير – السينيغال – فلازمه منهم جماعة عرفوا فيما بعد باسم المرابطين وهم الذين كان على يدهم تأسيس هذه الدولة سنة ٤٣٤ ﻫ – ١٠٤٢ م ، ففتحوا بلاد الصحراء والمغرب الاقصى وانتصروا على بلاد الاندلس ، وكان استفحال ملكهم على عهد الامير يوسف بن تاشفين عاهل لمتونة ورافع عماد الدولة المرابطية ، قال ابن خلدون : « وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان متفرقاً بالمغرب من كلمة الاسلام وتمسكوا بالسنة » .

---

(١) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ص ٧٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩١ والحلل الموشية ص ٨ وتحفة الزائر ج ١ ص ٤٠

نظامها الحكومي

نشأت هذه الدولة في اول امرها سائرة سير الاقوام المتغلبة قهراً وقسراً الى ان نشأ فيها الامير يحيى بن ابراهيم الكدالي فأخذ قومه بتعاليم الاسلام ومبادئه فنشرها بينهم بواسطة عبد الله بن ياسين فتطور يومئذ دستور الدولة واصبح يسير على مقتضى الكتاب والسنة .

وجاء يوسف بن تاشفين ٤٦٥ هـ - ١٠٧٣ م فتشدد في التمسك باهداب الاسلام مستمداً من الخليفة العباسي سلطته الروحية ، فقلده المقتدي ولاية المغرب والاندلس وكتب له تفويضاً لقبه فيه بناصر الدين وبعث اليه بالخلع والاعلام ، وكثيراً ما خرجت السفارات من المغرب الى المشرق حاملة الهدايا النفيسة الى امراء المؤمنين ، وكانت المراسلة بينهما مستمرة وتسمى يوسف يومئذ بامير المسلمين تأدباً مع الخليفة امير المؤمنين العباسي ، ثم جرى على هذا اللقب كل من تولى امر هذه الدولة الى انقراضها .

وما تسامح العباسيون مع هذه الدولة كل هذا التسامح واطاعوها في رغبتها هذه الا عن قصد ايجاد منافس بجانب الخلافتين القائمتين بالمغرب يومئذ : خلافة بني عبيد الفاطمية ، وبني امية في الاندلس فجعل الخليفة من دولة المرابطين هذه مزاحماً لهما يضعف من شأنها بالمغرب .

ذاع صيت سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين في انحاء العالم الاسلامي كله فخطب له على اكثر من الفي منبر وقد اجمع المؤرخون على عدالة هذه الدولة وقيامها بحقوق الرعية والرعوية كما يوجبه الاسلام ويقتضيه فقه الامام مالك ؛ فقد كان الامراء لا يقطعون امراً دون مشورة الفقهاء فيه ؛ وكثيراً ما كان الامير يباشر بنفسه ماجريات الاحوال والمسائل العامة ؛ ولم يجر في عمل المرابطين طيلة ايامهم رسم مكس ولا ضريبة مغرم لا في الحضر ولا في البادية ؛ وانما هي اموال الزكاة والعشر والجزية والخراج واخماس المغانم ؛ وذكروا اسم الخليفة العباسي على نقودهم كرمز لطاعته .

وبلغ عدد جيش المرابطين في اوائل امرهم الى مائة الف جندي ، وهذا من غير المتطوعة من اعيان القبائل وزعمائهم الخاضعين لهذه الدولة ، وفي سنة ٤٦٤ هـ – ١٠٧١ م ادخل في نظام الجندية نحو الالفي فارس من عبيد السودان ثم اضيف اليهم نحو مائتين وخمسين من علوج الاندلس ، واتخذ علي بن يوسف بن تاشفين بالمغرب جيشاً من الروم في اوائل القرن السادس الهجري الحقه بجيوش المسلمين وجعله لا يحضر في الجهاد خشية ممالأته مع العدو ، فكان يستعين به في قتال المنشقين عن الطاعة والمتخلفين عن الدولة فقط ، ثم كانت هذه سنة متبعة قلده فيها جميع ملوك المغرب ودوله فيما بعد ، وذلك ما يشبه الفرقة الاجنبية اليوم في الجيش الفرنسي ، ولقد تعورف هذا النظام العسكري من قبل في الامم السالفة ايضاً ، فقديماً جند حنبعل قوماً من الغاليين – سكان فرانسا – ، والسويسريون انفسهم كانوا يمثلون اقدر الفرق التي ترتزق بسيوفها في ربوع اوروبا وتحارب تحت اعلام مختلف ملوكها وامرائها .

وكان مما اثبته التاريخ لهذه الدولة وسجله بعداد الفخر في ميدان الجندية انه لم يحفظ لجند المرابطين فرار من زحف قط ؛ وكان قتالهم رجالة صفوفا ، بايدي الصف الاول القنا الطوال ويحمل الصف الثاني معه المزارق ، يتقدمهم رجل يحمل بيديه الراية السوداء فلا ينفكون عن الحرب والقتال ما قامت الراية فاذا ما امالها صاحبها الى الارض جلسوا ؛ واما الاسطول فانه بلغ الى مائة قطعة حربية كانت تجول على الدوام في طول هذا البحر الابيض وعرضه مترددة على جزائر الخالدات « كناري » وكانت قيادته لبني ميمون رؤساء جزيرة قادس .

الحدود الجزائرية

يمتد ملك المرابطين من تخوم المغرب الاقصى فيتخطى حدود ملوية الى أسوار مدينة الجزائر ، فكان غرب القطر الجزائري تقريباً كله تحت نفوذ المرابطين ، غير ان ايامهم لم تطل بهذا الوطن فلم تكن سوى ٦٧ سنة .

الاستيلاء على الجزائر

كنا ألمعنا فيما تقدم الى ما كان بين دولة المرابطين وبني حماد ملوك القلعة وبجاية من التنافس والتزاحم على زعامة المغرب الاوسط وبسط نفوذهم عليه ، وكانت هنالك مهاجمات ومناوشات بين الحكومتين في كلا الطرفين : الجزائر والمغرب الاقصى كما مر تفصيله .

وفي سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٧٩ م تحرك جيش المرابطين من مراكش بقيادة مزدلي بن بكلان اللمتوني وجاء غازياً للجزائر في نحو عشرين الف مقاتل فحل باحواز تلمسان فقاتلهم عنها عاملها يومئذ الامير العباس بن يحيي من بني خزر المغراويين الى ان سقط ميتاً في الميدان ؛ فانطلق جند ابن تاشفين يعبث بتلك النواحي ثم عاد الى مصدره .

ثم في السنة الثالثة بعدها خرج الامير يوسف بن تاشفين بنفسه فغزا مملكة الجزائر وافتتح منها عدة أماكن واستولى فيها على تلمسان وقضى على من كان فيها من أمراء بني خزر - او يفرن - واختط بها محلته المشهورة « تاكرارت » تلمسان اليوم التي اتخذها مأوى له ولاشياعه ومعسكراً لجيشه ، ومنها توجه الى وهران وتنس وجبال وانشريس وأعمال شلف فقضى على ممالك زناتة ومحا آثار مغراوة من جميع المغرب الاوسط ، ودخل متيجة موغلاً في سهولها الى أسوار مدينة الجزائر ، فردته عنها حصونها ؛ فانكفأ وارتد الى عاصمته مراكش فدخلها في ربيع الثاني سنة ٤٧٥ هـ - سبتمبر ١٠٨٢ م وأصبحت أعمال الجزائر الغربية كلها بيد المرابطين .

المذاهب والعقائد

ان أهم ما ارتكزت عليه هذه الدولة في نشأتها السياسية ونهضتها القومية هو الدين ، فباسم الدين رسخت قواعدها في الملك وتمكنت جذورها من الارض ، وذلك بفضل عبدالله بن ياسين ، وعبدالله هذا مالكي المذهب ، فكانت جميع أعماله وأقواله تجري على مقتضى قواعد

الفقه المالكي الا ما شذ فيه من بعض فتاويه وتشديداته ؛ وقلده في ذلك المرابطون حكومة وشعباً ؛ وبعدما التحق المرابطون بالاندلس وجدوا هنالك مذهب مالك منتشراً بها أيضاً فتغلغلت المالكية حينئذ في الامة وأصبحت الحكومة لا تقضي أمراً الا على وفق هذا المذهب ، فحاز فقهاء المالكية بذلك تقدماً عظيماً ومنزلة رفيعة عند الامراء وغيرهم من اتباع هذه الدولة ، ونبذ الناس يومئذ النظر فيما سوى ذلك من المذاهب والاصول وبالغت الدولة في التمسك بهذا المظهر حتى كاد ان ينسى النظر في كتاب الله وسنة رسوله ! ... ولم يكن لاهل المذاهب الاخرى مظهر بالجزائر الا في بنطيوس من قرى بسكرة ، فانه كان بها مسجد واحد للاباضية ، وكان أهل قرية تهودة – سيدي عقبة – على مذهب أهل العراق. وقد جاء به يومئذ الى المغرب القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في اوبتهما من رحلتهما الى المشرق. وتحدث ابن خلدون عن مباحث الحنيفة في الفقه وعن مناظراتهم مع الشافعية فقال : وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاؤوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما[1].

ودان أهل ذلك الزمن بتكفير كل من ظهر عليه الخوض في شيء من علم الكلام ، وقرر الفقهاء بمحضر علي بن يوسف بن تاشفين تقبيح الفلسفة وعلم الكلام والنظر فيهما وكراهية السلف لهما ؛ وهجروا كل من ظهر عليه شيء من ذلك بدعوى انه بدعة وقالوا بأن الاكثار منه يؤدي الى اختلال في العقائد ووهن في الايمان وحملوا الامير علياً على نشر أوامره في البلاد بذلك وكتابته في كل وقت الى الولاة والعمال بالتشديد والتوعد لكل من يشتغل بهذا العلم أو يوجد عنده من كتبه شيء منها ، واحرقت في ذلك كتب الغزالي وهدد من وجدت عنده بسفك دمه ومصادرة أمواله ... ولم يرتفع هذا الكابوس الا في عهد الموحدين فكان الامر على نقيض ذلك كله كما سنقصه عليك.

---

(١) المقدمة ص ٢١٩ ط بولاق ١٢٧٤ هـ.

اشتد تعلق امراء هذه الدولة بعلماء الدين حتى كان بلاطهم لا يخلو من عالم او فقيه او اديب ، وكان من شغف يوسف بن تاشفين باهل العلم والفضل ان زوج ابنته بالعلامة الفيلسوف الكبير ابن باجة الاندلسي ، وفي ايامه كثر بالمغرب ذوو القرائح وارباب الحرف والصناعات والمهندسون ، وقد بلغ ذلك الغزالي فرعب في المجيء الى بلاط ابن تاشفين ، وصح منه العزم فانتقل الى الاسكندرية متوجهاً الى المغرب وبينما هو آخذ في الاستعداد للسفر اذ بلغه نعي امير المسلمين يوسف بن تاشفين فاحجم ، وكان ممن اشتهر في الجزائر يومئذ من اهل الثقافة العالية ابو عبد محمد بن سحنون الطبيب الندرومي الكومي ، نسبة الى كومية باحواز تلمسان ، والاديب الكاتب البليغ محمد بن محرز الوهراني ؛ واكثر الناس يومئذ من اشتغالهم بالتفاريع الفقهية المالكية فنفقت في ذلك الزمن سوق كتب هذا الشأن .

ولقلة مكث المرابطين بالجزائر لم يكن لهم فيها كبير أثر في فن المعمار ؛ اللهم الا ما كان من محلة تلمسان – تاجرارات – والمسجد الجامع بتلمسان انشأه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في جمادي الثانية سنة ٥٣٠ هـ – ايفريل ١١٣٦ م حسبما دل عليه ذلك النقش المزبور بقبة الجامع التي فوق المحراب ويعزى تأسيسه في أول مرة الى موسى بن نصير اقامه على الحدود بين المغربين : الاوسط والاقصى ، وهو كما يذكر صاحب كتاب الأدب المغربي (ج ١ ص ٧٢ ط بيروت ١٩٦٠ م) : يضاهي جامع القيروان ، قال : واستمر هذا المعهد يقوم بعمله الثقافي كمركز من مراكز الثقافة العربية الاسلامية في المغرب خلال القرون المتعاقبة كما انه كان عاصمة من عواصم العلم المالكي الى جانب جامع طبنة وقسنطينة وبونة ووهران وتاهرت والجزائر وكذلك القول في تأسيس الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، ومسجد الجزائر بناء على شكله وهندسة بنائه الكثير الشبه بجامع تلمسان ، وهناك من يزعم ان

تاريخ جامع الجزائر هو ما جاء منقوشاً على منبره اي سنة سبع او تسعين واربعمائة . وجامع ندرومة او ما كان من ابتداء تخطيط مدينة مستغانم حيث ابتنى فيها يوسف مركزه الحصين المشهور بمشتى غانم ؛ وهو المدعو ببرج الاحمال المنشأة حوله مدينة مستغانم ؛ كما ان مدينة هنين - مرمي تلمسان - هي من منشآت هذا العصر ؛ ولا ندري أكان ذلك على يد المرابطين ام غيرهم ؟ ... وقد ذكرها البكري والادريسي وقالا انها كانت مزدهرة الحضارة وفيها اسواق ودكاكين ذات تجارة ناشطة ؛ ومن غير بلاد الجزائر كانت للمرابطين آثار ضخمة بالمغرب الاقصى هي آية في فن المعمار لا يزال بعضها هنالك ماثلاً للعيان الى الآن ؛ وفي ايامهم ظهرت صناعة الكاغد بالمغرب .

انهيار الجزائر المرابطية

استمر غرب القطر الجزائري تحت طاعة المرابطين الى ان نشأت بجانبهم دولة الموحدين بأقصى بلاد السوس ، وبنت دعوتها على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصادف ان كان أمر المرابطين في تدهور وانحطاط بسبب ما كان قد حدث بعد موت علي بن يوسف من الفتنة بين لمتونة قبيل الامير - ومسوفة وانضمام هذه الى دولة الموحدين مع ما كانت عليه الحكومة من اختلال في شؤون الادارة وسوء سلوك الولاة وتفريطهم في ضبط امور المملكة واخلادهم الى الدعة والراحة ، فادبر الناس عنهم يوم ان احكم الموحدون خطتهم الهجومية على الجزائر بعد ما احتلوا نواحي كثيرة من اقصى المغرب فنزلوا باعلى الجبل المطل على تلمسان المعروف باسم كهف الضحاك بين الصخرين من جبل تيطرى ووصلت يومئذ كتائب بني حماد برسم الامداد والاعانة فهزمهم الموحدون بضاحية العباد .

ويومئذ كتب تاشفين بن علي الى الافاق يستدعي انصاره فجاءته السرايا من سجلماسة وبجاية والتحق به ابنه ابراهيم من الاندلس ومعه من جند الروم نحو اربعة آلاف فارس فاجتمعت هذه كلها بتلمسان ،

وامر تاشفين بعرض الجيوش وسائر الوفود فعجب الناس من كثرة عددهم واحتفالهم في الزينة حتى زعموا انهم لم يروا مثل هذا الجند المحتشد حسناً وجمالاً وعدة وكمالاً ، واصطفت العساكر من باب القرمدين الى الجهة المتصلة باصل الجبل ؛ وكان ذلك آخر جيش احتفل به المرابطون [1] ورغم ذلك كله فانه لم يغن عنهم احتفالهم ولا عدتهم امام جيش الموحدين شيئاً ، فسقط تاشفين بن علي ميتاً في الوقعة واحتلت تلمسان يوم ٢٩ رمضان سنة ٥٣٩ هـ - ٢٦ مارس ١١٤٥ م وانتهى يومئذ حكم المرابطين بالجزائر بعد ما قضوا بها ٦٧ سنة وانحصر ملكهم بالمغرب الاقصى الى ٥٤١ هـ - ١١٤٧ م حيث احتل الموحدون مراكش ايضاً بعد ما مكثوا نحو ثلاثين سنة في الحرب فانهار سلطانهم عن ملك المغرب وانقضت ايامهم به .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان فيمن تولى أعمال الجزائر على عهد المرابطين محمد بن تينعمر المسولي ولاه يوسف بن تاشفين على تلمسان سنة ٤٧٥ هـ - ١٠٨٢ م ولم يزل محمد المذكور في ولايته هذه الى ان هلك في حصار مدينة الجزائر فتولى بعده أخوه تاشفين بن تينعمر فخرج هو أيضاً لحصار الجزائر ففتحها بعد قتال عنيف ، وافتتح آشير وحطمها وكانت بينه وبين ملوك بني حماد فتنة أدت الى عزله عن منصبه سنة ٤٩٧ هـ - ١١٠٣ م فتولى بعده القائد مزدلي المستشهد في بلاد الروم سنة ٥٠٨ هـ - ١٠١٤ م ثم تركها أمير المرابطين الى محمد المدعو بالشيور فبقي بها الى ان سقطت بيد الموحدين . ومنهم محمد بن يحيي بن فانو المقتول يوم ان هجم الموحدون على تلمسان .

وفي ايام تغلب ابن غانية - من اشياع المرابطين - على الموحدين واستيلائه على بعض الثغور من القطر الجزائري ، اسندت ولاية تلمسان سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م الى يحيي بن أبي طلحة ، وعمل مليانـة الى بدر بن عائشة .

---

(١) الحلل الموشية ص ١٠٧ - ١٠٨ .

امراء المرابطين

	تاريخ التولية
يوسف بن تاشفين	٤٦٥ هـ = ١٠٧٣ م
علي بن يوسف	٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م
تاشفين بن علي	٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م

من مشاهير الجزائر

ابو عبد الملك مروان البوني

٤٣٩ هـ ـ ١٠٤٧ م

هو العلامة الفقيه المحدث الصالح ابو عبد الملك مروان بن علي الاسدي القطان البوني ـ نسبة الى بونة ، عنابة ـ احدى حواضر القطر الجزائري الشهيرة ؛ وهو خال ابي عمر القطان الفقيه .

سكن المترجم له مدينة قرطبة وفيها روى عن ابي محمد الاصيلي والقاضي ابي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس وغيرهما وارتحل الى المشرق فاخذ هناك عن ابي الحسن القابسي ؛ ولازم ابا جعفر احمد بن نصير الداودي خمس سنوات فاخذ عنه معظم تآليفه وما عنده من علم رواية ودراية .

وتجرد المترجم له بعد ذلك الى خدمة العلم بالتدريس والتأليف فكتب شرحه المختصر لموطأ الامام مالك ؛ وقد كان معول الناس يومئذ في دراسة الموطأ على هذا الشرح وتداول بينهم بكثرة وكان ممن اخذه عنه ابو عمر بن الحذاء ؛ وقال عنه انه كان رجلا صالحاً عفيفاً عاقلا حسن اللسان والبيان لقيته رحمه الله ببونة سنة ٤٠٥ وناولني كتابه في شرح الموطأ ثم خاطبته من طليطلة فوجه الي الديوان واجازه لي ثانية وكان قد زاد فيه بعد لقائي له .

وكان ممن حدث عنه ايضاً ابو القاسم بن محمد ؛ فقال لقيته بالقيروان وشهد معنا المجالس عند اهل العلم بها ، وكان رجلاً حافظاً ناقداً في الفقه والحديث ؛ وقرأت عليه بعض تفسيره للموطأ واجاز لي سائره وسائر ما رواه . قال ابو عمر توفي ببونة ؛ وذكره الحميدي فقال : كان فقيهاً محدثاً وله كتاب كبير شرح فيه الموطأ : مات قبل الاربعين واربعمائة .

الحسن بن علي التيهرتي

٥٠١ هـ ــ ١١٠٨ م

هو العلامة اللغوي الامام النحوي الحسن بن علي بن طريف التيهرتي تخرج على أئمة علماء الاندلس وكبار اساتذتها في القرن الرابع الهجري ، وكان فيمن اخذ عنهم الحجاج بن المأمون وابن سعدون ومروان بن عبد الملك والقاضي بن سهل وابو محمد بن قحافة وابو تمام القطبي وغيرهم . وعنه اخذ علامة المغرب ابو الفضل القاضي عياض وذكره في فهرسته واثنى عليه فقال : شيخ بلدنا في النحو مشهور بالصلاح درس عمره النحو واخذ عنه جماعة اصحابنا وجماعة شيوخنا توفي رحمه الله تاسع ذي الحجة سنة احدى وخمسمائة (٨ جوليط ١١٠٨ م) .

يوسف الورجلاني

٥٠٠ ــ ٥٧٠ هـ

١١٠٦ ــ ١١٧٤ م

هو العلامة المتبحر ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني ، ولد بمدينة ورجلان ــ وارقلة ــ بالجنوب الجزائري حوالي سنة ٥٠٠ هـ ــ ١١٠٦ م اخذ

العلم ببلده ثم ارتحل عنها الى الاندلس طالباً الاستزادة فدخل قرطبة حاضرة العلم يومئذ فكان هنالك بين المثقفين مثالاً للنبوغ النادر والادب الجم والاطلاع الواسع والعلم الغزير حتى كان الاندلسيون مع حداثة سنة يشبهونه بالجاحظ ، ثم عاد الى وطنه وجدد منه الرحلة ايضاً الى المشرق فدخل عواصمه العلمية اللامعة وتضلع فيها بجميع ما كان متعارفاً مشهوراً في وقته من العلوم الاسلامية معقولها ومنقولها ، واكثر من الرحلة في سبيل العلم فتوغل في اواسط افريقية حتى بلغ الى قريب من خط الاستواء قبل ما تبجح باكتشافه الاوروبيون بقرون ! ...

ذكر ذلك بنفسه في كتابه الجليل الجامع « الدليل لاهل العقول » وهو أحد كتبه الممتعة ، طبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م ، ولما عاد من رحلته لازم داره بورقلة منكباً على الدرس والتأليف مكرساً حياته لخدمة العلم ونشر الثقافة الاسلامية ، فلم يخرج من داره مدة سبعة أعوام ؛ ولم يكن يرى فيها كما قال الشماخي الا ناسخاً ، وللاقلام بارياً ، وللدراسة فاعلاً ، أو للحبر طابخاً ، أو للدواوين مقابلاً ، أو للكتب مفسراً ...

وللشيخ من التآليف تفسير القرآن يقع في سبعين جزءاً ، وصف البرادي جزءاً منه فقال : رأيت منه في بلاد ريغ سفراً كبيراً لم أرَ ولا رأيت قط سفراً أضخم منه ولا أكبر منه ، حررت انه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر ، فيه تفسير فاتحة الكتاب والبقرة وآل عمران ... فلم أرَ ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه الخ ... يقال انه يوجد من هذا التفسير اليوم جزء واحد باحدى خزائن رومة عاصمة ايطاليا ، كما ان له في التاريخ كتاب يسمى « فتوح المغرب » يوجد بخزائن المانيا ؛ وله كتاب « العدل والانصاف » في اصول الفقه يقع في ثلاثة أجزاء ؛ والقصيدة الحجازية نظم فيها رحلته العلمية الى تلك الديار تقع في ٣٥٠ بيتاً جمع فيها

كثيراً من فنون العلم ، وكتاب « مروج الذهب » في الفلسفة ترجم الى أكثر لغات أوروبا نظراً لاهميته ؛ واشتهر له في خدمة كتب الحديث « ترتيب مسند الربيع بن حبيب » وما رأيت له من كتبه المطبوعة سوى كتاب الدليل الذي جمع فيه فنوناً من الحكمة والفلسفة والالهيات وعلم الكلام والمنطق والهندسة ومناقشة المذاهب والتفسير الخ ... فهو أشبه بصورة مصغرة لدائرة معارف اسلامية . وتوفي رحمه الله بمسقط رأسه « وارجلان » سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م .



جدول تاريخي

٤٧٢ ـ ٥٣٩ هـ = ١٠٧٩ ـ ١١٤٥ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م	استيلاء المرابطين على غرب القطر الجزائري .
٤٧٥ هـ = ١٠٨٢ م	عودة يوسف بن تاشفين من الجزائر الى حاضرة مراكش .
٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م	وفاة يوسف بن تاشفين .
٥٠١ هـ = ١١٠٨ م	وفاة الحسن بن علي التيهرتي شيخ القاضي عياض .
٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م	نهاية حكم المرابطين بالجزائر (٢٩ رمضان ـ ٢٦ مارس) .
٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م	وفاة يوسف الورجلاني .

المحتويات

صفحة	
٧	تقديم
١٢	رفع الكتاب
١٣	اهم مصادر الكتاب ومراجعه
١٤	طائفة من آراء مشاهير علماء الشرق والغرب في التاريخ
٢٣	ما هو التاريخ
٢٦	فيما يتعلق بالتاريخ
٣٠	اشهر سني ابتداء التاريخ
٣٢	جغرافية القطر الجزائري
٤٢	ما قبل التاريخ
٤٨	البربر
٦٦	الدولة الفينيقية
٨٢	مشاهير ملوك الوطن الجزائري
٨٣	من مشاهير الجزائر
٨٥	الدولة الرومانية
١١٣	مشاهير ملوك الوطن الجزائري
١١٤	اباطرة الدولة الرومانية
١١٧	من مشاهير الجزائر
١٢١	جدول تاريخي
١٢٢	الدولة الفاندالية
١٢٩	ملوك الفاندال بافريقية
١٣٠	جدول تاريخي

صفحة

١٣١ الدولة البيزنطية
١٤٢ مشاهير ملوك الوطن الجزائري
١٤٣ اباطرة الدولة البيزنطية
١٤٤ من مشاهير الجزائر
١٤٥ جدول تاريخي
١٤٨ الأمة العربية
١٥٦ العرب في شمال افريقية
١٦٠ فتح افريقية
١٧٥ امراء افريقية وحكامها
١٧٦ الخلفاء
١٧٧ جدول تاريخي
١٧٨ مواصلة الفتح
١٩٣ ملوك الوطن الجزائري
١٩٥ امراء افريقية وحكامها
١٩٦ الخلفاء الامويون
١٩٧ من مشاهير الجزائر
٢٠٠ جدول تاريخي
٢٠١ الخوارج بافريقية
٢١٢ امراء افريقية وحكامها ـ الامويون
٢١٣ الخلفاء الامويون
٢١٤ امراء افريقية وحكامها ـ العباسيون
٢١٥ الخلفاء العباسيون
٢١٦ من مشاهير الجزائر
٢١٨ جدول تاريخي
٢١٩ الدولة الرستمية
٢٤٠ ائمة الدولة الرستمية

صفحة

٢٤١ من مشاهير الجزائر
٢٤٤ جدول تاريخي
٢٤٥ الدولة الادريسية
٢٥٦ أئمة الدولة الادريسية وخلفاؤها
٢٥٧ من مشاهير الجزائر
٢٥٨ جدول تاريخي
٢٥٩ الدولة الاغلبية
٢٧٧ امراء الدولة الاغلبية
٢٧٨ من مشاهير الجزائر
٢٨٠ جدول تاريخي
٢٨١ الدولة العبيدية « الفاطمية »
٣١٣ الخلفاء العبيديون بالمغرب
٣١٥ من مشاهير الجزائر
٣١٩ جدول تاريخي
٣٢٠ الدولة الزيرية « الصنهاجية »
٣٥٧ امراء الدولة الزيرية الصنهاجية
٣٥٨ من مشاهير الجزائر
٣٦٢ جدول تاريخي
٣٦٣ الدولة الحمادية
٣٩٧ ملوك الدولة الحمادية
٣٩٨ من مشاهير الجزائر
٤٠١ جدول تاريخي
٤٠٣ الدولة المرابطية
٤١٣ امراء المرابطين
٤١٤ من مشاهير الجزائر
٤١٨ جدول تاريخي